

محمد المويلحي

حديث عيسى بن هشام

حديث عيسى بن هشام

أو فترة من الزمن

تأليفمحمد
المويلحي

حديث عيسى بن
هشاممحمد المويلحي

رقم إيداع ٢٠١٣/١٤٠٧١٠تدمك:
٩٧٨٩٧٧٧١٩٢٦٤٤
كلمات عربية للترجمة والنشر
جميع الحقوق محفوظة للناشر كلمات عربية للترجمة والنشر(شركة ذات مسئولية محدودة)
إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكارهوإنما يعبّر الكتاب عن آراء مؤلفهص.ب.٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرةجمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + فاكس: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥١ +البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.orgالموقع الإلكتروني: http://www.kalimat.org
الغلاف: تصميم سحر عبد الوهاب.
جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لشركة كلمات عربيةللترجمة والنشر. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكيةالعامة.
Cover Artwork and Design Copyright © 2013 Kalimat Arabia. All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

إهداء الكتاب

ألفَ المؤلفون والكتاب أن يبدأوا كتبهم عند نشرها بإهدائها إلى بعض ذويالشأن والفضل، والضعيفُ العاجز يهُدي هذا الكتاب إلى كل مَنْ يقرؤه: منأديبٍ يجد فيه طَرفًا من الأدب، وحكيمٍ يرى فيه لمحةً من الحكمة، وعالمٍ يبصرفيه شذرةً من العلم،ٍ ولغوي يصادف فيه أثرًا من الفصاحة، وشاعرٍ يشعر فيهبمثل طيف الخيال من لطف الخيال.

وأهُديه إلى أرواح المرحومين: الأديب الوالد، والحكيم جمال الدين، والعالممحمد عبده،ٍ واللغوي الشنقيطي، والشاعر البارودي، أولئك الذين أنعم اللهعليهم،َ وأولئك الذين تأدبتْ ُ بأدبهم وأخذتُ بهديهم.

وأهُدي هذه الرسالة التي اختصني بها المرحوم الأستاذ جمال الدين الأفغانيِّ بخطه الكريم منذ خمس عشرة سنة إلى جماعة أهل الفضل والأدب؛ لمَا تضمنتهمن الحَ ِث على طلب العلم وأدب النفس، ولحسنِ َ أسلوبها في كتب المودات،وهي لا تزال عندي إمامًا يهديني ونورًا أستضيء به فأردت أن أشاركهم فيهذه الذخيرة التي يحق الضنّ بها والحرص عليها، ونقلتها هنا بصورة خطهالشريف تخليدًا لأثر تلك اليد الكريمة،َ وإذا قدرنا أن الشرقيين يتنافسون تنافسالغربيين في اقتناء الرسائل التي تكون قد صدرت عن بعض عظماء الرجالبخطوطهم، ويتسابقون إلى الحصول على بعض أدوات كتابتهم، ويبذلون فيسبيل ذلك من الأموال والمساعي ما لا يقُ َ َ در، فإني أكون قد أهديت إلى أهلُّ الفضل هدية يعتدون بها ويتقبلونها بالقبول الحسن إن شاء الله.

حديث عيسى بن هشام



صورة من خطاب جمال الدين الأفغاني بخط يده.

حبيبي الفاضل

ُّ تقلبك في شؤون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حسرتها،وخوضُك في فنون الآداب يريح قلوباً عَ ًلقت بك آمالها،

وليس بعدالإرهاص إلا الإعجاز[1] ولك يومئذٍ التحدي، ولقد تمثلت اللطيفة

ّ َ الموسوية في مصر كرةً أخرى، وهذا توفيق من الله تعالى، فاشدُدْأزرَها وأبرم بما أوتيتَ من الكياسة والحذق أمرها، حتى تكون كلمةالحق هي العليا، ولا تكن كالذين غرتهم أنفسُهم بباطل أهوائها،وساقتهم الظنون إلى مهواة شقائها، وحسبوا أنهم يحُسنون صنعًا،ويصلحون أمرًا، وكُن عوناً للحق ولو على نفسك، ولا تقف في سيركإلى الفضائل عند عُجبك، لا نهاية للفضيلة، ًّولا حد للكمال، ولا موقفللعرفان، وأنت بغريزتك السامية أولىَ بها من غيرك والسلام.

[1] الإرهاص: الخارق للعادة الذي يظهر من النبي قبل أن يبعث.

جمال الدين الحسيني الأفغاني

مقدمة الطبعة الرابعة

بقلم محمد المويلحي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الواحد العدل، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي القرشي الأبطحيالتهامي المكي المدني وآله الطيبين الطاهرين، وبعد فهذا الحديث — حديث عيسى بنهِشَام — وإن كان في نفسه موضوعًا على نسق التخييل والتصوير فهو حقيقة متبرجّةفي ثوب خيال، لا أنه خيال مسبوك في قالَب حقيقة، حاولنا أن نشرح به أخلاق أهلالعصر وأطوارَهم، وأن نصف ما عليه الناس في مختلَف طبقاتهم من النقائص التييتعين اجتنابها، والفضائل التي يجب التزامها، وهذه الطبعة الرابعة بعد نفاد الطبعةالثالثة تعهدناها أيضًا بما تقتضيه معاودة النظر من إصلاح مواضع النقص والإهمال،ومداركة ما لا يخلو منه كل عمل من شائبة السهو والإغفال، ومِنَ الله التوفيق لكل حال،والتسديد في كل مقال وفعال.

العبرة

حدثنا عيسى بن هشام، قال: رأيت في المنام كأني في صحراء »الإمام« أمشي بين القبورِّ والرجام،[2] في ليلة زهراءَ قمراء يستر بياضُها نجومَ الخضراء،[3] فيكاد في سنا نورها ينظم

ّ الدر ثاقبهُ ويرقب الذرّ راقبهُ، وكنت أحدّث نفسي بين تلك القبور، وفوق هاتيك الصخور،بغرور الإنسان وكبره، وشموخه بمجده وفخره، وإغراقه في دعواه، وإسرافه في هواه،واستعظامه لنفسه، ونسيانه لرَمسِه، فقد شمخ المغرور بأنفِه حتى رام أن يثقب بهالفلك، استكبارًا لما جمع واستعلاءً بما ملك، فأرغمه الموت فسدّ بذلك الأنف شقا في لحده،بعد أن وارى تحت صفائحه صحائف عزه ومجده،[4] وما زلت أسير وأتفكر، وأجُولوأتدبر، حتى تذكرتُ في خُطاي فوق رمال الصحراء، قول الشاعر الحكيم أبي العلاء:

خ ففِ الوطءَ ما أظن أديم الـ أرض إلا م ن هـ ذه الأج س ادوق ب
ي حُ ب ن ا وإن ق دُم ال ع هـ ..د هـ وان الآب اء والأج دادسر إن
اسطعتَ افي الهواء رويدً لا اختيالاً على رُفات العبادفقرعت سن
الندم، وخففتُ وطء القدم، وإن في دهماء أولئك الأموات، وغُمار
تلكالرمم والرفات، لمبسمٍ طالما حول العاشق قبلته لقُبلتها،

---

[2] الرجام، جمع رجم وهو القبر.

[3] الخضراء: السماء.

[4] الصفائح: حجارة القبور.

وباع عذوبة الكوثر بعذوبتها،قد امتزجت بغبار الغبراء، واختلطت
ثناياها بالحصى والحصباء.[5]

وتذكرتُ أن تلك الخدود التي كان يغار منها الورد فيبكي بدموع الندى، ويشتعلالفؤاد منها بنار الجوَى، ويقف الخال منها موقف الخليل من النيران، أو ابن ماء السماءفي شقائق النعمان،[6] ويترقرق فيها ماء الحياء وماء الشباب، قد طوَى الدهرُ حسنها طيّالكتاب، وصارت بحكم القضاء، أديمًا لوجه الفضاء.

وأن تلك العيون التي صادت بأهدابها الملوكَ الصيد،[7] فكانوا رعاة الأمم رعايا الغيد،وسحرت ببابلَ هاروت وماروت،ً ووقفت موقف الاستكانة رب الجلال والجَبروت، يلتمس— والتاجُ في يمينه، وعرق الحياء فوق جبينه — من خلال لحظاتها قبولاً،ً كسائل يمدلالتماس الإحسان كشكولاً، قد أمست تراباً تحت الرمس،[8] كأن لم تفَتن بالأمس.

وأنّ ذلك الفاحم الأثيث من الشّعَر،[9] الخاطف ببريقه سواد القلب والبصر، قدحصدته من منابته يد الزمن، فنسج الأجل منه ثوب الكفن.

وأن تلك النهود التي كأنها حِقاق من لجين تزينت بحَب من المرجان،[10] أو كُراتمن جليد بثَقَ فيها زهرٌ من الرمان، قد أصبحت كالمخلَاة على الصدر، تحمل الزاد لدودالقبر.

---

[5] الحصباء: صغار الحجارة واحدتها حصبة.

[6] ابن ماء السماء: هو ابن المنذر وكان أسود، وشقائق النعمان: زهر أحمر.

[7] الصيد: جمع أصيد، وهو الملك المتكبر الزاهي.

[8] الرمس: القبر.

[9] شعر أثيث: كثير عظيم.

[10] اللجين: الفضة.

ك م ص اﺉ نٍ ع نق ب ل ة خ ًده س ل ط ت الأرض ع ل ى
خ ٍدهوح ام لٍ ث ق ل ال ث رى ج ي دُهُ وكان يشكو الضعفَ من
عقده

العبرة

وأن تلك الرفات والعظام، من بقايا الملوك العظام، الذين كانوا يستصغرونالأرض دارًا، ويحاولون عند النجوم جوارًا، وتلك الضلوع التي انحنت على البطشوالحلم، والشفاه التي طالما لفظت أمر الحرب والسلم، وتلك الأنامل التي كانت تبَريالقلم للكتاب، وتبري بالسيوف الرقاب، وتلك الوجوه والرءوس التي استعبدت الأبدانوالنفوس، ووصفت تارة بالبدور وتارة بالشموس، قد تساوى الرئيس فيها بالمرؤوس،فلا تفريق اليوم ولا تمييز، بين الذليل منها والعزيز.

هو الموتُ ُمثْرٍ عنده مثِل ُمقِ ْ ترٍ وق اص دُ ن هـ ج م ث ل آخ ر ن اك ب
ودرعُ الفتى في حكمه درعُ غادة وأبياتُ كسرى من بيوت العناكب
فرُ ٍجل في غبراء والخطب فارسٌ[10] وما زال في الأهلين أشرف راكب
وما النعشُ إلا كالسفينة راميًا بغَ رقاه في بحر الردَى المتراكب

وبينا أنا في هذه المواعظ والعبر، وتلك الخواطر والفكر، أتأمل في عجائب الحدثان،وأعجب من تقلب الأزمان، مستغرقًا في بدائع المقدور، مستهدياً للبحث في أسرار البعثوالنشور، ًإذا برجة عنيفة من خلفي، كادت تقضي بحتفي، ٌفالتفت التفاتة الخائفالمذعور، فرأيت قبراً انشق من تلك القبور، وقد خرج منه رجلٌ طويل القامة، عظيمالهامة، عليه بهاءُ المهابة والجلالة، ورُواء الشرف والنبالة،[11] فصُعقت من هول الوَهَلوالوجل،[12] صعقةَ موسى يوم دُك الجبل، ولما أفقتُ من غشيتي، وانتبهت من دهشتي،أخذت أسرع في مشيتي، فسمعته يناديني، وأبصرته يدانيني، فوقفت امتثالاً لأمره، واتقاءًلشره، ثم دار الحديث بيننا وجرَى، على نحو ما تسمع وترى، بالتركية تارة والعربيةأخرى:

الدفين: ما اسمك أيها الرجل، وما عملك، وما الذي جاء بك؟

10 فارس: بمعنى مفترس.

11 الرواء: حسن المنظر.

12 الوهل: الفزع.

(فقلت في نفسي: ٍحقا إن الرجل لقريب العهد بسؤال الملَكَين، فهو يسأل علىأسلوبهما، فاللهم أنقذني من الضيق، وأوسع لي في الطريق لأخلصُ من مناقشةالحساب، وأكتفي شر هذا العذاب، ٌثم التفت إليه فأجبته:)

عيسى بن هشام: اسمي عيسى بن هشام، وعملي صناعة الأقلام، وجئت هنا لأعتبربزيارة المقابر، فهي عندي أوعظ من خطب المنابر.

الدفين: وأين دواتك يا معلم عيسى ودفترك؟

عيسى بن هشام: أنا لست من كُتّاب الحساب والديوان، ولكني من كتاب الإنشاءوالبيان.

الدفين: لا بأس بك، فاذهب أيها الكاتب المنشئ فاطلب لي ثيابي وليأتوني بفرسي »دَحمان.«

عيسى بن هشام: وأين يا سيدي بيتكم فإني لا أعرفه؟

الدفين (ٍمشمئزا): قل لي بالله من أي الأقطار أنت، فإنه يظهر لي أنك لست منأهل مصر؛ إذ ليس في القطر كله من أحد يجهل بيت أحمد باشا المنيكلي ناظر الجهاديةالمصرية.

عيسى بن هشام: اعلم أيها الباشا أنني رجل من صميم أهل مصر، ولم أجهلبيتك إلا لأن البيوت في مصر أصبحت لا تعرف بأسماء أصحابها، بل بأسماء شوارعهاوأزقتها وأرقامها، فإذا تفضلت وأوضحت لي شارع بيتكم وزقاقه ورقمه انطلقتُ إليهوأتيتك بما تطلبه.

الباشا (مغضباً): ما أراك أيها الكاتب إلا أن بعقلك دخلًا، فمتى كان للبيوت أرقامتعُرف بها! وهل هي »إفادات أحكام« أو »عساكر نظام«؟ والأولى أن تناولني رداءكأستتر به وتصاحبني حتى أصل إلى بيتي.

قال عيسى بن هشام: فنزلت له عن ردائي[11] وقد كان المعهود أن سلب المارة لايكون إلا من قطاع الطريق فإذا هو أيضًا من سكان القبور، ثم ارتداه مستنكفًا مترددًاوهو يقول:

العبرة

الباشا: للضرورة أحكام، وقد لبسنا أدنى من هذا الرداء في مصاحبتنا لأفنديناالمرحوم إبراهيم باشا على طريقة التنكر و»التبديل« في الليالي التي كان يقضيها في البلد؛ليستطلع بنفسه أحوال الرعية، ولكن كيف العمل وكيف يتسنّ الدخول؟عيسى بن هشام: ماذا تريد؟

الباشا: أنسيتَ أننا في الثلث الأخير من الليل، وليس من يعرفني بهذا الرداء علىأبواب مصر، ولم يكن معي كلمة »سر الليل« فكيف تفُتح لنا الأبواب؟

عيسى بن هشام: كما أنك يا سيدي لم تعرف أرقام البيوت، ولم تسمع بها فيحياتك فأنا لا أعرف »سر الليل« ولم أسمع به.

الباشا (مستهزئاً ضاحكًا): ألم أقل لك: إنك غريب الديار، ألم تعلم أن »سر الليل«كلمة تصدر من القلعة في كل ليلة إلى »الضابطة« وإلى جميع »القره قولات« والأبوابفلا يجيزون لأحد مشيَ الليل إلا إذا كان حافظًا لهذه الكلمة يلقيها في أذنُ البواب فيفتحلهُ، وهي تعُطى لمن يطلبها من الحكومة سرا لقضاء أشغاله بالليل، وتتغير في كل ليلة،فليلة تكون كلمة »عدس« وليلة تكون »خضار« وليلة تكون »حمام« وليلة تكون »فراخ«

ٍّوهلم جرا.

[11] الرداء، ما يلبس فوق الثياب كالعباءة.

عيسى بن هشام: يظهر لي من كلامك هذا أنك لست أنت من أبناء مصر؛ فما علمناأن هذه الألفاظ تطلق فيها على غير الأطعمة، ولم نسمع أنها تدل على الإجازة للناسبالسير في ليلهم، على أن الفجر قد دنا، ولم يبق بنا من حاجة لهذه الكلمات ولا لغيرها.

الباشا: الأمر في ذلك موكول إليك.

قال عيسى بن هشام: فسرنا في طريقنا وأخذ الباشا يزيدني تعريفًا بنفسه، ويقصعليَّ من أنباء الحروب وأخبار الوقائع التي شاهدها بعينه وسمعها بأذنه، ويذكر لي ماشاء من مآثر »محمد علي« وشجاعة »إبراهيم.«

وما زلنا على تلك الحال حتى وصلنا في ضوء النهار إلى ساحة القلعة، فوقف وقفةالمستكن الخاشع يقرأ سورة الفاتحة لضريح محمد علي، ويخاطب القلعة بقوله في بلاغةتركيته:

> إيه لكِ يا مصدرَ النِّ عم ومصرع الجبابرة من عُتاة المماليك، ويا بيت المُلكوحصن المملكة ومنبع العز ومهبط القوة ومُرتفع المجد وموئل المستغيثوحمَى المحتمي وكنز الرغائب ومنتهى المطالب ومثوى البطل الشهم ومَقبرالملك الهمام، أيها الحصن كم فككت بالكرم عانياً. وقيدت بالإحسان عافياً،وكم أرغمتَ أنوفًا، وسللت سيوفًا، وجمعت بين البأس والندى، وداورت بينالحياة والردى.

قال عيسى بن هشام: ثم التفت الباشا إليَّ وقال: أسرع بنا نحو البيت لألبس ثيابيوأتقلد حسامي وأركب جوادي، ثم أعود إلى القلعة فألثم أذيال وليّ النعم الداوري الأعظم.

الشرطة أو البوليس

ولما غادرنا ساحة القلعة انحدرنا في الطريق، وبينا نحن نسير؛ إذ تعرض لنا مُكاريسوق حماره وقد راضه الخبيث على التعرض وسد الطريق على المارة، فكلما سرناوجدنا الحمار في وجهتنا والمكاري ينبح بصوت قد بحَّ حتى أمسك بذيل صاحبي يقولله:

المكاري (للباشا): اركب يا أفندي فقد عطلتني وأنا أسير وراءك منذ ساعتين.

الباشا (للمكاري): كيف تدعوني أيها الشقي إلى ركوب الحمار وما رغبتُ فيه قط،وما دعوتك في طريقي! وكيف لمثلي أن يركب الحمار الناهق، مكان الجواد السابق!

المكاري: وكيف تنكر إشارة يدك التي دعوتني بها، وأنت تتكلم مع صاحبك فيطريق »الإمام«، وقد دُعيت مرارًا من السائرين فلم أقبل منهم، ولم ألتفت إليهم لارتباطيمعك بتلك الإشارة، فاركب معي أو أعطني أجرتي.

الباشا (وهو يدفع المكاري بيده): اذهب عنا أيها السفيه فلو كان سلاحي معيلقتلتك.

المكاري (متسافهًا في القول): كيف تجسر على هذا الكلام!؟ فإما أن تعطيني أجرتيوإما أن تذهب معي إلى »القسم« وسترى هناك ما يعاقبونك على تهديدك إياي بالقتل.

الباشا (لعيسى بن هشام): إني لأعجب من صبرك على هذا الفلاح السفيه الذياسترسل معنا في سفاهته ووقاحته، فهلمّ فاضربه بالنيابة عني حتى تريحه من عيشتهوتريحنا منه.

(عيسى بن هشام:) كيف يكون ذلك وأين القانون وأين الحكام؟

الباشا:ً ما لي أراك قد شق الخوف قلبك وقطع الهلع أنفاسك، أيعتريك الخوفوأنت معي، إن هذا لعجيب منك!

المكاري (مستهيناً): العفو! العفو! من أنت ومن غيرك، ونحن في زمن الحرية لافرق بين الصغير والكبير، ولا تفاوت بين المكاري وبين الأمير.

الباشا (لعيسى بن هشام): ويحك هلم فاضربهُ أو دعني أقتله.

عيسى بن هشام: أنا لا أضرب أحدًا وأنت لا تقتل أحدًا ما دمت معي، واعلم أنهلا تصدر منا »مخالفة« أو »جنحة« أو »جناية« إلا والعقاب من ورائها، فلا تعجب منطول صبري واحتمالي، وأقول لك ما قاله الخضر لموسى عليه السلام:﴿إِنَّ كَ لَن تسْتطِيعَمَعِيَ صَبْراً * وَكَيفْ تصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تحِطْ بِهِ خُبْراً﴾، والطريقة للتخلص من سفاهةهذا السفيه أن أعطيه شيئاً من الدراهم فيتحول عنا إلى سوانا، وأنا أسأل الله أن يبلغنابيتك بالسلامة.

الباشا: لا تعط هذا الكلب النابح درهمًا واحدًا، وقد أمرتك أن تضربه، فإن لمتفعل فأنا أتنزل إلى ضربه وتأديبه، والفلاح لا يصلح جِلْدُهُ إلا بجَلْدِه.

قال عيسى بن هشام: ثم أمسك الباشا بعنق المكاري وأوسعه ضرباً، وأخذ المكارييستغيث وينادي: يا »بوليس« يا »بوليس«، وأنا أجتهد في إنقاذه من مخالبه وأستعيذبالله من شر هذا اليوم، وأقول للباشا: ليس هذا مما يحُمد عقباه، فاتَّ ق الله أيها الأميرفي عباد الله، فما أتممت هذا القول حتى رأيته اشتد به الغضب وتغلبت عليه الحدةفتغير وجهه، وانقلبت حَماليقه، وتقلصت شفته واتسع منخره وضاقت جبهته، فخفتأن يحمله جنون الغضب على البطش بي مع المكاري فتداركت أمري وقلت له: مثلك —أدام الله عزك — لا يتنزل لمثل هذا الفعل، فأنت أرفع قدرًا من أن تمس بيدك الشريفةمثل هذه الجيفة،ً فسكنت بذلك من حدته، وعمدت إلى المكاري فوضعت في يده دُريهماتعلى غير علم من الباشا وطلبت إليه أن ينصرف عناّ، فما ازداد اللئيم بذلك إلا استغاثةبالشرطة واستنجادًا بالبوليس.

الباشا (لعيسى بن هشام): ألم أقل لك إن الفلاح لا يصلحه إلا الضرب! ألم تعلم أنغاية ما ينتهي إليه أمره في رفع الألم عنه أن يعلو صياحه استغاثةً بالمشايخ والأولياء!

ولكن قل لي بالله، هل »بوليس« هذا الذي يناديه ويستغيث به وليٌّ جديد؟

الشرطة أو البوليس

عيسى بن هشام: نعم إن هذا البوليس هو وليّ الأمر احتلت فيه القوة الحاكمة.

الباشا: لست أفقه هذا المعنى، فأوضح لي حقيقة هذا البوليس.

عيسى بن هشام: هو »القواس« الذي تعرفه.

الباشا: وأين هذا » ِ القواس« الذي لا يسمع النداء،َ فإني أرغب في حضوره ليتلقأمري في هذا الشقي.

المكاري: يا بوليس! يا بوليس!

الباشا (لعيسى بن هشام): »ّّ َ هلم إلى مساعدته في نداء القواس«.

قال عيسى بن هشام: فقلت في نفسي: كيف أنادي البوليس وأنا أحمد الله على سكوتهوسكونه، وهو بمقربة منا لا يكترث بنداء المستغيث،ُ ثم التفت إلى الباشا وقلت له: إنالبوليس هو الذي تراه أمامنا وليس يفيد فيه الآن صياحٌ أو نداء فإنه مشتغل ببائعالفاكهة كما ترى، ولما لمح المكاري البوليس أمامه أسرع إليه وتبعَ َه من تجمع حولنا منَّ النظارة، فوجدوه واقفًا، وفي يده منديل أحمر قد امتلأ بأصناف متنوعة مما جمعه فيصباحه من باعة الأسواق في محافظته على »النظام«، وهو لاهٍ بصاحب الدكان يأمره أنيضع في داخلها ما عرضه في خارجها من »عيدان القصب«، وفي يده عود منها يهددهً به ويهزه في وجهه هزة الرمح، ثم هو يضاحك من جهة أخرى طفلًا على كتف امرأةويناغيه، حتى إذا أقبلنا نحوه أقبل علينا والمنديل في يد »وعود القصب في الأخرى.«

البوليس (للجمع): ما هذا الصياح في الصباح، وما هذا النداء وما هذا العناء، كأنكل واحد من الأهالي يجب أن يكون له واحد من البوليس خاص بخدمته!

المكاري: أغثْني »يا سعادة الجاويش« فإن هذا الرجل ضربني ولم يعطني أجرتي،وأنت تعرفني في هذا »الموقف« وتعرف أنني لست ممن يتشاجر أو يتخاصم.

الباشا: خذ أيها القواس هذا السفيه وضعْهُ في السجن حتى يأتيك أمري فيه.

البوليس للمكاري: من أين ركب معك هذا الرجل »يا مُرسي« ؟المكاري: ركب معي من جهة »الإمام.«

الباشا للبوليس: ما هذا الإبطاء في تنفيذ أمري! أسرع به إلى السجن.

البوليس (ضاحكًا هازئاً): أظنك أيها الرجل من »مجاذيب الحضرة« في »الإمام«هلمّ معي إلى القسم، فإن هيئتك تنبئ عن إفلاسك وعجزك عن دفع الأجرة.

قال عيسى بن هشام: وجَذَ ۶ب الشرطي صاحبي من ذراعه، فكاد يغُمى عليه منالدهشة فلم يدر ما يصنع، وأودع البوليس ما كان في يديه من الفاكهة وغيرها عندالرجل الذي أودع المكاري حماره عنده، وسار صاحبي مسحوباً بذراع الشرطي، والمكاريخلفهما، والجمع على أثرهم إلى »القسم«، ۶فلما وصلوا إليه وصعدوا السلم بدأ المكارييصَرخ ويصيح، فقابله أحد عساكر »المراسلة« فضربه ليسكته؛ لأن »حضرة المعاون«غريق في نومه، فدخلنا جميعًا في حجرة » ۶ الصول« لضبط الواقعة فوجدناه يأكل والقلمفي أذنه وقد نزع »طربوشه« وخلع نعليه وحلّ أزرار ثيابه. وبجانبه اثنان من الفلاحين،أظنهما من أقربائه، يشاهدان ما يتمتع به من لذة الأمر والنهي وسعَة سلطانه علىالكبير والصغير في عاصمة القطر وقاعدة المُلك، وما في قدرته من حبس أي شخص كائناًمن كان وشهادته عليه بما يجري في هواه، فطَرَدَناَ جميعًا من الحجرة حتى ينتهي منطعامه، فخرجنا ننتظر، ّّ َ وأراد الباشا أن يستند على الجدار من شدة ما ألم به من الحزنفخانته يده فسقط فوق جنديّ كان يكنس الأرض هناك، فأخذ الجندي في السب والشتمودخل إلى حجرة »الصول« هاجمًا فقال له: ّ إن المتهم الذي يشتكي منه المكاري تعدىعليَّ »في أثناء تأدية

وظيفتي« فضربني بكل جسمه، فأمر »الصول« بإحضاره ونادىكاتبهُ العسكري، فطلب منه أن يحرر »محضَرَين« محضر مخالفة ومحضر جنحة، وأملىعليه كلامًا مصطلحًا عليه لم أفهم منه حرفًا، وبعد أن شهد »البوليس« الذي جئنا معهفي محضر المخالفة بما ينفع المكاري في تأييد دعواه، وشهد »الصول« نفسُهُ في محضرالجنحة بأنه شاهد المتهم يتعدى على أحد عساكر القسم في أثناء تأدية وظيفته، ختمالمحضَرَين وأمر بالمتهم أن يؤُخذ إلى »خشبة المقاس« وتحرير »ورقة التشبيه«، فجاءالعسكري صاحبُ الدعوى وأخذ بيمين صاحبي وأجرى ذلك عليه بنفسه وأذاقه أنواعًامن الأذى في مقاسه، كل هذا والباشا كالمغشي عليه من الدهشة والذهول، حتى إذا أفاقمن غشيته التفتَ إليَّ يقول:

الباشا: أنا لا أتصور في هذه الحالة التي أنا عليها إلا أن يكون اليوم يوم حشر،أو أن أكون حالمًا في المنام، أو أن يكون الداوريّ الأعظم غضب عليَّ غضباً شديدًا فأمربإهانتي على هذه الصورة الشنيعة.

الشرطة أو البوليس

عيسى بن هشام: ٍّلا بد لك من التسليم والاحتمال على كل حال حتى نخلص منهذه النازلة بسلام.

قال عيسى بن هشام: ولما وقفنا أمام الكاتب لتحرير »ورقة التشبيه« سأل الباشاهل له من ضامن يضمنه، ٍّفقدمت نفسي لضمانته فلم يقبلوا مني إلا بتصديق »شيخالحارة« فحرتُ في أمري، ومن أين أجد »شيخ الحارة« في الحال؟ فألقى بعض العساكرفي أذني أن اخرج فإنك تجد »شيخ الحارة« بالباب فأعطه عشرة قروش للتصديق علىالضمانة، فخرجت ولحقَني ذلك العسكري فدلني على شيخ الحارة وتوسط بيننا فيمناولة أجرة التصديق، ثم اشتغل عني بمشاركة العساكر في ضرب أرباب القضايا الذينعلا صياحُهم وعويلهُم ليخرسوهم خشية أن يوقظوا المعاون من رقاده، ثم ما لبثوا أنرأيتهم قد امتنعوا عن الضرب في أقلّ من لمح البصر وتفرقوا مُهرولين كأن نازلاً نزلعليهم من السماء، ووجدت مَنْ كان من بينهم أشد إيذاءًً لعباد

الله وأعظم حرصًا علىراحة المعاون في منامه قد هجم على باب الحجرة، فدفعه بكل قواه ففتحه وأخذ يهزُّالسرير هزا عنيفًا، فاستيقظ المعاون فزعًا، وعلمَ أن »المفتش« قد شوهد داخلًا من بابالقسم، فأسرع إلى ثيابه فلبسها في لحظة وهروَلَ إلى استقباله، فلما رآه وقف »وقفةالنظام«، ولكن كان من نكد طالعه أنه ذهل عند لبس »الطربوش« ـ فلم يجعل زره جهةاليمين بل تركه فوق الجبهة،ـ وكان الشعر قد تجدد في عارضيه؛ لأنه لم يتمكن منحلقه في يومه، فأخذ المفتش عليه ذلك ودخل إلى الحجرة مُغضباً فاشتغل بكتابة تقريرلمحاكمة المعاون على مخالفته في الزي »للأوامر المستديمة.«

ولما رأى الباشا سكون الضرب والصياح مرةً واحدة،ـ وما تولى العساكر من الخوفوالاضطراب، وما شاهده من حركات المعاون، سألني عن شأن هذا الداخل الذي أورثذلك الانقلاب، فأعلمته بأنه »المفتش« جاء إلى »القسم« للتفتيش والتنقيب في »الأحوال«والنظر في شكوى الشاكين، وتطبيق أعمال العمال على ما يقضي به القانون والنظام،فقال: إذًا فلندخل إليه لنعرض عليه ما أصابنا من الإهانة، فدخلنا فوقفنا أمامه فوجدناهيكتب في تقريره، فالتفت إلينا وسألنا عن أمرنا، ولما بدأنا بذكر القصة أمر أحد العساكربإخراجنا من حضرته، ثم رأيناه قد وضع التقرير في جيبه بعد كتابته ونزل مسرعًاً لم يلتفت في التفتيش والتنقيب لغير زي المعاون، ولما انصرف عاد الضرب والصياحوالضجيج في أنحاء القسم إلى أشد ما كان عليه قبل حضوره، وصاح أحد المضروبين فيشدة ألمه بأنه لا بد أن يشتكي عمال القسم إلى »النيابة«، فدخل أحد العساكر إلى المعاونليخبره بما يقول الرجل فوضعتُ أذني عند الباب فسمعت المعاون يحادث نفسه بقوله:

»ما هذه الخدمة وما هذا الذل؟ ولعنة الله على ضرورة الحاجة في المعاش، ومع ذلكفالحمد لله؛ إذ كان هذا المفتش من الأجانب ولم يكن من »أولاد العرب« فهو خير منهم؛لأن عجزه في فهم اللغة وجهلَهُ بالعمل جعله يقتصر في التفتيش على طربوشي ولحيتي،ولو كان من »أولاد العرب« لاطلع على الاختلال الواقع في القضايا وما يرتكبه عمالالقسم من مخالفة »الأصول«، ثم التفت إلى العسكري وسمع منه

ما ينقلهُ إليه من قولذلك الرجل الذي عزم على الشكاية إلى »النيابة« فازداد همه واشتد غضبه، فأمر بحبسالمتهمين جميعًا أربعًا وعشرين ساعة، والباشا داخلٌ فيهم فذهبت إلى المعاون وكلمتهُ فيهليطلقهُ بعد ضمانتي له فأبَى ذلك، وقال لي بوجه عبوس: الأولى أن يبقى في القسم إلىالغد حتى يكُشف على »السوابق« ثم يرسل من هنا إلى النيابة. فدخل الباشا الحبس معالداخلين.

النيابة

قال عيسى بن هشام: ◌ّ◌ُ ولما تركت صاحبي في حبسه وذهبت إلى داري بت طول ليلتي فيهم وأرق، وقضيت رقادي في اضطراب وقلق، لمَا أصاب الرجل من ضربات الدهر المتتاليةوهو غريق في دهشته وحيرته لا يدرك مُضيّ الزمن ولا يدري ما الحال، ولا يعلم بتغييرالأمور وما أحدثه الدهر بعد عهده وزوال دولته من تبدل الأحكام وانقلاب الدول، وكنتهممت أن أكاشفه بشرح الأحوال وتفصيل الأمور عند أول مصاحبتي لهُ لولا ما دَهمناَ بهالقضاء المحتوم فأوقعنا فيما ألمّ بنا، ثم فكرت بعد ذلك فكان من حسن التدبير وسدادالرأي عندي أن يبقى الرجل جاهلًا بالأمر حتى ينتهي من خطبه ويكون جهلهُ بتغييرالأحوال قائمًا بعذره في التخلص من محاكمته، ثم عقدت العزيمة على أني لا أفارقصُحبته بعد ذلك حتى أرُيه ما لم يرَ◌َ، وأسمعه ما لم يسمع، وأشرح له ما خفي عليهوغمض من تاريخ العصر الحاضر،◌َ لأطلع على ما يكون من رأيه فيه عند مقابلته بالعصرالماضي، ولأعلَمَ◌َ أي العهدين أجلّ قدرًا وأعظم نفعًا وما الفضل الذي يكون لأحدهما علىالآخر، فبكرت إلى القسم في اليوم الثاني وحملت معي ما يليق بصاحبي من الثيابليرتديها عند خروجه من حبسه، فوجدت العسكري يستعد به للذهاب إلى قلم »السوابق«في دار المحافظة، فلما بصَ◌ُرَ بي ناداني بقوله:

الباشا: ما هذه الخطوب والملمات، قد كنت أظن أن ما وقع لي أمس كان لسخطوليّ نعمتنا الداوري الأعظم وغضبه على عبده بمكيدة كادها لي أعدائي أو فرية افتراهاحسّادي؛ فلذلك صبرت لحكم الضرورة، وامتثلت على تلك الصورة، حتى أتمكن منالتشرب بالأعتاب، والمثول بين يدي مالك الرقاب، فأزيل الشبهة

وأنفي الريبة مما رمانيبه الساعي والواشي، وأجُلي له حقيقة عبودتي وإخلاصي، فيضاعف عليَّ رضاهُ لحسن ماقمت به من الطاعة في احتمال هذا الهوان.

طال مني تحمِلٌ خلت أني   قابضٌ من أذاته فوق جمر

ثم إني أعمد بعد ذلك إلى إفشاء العقاب،ً عقاب القتل والصلب في هؤلاء الأدنياءالسفهاء والأشقياء الأغبياء جزاء ما اجترؤوا عليه في معاملتي واقترفوه من جهل منزلتي،ولكني سمعت في الحبس — ويا سوء ما سمعت — وعلمت — ويا شر ما علمت —أن الدول دالت والأحوال حالت، وأنكم أصبحتم في زمان غير ذلك الزمان، وفي حال منالفوضى يصح فيها قول ذلك المكاري:»إنه هو والباشا في المنزلة سواء« وتلك التي:

تصم السميع وتعمي البصير   ويُسْ ألُ َ من مثلها العافيهْ

ّ َ فاللهم عفوك وصفحك، هل قامت القيامة وحان الحشر فانطوت المراتب وانحلتالرياسات، وتسَاوى العزيز بالذليل والكبير بالصغير والعظيم بالحقير والعبد بالمولى،ٍ ولم يبق لقرشي على حبشي فضل ولا لأمير مِنَّ ا على مصريّ أمر، ذلك ما لا يكون ولاتحتملهُ الظنون، ثم اعلم أيها الرجل أن ذنب أولئك السفهاء فيما جنوه عليَّ لا يعُد فيجانب ذنبك عندي إلا كالخردلة من الصخر، والقطرة من البحر، لكتمانك عليَّ الأمر حتىدخلت بي بلدًا هذا حاله وذاك شأنه، وأعوذ بالله منك ومن شياطين الجن.

عيسى بن هشام: إنما أقول لك أيها الأمير أيضًا ما قاله موسى للخضر عليهماالسلام:﴿لاَ تؤُ َاخِذْنِي بِمَا نسِ َيتُ وَلاَ ترْ ُهِقْنِي مِنْ أمْ َرِي عُسْرًا﴾ ولقد نزل بي من الخوفوالذهول عند انتشارك من القبر ما أورثني التبلد والتحير، ومنعني عن تبصرتك بالواقعوتنبيهك إلى ما تغيرت به الحال من بعد عهدك، وما كدت أنتبه إلى تعريفك بها حتىدُهِيناَ بذلك المكاري ودُهِمْناَ بتلك الحادثة فلا ذنب لي فيما

أتيتُ، والعذر مقبول لديك،فاصبر على ما تلاقيه، واحتمل ما أنت فيه، وتقبّل القضاء بوجه الرضاء، ولا تأسَ علىما فات، لتكفر عنك السيئات.

العسكري (للباشا): هلم إلى »السوابق.«

الباشا: سبحان العزيز القادر، أترُى قد زال عني بؤسي وانقشع نحسي ورجع إليَّ عزي فجاءوني بموكبي وخيلي.

عيسى بن هشام: ليس المقصود »بالسوابق« تلك الجياد الصافنات، والعتاقالصاهلات، وإنما هو ديوان تقُيَّ د فيه سحنة المتهم وسيمَاه، ويكشف فيه عما جنته يداه.

العسكري (للباشا وهو يسحبه): لا تطُل في الكلام وامش معي ساكتاً ساكناً.

الباشا (وهو يمتنع): ما الحيلة في القضاء، وما العمل في المقدور، وكيف الخلاصوأين النجاة، ومن لي بالموت ثانية ليردني إلى راحة القبر؟

عيسى بن هشام (وهو يتضرع): أقسمت عليك بدفين القلعة، ووقع سيوفك فيالمعمعة، إلا ما قبلت نصيحتي وعملت بمشورتي؛ فلا تعارض ولا تعاند، فإن الامتناعلا يفيد ولا يزيدنا في ملتنا إلا شدة، والعقل يرشدنا أن نسلم للأقدار حيث لا عمل، وأننلبس لكل حالة لبوسها. إما نعيمها وإما بوسها.

الباشا (ممتثلًا): اللهمّ لا رأي مع القضاء.

قال عيسى بن هشام: وسرْناَ مع العسكري فوصلنا إلى »قلم السوابق وتحقيقالشخصية«، فرأى الباشا هناك من الشدة ما تنخلع لهُ القلوب وتشيب منه النواصي،فجردوه من ثيابه وفحصوا بدنه عضوًا عضوًا وقاسوا وجهه وجسدهُ، وحدقوا في عينيه وصنعوا به ما صنعوا وهو يتنفس الصعَدَاء، حتى انتهوا من عملهم، ثم سألوا عنضمانته فلم يجدوا لهُ ضمانة؛ لأن المعاون — قاتله الله — رد شيخ الحارة عن التصديقعلى ضمانتي ليجوز له الحبس، فأرسلونا مع العسكري إلى النيابة، ولما دخلنا على النائبوجدنا أمامه قضايا جمة وأصحابهُا مزدحمون ينتظرون نوبتهم، فانفردنا ناحية ننتظرنوبتنا أيضًا، والتفت إليَّ صاحبي يسأل ويستفهم.

الباشا: أين نحن الآن ومن هذا الغلام وما هذا الزحام؟

عيسى بن هشام: نحن أمام النيابة، وهذا عضو النيابة، وهؤلاء أرباب الدعاوى.

الباشا: وما النيابة؟

عيسى بن هشام: ◌ّ◌َ النيابة في هذا النظام الجديد هي سلطة قضائية مكلفة بإقامةالدعاوى الجنائية على المجرمين بالنيابة عن الهيئة الاجتماعية، والغرض من إنشائها ألاتبقى جريمة بلا عقوبة، ووظيفتها أن تدافع عن الحق، فتظهر ذنب المذنب وتكشف عنبراءة البريء.

الباشا: وما »الهيئة الاجتماعية« التي تنوب عنها؟عيسى بن هشام: هي مجموع الأمة.

الباشا: ومَن هذا الأمير العظيم الذي اتفقت الأمة عليه لينوب عنها؟

عيسى بن هشام: ليس هذا الذي تراهُ بأمير ولا بعظيم من عظماء الأمة، وإنما هوأحد أبناء الفلاحين أرسلهُ أبوهُ إلى المدارس، فنال الشهادة فاستحق النيابة فتولى في الأمةولاية الدماء والأعراض والأموال.

الباشا: نعمت المنزلة عند الله منزلة الشهادة، وللشهيد في الجنة أعلى الدرجات،ولكن كيف تتصور عقولكم — وأظنكم فقدتموها — أن تجتمع الشهادة في سبيل اللهوالحياةُ في الدنيا لأحد من الناس، والذي يفوق ذلك عجباً ويزيد العقل خبالاً أن يحكمَّ الناس فلاح وينوب عن الأمة حراث، ويشهد الله أنني خرجت من شدة إلى شدة، وانتهيتمن خطب إلى خطب فسلمت وصبرت، ولكن لا صبر لي على هذه الخارقة، فما أعظمالفاجعة وأشقّ النازلة، لقد فَنِيَ مني الصبر، ومن لي بفناء القبر.

عيسى بن هشام: اعلم أن هذه الشهادة ليست بشهادة الجهاد، بل هي ورقةيأخذها التلميذ في نهاية دروسه ليثبت بها أنه تلقى العلوم وبرع فيها، وقيمتها لمن يريدالحصول عليها ألف وخمسمائة فرنك في بعض الأحيان.

الباشا: ◌َّ◌َ مه مه كأنك تريد الإجازة التي يجيزها علماء الأزهر لمن تلقى عليهم العلوممن الطلبة وفاق فيها، غير أننا ما سمعنا في دهرنا بهذه الأثمان، وما عهدنا أن الأزهرالشريف يعرف ما الفرنكات أو يفقه من العملة سوى الجرايات.

عيسى بن هشام: ما هذه العلوم بعلوم الأزهر، ولكنها علوم إفرنجية يتلقونها فيبلاد الإفرنج، والفرنك عملة تلك البلاد، ويقال لتلك القيمة عندهم: رسم الشهادة، وهيقيمة لا تذُكر بالنسبة إلى كثرة فوائدها؛ لأن القاعدة في هذا النظام »أن الشهادة بلاعلم خير من العلم بلا شهادة«، وصاحبُ الشهادة إذا قدمها للحكومة يكون لهُ الحق فيالاستيلاء على مرتب وظيفة يزيد على الدوام ويرَقّى.

الباشا: الآن كدت أفهم، وأظن هذه الشهادة تعادل »أوراق الالتزام« و»سراكيالروزنامجه« في أيام حكومتنا.

قال عيسى بن هشام: وبينا نحن في هذا الحديث إذا بشابين رشيقين رقيقين قد أقبلاًّ يخطران في مشيتهما والطيبُ ينتشر في الجو من أردانهما وهما يٍ صُعران خديهما كبرًاواختيالاً،[12] ولا يلتفتان إلى من حولهما تيهًا وإعجاباً، أحدهما يشق الهواء بعصاه، والثانيتلعب »بالنظارة« يداه، فشخصت فيهما الأنظار، وتحولت نحوهما الأبصار، والحاجبُمن أمامهما يدفع الناس من طريقهما حتى وصلا إلى باب النائب، فقام لهما عن مجلسهوأمر بأرباب القضايا أن ينصرفوا من حضرته،ٍ واشتغل الحاجب بسحبهم وجرهموطردهم ونهرهم،ٍ واشتغل النائب بطي المحاضر ورفع المحابر، حتى خلا لصاحبيه منكل شغل وعمل.

الباشا (لعيسى بن هشام): يظهر لي أن هذين الشابين من أكبر أولاد الأمراء أوأنهما مفتشان للنيابة كما رأينا المفتش للقسم.

عيسى بن هشام: ما أظنهما إلا زائرين من قرناء النائب في المدرسة كما يظهر ليمن شمائلهما.

[12] صعر خده: أماله تكبراً.

الباشا: وهذا أعجب وأعجب.

قال عيسى بن هشام: وأردت أن أخبُر خبرهما وأكشف أمرهما، فانتهزت فرصةالتزاحم بين الناس واشتغال الحاجب بهم فانزويت عقب الباب من وراء الستار بحيثأسمع وأرى، فسمعت هذه المحاورة بينهم:

الزائر الأول (بعد السلام والجلوس): لماذا تركتنا أمس أيها الخبيث من قبل أنينتهي اللعب؟

النائب: لأنهُ كان قد مضى من الليل أكثره، وعندي من القضايا ما يضطرني إلىالتبكير.

الزائر الثاني: وهل سمع أحد أن القضايا تعوق الإنسان عن مجالسة الإخوان، ومثلهذا العذر يعُتذر به لغير الواقفين على أعمال النيابة وقضاياها، أوَلم تعلم أن فلاناً وفلاناًوسواهما من أقرانك لا تستغرق منه قضايا اليوم كله أكثر من ساعة واحدة، وأخصبالذكر منهم فلاناً فإنه يكتفي بأن يمر عليها بلحظة منهُ، ويستغني عن مطالعتهاويرتكن على توقد ذهنه ونباهة قريحته وكثرة تمرنه للإحاطة بفهمها، وما دام الشقاقوالنزاع قد انتهى أمره بين النيابة والبوليس فالأولى الاكتفاء بمحاضر البوليس أو إعادتهاإليهِ لاستيفائها، ولا محل لتجديد التحقيق بعدهُ وتضييع الوقت سُدًى فيما عساه أنيولد الشقاق أو يعيد النزاع مرة أخرى.

النائب: ذلك ما أفعله ولكن لا بد من التمسك »بالظواهر والأصول« على قدرالإمكان.

الزائر الأول: أفما عندك الكاتب يقوم في ذلك مقامك ويكفيكَهُ.

النائب: صدقت إن الكاتب ليكفي، والقول الصحيح أن السبب في مفارقتكم أمسوفي ترك اللعب هو أنني خسرت ما كان معي من مرتب الشهر، ونحن لا نزال في أوائله.

الزائر الأول: تلك هي عادتك في ادعاء الخسارة دائمًا مهما ربحت ومهما كسبت،وما سمعتُ منك في عمري إلا أنك خسران، أفلم تربح مني في »اليد الأخيرة« التي كانتبيننا خمسة جنيهات؟

النائب:ِّ وحق شرفي وذمتي ومستقبلي أني قمت من عندكم أمس بالخسارة.

الزائر الثاني: ما علينا، ولكن قل لي هل أنت لا تزال على وعدك معنا في التوجه إلىصاحبنا لمشاهدة الرقص البلدي من فلانة المشهورة؟

النائب: أسألك المسامحة فإنه لا يمكنني ذلك، أولاً: لأن هذا الرقص الذي يعجبأولاد البلد والفلاحين لا يعجبني، وثانياً: لأني دعوت »مادموازيل فلانة« المشخصة في»الأوبرا« مع فلان وفلان المشخصين لتناول الغداء في الأزبكية عند »سانتي«، وسنذهببعد ذلك إلى »خان الخليلي« و»قصبة رضوان« و»مقابر الخلفاء« وبعض الأماكن القديمةمن البلد للتفكه والتسلي.

الزائر الأول: دعواك الآن أنه لم يبق معك من مرتب الشهر شيء، فكيف لك بمايلزم لمثل هذا من النفقات.

النائب: فاتني أن أذكر لكما أن معنا فلاناً المحامي ومعه صاحبهُ العمدة.

الزائر الثاني: وكيف يميل هذان الشخصان إلى مثل هذا المجلس الإفرنجي، أويستريحان لهُ وهما لا يعرفان شيئاً من اللغات والاصطلاحات الأوروبية.

النائب: ألم تعلم يا أخي أن أمنية المحامي أن يكون مصاحباً لأهل القضاء، وأمنيةالفلاح أن يتحكك بنا، والرغبةُ عند أمثالهما عظيمة في حضور المجالس الإفرنجية وإنكلفهم ذلك ما كلفهم، وخرجوا منها على غير فائدة لهم؟

الزائر الأول (مقتضباً): من أين اشتريت هذا »الكرافات«»رباط الرقبة«؟

النائب: ما اشتريته يا »مونشير«»عزيزي« وإنما جاءني مع ملابسي من عند الخياطفي باريس وهو من آخر طرز.

الزائر الثاني: هل بلغك زواج فلان بمعشوقته؟الزائر
الأول: هل ركبت مع فلان في »الأوتوموبيل«؟النائب: قد
وقفت لكما على سبب انتحار ابن فلان المتمول.

الزائر الأول: أنا أعرفه فهو الغرام.

النائب: لا.

الزائر:

المال؟النائب:

لا.

الزائر: المرض؟

النائب: لا، وإنما هي سُنَّ ة جديدة في شبان باريس اقتدى المسكين بها.

الزائر الأول: وأنا وقفت لكما على سبب استعفاء فلان من وظيفته.

النائب:

سيرته؟الزائر:

لا.

النائب:

وطنيته؟الزائر:

لا.

النائب: فرنسويته؟

الزائر: لا، وإنما هي »إنكليزيته.«

المحامي الأهلي

قال عيسى بن هشام: فسئمت من هذا الكلام الفارغ والحديث المقتضب وانتهزت دخولالحاجب، فخرجت من مكمني وعدت إلى الباشا صاحبي فوجدت بجانبه أحد سماسرةالمحامين قد التصق به وهو يحاوره، فوقفت عن بعْ ُد أسمع ما يدور بينهما:

السمسار: اعلم أن المحامي يدير القضاء في يده بما يريد فيعاقب من يشاء ويبرئمن يشاء، وما أعضاء النيابة وقضاة الجلسات إلا طوع إشارته ورهن كلمته وكالخاتمفي إصبعه فلا حكم إلا بقوله ولا قضاء إلا بأمره، وأنت على ما أراك، رجل غريبحقيق بالرحمة والشفقة ولا يليق بالمرُوءة أن أدعك طعمة في أيدي بعض المحامين منأهل الطبقة السفلى الذين اعتادوا سلب أموال الناس بطرق الغش والاحتيال وكاذبالوعود والآمال، ولي صاحب معروف بين طائفة المحامين بالصدق والأمانة وله مقامسام بين القضاة والحكام، فهو صديق الناظر وجليس المستشار ونديم القاضي وخدينالنائب ووكيل »البرنس«، ولو شاهدتهُ يا سيدي مرة واحدة في اجتماعه معهم؛ في السهروالسمر ورفع الكلفة بينه وبينهم في ساعات الأنس وأوقات السرور يشار بهم، ويؤاكلهمويمازحهم ويفاكههم ويناظرهم ويقامرهم لأيقنت في الحال أن كل طلب له يجاب، وليسلأمره من راد، فالمجرم بريء والبريء جان على حسب المراد، فقل لي حينئذ عن مقدار ماتستطيع دفعه من »مقدم الأتعاب« في تبرئتك من تهمتك والانتقام لك من عدوك.

الباشا: أنا لا أعرف المقدم ولا المؤخر ولم يخبرني صاحبي عن هذا الحاكم القادرالذي تصفه لي فإذا استفهمتُ عنه ...

حديث عيسى بن هشام

السمسار (مقاطعًا): لا لزوم للاستفهام من أحد فها هو ذا حضرة المحامي قدأقبل لمقابلة »النائب العمومي«، فأنا أستوقفه لحظة للنظر في شأنك.

(ويسرع السمسار إلى مكالمة المحامي بعد أن يوسع له في الطريق، ويسلم عليهبسلام الأمراء حتى يصل به إلى جانب الباشا).

المحامي (بصوت عالٍ): أنا لا أستطيع قبول التوكيل عن أحد في هذه الأيام لتراكمالأعمال وتزاحم القضايا، فلم يبق عندي وقت للطعام وللشراب؛ فكيف تكلفني أن أقبلالتوكيل عن صاحبك في هذه القضية الصغيرة، وقد رفضت في صباحي هذا خمس قضايالها شأن عظيم.

السمسار: سألتك بحق الإنسانية وحرمة المروءة، وبما جبلت عليه من الحنووالشفقة على الضعفاء أن تأذن لأحد عمال مكتبك بمباشرة هذه القضية إن لم تتنازللمباشرتها بنفسك؛ فإن المقصود هو تأثير اسمك وصيتك في المحكمة.

المحامي: لا أرى في ذلك بأسًا للعناية بك، والشفقة على صاحبك.

(وينصرف المحامي بعد مصافحته للباشا).

السمسار (للباشا): هلمّ فادفع عشرين جنيهًا.

الباشا: ليس عندي الآن شيء من الدراهم.

السمسار: أعطني تحويلًا.

الباشا: أنا لا أفهم لك كلامًا فاذهب عني فقد ضقت بك ذرعًا.

السمسار: كيف أذهب عنك وقد تم لك الاتفاق مع حضرة المحامي أمامي؟الباشا: أنا لم أتفق مع أحد فاتركني وانصرفْ.

السمسار: كيف تنكر اتفاقك مع المحامي بعد أن وضعت يدك في يده.

الباشا: عفوَك اللهم ولطفك! ومَن يصبر على هذه الحال، أشرت بيدي في حديثيمع صاحبي فوقعت في حادثة المكاري، وصافحت المحامي فصرت مديناً بعشرين جنيهًا،ففي أي العوالم أنا وبين أي المخلوقات؟

قال عيسى بن هشام: ولما رأيت لوائح الغضب بدت على وجه الباشا خشيت أنيقع مع السمسار في حادثة أخرى، فأدركته ووبخت الرجل على احتياله وتوعدته بالشرورفع الأمر إلى النائب العمومي إن لم ينته عنا، فخلفنا وانصرف، ونادى الحاجبُ أرباب

القضايا فدخلنا فوجدنا النائب لا زال لاهياً في حديثه مع زائرَيه، وأشار لنا بالتقدمإلى الكاتب فتقدمت مع صاحبي وشرعت في بسط القضية، وبيان ما قاسيناه من سوءمعاملة البوليس وقبح افترائه، فالتفتَ النائب إلى الكاتب وقال له: لا تقبل كلامًا فيالبوليس ولا تسمع فيه طعناً بل خذ بأقواله واستمسك بتحقيقه، ثم نظر في الساعةفوجد الميعاد قد حلّ، فأخذ عصاه ولبس طربوشه وخرج يهرول مع صاحبيه، فقلتلصاحبي: الآن وجب أن أذهب للبحث عن أحد المحامين الصادقين من أصحابي للمدافعةعنك.

الباشا: قل لي بالله ما هو المحامي عندكم؟

عيسى بن هشام: هو وكيل الحكم والمخاصمة يتكلم مكانك بما تعجز عنه ويدافععنك بما لم تعلمه ويشهد لك بما لم يخطر ببالك، وصناعتهُ هذه صناعة شريفة يمارسهاكثير من الفضلاء اليوم بيننا، ولكن قد دخل في الصناعة جماعة ليسوا من أهلها، فاتخذواالخداع والاحتيال بضاعة للتكسب مثل هذا المحامي وسمساره، وهؤلاء بعينهم هم الذينٌ يعنيهم علاء الدين الكندي بقوله:

ما وكلاءُ الحكم إن خاصموا إلا ش ي اط ي نُ أول و ب اسق
ومٌ غ دا ش ٌره م ف اض لًا عنهم فباعوه على الناس

المحكمة الأهلية

قال عيسى بن هشام: ولما حل يوم الجلسة رافقت الباشا إلى المحكمة فوجدنا في ساحتهاأقوامًا ذوي وجوه مكفهرة، وألوان مصفرة، وأنفاس مقطوعة، وأكف مرفوعة، وشاهدناباطلًا يذُكر، وحقا ينُكر، وشاكياً يتوعد، وجانياً يتودد، وشاهدًا يتردد، وجنديًّا يتهدد،وحاجباً يستبد، ومحامياً يستعد، وأما تنوح، وطفلًا يصيح، وفتاة تتلهف، وشيخًايتأفف، وسمعنا ألفاظًا متناقضة، وأقوالاً متعارضة، ورأينا المحاميَن، عن الخصمين،يشحذ كل منهما لسانه، ويقدح جنانه، استعدادًا للنزال في ميادين المقال، وتأهباً للدفاع،في مواقف النزاع، ليخرج كلاهما بغنيمة البراءة في الحكم، ورفع التهمة والجرم، فانزويتبصاحبي، ومحامينا بجانبي، يذكر لنا »أصولاً مرعية«، و»مسائل فرعية« وظروفًاوأحوالاً، وشروحًا وأقوالاً، ومواد وفقرات، في الجنح والمخالفات، ثم يتصفح محاضره،ويقلب دفاتره، ويقُسم لنا بوكيد الأيمان، أن الباشا من تهمته في أمان، وأنا أجيبصاحبي عن كل سؤال، بما تقتضيه الحال، ولما سألني عن هذه الملحمة قلت له: هيالمحكمة.

الباشا: قد كان العهد بالمحكمة الشرعية وبيت القاضي على غير ما أرى فهل أصابهاالدهر فيما أصاب بالتغيير والانقلاب؟

عيسى بن هشام: هذه هي المحكمة الأهلية لا المحكمة الشرعية.

الباشا: وهل للقضاء بين الناس غير المحكمة الشرعية؟

عيسى بن هشام: للقضاء في هذه البلاد على ما تشَتهي محاكم متعددة ومجالسمتنوعة؛ فمنها المحاكم الشرعية والمحاكم الأهلية والمحاكم المختلطة والمجالس التأديبيةوالمجالس الإدارية والمجالس العسكرية والمحاكم القنصلية، دعَ المحكمة المخصوصة.

الباشا: ما هذا الخلط، وما هذا الخبط، وسبحان الله هل أصبح المصريون فرقًاوأحزاباً وقبائل وأفخاذًا، وأجناسًا مختلفة، وفئاتٍ غير مؤتلفة، وطوائف متبددة، حتجعلوا لكل واحدة محاكم على حدة، ما عهدناهم كذلك في الأعصر الأوَل، مع دولات الدول،وهل انطمست تلك الشريعة الغراء، واندرست بيوت الحكم والقضاء، اللهم لا كفرانولعن الله الشيطان.

عيسى بن هشام: ليس الأمر على ما تتوهم وتتخيل؛ فلم يتفرق المصريون فرقًاولم يتوزعوا شعوباً، بل هم أمة واحدة ولهم حكومة واحدة يقضي نظام الأمور فيهابهذا النسق والترتيب في القضاء والحكم، وأنا أشرح لك جملة الحال شيئاً قليلًا.

أما المحاكم الشرعية فقد جُ ٍردت من النظر والحكم في عامة المخاصمات، واقتصرالعمل فيها على الأحوال الشخصية؛ أعني مسائل الزواج والطلاق وما يدخل في هذا الباب.الباشا: تالله لقد فسد الحال وانحل النظام، وكيف يعيش الناس ويستقر لهم حالبغير شرع الله وسنة نبيه، وهل أصبحتم في الزمن الذي يعنيه القائل بقوله:

قد نسُخ الشرعُ في زمانهم فليتهم مثِل شرعهم نسُ ِ خوا

عيسى بن هشام: لم ينُسخ الشرع ولم يرتفع حكمه، بل هو باقٍ على الدهر ما بقيفي العالم إنصاف وفي الأمم عدل، ولكنه كنز أهمله أهله، ودرة أغفلها تجارها، فلم يلتفتواإلى وجوه تشييده وتمكينه وتمسكوا بالفروع دون الأصول، واستغنوا عن اللب بالقشور،واختلفوا في الأحكام وعكفوا على الاشتغال بسفساف الأمور، وتعلقوا من الدين بالأغراضالحقيرة والأقوال الضعيفة، وتركوا الحقيقة إلى الخيال وتعدوا الممكن إلى المحال، فكانمن أكبرهم العالم العلامة فيهم والحبر الفهامة منهم أن يبُدع في التفنن للإغماض فيالحق الأبلج والتعقيد في الحنيفية السمحة، ولم ينتبهوا يومًا إلى ما تجري به أحكامالزمن في دورته، ولم يفقهوا أن لكل زمن حكمًا يوجب عليهم تطبيق أحكام الشرع علىما تستقيم به المصلحة بين الناس، بل ظلوا واقفين عند الحد الأدنى لا يتزحزحون ولايتحلحلون، معتقدين أن الدهر دار دورتهَ ثم وقف،

وأن الزمن تحرك حركته ثم سكنفلا أمل فيه ولا عمل، فكانوا سبباً في تهمة الشرع الشريف بخلل الحكم ووهن العَقدوقلة الغَناَء فيه؛ لإنصاف الناس في معايشهم ومرافقهم على حسب ما تتجدد به حالاتالزمن، وتتخالف عليه أشكال العصور، ومن هنا تولدت الحاجة إلى إنشاء المحاكم الأهليةبجانب المحاكم الشرعية.

الباشا: ما أظن إلا أن يكون لأهل الشرع وأصحاب التفقه في الدين عذرٌ واضح فيالنزول إلى هذه الحال السيئة؛ من معارضة معارض ومنازعة منازع أو جور سلطانقاهر وعسف حاكم قاسر، فصدهم عن سواء السبيل، وأرعاهم هذا المرعى الوبيل.

عيسى بن هشام: لم يكن من ذلك شيء على الإطلاق؛ فالإرادات مختارة، والأفكارمطلقة، والنفوس مطمئنة، والأرواح آمنة، وليس الفساد ناشئاً عن طوارئ الزمانوطوارق الحَدَثان، ولكنه فساد في التربية عم أمرُه وانتشر، وانحطاط في الأخلاق عظُمبلاؤه واشتهر، سكنت إليهِ نفوسهم وارتاحت به ضمائرهم، وقد تمكن منهم داءالتحاسد والتباغض ودبت بينهم عقارب التشاحن والتضاغن، واستولى على قلوبهمالجبنُ والخوَر، وعلى عقولهم الضعفُ والخبل، وعلى نفوسهم الفتور والكسل؛ فوصلواإلى الحال التي يرون بها السنة بدعة والبدعة سنة، والفضيلَة نقيصة والنقيصة فضيلة،وأقاموا يتعسفون في الحكم ولا ينصفون، ويتفكهون في الدين ولا يتفقهون، وصَرَفَهُمحب المال، عن صالح الأعمال، وألهاهم ما يدخرونه من زخرف الحياة الدنيا، عما يدُخرلهم في الدار الأخرى، فنحن الذين فعلنا كل هذا بأنفسنا، منا الإثم والوزر، وعلينا الذنبوالإصر.

وأما المحاكم الأهلية فهي القضاء الذي يقَضِي على الرعية اليوم في جميع الخصوماتطبقًا لنص القانون.

الباشا: القانون »الهمايوني« ؟

عيسى بن هشام: القانون »الإمبراطوري.«الباشا: ما عهدت منك أن تعُجم وتبُهم.

عيسى بن هشام: لا إعجام ولا إبهام، فهو قانون نابليون إمبراطور الفرنسيين.

الباشا: وهل عاد الفرنسيس فأدخلوكم تحت حكمهم وسلطانهم مرة أخرى؟

عيسى بن هشام: لا، وإنما نحن الذين أدخلنا أنفسنا في حكمهم فاخترنا قانونهمليقوم عندنا مقام شرعنا.

الباشا: وهل هذا القانون ينطبق حكمه على حكم الشرع الشريف والسنة المطهرة،وإلا فإنهم يحكمون فيكم بغير ما أنزل الله؟

عيسى بن هشام: المسألة فيها خلاف، فالإجماع تام عند علماء الشريعة في السروالنجوى على أنه مخالف للشرع، وأن كل من يقضي به داخلٌ تحت نص الآية الشريفة:

﴿وَمَ ْن لمْ يحَ ْكُم بِمَا أَنْزَلَ الله فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ولكن يظهر أنه مطابق عندهمللشرع في حالة الجهر والعلن؛ بدليل ما أعلنه أحد كُبرائهم عند نشر هذا القانون، وهويومئذٍ مفتي نظارة الحقانية، فقد أقسم الأيمان المغلظة على فتواه التي أفتاها بأن هذاً القانون الفرنسي غير مخالف للشرع الإسلامي، وإن كان لا عقاب في هذا القانون علىالفسق واللواط مع رضا المفسوق به إن تجاوز عمرُهُ الثانية عشرة بيوم واحد، ولا عقابفيه على من يزني بأمه إذا هي رضيت وكانت غير متزوجة، وهو الذي يعد الأخ مجرمًاجانياً إذا تعرض لحماية عرض أخته والمدافعة عنه، وكذلك بقية أهلها ما عدا زوجها،وهو الذي يقبل شهادة المرأة الواحدة على الرجل، وهو الذي لا يعاقب الزوج إذا سرقمن امرأته، ولا المرأة من زوجها، ولا الولدَ من أبيه ولا الأب من ابنه.

وأما المحاكم المختلطة — وقضاتها من الأجانب — فهي تختص بالنظر فيما يقعمن الخصومات بين الأهالي والأجانب وبين الأجانب وبعضهم في الحقوق المدنية؛ أعني فيقضايا المال، ّ ِ ولما كان الأجانب هم أحق وأولى بالغنى لسعيهم وجدهم، وكان المصريونأخلقَ بالفقر وأجدرَ لإهمالهم وتوانيهم، كان معظم القضايا التي تحكم فيها هذه المحاكمَّ لا بد أن تنتهي بسلخ المصري من ماله وعقاره.

وأما المجالس التأديبية فهي تختص بالنظر في عقاب الموظف الذي يخل بتأديةوظيفته — وهي تتألف في الغالب من نفس الرؤساء الذين يتهمونه —ً وحدها في العقابالرفت والحرمان من المعاش، وما بقي من درجات العقاب فالنظر راجعٌ فيه إلى المحاكمالأهلية.

وأما الجالس الإدارية فهي تختص بعقاب من يخالف اللوائح والأوامر والمنشورات،وشرحُ ذلك يطول.

وأما المحاكم العسكرية فهي تختص بالنظر في عقاب المتهمين من الضباط والجنود،وتحكم أيضًا على الأهالي في مسائل القرعة وما شاكلها.

وأما المحاكم القنصلية فهي تختص بالنظر في الجنح التي تقع من الأجنبي علىالمصري ومن الأجنبي على الأجنبي من جنس واحد، فإذا وقعت جناية من أجنبي علىمصري فليس لها في مصر من حكم أو عقاب، ولا تختص أي محكمة من كل هذهالمحاكم التي عددتها لك بالنظر فيها، بل يرتد الجاني بالقضية إلى وطنه ومسقط رأسهوديار قومه، فينظر قضاته هناك في أمره، والغالب في مثل هذه الحال عندهم أن ينتهوابتبرئة المجرم بعلل معلومة مثل: »عدم ثقتهم بتحقيق البوليس المصري، وضياع معالمالقضية، وعدم توفر الشهود.«

وأما المحكمة المخصوصة فهي تختص بمعاقبة الأهالي عند تعديهم على الجنودالأجنبية.

الباشا: ما زلتَ تسمعني الغريب وتفهمني غير مفهوم، ومن أعجب ما سمعت أنَّ المصري يتعدى على الجندي.

قال عيسى بن هشام: ً وبينا نحن في هذا الحديث إذ ارتج المكان وتماوج الزحام،وأقبل القاضي وهو في عنفوان شبابه وصبا أيامه؛ يتألق وجههُ حسناً، ويشاكل في القدغصناً، وكأنه طائر في مشيته، من نشاطه وخفته، ولما دخل الجلسة ذهبتُ أسأل عن نوبةالقضية ثم عدت إلى صاحبي، ومكثنا في الانتظار زمناً طويلًا إلى أن جاء وقتنا ونوُديالباشا فدخل مع المحامي في الجلسة، وقام النائب فطلب الحكم على المتهم بمقتضمادتي ١٢٤ و١٢٦ عقوبات لتعديه بالضرب على أحد رجال

»الضبطية القضائية« فيأثناء تأدية وظيفته، وبالمادة ٣٤٦ مخالفات لتعديه على المكاري بالإيذاء الخفيف.

القاضي (للمتهم): هل فعلت هذه التهمة؟المتهم: لم أفعل.

قال عيسى بن هشام: وجاؤوا بي شاهدًا فسألني القاضي عما أعلمه في هذه الواقعةفأجبتهُ:

عيسى بن هشام: إن لهذه الحادثة قصة عجيبة وحكاية غريبة وهي أنهُ ...القاضي (مقاطعًا): لا لزوم لتفصيل القصة والحكاية، قل لي »معلوماتك« فيها.

عيسى بن هشام: »معلوماتي« هي أنني كنت أزور المقابر ذات ليلة وقت الفجرأبغي الموعظة وأنشُد الاعتبار ...

القاضي (مستثقلًا): لا لزوم لكثرة الكلام، أجبني عن النقطة التي سألتك عنهافقط.

عيسى بن هشام: ذلك ما أفعله من حكاية الواقع وهو أني رأيت رجلًا خرج من ...القاضي (متململًا): قلت لك: إني لا أقبل التطويل ولا الشرح في الواقعة، ولكن هلضرب المتهمُ َالعسكريَ ِوالحمار.

عيسى بن هشام: ما ضرب المتهم الحمار وإنما دفعه عنه من شدة إلحاحه، وما ّ َ ضرب العسكري وإنما سقط عليه مما غشيهُ بغير عمد ولا قصد وهو يجهل ...القاضي: يكفي، يكفي، هلم »النيابة.«

النائب: إن هذا الباشا متهمٌ ٍ بتعديه بالضرب على أحد رجال البوليس في أثناء تأديةوظيفته بالقسم ومتهم بالتعدي بالإيذاء على مرسي الحَ ِمار، والتهمة ثابتة من شهادةالشهود التي في الأوراق، واطلاع المحكمة عليها كافٍ وبناء عليه النيابة تطلب الحكم علىالمتهم بالمادة ١٢٤ و١٢٦ عقوبات، وبالفقرة الثانية من المادة ٣٤٦ مخالفات وتطلبمن عدالة المحكمة التشديد في العقوبة؛ لأن حالة المتهم تستدعي ذلك، فإنه يتخيل أنرتبته تجعله خارجًا عن سلطة القانون، ٍوتخوله الحق في اعتباره

بقية الناس أصغرمنه شأناً فيؤدبهم بنفسه مع عدم مراعاة حقوقهم وحرمة القانون، ولا شك أن تشديدالعقوبة عليه واجب لاعتبار أمثاله به وللمساواة في العدالة، وأفوض الأمر إلى المحكمة.

القاضي (للمحامي): المحاماة، مع الاختصار.

المحامي (بعد أن يتنحنح ويقلب في أوراقه): إننا نتعجب من أن النيابة العموميةاستحضرتنا اليوم بصفة متهمين، ونقول: إن أصل وقوع الجرائم يا حضرة القاضي فيوضع الشرائع والقوانين في هذا العالم منذ البداوة وعصور الهمجية كان يقُصد منه ...القاضي (ﱢمشمئزا): اختصر يا حضرة المحامي وادخل في الموضوع.

المحامي: ... ومن المعلوم أن نظام الترتيب يا حضرة القاضي في طبقات الهيئةالاجتماعية يقضي ...

القاضي (متضجرًا): اختصر يا بك.

المحامي: الموضوع يقتضي ذلك.

القاضي (متأففًا): لا لزوم له.

المحامي (متحيراً): قالت النيابة العمومية (ويسرد شيئاً من أقوالها) ونحن نقول: إننا لو سمحنا جدلاً ...

القاضي (مغضباً): يكفي يا بك، الموضوع.

المحامي (متلعثمًا مضطرباً): إن هذا المتهم يا حضرة المحكمة الواقف الآن بينيدي القضاء هو رجل عظيم وأمير خطير من أهل العصر القديم، وله حديث منشورفي الجرائد — وهذه أعداد جريدة »مصباح الشرق« تطلعون عليها — وقد اعترضه فيطريقه أحد المكارين، ّ ً فدفعه عن نفسه والناس يعلمون إلحاح الحمارة وسوء أدبهم،ومثل هذه الطبقات التي ليس فيها تربية ...القاضي (نافدًا صبرهُ ً): قلنا: اختصر يا بك.

المحامي (وهو يتصبب عرقًا): ... ولما توجه المتهم إلى القسم أغمي عليه فسقطبدون تعمد على عسكري كان يكنس أرض القسم بغير ملابسه الرسمية، وعدالة المحكمةتقضي بعدم الالتفات إلى دعوى البوليس ولا عقاب على المتهم

البتة؛ لأنه كان في عصرغير عصرنا وفي نظام خلاف نظامنا، ولم تبلغه دعوة القانون فهو يجهل أحكامهوحضرة القاضي الفاضل أدرى بالأحوال، وإن ...

القاضي (منفعلًا ضارباً بيده على المكتبة): المحكمة تنورت يا بك ولا لزوم للكلاممطلقًا فهلم طلباتك.

المحامي (ساخطًا في نفسه): طلباتنا هي »أننا نطلب من باب أصلي الحكم ببراءةالمتهم، وإن رأت المحكمة غير ذلك فنرجو استعمال الرأفة بالمادة ٥٣٢ عقوبات.

قال عيسى بن هشام: وبعد ذلك نطق القاضي بالحكم فحكم على الباشا بالحبس سنةًونصفًا بمقتضى المادتين المذكورتين من قانون العقوبات، وبخمسة قروش والمصاريفبالمادة المذكورة أيضًا من المخالفات، فضاقت الأرض بي وأظلمت الدنيا في عيني، وكدتأشترك مع صاحبي في الذهول والإغماء لولا أن المحامي أكد لي كل التأكيد أنهُ لا بد منالبراءة في محكمة الاستئناف لعدالة رجالها، ولكن يجب مع ذلك أن نرفع عريضة شكوىإلى »لجنة المراقبة« لحسن التأثير في القضية عند نظرها في الاستئناف، ثم قال لي: اعلمأن السبب في كل ما صدر عن هذا القاضي من المقاطعة والمعاكسة والاستعجال هو؛ لأنهُمدعو في وليمة بعض رفاقه عند الظهر تمامًا، وأمامه في جدول القضايا ثلاثون قضيةيريد أن يأتي عليها كلها حكمًا قبل حلول الميعاد.

وأطعنا إشارة المحامي فقدمنا عريضة إلى »لجنة المراقبة«، ولما طلبنا منه أن يتوجهَّ معنا للسؤال عما تمَّ في أمرها تنحى عن استصحابنا، وقال: إنه كان يود مباشرة ذلكبنفسه، ولكنه يمنعه أن يعلم القاضي بسعيه في التظلم منه فيتعمد في المستقبل أذاهُ،وينصرف همه إلى نكايته بسبب شكايته، والمحامي في حاجة دائمة إلى اجتلاب رضاءالقاضي واجتناب غضبه، فقبلتُ عذره، ودعوت الباشا إلى التوجه والسؤال، فأعرض ونأىَّ بجانبه وخاطبني وهو يشتد في الإباء ويلج في الامتناع بقوله:

الباشا: يكفيني ما قد وصلت إليه من الذل والهوان وما قاسيته من نزول القدر،وحلول الضيم بحكم القضاء من رافع السماء، وأنا أربأ بنفسي أن يجتمع عليها ذلانِ فيِّ سلك واحد؛ ذل المتحمل للظلم المستكن للجور، وذل المشتكي الضارع والمتظلم الخاضع،فإليك عني لا تكن عوناً للخطوب، ومفتاحًا للكروب، وصدَقَ ابنُ يعقوب ﴿رَبِّ السجْنُأحَبُّ إلِيَّ مِمَّا يدْعُونِني إلِيهِ﴾، ويعلم الله لولا عذاب النار، لفرجت عن همي بالانتحار،

وبودي لو يبدل حكم الحبس بالإعدام لأخلص من هذه الأوصاب والآلام، وقد عشتدهري ما علمت أن السجن يكون في عقاب الكبراء والأمراء، وإنما هو يجري عندنا فيعقاب الغوغاء من الناس والسفلة من العامة، وللأمراء الامتياز على كل حال، فإن كانَّ ثم لنا عقاب، فضرب الرقاب، وعندنا أن لقاء المنون، أليق بنا من ظلمة السجون.

عيسى بن هشام: ما كنت أعهد من مثلك هذا الجزع والفزع، ولا أتوقع منك مثلهذا الخوَر والهلع، وأنت البطل الجريء والشجاع المقدم، وما الشجاعة إلا في التصبرعلى المكروه والتجلد للخطوب تتلقاها بوجه طلق وصدر رحب، وتترقب الفرج منها بعدالضيق.

ربما تجزع النفوسُ من الأمر له فُرجةٌ كحل العقال.

وأنت عندي الحازم الأرشد، والعاقل المُسَدد، وما العقل إلا نفاذ الرأي في كشفالملمة، وتسديد الحيلة في إزاحة الغُمة، وأمامنا اليوم طرق مسنونة ووسائلُ مشروعة لاغضاضة علينا في وُلوجها ولا مضاضة في سلوكها، واعلم أن تبدل الأزمان وتقلب الحدثانِّ يغير من مباني الأمور ويكيف في اعتبار الأشياء فما كان يعُتبر بالأمس فضيلة يعتبرفي الغد رذيلة، وما كان يعده الناس في الزمن الماضي نقيصة يعدونه في الحاضر كمالاً،وإن كان الشرف فيما مضى يستمد رونقه من السطوة والمَنعَة ويقوم ركنه على البأسوالبطش، فإن الشرف اليوم كل الشرف في الاستكانة للأحكام والخضوع للقانون، فهلمنسلك سبيله ونأخذ طريقه عسانا أن ننتهي بالخلوص

والنجاة، ومن القواعد المقبولةلدى العقلاء والحكماء أن يقبل الإنسان نظام الأحكام في البلد الذي اتخذه دارًا واختارهُمقامًا.

الباشا: لطعمُ ◌ّ◌ُ الموت الزؤَّام[13] أهون من هذا الكلام، وللشربُ من حميم آن،[14] آثر مناحتمال هذا الهوان.

قال عيسى بن هشام: فاعتلت عليَّ وجوه الآراء، في صرف صاحبي عن الامتناعوالإباء، وكدت أيأس من بلوغ الغاية في باب النصيحة والهداية، لولا أن سمعنا منادياًمن باعة الجرائد ينُادي في طريقنا بصوت نكير، دونه صوت الحمير: المؤيد والمقطم! الأهرام ومصر الأربعة بقرش!

الباشا: ماذا أسمع من الأعاجيب! أأصبحت المساجد والجبال والآثار والبلاد تبُاع في الأسواق بالمزاد؟

قد اختِل الأنام بغير شكّ ◌ّ◌ُ فجدوا في الزمان أو العبوه

عيسى بن هشام: ما هي بالآثار ولا بالبلاد، ولكنها أسماء انتحُلت أعلامًا لهذهالجرائد اليومية.

الباشا: لعلك تعني »جرائد الصيارفة ويومياتهم« أو »جرائد الالتزام« ولكن ماوجه هذه التعمية في التسمية؟

عيسى بن هشام: ليس الأمر كما ذهبت إليه، ولكن الجرائد هي أوراق تطُبع كليوم أوكل أسبوع أوكل شهر تجمع وتسرد فيها الأخبار والروايات العامة؛ ليطلع الناسعلى أحوال الناس، وهي أثر من آثار المدنية الغربية انتقل إلينا منها فيما انتقل، والأصلفي وضعها انتشارُ الحمد للفضيلة والذم للرذيلة، والنقد على ما قبح من الأعمال، والحثعلى ما حسن من الأفعال، والتنبيه على مواضع الخلل، والتحضيض على

---

13 الموت الزؤام: الكريه أو المجهز.

14 الحميم: الماء الحار، وآن، شديد الحرارة.

إصلاح الزلل،وتعريف الأمة بأعمال الحكومة النائبة عنها حتى لا تجري بها إلى غير المصلحة، وتعريفالحكومة بحاجات الأمة لتسعى في قضائها، وبالجملة فإن أصحابها هم في مقام الآمرينبالمعروف والناهين عن المنكر الذين أشارت الشريعة الإسلامية إليهم.

الباشا: قد كنا نسمع في زماننا بشيء من هذا القبيل يقال له:»غازيته« وكانتتصدر عندنا واحدةٌ منها بالتركية اسمها »روزنامه وقائع« وأخرى بالعربية اسمها»الوقائع المصرية« تدون فيهما المدائح والتهاني ويذكر فيهما انتقال الركاب العالي،ولكن إن كانت الجرائد قد ارتفعت اليوم إلى ما تزعم، فلا بد أن يكون قد اشتغل بهاواهتم بأمرها كبراء العلماء الأعلام وعظماء المشايخ الكرام، ولنعمتِ الوسيلة وحسُنتالطريقة في تبليغ الناس ما يصلحهم في معاشهم وينفعهم في معادهم، فعليَّ بواحدةمنها.

عيسى بن هشام: علماؤنا ومشايخنا، يغفر الله لهم، هم أبعد الناس عن اجتيازهذه الطريق وممارسة هذه الصناعة، وهم يرون الاشتغال بها بدعة من البدع ويعتبرونهفضولاً تنهى عنه الشريعة وتداخلًا فيما لا يعني، فلا يأبهون بها، وربما اختلفوا في كراهةالاطلاع عليها أو إباحته، وقد مارس هذه الصناعة قوم آخرون غيرهم فيهم الفاضل وغيرالفاضل، واتخذها بعضهم حرفة للتعيش بها والتكفف على أية حالة كانت، فلا تجدبينهم وبين أهل الحرف وباعة الأسواق فرقًا في الغش والخداع والكذب والنفاق والمكروالاحتيال للاستلاب والاغتيال.

عَ مَروا موضع التِصنع فيهم ومكان الإخلاص منهم خرابُ

فذهب منها الغرض المقصود وسقط شأنها بين العامة بعد أن سفل قدرها عندالخاصة، وأصبح ما كان يرَ ُجى فيها من النفع دون ما تجلبه من الضرر، ومن العقلاءمن لا يزال يرجو من الأيام أن تدور يومًا بتهذيب هذه الحال ورفعِ هذه الصناعة إلىالدرجة اللائقة بها من الشرف وعلو القدر، والحكم كله للقارئين في الإقبال على ما ينفعوالانصراف عما يضر ﴿فَأَمَّا الزبدُ فَيذَهَبُ جُفَاءًوَأَمَا مَا

ينَفَعُ النَّ اسَ فَيمَ ْكُثُ فِي الأَْرْ َضِ﴾،ثم ناديت البائع فاشتريت منه أربعًا، وفتحت واحدة أقرأ على صاحبي نتُفًا من أخبارهافوقع نظري فيها على كلام طويل عن الحكم على أحمد سيف الدين، فأسمعتهُ ما جاءفيه من وصف ما يقُاسيه هذا الأمير من خشونة العيش في سجنه، واستدرار الدموع لمايلاقيه هذا الغلام من ضيق السجن وهو من سلالة الولاة والأمراء، ثم قلت له بعد أنانتهيت من أقوال الجريدة في استعطاف القلوب والتماس العفو.

انظر أيها الباشا كيف وصلت بنا الحال في المساواة وقد علمت ما أصاب »البرنس«أحمد سيف الدين من حكم المحاكم عليه، فكيف تترفع نفسك بعد ذلك، وتأبى الخضوعللقانون والامتثال لأحكامه والتوسل بطرقه للخلاص مما وقعت فيه.

الباشا: ما »البرنس« ومن أحمد سيف الدين؟

عيسى بن هشام: أما »البرنس« فهو لقب أجنبي قديم كان يتلقب به رؤساء الدولةالرومانية قبل أن يجترئوا على الأمة بانتحال لقب »إمبراطور«، ثم صار يطُلق بعدهم فيأوروبا على أعضاء بيت الملك وعلى رؤساء الحكومات الصغيرة، ويطلقه اليوم على أنفسهمأعضاء »العائلة الخديوية« ذكورًا وإناثاً، وإن كان لا ذِكر له بين الألقاب الرسمية فيالدولة العلية، وأما أحمد سيف الدين هذا فهو أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن إبراهيمبن محمد علي جد الأسرة الخديوية وعميدها، وقد ارتكب جناية فسحبوه إلى المحاكم،واستحق العقاب الذي يقضي به القانون فحكمت عليه المحكمة الابتدائية بالسجن سبعسنين، فاستأنف يلتمس الشفقة والرأفة من قضاة الاستئناف، فأنقصوا المدة إلى خمس،ثم استغاث بمحكمة النقض والإبرام فلم تغُثه، وقد انصرفت المساعي لاتفاق أعضاءالأسرة الخديوية على التماس العفو عنه، وذهبت أمه يميناً وشمالاً فلم تبق وسيلة منوسائل الاسترحام إلا سلكتها، ولكن لا وسيلة مع القانون؛ فإن سيفه ماضٍ في كل الرقابوسلطانه نافذ في كل الرءوس، فهل يليق بك حينئذ أن تتكبر وتترفع عن التوسل والتظلموتأنف نفسك من السعي وراء

»لجنة المراقبة« و»محكمة الاستئناف«، وقد علمت منتاريـخ الأمراء وأولياء النعم ما علمت؟

الباشا: نعم كيف لا تخر الجبال الشم، إذا استنزلوا منها الأروايّ العصم،[15] وكيفلا تنشق القبور، وينُفخ في الصور، وقد انحط المقام وسفل القدر، وحقت كلمة ربكعلى مصر:»فجَعلنا عاليةَا سافلَهَا«، وما دام حفيد محمد علي في السجن على ما ترَوييخضع لحكم القانون، ويتوسل بتلك الوسائل وتتشفع أمه بتلك الشفاعات، فما عليَّ منعار فيما تدعوني إليه، فاذهب بي إلى حيث تريد، وليتهم كانوا يقبلون مني أن أكونفداءً لابن سادتي وأولياء نعمتي فتضاف عقوبتهُ إلى عقوبتي.

[15] الأراوي: جمع أروية وهو الوعل، والأعصم ما في ذراعيه بياض وسائره أسود.

لجنة المراقبة

قال عيسى بن هشام: فسرني من الباشا مطاوعته إيآي وقبوله لنصيحتي ورضيَ بالتوجهإلى نظارة الحقانية، فسار معي وهو مختنق بدمعه متعثر بقدمه، ولما وصلنا إليهاقصدنا مكان »لجنة المراقبة« وهممنا بالدخول في حجرة المفتشين فمنعنا الحاجب وطلبمنا »الكارت.«

الباشا (مستفهمًا): ما معنى هذا اللفظ الأعجمي؟

عيسى بن هشام: »الكارت« بطاقةٌ صغيرة يطُبع عليها الاسم والعمل أو الحرفةوالصنعة يقدمها الزائر قبل الدخول؛ ليكون المَزُور بالخيار في قبول الزيارة أو التملصمنها.

الباشا: لقد كانت أبواب التظلم مفتوحة في أيامنا لكل من يطرقها، وكيف ينطبقهذا التضييق على ما تصفه لي من المساواة في الحقوق والإنصاف في الأحكام؟

عيسى بن هشام: لا يسلم الحال من زيارة زائر بغير شغل أو من لجاجة صاحبحاجة، فوُضعت هذه الطريقة ليتفرغ الحكام لأعمالهم.

الباشا: ألم تكن هيبة الحكام وعزتهم بكافيةٍ لصد مَن ذَكرت عن الدنو منهموالتجرؤ عليهم؟

قال عيسى بن هشام: وبادرت إلى القلم فكتبتُ وُرَيقة باسم الباشا وسلمتها للحاجب،فجاءنا بعد الانتظار بالإذن فدخلنا فوجدنا أمامنا فتىً من أجمل الفتيان، قد أرسل لحيتهقبل الأوان، يتموج تحتها ماءُ الشباب، كما يتموج الضوء وراء السحاب، ولما اقتربنا منهبعض الاقتراب، رأيت في يده جريدة حساب، يجمع في أرقامها ويضرب في أعدادها، ثميضع يده على جبهته، كمن يتذكر رقمًا سقط من حِسبته، وعن يمينه كتابٌ أعجميّ،وعن شماله كتابٌ عربي، فكتاب اليمين

»لفولتير« الفرنسي الملحد، وكتاب الشمال لابنالعربي المتصوف الموحد، ولما تقدمنا نحوه سألنا عن حاجتنا، فذكرت لهُ العريضة التيقدمناها وقصصت عليه القصة وشرحت له ما عاملنا به القاضي من سوء المقاطعة فيالشهادة والمرافعة، وهنا انبرى الباشا يخاطبه بقوله:

الباشا: ۶ وأدهى ما في القضية وأمر ما في الأمر أن الذي تسمونه (النائب) اعتبررتبتي سبباً لإهانتي، وما كنت أتخيل في الأحلام أن الرتبة التي نلتها باقتحام الأخطارواحتمال المشاق تكون جريمة لا تغتفر وبرهاناً قاطعًا لديه في تشييد دعواه يطَلببه تشديد العقوبة، فقولوا لي بالله متى كانت هذه الرتبة الشريفة تستوجب العقابوالانتقام، ومن أي صنف أنتم بين صنوف الأنام؟

قال عيسى بن هشام: ودخل أحد الزائرين في هذه الأثناء، فحمدت الله على انقطاعالكلام بسبب دخوله، وإلا فقد كان الباشا اندفع فيه، بما يتعذر تلافيه، وبعد أن سلمالزائر سأل عما حدث من الأخبار في وجه النهار، فناوله المفتش خطبة يتفكه بقراءتها،بعد أن بالغ له في بلاغتها، وما كاد يلتفت إلينا ثانية حتى وافاه أحد المفتشين منالأجانب فأطلَ ّ َ عه على رسم في ورقة زعم أنه نقشه في أثناء مناقشة قانونية اشتد فيهاالخصام واحتد الجدال، فنظر الشاب فيه نظرة وضحك له، ثم تخلص منه للاشتغالبأمرنا، فخاطب الباشا بكلام لطيف عذبٍ ينبئ عن كرم نسبه وحسنِ أدبه وختم كلامَهُبقوله:

المفتش (للباشا): قد اطلعت على ظروف القضية كلها في »مصباح الشرق«، فأماالقاضي فقد يكون لهُ العذر في مقاطعة المحامي؛ لأن منهم من اعتاد أن يأتي في مرافعاتهبتاريخ نشأة الخليفة وتكوين الجمعية البشرية، وما يجري هذا المجرى مما يطولشرحه ويمُل سماعه، ولا يكون له أقل ارتباط بجوهر القضية، وهم يستعملون ذلك فيأيسر القضايا وأدناها؛ ليقتنع صاحب القضية أن المحامي لم يدخر لديه كلامًا يقال فيالدفاع عنه بقطع النظر عن ربح القضية أو خسرانها، فترى أرباب القضايا يعتقدونأن المحامي لا يستحق أجره من المال، إلا بكثرة ما يقال، كالسلعة

يكون تقدير ثمنها،على كمية وزنها، قد توقف بعضهم مرة عن دفع المتأخر من الجعالة المحامية بعد أنربح لهُ القضية بدعوى أنه لم يسمع منهُ كلامًا مطولاً في المرافعة يستحق عليه الأجرسواء أكان مفيدًا أم مضرا بها، وليس يخفى أن وقت القاضي قصير ثمين فلا يسعهُ إلا

لجنة المراقبة

المقاطعة على المحامي المكثر في كلامه، وكذلك تكون المقاطعة على الشاهد لتوجيهه إلىالوقائع الحادثة؛ لئلا يفوتها بالخروج عنها، وحاصل الأمر أن القاضي لم يخالف القانونبشيء فيما أتاه معكم.

الباشا: ليت شعري إذا اعتذرت عن القاضي في مقاطعته، فما العذر في وضعه لي في»قفص المتهمين« وتقييده لي بالقيام عند كل سؤال، وأنا رجل شيخ معمر، وقد قضيتعمري في المناصب العالية بالحكومة المصرية، وبذلت دمي في خدمة الأسرة الخديوية؟فهلا كان وقرني لسني واحترمني لقدري، وأي قانون في الدنيا يمنعهُ من ذلك، وتوقيرالسن طبيعي واحترام المقامات أمر أصليّ، والله تعالى يقول:﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾.

المفتش: ذلك ما يقضي به القانون أيضًا؛ فإنه قائم على المساواة بين الناس، ولافرق عنده في المقامات والأعمار، وهذا عين ما يأمر به الشرع الشريف وعين ما يجري علىأعضاء الأسرة الخديوية، وخاصة الحكام إذا ارتكب أحدهم ما يؤاخذه القانون عليه، ولامعرة عليك ولا غضاضة في وقوفك أمام القاضي، فإنما تقف أمام النائب عن الحضرةالخديوية وهي أكبر الدرجات.

الباشا: إن كان هذا حكمكم في القاضي، فما الحكم في عضو النيابة الذي عيرنيبشرف رتبتي؟

المفتش: أنا لم أطلع بعدُ على أوراق القضية وتفصيل المرافعة، ولكن ما انتشر في»مصباح الشرق« من كلام (النائب) لا يؤخذ منهُ معنى التعيير بالرتبة، بل كان غرضهأن يثبت أن الرتبة مهما عظُم شأنها لا يكون من حقها هضم حقوق الضعفاء والامتيازُبها على الناس أمام القانون، فإنها قاصرة على صاحبها لا تجعل لهُ سبيلًا

على محروممنها، ولا بأس عليكم من كلام النائب في هذا الباب، فإنه جرى بيننا مجرى العادة فيهذا العصر.

الباشا: إذا كان للقاضي العذر وللنائب الحق، فما فائدة تظلمي لكم وحضوريأمامكم؟ أفما كان من اللائق أن تزجروا القاضي وتؤنبوا النائب وتفحصوا القضية،وتتثبتوا من بطلان التهمة وتنقضوا ذلك الحكم أمامهما؟

المفتش: ليس ذلك من اختصاصنا، وإذا وقع من أحد رجال المحاكم ما يخالفواجب وظيفته، فالنظر في أمره موكول إلى »مجلس التأديب« ولا سبيل لرئيس علىمرءوس إلا بحكم من المحكمة، وأنا آسف غاية الأسف لعجزنا عن التصرف في قضيتك،والحكمُ فيها راجعٌ إلى محكمة الاستئناف وحدها.

قال عيسى بن هشام: وكنت أشاهد في أثناء هذه المحاورة شابًّا آخر بجانبنا منالمفتشين يسطع »طربوشه« احمرارًا، ويقلب طرفه ازورارًا، تلوح على وجهه مخايلالإمارة، ولا تنفك يدُهُ في رفع وخفض »للنظارة« وتشهد عليه سيماهُ بالتفنن في التدبير، وتدل على قوة الدهاء والتفكير، فلما وصلنا إلى حيث وقف بنا الكلام رأيناه ينُادىالحاجب ويقول له:

المفتش الثاني: عليَّ »بدللوز« و»وجارو.«

الباشا (لعيسى بن هشام): هل هذان الاسمان يطُلقان على القاضي والنائب؟ وهلَّ ترى هذا الشاب هب للانتصاف لي منهما؟

عيسى بن هشام: هذان اسمان لكتابين في فقه القانون بدل »ابن عابدين«و»الهداية« في فقه الشرع.

وحضر خازن الكتب بالكتابين فرد المفتش لهُ أحدهما وقال له: ما طلبت »بودري«بل طلبت »جارو«، ولما جاءه به أخذ يبحث في الكتابين طويلًا ثم نظر للخازن نظرةاليائس وقال: ائتني »بفوستن هيلي« فأتاهُ بكتاب آخر فخرج منهُ بعد النظر الطويلإلى المناقشة مع زميله باللغة الفرنسية، وانتهى الأمر بينهما أن قالا للباشا معًا: لعل لكعذرًا في القانون يمكنك أن تدلي به إلى الاستئناف في قضيتك،

وأما ما يختص بالقاضيوالنائب فسنضع لهُ »نوته« (مذكرة) ونقدمها إلى اللجنة عند انعقادها، فإذا تبين لهاأقل خلل في تصرفهما أصدرت منشورًا إلى جميع المحاكم بعدم اتباع ذلك في المستقبل.

ثم ودعانا بالاحترام والتعظيم وخرجنا والباشا يقول:

الباشا: قد كتب عليَّ أن لا أخرج من هم إلا إلى هم، ولا أنتهي من كدر إلا إلى كدرحتى كاد يصفو بالي ويخلو خاطري لكثرة ما تراكم عليَّ من الهموم والأحزان:

لجنة المراقبة

فإني رأيت الحزن لِلحزن ماحيًا كما خُ ـَط في القرطاس رسمٌعلى رسم

ومن البديع الغريب في أمر هذه الحكومة الحاضرة أنني ما وضعت قدمي في دائرةًّ من دوائرها إلا رأيت أمامي غلماناً وفتيان ـًا يتولون أمورها ويتصرفون في أعمالها، فهلخُلِقَ المصريون خلقًا جديدًا أم صاروا في الجنة استوت فيها الأعمار؟

عيسى بن هشام: لا تعجب من تقلد الشبان لمناصب الحكومة؛ فإن نظام هذاالعصر يقضي بذلك، وهم يزعمون أنه ليس في استطاعة الكهول والشيوخ أن يقوموابأعباء المناصب لخلوهم عن علومها الجديدة، وجهلهم بفنونها الحديثة.

الباشا: ِّ كيف يدعون أن العلم ينحصر في الشبان دون الشيب، وما عهدناه إلا في مَنأحنت السنون ظهورهم، وبيضت التجاربُ مفارقهم فابتسم فيها بياض الرأي والأدب.

عيسى بن هشام: هم يقولون إن العلم والمعرفة لا يختصان بسن دون سن ولاعمر دون عمر، وربما كان الشاب أنفذ سهمًا في حلبة العلوم وأجمع لشتات الفنون لمايختص به من حدة الذهن وسرعة الإدراك، فإذا انصرف بهمته إلى الدرس كان نصيبهمنها أبلغ من نصيب الكهول والشيوخ، وأغناه ذلك عن طول الممارسة وكثرة التجاربالتي يمتاز بها ذوو الأسنان والأعمار.

ليس الحداثةُ عن علِم بمِانعة ِّ قد يوجد العلم في الشبان والشيب

الباشا: ولنرجع إلى شأننا فقد اتبعت آراءك وامتثلت نصائحك، وعرضنا أمرناللجنة المراقبة فخرجنا منها بالخيبة كما ترى، فليس لنا بعد هذا التعب إلا الركون إلىالراحة اليأس، ولم يبق لك بعد اليوم وجه في أي احتجاج وجيه توجهني به، وتسحبنيمعك للسعي والتظلم أمام الحكام.

عيسى بن هشام: لا تيأس ولا تقنط فإن أمامنا محكمة الاستئناف ولي اعتمادعظيم على إنصافها في الأحكام، ولو خاب فيها الأمل، على الفرض والتقدير، فلا يزالعندنا باب العفو مفتوحًا نلتمسهُ بوساطة ناظر الحقانية.

الباشا: لا تذكر لي من الآن حاكمًا ولا ناظرًا، فقد سئمت وقوفي أمام هؤلاء الغلمانوالشبان مهما بالغت لي في الوصف واستشهدت فيهم بالشعر.

عيسى بن هشام: ليس ناظر الحقانية الذي أذكره لك من صف هؤلاء الشبانوطرازهم، ّ ُ بل هو رجل كهل عاكف على العبادة منكب على الأوراد منصرف إلى الأذكار،يمسي ليلهُ قائمًا، ويصبح نهاره صائمًا، فبين السبحة وأصابعه عهد وميثاق، وبينالسجادة وجبهته ارتباط والتصاق.

ّ ِ وبالجملة فهو يذكرنا في هذا العهد الجديد بعهدكم القديم، وأبوه رجل من أكابررجالكم اسمه حسن باشا المناسترلي.

الباشا: حسن المناسترلي! ذاك خليلي وقريني، وصاحبي وخديني، ورفيقي فيالخدمة وأخي في الحكومة، ولماذا لم تخبرني عن ابن أخي هذا من أول الأمر فتكون قدحقنتَ ماء وجهي، وأنقذتني من كل هذه الإهانة وذلك التحقير؟

عيسى بن هشام: ِما غاب عني أن أذكرك به؛ فإنه لم يكن له أقل نفع يدفع عناً ما تقلبنا فيه من المصائب، وإنما نفعه يكون في آخر الدرجات ولا عمل نرجوه منه فيمساعدتنا إلا بعد صدور حكم الاستئناف والسعي في التماس العفو من وليّ الأمر.

محكمة الاستئناف

وآن أوانُ الجلسة في الاستئناف، فسرنا في طلب العدل والإنصاف، وكل واحد منامشغول بحاجته، لاهٍ بنازلته، فالباشا يفكر في مصيبته، ويتألم من بليته، والمحامي يدبرفي أمره، ويتطلع لأجره، وأنا أسأل الله لنا النجاة، من مكايد الحياة، ولما وصلنا إلىحيّ »الإسماعيلية« ورأى الباشا دورها ومبانيها، وشاهد قصورَها ومغانيها، واستطابرياضها وحدائقها، واستنشق رياحينها وشقائقها، استوقَفَنا سائلًا مبهوتاً، واستنطقنابعد أن كنا سكوتاً، فقال: ألاَ تخبراني عن موضع هذه الجنة الزاهرة، من مدينة القاهرة،فقلت له: هذه »الإسماعيلية« اختطها إسماعيل، فيما اختطه لزينة وادي النيل، يسكنهااليوم جماعة من العظماء، ذوي الغنى والإثراء، وقد كانت في أيامكم خراباً قفرًا، لا تحملبيتاً ولا ترفع قصرًا،ًولا ترى فيها من النبات غير الطلح والضال،[16] ولا من الأزهار غيرَّ شوك القتاد أو شوك السيآل،[17] ولا من الطير غير البوم والغربان،ًأو الرخم والعقبان، ولا
ٍّتجد فيها من الإنس إلا لصا سالباً، أو مغتالاً ناهباً، أو فاتكًا متأهباً، أو كامناً مترقباً.

الباشا: لله در المصريين لقد ابتسم لهم الدهر، فأبدَلَهم من الشوك الزهر، وأسكنهمهذه القصور العالية، بعد تلك الأطلال البالية.

المحامي: أيها الأمير لا تغبط المصري على نعمته، وتعال فابك معنا من نقمتهفليس له في هذه الجنة من دار، يقر له فيها من قرار، وكل ما تراه من هذا الجانب، فهوملك للأجانب.

---

[16] الطلح، شجر عظام ترعاها الإبل، والضال، السدر البري.

[17] القتاد، شجر صلب له شوك كالإبر، والسيال، جمع سيالة نبات له شوك أبيض.

الباشا: لله أبوك كيف يختص الأجنبي دون الوطني بهذه الجنان الناضرة، ويستأثردونه بهذه المساكن الفاخرة، ولعلك تلُغز في قولك وتحُاجي، وتعمي في تعبيرك وتدُاجي.

المحامي: لا تحجية ولا تعمية، بل هكذا قدر المصري لنفسه، وتبدل سعده بنحسه،واقتنع من دهره بالدون وبالطفيف، ورضي بالقسم الخسيس الضعيف ... فبات محرومًاتحت ظل إهماله وخموله، وغدا بائسًا في سباته وذهوله، وما زال الأجنبي يسعى ويكد،ويعمل ويجد، وينال ثم يطمع، ويسلب ثم يجمع، والمصري يبذر بجانبه ويسرف، ويبددويتلف، ويتحسر ثم يلهو، ويعجز ثم يزهو، ويفتقر ثم يفتخر، فتساوى السيد والمسُود،وتشابه الحاسد والمحسود، وتعادل الرفيع والمنيع، بالحقير والوضيع، واشتركنا كلنا علىالسواء، في منازل الشدة والبلاء، وأصبح نصيب القويّ المكين، مثل نصيب الضعيفالمستكين، وكذلك تكون عاقبة من يلُقي للأجنبي بيديه، ومن أعان ظالمًا سُلّط عليه.

ومن يجعل الضرغام بازًا لصيده تصيّده الضرغامُ فيما تصيّدا

قال عيسى بن هشام: وما كاد ينتهي رفيقاي من خطابهما، ويفرغان من سؤالهماوجوابهما، حتى مر بنا راكب درّاجة تنساب به كالصلال[18] في بطون الرمال، ويتمايلبها تمايل النشوان مالت به نشوة الخمر، وينثني انثناء الأغصان، هزها نسيم الفجر،فامتلأ الباشا، تعجباً واندهاشًا، وسألنا الشرح والبيان، عن أمر هذا »البهلوان«، فقلت:هذه عجلة حادثةٌ يختارها بعض الناس، على المركبات والأفراس، ومما يرغبهم فيها أنهالا تأكل ولا تشرب، ولا تهَزَل ولا تتعب، وهذا الراكب رجل من أهل القضاء، يركبهالرياضة الأعضاء، فأتبعَه الباشا نظره فوجده قد سقط فجأة من فوق دراجته، فانفرطعقد الهيئة على سطح الأرض إلى ثلاثة أقسام: الراكب

[18] الصلال: جمع صل، وهو الحية.

،
والعجلة والطربوش، ثم رأيناهتماثل للقيام فلم شَعَثهَ، وحاول أن يعلو الدراجة ثانية فلم يقدر عليها فسحبها بيدهيجرها ويماشيها، وأخذ الباشا يخاطبنا فيه وفيها.

الباشا: يا حبذا لو عُدنا من حيث أتينا، وكنا مُطلقين لا لنا ولا علينا، وكيفيكون شأن القاضي أو الحاكم إذا كان هذا منظره وذاك مركبه أمام أعين العامة، وهلحُكِم الناس يومًا بغير أبهة الحجاب وعظمة المناظر وفخامة المواكب، وقد كان الحاكمأو القاضي لا يركب في عصرنا إلا في موكب تحف به الحشم والأعوان، وتتقدمه الجنودوالفرسان، فترتجف منه القلوب رعباً، وتخر له الأعناق رُهباً، ٍوقل من يجترئ من الناسعلى ارتكاب ما يقَفه أمامه يومًا موقف التهمة والارتياب.

عيسى بن هشام: ذاك عصر مضى وحكم انقضى، ولقد تفنن أهل العصور الماضيةفي وصف ما تذكره من منظر الأبهة والجلال وهيئة العزة والوقار؛ حتى أدخلها الشعراءفي مخالصهم البديعة، كقول أبي الطيب في ممدوحه مثلًا:

جَ محَ الزمانُ فما لذيذ ٌخالصٌ مما يشُ وب ولا سرورٌ كاملحتى أبو
الفضل بن عبد الله رؤ يتِه المنُ ىَ وهي المقام الهائل

المحامي: قد آن أن نفرغ من هذا الحديث فقد اقتربنا من المحكمة.

عيسى بن هشام: ولعلنا نجدها بإذن الله في مكانها، فقد تعودت التنقل من مكانإلى مكان حتى أشبهت خيام العرب:

يومًا بحزوَى ويومًا بالعقيق وبالـ عُذيب يومً ا ويومً ا بال خليصاءِ

ثم اقتربنا فوجدناها، وأقمنا في ساحتها ننتظر نوبتنا بين أرباب القضايا حتنودي علينا، فتقدمنا للجلسة أمام ثلاثة من القضاة،ٌ فأخذ الأجنبي منهم يقرأ »ملخصالقضية« بلهجة أعجمية، وحروف لم تستوف مخارجها فقال:»إن هذا الرجل متهمبالتعدي على فلان العسكري بالضرب في أثناء تأدية وظيفته في يوم كذا

من شهر كذاوالمتهم أنكر،ء وشهد المجنيء عليه ودل الكشف الطبي على وجود علامات فيه للضرب،والمحكمة الابتدائية حكمت عليه بالحبس سنة ونصفًا بالتطبيق على مادتي ١٢٤ و٦٢١،عقوبات فاستأنف المحكوم عليه«.

ولما سألت المحامي عن هذا التلخيص الغريب قال لي: هكذا تجري العادة هنا،فيأخذ مثل هذا القاضي الأجنبي عبارة الديباجة المذكورة في الحكم الابتدائي، فيجعلهاتلخيصًا للقضية، ثم يكتبها بعربيتها بحروف أجنبية ليقرأها أمام الجلسة على نحو مارأيت.

ثم التفتَ رئيس الجلسة إلى الباشا وسأله عن اسمه وسنِّ ه وصناعته ومحل إقامتهوأشار إلى النيابة بالكلام فشرع النائب في شرح القضية على ما يوافق هواه، ولم نسمعمن الرئيس مقاطعة له في كلامه كما يكون في المحاكم الابتدائية »والسر في ذلك أن بعضَّ القضاة الذين لم يكونوا اطلعوا على أوراق القضية في الاستئناف هم في حاجة إلى العِلمبها من أقوال النائب فيتركوه وشأنه في التطويل والإسهاب«، ثم أذِنَ الرئيس بالكلامللمحامي مع الإيجاز، فابتدأ المحامي بسرد أقواله في أوجه الدفاع عن المتهم، وكلما وصلإلى النقطة المهمة في دفاعه قال له الرئيس:»الموضوع«»طلباتك«، ولما تكرر منه وقوعذلك رأيت أحد القضاة ينبه الرئيس إلى أن كلام المحامي في عين »الموضوع«»وللرئيسالعذر؛ لأنه لم يطلع على تفصيل القضية ولم ينصت لأقوال النيابة«، ثم نطق الرئيس بعدذلك بقوله:»سمعت القضية والحكم بعد المداولة«، فانتقلت الجلسة إلى حجرة المداولة،وخرجنا ننتظر، وسألت المحامي عن المدة التي تنقضي في المداولة فأجابني:

المحامي: لا تزيد مدة المداولة في الغالب عن ساعة واحدة.

عيسى بن هشام: وما هو متوسط عدد القضايا في الجلسة؟المحامي: متوسطها عشر قضايا.

عيسى بن هشام: وهل تكفي هذه المدة للاطلاع على ما تحتويه القضايا الجنائيةمن كثرة الأوراق؟

،

المحامي: نعم تكفي عندهم، وطالما اطلعنا على القضايا التي تعود من عند القاضي»الملخص« إلى قلم الكتاب لاطلاع المحامين، فنجد عليها رمزًا بأحد هذه الأحرف:»ب«

»ع«»ت«، فالباء إشارة إلى البراءة، والعين إشارة إلى العقوبة، والتاء إشارة إلى تأييدالحكم الابتدائي، وإنما يضع القاضي هذه الرموز حتى لا ينسى رأيه في القضية عندعرضه على زملائه في المداولة، فإذا عرضه عليهم لم يضِ َع الوقت بينهم سدى في البحثوالمناقشة، ولكن لما كان القاضي الجنائي له الاستقلال المطلق في الحكم بما يرتاح إليهضميره وتطمئن به نفسه كان من الواجب عليه أن يسلك غير هذا الطريق، ويفحصأدلة الثبوت وأدلة البراءة بنفسه، فيعرضها على ضميره وهو خالٍ من كل اعتقاد خاصللبراءة وللتهمة، حتى إذا استقامت لديه الأدلة حكم بما يغلب عليه منها، لا أنه يجريفي طريق التسليم لرأي غيره، ولا أن يكون الحكم مبتوتاً في القضية بأحد هذه الأحرفالثلاثة التي عنت للقاضي الملخص وهو يمر عليها في انفراده ببيته مر السحاب.قال عيسى بن هشام: وبينا نحن في هذا الكلام؛ إذ عادت الجلسة إلى انعقادهافدخلنا لسماع الحكم فنطق الرئيس ببراءة الباشا؛ لأن التهمة وإن كانت ثابتة عليه إلاأنه قد حالت دونه ودون دعوة القانون قوة قاهرة، فخرجنا مسرورين بهذه النعمة،وخرج الباشا وهو يقول:

الباشا: لا أنكر اليوم أن العدل موجود ولكنه بطيء، لا يتحمل أعباء بطئه البريء،وكان الأولى في هذه المحاكمات أن تكون النهاية في البداية، فلا يلَحق من كان مثليهذا الهوان والصغار، ويقع به ما وقع من الحبس والعار، بعد أن يقف موقف التهمةوالإجرام، ويحل به ما يحل من التعذيب والإيلام.

المحامي: إني أهنئك بهذه البراءة وأسأل لك دوام العافية من مصائب الاتهام، ولازلت تخرج من كل قضية خروج السهم من قوسه، والسيف من غمده، وقد مضى منيالدفاع وبقي عليك الدفع.

قال عيسى بن هشام: وما زال المحامي عاكفًا علينا يطالبنا بالأجر، والباشا يعدهلآخر الشهر، حتى يأتيه بعض خدمه وأتباعه، بمال من عقاره وضِياعه، والمحامي يأبالتسويف والإمهال، وإلا الدفع في الحال.

المحامي (للباشا): أتظن أن هذه الوعود، تقوم لدينا مقام النقود، في بلد كثُرُ فيهالإنفاق وزادت الضرورات،، وقل فيه الربح كما قلت المروءات، وصار الدرهم أعز عندالأب من بنيه، وعند الابن من أبيه، ولقد تعبتُ في القضية تعَبيَن باللسان وبالجنَان، ولاأستريح منهما إلا بنقد الأصفر الرنان، وإنك لا تصرفني — وإن كنت محمود الخلق —بالوعد، ولكنك تصرفني — وأنا أحمد — بالنقد، وإني لا أريد أن أسكن في بيت المتنبي:

أنا الغني وأموالي المواعيد.

فلا تجعل الخلاص من قضية بقضية، والفكاك من بلية ببلية، فذلك ما لا يأتيهالعقلاء، ولا يرتضيه الأمراء.

قال عيسى بن هشام: ولما رأيت الباشا لم يقدر على التلفظ، من شدة الحنق والتغيظ،وقفت بينهما وقفة الأريب، وتوسطت توسط اللبيب، فنلت بلطف الالتماس والرجاء،رضاء المحامي بالمهلة والإرجاء، إلى أن ينتقل الباشا من العوز والعسر، إلى الغنى واليسر،وقلت له ما يقال له في باب المروءة والهمة، من وجوب الحنو على من يقع في مصيبةأو مُلمة،، وأن من تذكر الدهر وغِيَره، والزمان وعبره؛ لانت عريكته، وطاوعت شكيمتهوليس بين صعود المرء ونزوله، وإشراق سعده وأفوله، وبين غناه وفقره، وصفوه وكدره،إلا مسافة انقضاض القضاء، من رب السماء، فنظر إليّ الباشا نظرة الاحتقار والازدراء،وخاطبني بالأنفَة والكبرياء:

الباشا: لبئس الخدينُ أنت والقرين، كيف تسِمُني بسمة الفقراء، وتستعطف عليَّ قلوب الضعفاء،، وأنا الأمير السري والغني المثري، وأين ما ادخرته في عمري، واكتنزتهفي عصري، من مال وعقار، وفضة ونضُار، وقصور وضياع، وزخرف ومتاع، ولقد كانيضرب بغناي المثل، فإن كنت جاهلًا بي فَسَلْ،، اذهب فأتني بخبر ما خلفت

،
وأبقيت،وأثر ما جمعت واقتنيت، وكيف يخفى عليك وعلى المحامي ما لي من الأموال والعقار،وما قضيت فيه العمر من الجمع والادخار؟ فإني يشهد الله ما تركت حيلة، ولا أغفلتوسيلة، في الحصول على الإثراء والغنى، حتى جمعت منه كثيرﹰاً مما تفرق على الورى،فجعلتهُ عدة لشد أزري، وأماناً لي من مصائب دهري، وتركته ذخيرة لأبنائي وحفدتي،وميراثاً لأعقابي وذريتي؛ ليكونوا من ذل الحاجة في جُنة،[19] ومن نعيم العيش في جَنة،وتركتهم على ذلك مطمئن القلب مستريح الفؤاد، رفيع الذكرى رفيع العماد.

المحامي: إنَّ ا لنعلم، يا معشر الأمراء والحكام، أنكم قضيتم الأعمار في جمع الحطامواتخذتم الحكم والسلطان تجارة من التجارات وبضاعة من البضاعات؛ تربحون منهاالغنى والثروة، ولم تكونوا تعلمون للحكم من مزية سوى اكتناز الأموال، واستلابالحقوق، وابتزاز الدراهم من دماء الأرامل والأيامَى، وانتزاع الأقوات من أفواه الأطفالواليتامى، وكنتم سواء عليكم أحُزْتم المال من حِلٍ له أم غير حله لم تبالوا بالضعيفالمسكين، ولم ترَثوا للعاجز المستكين، بل ظلمتم البريء وبرأتم الظالم فجمعتم لديكمَّ من أثر ذلك ما لا يقدر من الأموال، ورضيتم بالوزر وطوقتم أعناقكم بالإصر،ﹰ ثم حرمتمبعد ذلك على أنفسكم التمتع بما جمعتموه وحَرَمتموها من كل ما حزتموه، ولم تكونوامن الذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم، ولم تؤدوا ما فرضه الله عليكم فيهامن الحقوق، ولم تطهروها بزكاة، ولم تزكّوها بإحسان، وأطربكم رنين الدرهم فوقالدرهم، وصمتُ الدينار مع الدينار، وأبدعتم ما شئتم في وسائلَ وطرائق يأباها اللهلعباده ويمقتها، ويستبشعها الإنسان ويستفظعها، لسلب ما سلبتموه وكنز ما كنزتموهبالإثم والعدوان ومعصية الرسول، واجترأتم على الله في أوامره ونواهيه، وكلفتم العلماءَّ بتأويلها على أهوائكم فأولوها لكم لانحصار الأرزاق في أيديكم واحتياجهم إلى ما يقتاتونبه من فضلات عيشكم، فالوزر عليكم وعليهم،

[19] الجنة: السترة وكل ما وقى من السلاح.

ولكنه عليكم أعظم وفوقكم أثقل، حتىَّ إذ انقضى العمر وحل الأجل تركتم ما خلفتموه لغلمة من أولادكم وصبايا من جواريكمنشأوا بينكم على الحرمان، ولم تثُقفوهم بالتعليم، ٍولم تتركوهم للزمن يؤدبهُم، وللأياموالليالي تهذبهم، ًفكنتم في أعينهم كالرصد الذي يكون على باب الكنز — كما يقال فيالأقاصيص — يحتالون لنقله بقتله، فإذا استراحوا منكم بالموت أو القتل مزقوا أموالكمانتقامًا منها ومنكم، وفرقوا شملها في أدنى من لمحة؛ جهلًا منهم بوجوه التصرف وأبوابالتمتع، فما هو إلا أن يتسابق الدودُ والورثة في أحشائكم المدفونة، وأحشائكم المخزونة،فيسبق الورثةُ الدود، في الصدور والورود، فتذهب البدَْرة وراء البدرة، والضيعة بعدالضيعة، والدار عقِب الدار، حتى إذا لم يبق إلا بيت السكن أتوا على ما فيه من الأثاثبيعًا وما في أعناق الجواري من الجواهر والقلائد رهناً، ولا يزالون يخُلوُن من البيتحجرة إثر حجرة، والدائنون يدخلون فيه خطوة إثر خطوة، ًإلى أن يندك بناؤه ويعفوأثره ويزول اسم بانيه الذي ارتكب ما ارتكب من الذنوب لتشييده ودوامِ بقائه، وهويشيع منهم باللعنتين في الحالتين حالة الخلاص منه بالتشييع إلى القبر، وحالة أسفهمعلى إهماله إياهم من تثقيف العلم بما كان ينفعهم في خشونة الفقر.

هذه أيها الأمراء عاقبة ما صارت إليه أموالكم ومقتنياتكم من بعدكم، ويا ليتأولادكم وأحفادكم خففوا عليكم من الإثم في جمعها من دماء المصريين بإنفاقها بينهم،وتبذيرها فيهم، فيكون ذلك منهم كَرَ ٍد بعض الحق إلى أهله، ولكن البلاء كل البلاء أنهاذهبت جميعًا إلى أيدي الأجانب والغرباء، وكأن الدهر سلط المماليك على المصريين ينهبونأموالهم، ويسلبون أقواتهم ثم سلطكم الله عليهم لسلب ما جمعوه، ثم سلط عليكمأعقابكم، فسلموا مجامع ذلك للأجانب يتمتعون به على أعين المصريين، والمصريون أولىَبالقليل منه، وما دفع بأعقابكم إلى هذا اللين والتسليم، إلا ما ورثوه عنكم من الاحترامٍ لشأن الأجنبي ٍوالاحتقار لجانب المصري، وأنكم لم تكتفوا بأن تكونوا أرباباً للمصريينحتى شاركتم معكم الأجنبي في تلك الربوبية، فغَلَبكَم عليها وأشرككم مع المصريين فيالعبودية وتشابهت الموالي بالعبيد، وقد آن أن تعلم

،
أيها الأمير بأن جميع أقرانك وإخوانكمن ذوي الثروة واليسار في أيامكم قد أصبحت بيوتهم خاوية على عروشها، وأبصار

أعقابهم شاخصة إليها، فإن أردت أن تبحث عن أموالك وضياعك اليوم فابحث عنهاً تحت ثفال تلك الرحَى،[20] وقُل معي ما يقوله الشاعر الحكيم:

يقول الفتى: ◌ّ◌َ ثمرتُ مالي وإنما لوارثه ما ثـَـمر المالَ
كاسبُهيحُاسب فيه نفسه في حياته ويتركه نهبًا لمن لا يحاسبه

فيا عَبثَ المدخر الجامع، ويا غبن المكتنز الطامع، ما كان أغناكم عن الجمعٌ والادخار، وعن الحرمان في الدنيا والخلود في النار.

الباشا: ◌ّ◌َ أراك قد تجاوزت أيها المرشد الواعظ حدك في اللوم والتعنيف، وخرجتعن طورك في العذل والتعزير، وكان بودي أن أعطيك أجرك مضاعفًا، ولا أشاهد منكهذه الجرأة علينا بسوء التقريع والتوبيخ،ٍوربما قلت حقا في بعض ما تقول، والرجاء فيغفران الله عظيمٌ وفي رحمته متسعٌ، ولعل ما تخلل أعمالنا في أيامنا من الحسنات يشفعلنا فيما اقترفناهُ من السيئات، ولكن كيف التدبير الآن في اكتساب المعيشة، والاحتيالُللالتماس الرزق، بعد أن ضاعت الأموال وذهبت من أيدينا الأحكام على نحو ما ترويوتحكي، وما أرى لضيقي من الفرج إلا أن أورد نفسي حتفها، وأعيد لها حمامها، فماأروَحَ ما كنت فيه من ظلام الرمس،[21] وما أقبح ضياء هذه الشمس.

عيسى بن هشام: ليس لمثل حالتكم غير الأسف منا والتوجع لكم؛ فقد تمكنالاعتقاد في رءوس الحكام أن ما يقع بالاتفاق لهم أحياناً من ولاية الأحكام هو قياسمُ ًطرد وصراط مستقيم لا ملجأ لكم سواهُ في وجوه المساعي وممارسة مطالب الحياة،وقامت الولاية عندكم مقام بقية الآلات والصناعات التي يجتنِي أهلهُا منها ثمر الارتزاقوالتكسب، فإذا خلَت أيديكم منها واعتزلتم الأحكام تقطعت بكم الأسباب وضاقت بكمالسبل في وجوه المعايش كما تصاب يد الصانع بالشلل،

---

[20] الثفال: جلد يبسط تحت الرحى والحجر الأسفل من الرحى.

[21] الرمس: القبر.

فيتعطل عن العمل، ويصبحِّكلا على كاهل الجميع، يرجو الموت كما رجوت، ويتمنَّ ى راحة العدم كما تمنيت، وكأنكمأيها الحكام صنف فوق أصناف الخلقة، لكم نصيب من العيش دون سائر الخلق، فلا تكونون إلا فوق ذهب العرش أو فوق خشب النعش، وقد قال مسكين من رؤساءصناعتكم هذه، وهو في ضيق الحبس، وضيق النفس:

ونحن أناسٌ لا توسط عِندنا لنا الصدر دون العالمين أو القبر

ومعلوم لك ما في هذه الصناعة، صناعة الولاية والحكم، من قلة ما يرفعه الصدر،وكثرة ما يضمه القبر، وكان الأولى بكم أن تكونوا كالناس في معايشهم لكل إنسان آلةبينة من صناعة أو حرفة أو مهنة يحُسن بها التعيش والارتزاق حتى إذا أنتم نزلتم عنتلك العروش دخلتم في بقية الأحياء من أفراد الجمعية تنفعون وتنتفعون.

الباشا: تالله إن ما قاسيتهُ من الآلام أمام البوليس والنيابة والمحكمتين واللجنة كانِّأقل هما، وأدنى شجناً من مرارة هذا النصح والوعظ، وما الرأي عندكما وقد فات وقتالتحصيل والطلب، ولم يبق وقت للصناعة والعمل، والموعظة صالحة نافعة ولكنها لمنيجيء لا لمن يمضي.

قال عيسى بن هشام: فأحزنتني حالة الرجل وأشفقت عليه، فأخذت أتدبر له وأتفكرفي طريقة يتعيش بها، وكلما خطر لي في ذلك خاطر خاب رجائي فيه، حتى كدت أيأسمن الحيلة، والباشا ينظر إليَّ وأنا في تفكري تارة ويطُرق للتفكير في نفسه تارةً أخرى،ثم رأيتهُ قد انتفض من مكانه وأخذ بيدي يقول لي:

الباشا: قد وجدت والحمد لله باباً لسد العوز وكفاف العيش.

عيسى بن هشام: ماذا وجدت؟

الباشا: كان من عادة الحكام أمثالنا في الأزمان السالفة أن يأتوا فيما يأتونه منِّ أعمال الخير التي تقربهُم من الله وتعتق رقابهَم من النار بعمل صالح اتفقوا عليه

كافةً،وهو إقامة بناء لجامع أو كُتَّ اب أو »سبيل« وكانوا يخصصون له أرضًا أو ضيعة وقفًاعليه للإنفاق من ريعها على طول الزمان، وقد سلكتُ مسلكهم واتبعت سُ َنتهم وخلفتلذلك وقفًا عظيمًا؛ لا تناله أيدي الأعقاب بالإتلاف والتبذير، فهلمّ معي نبحث على ماشيدتهُ ووقفتهُ.

الوقف

قال عيسى بن هشام: ‌وظللت أنا والباشا نواصل الطواف بالطواف للوقوف على تلكالأوقاف، ونسائل العابر وابن السبيل، عن المسجد »والسبيل«، ولا سؤال المُجدِب عنالروض، والظمآن عن الحوض، فلم نجد من يرُشد، إلى ما ننَشد، وأخذ الباشا يتذكرالطرق وأماكنها والأزقة ومساكنها، ويقول: كان هنا وكان هنا، ‌وجل ما يقضي به إلهُناَ،وما زال يقاصر في خَطَواته، ويطاول من آهاته، ويبكي لرسوم الأطلال والديار، بكاءَّ صاحب عزة[22] أو صاحب نوَار.[23]

فاسألَنها واجعل بكاك جواباً   تجد الدمع سائلًا ومجيبَا

حتى وصلنا بعد طول التَّ جوال والتجواب، وترداد المجيء والذهاب، إلى مُنعطفمضيق، في منتهى الطريق، فوقف الباشا هناك قُ‌بالة دور مهدمة، وجدران محطّمة،ومسجد في ناصية منه حانوتُ خمار، وفي زاوية منه دكان عطار، وبجانبهما حوانيتمتباينة الأوصاف، مختلفة الأصناف، فطفق الباشا يصعد نظره فيها ويصوبه، ويخُطئحَدسه تارة ويصوبه، فهداهُ طول النظر والتدقيق، وشدة الإمعان والتحقيق، أن رأىشيخًا فانياً متربعًا في دكانه، متحيزًا بمكانه، عليه علامات الانحلال والسقوط، وشاراتالخذلان والقنوط، وسيما الرضاء بالمقسوم، والتسليم للقضاء المحتوم، له جبهة كأنهامن ورق البَردي العتيق، ‌تتلو فيها ما دونه الدهر من آيات الشدة والضيق، فخرج الباشافي الحال من حال المتحير المتردد، إلى حال الواثق المتأكد، فنادى صاحب الدكان عن بعُد،نداء السيد للعبد، فانتفض الرجل

---

[22] عزة: هي التي كان يتشبب بها كثير الشاعر.

[23] نوار: هي امرأة الفرزدق التي كان يتشبب بها.

انتفاضًا عجيباً، وقَصَدَه مُلبياً ومُجيباً، فما شككتمن هيبة النداء وأدب التلبية إلا أن ملكًا ينادي أحد الحاشية، ووقف الرجل أمامنا وقفةالممتثل الخاضع، والمطيع الخاشع، فقال له الباشا، بعد أن حدّد فيه نظره، واستجمعفكره:

الباشا: ألستَ ◌ِّ◌ّ أنت أحمد أغا الركبدار المعدود من أهل حاشيتي، ألاَ تعرفني منأنا؟

صاحب الحانوت: لولا أن الموت حجاب كثيف وحجاز منيع بين ظهر الأرضوبطنها لقلت: إنك سيدي وأميري، ويشهد الله أنني كلما أمعنتُ في وجهك وسمعتلصوتك كاد يطير عقلي ويندهش لبي لاستحكام الشبه بينك وبين سيدي المرحوم.

الباشا: إني أنا سيدك وهذه هي العلامة التي تعلمها في جسمي من أثر اللعببالجريد على مشهد منك في يوم من أيام السباق والرهان.(وكشف الباشا عن ساقه فأراهاالعلامة، فوقع الرجل مُنكبًّا على الأرض من شدة الدهشة يقبل قدم الباشا، ويغسلهابمنحدر الدموع ويقول في بكائه وشهيقه:)

صاحب الحانوت: كيف بالحياة بعد الممات،ٌ لحق أنت إحدى المعجزات، وليس مأأراه بغريب فقد شاهدت في هذا العمر الطويل ما لا تحيط بوصفه الأقلام، ولا تتسع لهبطون الدفاتر من عجائب الانتقال وغرائب الانقلاب، فلا يبعد بعد ذلك أن تشُرق الشمسمن مغربها وتخُرج الأرض أمواتهَا من مقابرها.

قال عيسى بن هشام: فقلت للرجل: لا تكثر من الدهشة والحيرة ولا تغرب فيالاستغراب والتعجب:

على أنها الأيام قد صرن كلها   عجائب حتى ليس فيها عجائب

واعلم أن القدرة لا تعجز عن شيء في الوجود ولا تحيط بها العقول، ثم قصصتعليه قصة الباشا منذ البداية، فصاح الرجل يبكي ويتضرع ويقول:

ليت أمي لم تلدني وليت القدرة التي بعثت الأمير من بعد موته نشرت معه زمنهوأعادت عصره، وإلا فكيف له بالعيش في هذا الزمن، وما أولاهُ بالعودة إلى أدراج الكفن.

الوقف

ثم التفت إليَّ الباشا وشرع يقص عليه ما مرّ به من الحوادث والكوارث، وما جرىلبيت الباشا ولأهل طبقته من النوازل والخطوب:

صاحب الحانوت: ولم يبقَ لك أيها المولى من أثرٍ يذُكر في ثروتك ومتاعك، وأموالكوضياعك، وقد عشتُ دهرًا وأنا متمتع بريـع ما وقفتهَ أيها الأمير على حاشيتك وأتباعك،وعلى هذا المسجد والسبيل والكتاب لتخليد ذكرك وإحياء اسمك، فما لبث الوقف أنتهدم وتخرب بطول الترك والإهمال،ء فوقعنا كلنا في الفاقة والاحتياج وانقلب الكُتابمخزن ًا والسبيل خمارةً والمسجد مصبغةً كما تشاهد وترى، وأصبحت أنا بيطارًا بعد أنكنت »ركبدارًا«، وأخذتُ هذه الحانوت من الوقف لممارسة صناعتي فيها والتعيش منها،وسبحان مقلب الأحوال، ومبدل الأشكال.

الباشا: ألم يبق من ذريتي أحد يباشر هذا الوقف بنظره؟

البيطار: آخر العهد عندي كان بواحد منهم ذهبتُ إليه لأجل هذه الحانوت وأعلمتهبمكاني من أهل الحاشية فانتهرني وطردني، وأبعدني وزجرني، ولكنّ الحاجة دفعتنيإلى الإلحاح، فترددت عليه مرارًا فتخلص من ثقل إلحاحي بإحالتي على رجل إفرنجيعنده يدبر له ما بقي لديه من ثروة نضبت عينها، ونزحت بئرها، فأحالني الإفرنجيعلى صاحب الخمارة؛ لأنه أصبح صاحب الأمر في أرض الوقف بوضع اليد عليها، وليسيجسر أحد أن يعمل فيها شيئاً بغير إرادته؛ خوفًا من الخصومة في المحاكم، فقصدتالخمار واتفقت معه على أجرة معيَّ نة، وأقمت في هذه الحانوت أصرع الدهر ويصرعُني،وأطلب القوت ويعوزني، وأتعجل الأجلَ ويمُهلني، وتعالى الله المتفرد بعزته، المبدع فيحكمته.

الباشا: وأين هذا الولد العاق المخالف لإرادتي، وهو يعلم أن شرط الواقف كنصالشارع.

البيطار: هو مقيم الآن في
»الأوتيل.«الباشا: وما
الأوتيل؟البيطار:
»اللوكاندة.«الباشا: وما
»اللوكاندة«؟

عيسى بن هشام: الأوتيل« ۔ هو بيت معروف يعدونه لنزول مَنْ لا بيت له منالغرباء على أجر معين، وهو في المعنى كالخان الذي تعرفونه في زمانكم.

الباشا: هل وصل التدنِّ ي بهذا الخائن إلى سُكنى الخان،ٍ وسبحان مصرف الأحوالومغيّر الأزمان، وكيف يطيب للمسكين عيش على هذه الحال، بعد عز النعمة ووفرة المال،أفكان رجوعي إلى الحياة على ما لا أرغبه ولا أرضاه، تعذيباً لي على ما فرطت في جنبالله، أوَلم يكن عنده سبحانه في الآخرة من عذاب النار، ما يغني عن التعذيب بالعار، فيهذه الدار،ٍ رب إن الجحيم لأهون عليَّ في العذاب والنكال، مما ألاقيه من الرزية في المالوالعيال:

فليت وليدًا مات ساعة وضعِهِ ولم يرَتضَع من أمه النُّ فِساء

عيسى بن هشام: ليست السكنى في »الأوتيل« اليوم عن ذل وفقر، بل هي عنعز ويسر، فإن النفقة فيه عن بضعة أيام تكفي لنفقة شهر، على أكبر قصر بجواريهوخَدَمه، وأتباعه وحَشَمه، وقد دعا أولادَكم إلى ذلك ولوعهم بأحكام التقليد للأجانبوإتقان الاقتداء بهم، والسعيد المنعم من أولاد الأمراء اليوم من يبيع عقاره ويرهنضياعه لتتيسر له الإقامة في هذا الخان، ومنهم من يتعذر عليه مفارقة أهله

فيؤُتى لهبالطعام من »الأوتيل« إلى البيت، وعنده الطباخ في أسفله والجواري الطاهيات في أعلاه.

الباشا (للبيطار): أرجوك أن تصف لصاحبي مكان »الأوتيل« الذي يسكنهُ ذلكالغلام فإن بي حاجة إلى لقائه.

البيطار: كيف تخاطبني أيها الأمير بلفظ الرجاء، وأنا أنتظر في خدمتك أن تأمرنيبما تشاء، وهل تظن أني أفارق ركابك أو أزايل معيتك مهما تقلبت الأحوال وتبدلتالأزمان؟ فهلمّ منك الأمر والإشارة وعليّ السمع والطاعة.

أبناء الكبراء

قال عيسى بن هشام: ودعاني الباشا للسير معه، وهو يكفكف دمعه، وتبعَنا البيطار منخلفنا بخطاه الثقيلة، وعصاه الصقيلة، فقد صقلها طول التوكؤ والاستعمال،ً وتعزبها في السير والانتقال، عن ظهور الخيل ومتون البغال، إلى أن وقفنا عند أحد القصورالكبيرة، من الفنادق الشهيرة فهال الباشا ما رآهُ من ضخامة البناء، وفخامة المنظرُ والرواء، وما لقيه من أدب الخدم والأعوان، ورشاقة الوصفاء والغلمان، فتخيل أنناأخطأنا الأبواب والمداخل، فدخلنا بيتاً من بيوت الوكلاء أو القناصل، وتقدمت للسؤالاستخبار، وقد خلفنا البيطار في الانتظار، فدلنا أحد الخدم على رقم المكان الذي يسكنهالأمير، وبعد طول التردد والتفكير،ٍ فما وصلناه حتى دفع الباشا بيديه دفتيَ الباب، لميلتفت لطلب إذن ولا لرجع جواب، فوجدنا أمامنا جماعة من أولاد الأمراء، وأعقاب الكبراء،مختلفين في الجلوس، حاسرين عن الرءوس، ففريق منهم عاكفون على لعب القمار،وفريق ينظرون في صور خيل المضمار، ومنهم جماعة قد استداروا بامرأة نصف لاعجوز شوهاء،[24] ولا فتاة

[24] النصف: المرأة الوسط بين الحدثة والمسنة.

حسناء، تجتلب الحسن بإفراط التأنق والتفنن في وجوه التصنعوالتزين، فيكاد يضيء وجهها بسَناَ العقود والقلائد، ويتلألأ جبينها بلألاء الجواهروالفرائد، وفي وسط المكان مائدة عليها صنوف الراح، في الأباريق والأقداح، وبجانبهامِنضدة،[25] عليها آنية منضدة، وفوقها الدواة والقرطاس، وبراعة مرصعة بالماس، وكتبٌأعجمية موشاة بالذهب، لا أدري إن كانت في اللهو أم في الأدب، وعلى الأرض أوراق أحكاممنشورة، وجرائد تحت الأقدام منثورة، لم يفضض عنها »ظرف«، ولم يقرأ منها حرف،وسمعناهم يتراطنون جميعًا بلغات أجنبية، دون اللغة التركية أو العربية، إلا ما كان منأسماء الخيول العربية بعد أن يبدلوا القاف بالكاف، وينطقوا بالحاء كالهاء، ولما رأوناظهر منهم العبوس والقطوب، وبدا عليهم انقباض الصدور والقلوب، وانبرى من جانبالمرأة شاب فأسرع نحو الباب فخاطَبنَا بعبارة فرنسية ولثغة باريسية:

الشاب: كيف ساغ لكما الدخول بغير إذن؟

عيسى بن هشام: دعا إلى ذلك شوق الوالد إلى رؤية ذريته.

الشاب: لست أفهم لك كلامًا فصرح لي وبين.

عيسى بن هشام: فلان يسأل عن فلان.

الشاب: إني أنا فلان ولكن من فلانٌ الذي يسأل عني؟

عيسى بن هشام: هو جدك الأكبر أحياه الله بعد مماته وبعثه من رقاده، وكان منأمره أنني كنت أزور المقابر ذات يوم من الأيام ...

الشاب (مقاطعًا مستهزئاً): اذهب عني فلست أسمع لهذا الكذب والخَرَف وليسٍّ لي اليوم من جد ولا والد، ولا أنا ممن يصدق بحديث البعث في الآخرة، فكيف برجوعالموتى إلى الدنيا، تعالوا أيها الإخوان فاعجبوا معي واضحكوا مما أسمعهُ من هذاالرجل الذي يخاطبني وانظروا إلى هذا »الباشبوزق« الغليظ الذي بجانبه، فهو يدعيأنه آبائي وأجدادي بعثه الله ليطالبني فيما أظن بما ورثته من الأموال، وينازعني

[25] المنضدة: شيء له أربع قوائم يوضع فوقه متاع البيت.

فينظارة الأوقاف، فهل سمعتم بأعجب مما أصبحنا فيه اليوم؛ لم يكتف الدهر بتكديرعيشنا وتعكير حياتنا بمطالبة أرباب الديون حتى بعث الأموات من قبورهم ليطالبونابمواريثهم وأموالهم، ألا ترونها أيها الخلان أنها أبدع نكتة في أواخر القرن؟

قال عيسى بن هشام: فاستغرق الجميع عند ذلك في الضحك واستلقوا من القهقهة،وكلما سألني الباشا عن مكان حفيده، واستفهم مني عما يجري معي من الكلاماستمهلته لتمام الحديث حتى لا يقف على شيء مما يقال، ولا يحس بوقع تلك السهاموالنبال، ولما انتهى الشبان من ضحكهم نادوا بالخادم ليأمروهُ بطردنا وإخراجنا،وحانت في هذه الأثناء التفاتةٌ من الحفيد بين دورانه وحركاته فلمح أحدَ قرنائه وإخوانهقد انزوى بتلك الخليلة، التي هي عندهم كالحليلة، يلاعبها وتلاعبه، ويغازلها وتداعبه،فانقض عليهما كالصقر الأجدل فاستعَ◌َر بينهم الجدال واشتد الخصام والتفّ حولهم

الجمع، وسمعت الحفيد يعتب، والصاحب يعتذر، ◌ِّ والمرأة تبكت وتؤنّ ب وتقول لعاشقها:

»ليس لك مثل هذه الجرأة في العتاب والملام، ولا يأتي ما تأتيه من الحدة والتهور فيالغيرة إلا مَن كان قائمًا بحاجتي مجيباً لرغبتي، وقد طلبت منك بالأمس أن تشتري ليذلك العقد الذي حضر لتاجر الحليّ من أوروبا في البريد الأخير فسوفت وماطلت بعد أنأجبت ووعدت، واعتذرتَ بالإعسار والضيق، ثم بلغني اليوم أنك اشتريت فرسًا جوادًابمقدار عظيم من المال، فكيف تقصر في حاجتي مثل هذا التقصير، وتبَغي مني الاقتصارعليك والاختصاص بك دون بقية من يبذل ماله وروحه في سبيل مرضاتي من أصحابكوإخوانك؟«

ثم سمعتُ الحفيد يجاوبها والعرق يتساقط من جبينه والوجد يقطع أنفاسه:»تاللهما اشتريت شيئاً، ولكن بعت أشياء لأشتري لك العقد بثمنها، ولا

يغرّنك ما يقال لك عنثروة هذا الصاحب الدنيء الخائن وعن قلة أموالي ورهن أطياني، فأنتِ تعلمين بمقدارالأموال التي ستأتيني من اكتساب القضايا المعلقة لي في المحاكم كما ينبئك به المحامي فيكل حين«.

وما سمع ذلك الصحاب سبّه بهذين النعتين حتى اضطرم واضطرب، وثارت بهسَورة الغضب، فتقدم فَلَعَنهَ وشتمَ َه، ودفعه ولطمه، فوعده الملعون الملطوم، بالمبارزة فييوم معلوم.

ثم علا هنا صياحٌ أيضًا في مجلس القمار بين صديق وصديق، أحدهما في يسروالآخر في ضيق، وأخ يبغي الاقتراض من أخيه، ومفلسٍ ٍيطالب ميسرًا بدين لا يؤديه،وانكشف الجدال كذلك عن الضرب واللكم. وانتهى النزاع بالصفح واللطم.

واشتبك خصام آخر في ركن المكان، بين أهل السبق والرهان؛ هذا يقول: فرسيسابق، وفرسك لاحق، وذاك يقول:»ركبداري« حاذق وابن حاذق، وجوادك قصير وجواديشاهق،ٌ وأنت الآن مقر معترف، بأن الوزن بينهما مختلف، واشتدت المنافسة والمنابزَ َة،وجرى بينهم حديث للمبارزة، كل هذا والمرأة تتسحب من حلقة إلى أخرى،ُ تسحبَ الحيةوالأفعى، فتطفئ نار الجدال مرة على حسب بغيتها، وتشعلها طورًا لخبث نيتها.

ورأيت الأجدر بنا أن نتركهم على هذه الحال، فجذبت بضبع الباشا وخرجنا من ذلكالمكان، وأسرعت به منحدرًا إلى الطريق، فسألني عن تفصيل ما كان وجرى، فترجمتلهُ شرح الحال والمآل، ّ َ فاحتدم غيظه واضطرم حنقه فلم يطفئه إلا ما قلته له في آخرالحديث من عزم القوم على المبارزة فيما بينهم بالسلاح، فقال وهو يتابع زفراته: لعل

71

القدرة تكشف عني هذا المصاب، وترُيحني المبارزة من الأبناء والأعقاب، فقلت في نفسي:إن أبناءكم لم يرِثوُا منكم أخلاقكم، كما ورثوا عنكم أموالكم، وليس عندهم من الشهامةما يدفعون به عن الأعراض والأحساب، ولا مِن الشجاعة ما يؤنسهم بالطعان وبالضراب،ولا يأبهون لكشف العار، وأخذ الثأر، والمبارزة عندهم كلمة

تقال بالليل وتمحى بالنهار.وتذ ًكَرَ الباشا في طريقه شدة حاجته إلى وفاء ما عليه من الأجر للمحامي، فالتفتإلى البيطار يسأله:

الباشا: ◌ّ◌َ هل بقي أحد مما كانوا حولي من الخُلَطاء والأقران أهل النجدة والفتوة

◌ّ◌َ وأصحاب الهمة والمروة؟

البيطار: لم يبق منهم إلا فلان وفلان وفلان.

الباشا: ابدأ بالذهاب معنا إلى بيت الأول منهم.

قال عيسى بن هشام: فسرنا إلى حيث أشار والهموم تفَ◌ْرسُناَ، والغموم تخُرسُنا،والأكدار لا تفارقنا، والأقدار لا توافقنا.

كبراء العصر الماضي

قال عيسى بن هشام: ومضينا نقصد أحد الثلاثة من قرناء الباشا ورفقائه، وبقية أخلائهوأصدقائه، فانتهى بنا طول المسير، إلى بيت ذلك الأمير، وكأنه ميدان في اتساعه، وحصنفي ارتفاعه، ووقف بنا البيطار، عند باب الدار، فسلم على الخدم وحياهم، ثم سألهم عنسيدهم ومولاهم، فأجابوه بالتجهم والعبوس، أنه في قاعة الجلوس، فخطونا في بحبوحةالميدان، فرأينا في وسطه شجرة كثيفة الأغصان، حنىَ قوامَهَا تقَادمُ الأزمان، كأنها الثكلىَّ حلت شعورَها في مأتم الأحزان، وفي ظلها فرس يجن من النشاط والمرَاح، وبجانبه كبشضأن للنطاح، وحولهما ديكةُ نزال وضراب، ظنابيبهُا مسنونة كالحراب:

ف ِح ِم ر وس ودٌ ح ال ك اتٌ ك أنَّ ه ا سوامُ بني ال ِسيد ازدهتِهُ
القوائم[26]يزان لديها الطعن في حومة الوغَى إذا زُيّ ن ت ل ل ع اج زي
ن ال ه زائ موفيها إذا ما ضِيَّ ع النِكسُ غيرةٌ تصُان بها المستِصحِبات
الكرائم[27]

ثم وصلنا إلى قاعة مشيدة البنيان، فسيحة الأركان، في أحد جوانبها سلسبيل،يسيل ماؤه من أفواه التماثيل، والأرضُ مفروشة بالبسط الفارسية، وبجلود الضوارياِلوحشية، والحيطان مستورة بأنواع السلاح، من خناجر وسيوف ورماح، وفوقها عدةصفوف، من الرفوف، تحمل الطرائف الكريمة، والأواني الصينية القديمة، مع عيدانٍللتدخين، من أغصان الياسمين، فخلعنا نعالنا، وتقدمنا أمامنا، فوجدنا الأمير ومن معهجلوسًا متربعين، منصتين مستمعين، يضُيء في وجوههم نور

[26] السوام: الإبل الراعية. وبنو السيد: قبيلة تكثر فيها الإبل السود والحمر.

[27] النكس: الرجل الضعيف الدنيء.

الشيب والوقار، وتزدهيهمهيئة العزة والاستكبار، فانقطع الحديث عند دخولنا، برد سلامنا، ولكن ما لبث أناتصل ما انقطع من الكلام، بعد رجع التحية وردّ السلام.

ولما استقر بنا المكان همست في أذن البيطار أن ينبئ بأسماء الحاضرين، فقال لي:هذا المتصدر فيهم هو الأمير فلان رب الدار وهو رفيق مولانا الباشا في البيت الكريمالخديوي، وقد اعتزل الأعمال واعتكف في آخر عمره يتعبد ويتهجد ويسلك طريق النسكوالزهد ويتقرب إلى الله بدوام القيام والقعود، وطول القنوت والسجود، وله أموال عريضةينفق منها فيما ينفق على قَعَدَ ة المشايخ وقوام أهل الطريقة وطُ واف الآفاق من سكانالأماكن المقدسة؛ رجاء أن يغفر الله له ما تقدم من الذنوب، وأن يلحقه بالصالحين منأوليائه، وأما الذي عن يمينه فهو فلان باشا كان عضوًا من الأعضاء الكرام، في »مجلسالأحكام«، والذي عن جانبه عالم من جلة العلماء الأعلام، والمشايخ العظام، وأما الجالسعن شماله فهو فلان الفريق الجهاديّ المشهور في الوقائع والفتوح، والذي بعده هو فلانمن كبار المديرين السابقين، وأما الذي تراه في أخريات المجلس فهو فلان التاجر منتجار خان الخليلي.

قال عيسى بن هشام: ولما وقفت من البيطار على معرفة ما عرّفنيه نظرت إلى الباشا،فأدركت أنه لا يبغي المبادرة إلى كشف أمره قبل انتهاء الحاضرين من حديثهم، ءفأنصتمع المنصتين فإذا الفريق الجهادي يقول في اتصال حكايته وروايته:

الفريق: وكان »جنتمكان« محمد علي باشا الكبير معجزة دهره وآية عصره فيالدهاء وعلو الهمة وبعد النظر، وإحكام عقدة التدبير واجتذاب القلوب، وتربية النفوسعلى الوفاء والأمانة لخدمته، فكان له من الكُفاة من خدموه بالصدق وافتدوه بالأرواح،وأذكر منهم المرحوم »محمد بك لاظ أوغلي«، فهو الذي دبر له قطع دابر المماليك في ساعةواحدة، وقد حكَى لي المرحوم أخي، وكان حاضرًا في تلك الواقعة الهائلة، أن المماليك لمارأوا أن المكيدة في استئصالهم قد استحكم عقدها واشتد رباطها، وأنهم أحيط بهم منكل مكان تقدموا للبحث عن محمد علي في كل حجرة وزاوية من زوايا القصر للفتك بهوالتخلص منه، فلم يقفوا له على أثر وأعياهم

البحث والتنقيب؛ لأن »لاظ أوغلي« أخفاهعنهم شديد الإخفاء، وقام له في ذلك الوقت — إن جاز التشبيهُ والتمثيل — قيام عليّ بنأبي طالب مقام الرسول — عليه السلام — ليلة الهجرة.

عضو الأحكام: ًّّ نعم وكان المرحوم محمد علي فوق ما يقال وما يتصور في دقةسياسته لتربية الرجال في خدمته، فكانوا كلهم طرازًا واحدًا في حسن الولاء وجميلالإخلاص، وربما كان يجذب الرجل منهم بكلمة واحدة تطبعه له على الصدق في خدمتهطول حياته، ومن ذلك ما حكاه لي صديقنا المرحوم راغب باشا قال: »كنت أقرأ بين يديالمغفور له أوراقًا وأنا يومئذ كاتبٌ من كتبة معيته، فدخل علينا سامي باشا في أثناءالقراءة، ووقف معنا، فسأله محمد علي عما يريده، فتلعثم تلعثم المتطلع لخروجي حتىينفرد به فيعرض عليه ما عنده، فقال له: »قل ما عندك في الحال فإني لا أخفي عن»راغب« ٍسرا من أسراري، ولا فرق عندي في المنزلة بين نسلي وذريتي وبين كتبة معيتي«.فهل تعلمون يا قوم أنه يقوم مقام هذه الكلمة في جلب النفوس وجذب القلوبإلى النصح، والولاء في الخدمة إنعامٌ بضياع أو إحسانٌ بأموال أو تقليدٌ لرتبة أو نشان،وانظروا إلى ذلك الرجل العظيم كيف أتقن صناعة الألفة في تربية رجاله وما للمملوكصناعة غيرها، فإذا أتقنها أحدهم فاز بالتسلط على النفوس، واحتكر مودات القلوب،فيصفوا له الملك ويطيب له الحكم.

الشيخ العالم: ًّ أصبت وصدقت وقد اطلعت في التاريخ القديم على واحدة في هذاالباب للمنصور العباسي، تدل على براعته ودقته في صناعة الملك، وهي أنه كان يأكل ذاتيوم وبجانبه ابناه مع شيخ من قواد جيشه ذهبت أسنانه لكبر سنه، فكان يسقط منفمه بعض الفُتات وهو يأكل والأميران يتغامزان عليه، فالتفت إليهما الخليفة فرأى مابينهما، فمد يده فجَمَع ما سقط من ذلك الفتات فأكله، فقام القائد يقول له: »لم يبقإلا ديني أقدمه لك يا أمير المؤمنين فأمرني بما تريد«.

المدير السابق: وأنا أقص عليكم واحدة أخرى للمغفور له محمد علي تشهد بلطفسياسته وحسن عطفه على الأهالي وشفقته على الرعية، وهي أن أحد المديرين أراد أنيفوق إخوانه في الخدمة لينال مكانة عالية من أميره، فجد في تحصيل الأموال، وتغالى فيطريقته، فأخذ ما عند الأهالي من المال جملة واحدة،ًّ فضج ضجيجهم واشتد صياحهمحتى بلغ مسامع وليّ النعم، فأمر بإحضار المدير، فلما وقف في حضرته قال له: ادنمني، فلما دنا منه أخذ بعنقه في قبضة يده وصار ينتزع من رأسه

شعرة ومن قفاهشعرة ومن عارضه شعرة ومن حاجبه شعرة؛ حتى جمع في قبضته خُصلة من الشعروالمدير لا يجد لذلك من الألم إلا أثرًا خفيفًا، ثم إن الأمير انتقل إلى لحية الرجل، فانتزعمنها خصلة دفعة واحدة من جهة واحدة بمقدار تلك الخصلة المتفرقة، فنبَعَ من تحتهاالدم وصرخ المدير من شدة الألم، فقال له محمد علي: »هكذا تختلف المعاملة مع الرعيةفي جباية الأموال، إذا أنت أخذت من هاهنا درهمًا ومن هاهنا درهمًا آناً بعد آنٍ خفالوقع على الأهالي ولم يدركوا الألم، وحصلتَ منهم على مثل المقدار الذي تأخذه جملةواحدة في وقت واحد مع شدة الألم، كما رأيت الفرق بين انتزاع الشعرات متفرقات وبينانتزاعها مجتمعات، والكميةُ واحدة والألمُ بينهما مختلف، فإياك أن تعامل الناس بعداليوم بما يلجئهم إلى الشكوى ويبعثهم إلى الاستغاثة«.

الشيخ العالم (منشدًا):

فلا تكْثروا ذكرَالزمان الذي مَضَى　　فذلك عصرٌ قد تقۦضى وذا عَ صْرُ

ورحم الله الماضي وأعاذنا من الحاضر وأجارنا من المستقبل، وإني لأراكم أيها الأمراءمهما أسهبتم في محاسن المغفور له وأفضاله، وأطنبتم في حميد أخلاقه وخصاله، فلستمببالغي حق الشكر، ولا موفين بجميل الذكر، ويكفيه من الحسنات التي يغْني ذكرُها عنالإجمال والتفصيل، وتحكم لهُ بالسبق في باب التمييز والتفضيل، أنه كان يقرّب العلماءويعظمهم، ويدنيهم منه ويكرمهم، ثم يقَضي حاجاتهم، ويتبرك بدعواتهم، ولقد رأيت لهُرؤيا صالحة تحكم له في أخراه، بأن له جانباً مع الله، وأنه نال جزاء الإحسان، بسكنىفراديس الجنان.

قال عيسى بن هشام: وأقبل في أثناء هذا الحديث رجل من أهل مكة المعروفينِّ بالمطوِٕفين أو المزورين فتقدم إلى رب الدار فقبّل يده، وإلى الشيخ العالم فلثم ذيله، ثموضع عن يده صُرة فأخرج منها قطعة من الحرير الأخضر وجزءًًا من التمر ومشطًاومُكحلة وسُبحة وشيئاً من الحناء، ثم قرأ الفاتحة وخاطَبَ الأمير بقوله:

المكيّ: قد جئتك أيها الأمير بالقطعة التي أمرتنَي بإحضارها من الكسوة الشريفة،وأتيتك بجزءٍ من تمر النخلة المباركة التي غرستها الزهراء البتول بيدها الكريمة.

الشيخ العالم (بعد أن ذاق التمر واستطابه): إيهٍ إيهٍ صدقتَ أيها الرجل ومن كانصائمًا فأفطر على تمر المدينة كُتبت له الجنة.

قال عيسى بن هشام: فرأيت الباشا يتأفف بجانبي ويزمجر، ويتململ ويتضجر،ويهمّ بأن يتكلم، فالتفت صاحب الدار عند ذلك إلى البيطار يسأله عن شأن هذا المتأففالمتضجر، فتقدمت له بشرح القصة على الحاضرين، وذكرت خروج الباشا من القبرورجوعه إلى الدنيا، فمنهم من صدق ومنهم من كذَّ ب، فتنحنح الشيخ العالم، وأشارفيهم بإشارة الاستماع ثم اندفع يقول:

الشيخ العالم: اعلموا أنه ليس للمعجزات حد ولا للخوارق حصر، ولا تنكروا علىالرجل حياته بعد موته، فليس من حسن اليقين، أن ننكر بعث الدفين، والرجوع إلىالدنيا بعد الفناء أمر معلوم بلا امتراء، تخص القدرة به من تشاء، ببركة الأصفياءوالأولياء، وأقربُ ما أستشهد لكم به على ذلك من كتاب »مناقب تاج الأولياء وبرهانالأصفياء للقطب الرباني والغوث الصمداني السيد عبد القادر الكيلاني« ما أرويه لكمبحرفه ونصه:

> ذكر في »رسالة حقيقة الحقائق« أن امرأة غرق ولدها في اليم وجاءت إلىالغوث الأعظم وقالت: إن ولدي غرق في البحر، واعتقادي جازم بأنك تقدرعلى رد ولدي إليَّ حيًّا، فقال لها رضي الله عنه: ارجعي إلى بيتك تجدي ولدكفي بيتك، فراحت ولم تجده، فجاءت ثانيةً وتضرعت، فقال لها الغوث أيضًا:ارجعي إلى بيتك تجدي ولدك في بيتك، فراحت ولم تجده، فجاءت ثالثةً بالبكاءوالتضرع، فراقب الغوث وانحنى برأسه ثم رفع رأسه فقال لها: ارجعي إلىبيتك تجدي ولدك في البيت، فراحت ووجدت ولدها في البيت، فقال الغوثالأعظم بطريق المحبوبية: يا رب لِمَ أخجلتني مرتين

> عند تلك المرأة؟ فجاءهالخطاب من الملك الوهاب: إن كلامك حين قلتَ لها كان صدقًا، ففي المرة الأولىجَمعت الملائكة أجزاءه المتفرقة وفي المرة الثانية أحييتهَ وفي الثالثة أخرجتهُ مناليمّ وأوصلتهُ إلى دارها، فقال الغوث: يا رب خلقت الأكوان بأمر »كنْ« ولميسبق زمان ولا آن وفي وقت البعث تجمع أجزاءها المتفرقة التي لا نهاية لهاوتحشرهم في طرفة عين، وجَمع أجزاء جسد واحد وإحياؤه وبعثه إلى دارهاشيء جزئي، فما الحكمة في هذا التأخير؟ فجاء الخطاب من الرب القدير:اطلب ما تطَلب فقد أعطيناك عوضًا من انكسار قلبك، فتضرع الغوث ووضعوجههُ في التراب، وقال: يا رب أنا مخلوق فبقدر مخلوقيتي يليق بي الطلب،وأنت خالق فبقدر عظمتك وخالقيتك يليق بك العطاء، فجاءه الخطاب: كلمن يراك يوم الجمعة يكون وليًّا مقرباً، وإذا نظرت إلى التراب يكون ذهباً،فقال: يا رب ليس لي نفع من هذين أعطني شيئاً أعظم منهما ويبقى بعديلينفع في الدارين، فجاء الخطاب من الله العزيز القدير: جعلت أسماءك مثلأسمائي في الثواب والتأثير، ومن قرأ اسمًا من أسمائك فهو كمن قرأ اسمًا منأسمائي.

ورُوي فيه أيضًا عن السيد الشيخ الكبير أبي العباس أحمد الرفاعي — رضي الله عنه —قال:»توُفي أحد خدّام الغوث الأعظم وجاءت زوجته إلى الغوث فتضرعت والتجأت وطلبتحياة زوجها، فتوجه الغوث إلى المراقبة فرأى في عالم الباطن أن ملك الموت — عليهالسلام — يصعد إلى السماء ومعه الأرواح المقبوضة في ذلك اليوم، فقال: يا ملك الموتقِف وأعطني روح خادمي (وسماه باسمه) فقال ملك الموت: إني أقبض الأرواح بأمرإلهي وأؤديها إلى باب عظمته، كيف يمكنني أن أعطيك روح الذي قبضته بأمر ربي؟فكرر الغوث عليه إعطاء روح خادمه إليه فامتنع من إعطائه وفي يده ظرف معنويكهيئة الزنبيل فيه الأرواح المقبوضة في ذلك اليوم، فبقوة المحبوبية جر الزنبيل وأخذهمن يده فترفقت الأرواح ورجعت إلى أبدانها، فناجَى ملكُ الموت — عليه السلام — ربهوقال: يا رب أنت أعلم بما جرى بيني وبين محبوبك ووليك عبد القادر فبقوّة السلطنةوالصولة أخَذَ مني ما قبضته

من الأرواح في هذا اليوم، فخاطبه الحق جلا جلاله: يا ملكالموت إن الغوث الأعظم محبوبي ومطلوبي لِمَ لا أعطيته روح خادمه وقد راحت الأرواحالكثيرة من قبضتك بسبب روح واحد، فتندم هذا الوقت«.

قال عيسى بن هشام: وما انتهى الشيخ من روايته حتى رأيت الباشا قد انتفضقائمًا يقول لهم والغضبُ بادٍ على وجهه والغيظ يتقد في صدره:

الباشا: اعلموا أيها الإخوان أن مغفرة الرحمن وسكنى الجنان لا تنال بكثرةالصوم، وأكل التمر أو التبرك بالآثار والتحصن بالأوراد، وما تكُتسب الدرجة الرفيعةعند الله إلا بالعدل والإحسان وفعل الخير، واجتناب الشر والرحمة بالضعفاء والمساكينمن عباد الله، وقد غرني في دنياي ما يغركم الآن، فكنت أسمع قبل مماتي من مثل هذاً الشيخ العالم ما يهون عليَّ ارتكاب المخزيات وفضائح الشرور في معاملة الناس ارتكاناًعلى نهار أصومُه، وليلٍ أقُومه، وحرزٍ أحمله، وأثرٍ أقبِّ له، فنمت عن عمل الخير وغفلت عنبذل المعروف، فلما توفاني القدير العليم وسكنت في حفرة القبر علمت ما لم أكن أعلم،فلم يغنني ذلك وحده من الله شيئ ًاً وما خفف عليَّ ً أهوال القبر وهون عليَّ سؤال الملكإلا حسنة واحدة كنت أتيتها في إغاثة مظلوم استجارني فأجرته، ًوهو في يد الجلاد بينالسيف والنطع،[28] فعليكم بالعدل والإحسان وتقوى الله في عباده وإفشاءِ البر والمعروففي خلقه، ًولا تطيعوا النفس الأمارة بالسوء فتركنوا إلى الاغترار بالأمل، وتطلبوا المغفرةبلا عمل، بل استكثروا من الخير قبل حلول الأجل، وتذكروا قول الله الأجَ ل:﴿فَمَن يعَ ْمَلْمِثقْ َالَ ذ ًرَةٍ خَيْراً يرَ َهُ﴾ واعتبروا بقول عليٍّ رضي الله عنه:»كم من صائم ليس له منصيامه إلا الجوع والظمأ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والعناء.« واسمعواالقول حكيم الشعراء:

---

[28] النطع بالفتح والكسر: بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس.

ما الخير صومٌ يذوُب الصائمون له ولا صلاةٌ ولا صوفٌ على الجسدوإن م
ا هـ و ت ركُ ال ش ر م ط رَحً ا ونفِضك الصدرَ من غ لٍ ومن حسد

ولا يستقيم أمر المسلم إلا إذا جمع بين فرائض العبادات وحسن المعاملات.

الشيخ العالم: إني لأخالكُ أيها الرجل شيطاناً في زي إنسان وزنديقًا يتستر بدعوىالنشور من القبور، تعسًا لهذا الزمن ما أكثر أضاليله، وبؤسًا له ما أعظم أباطيله، ولميبق علينا من مُ دخرات عجائبه إلا أن يخرج الميت من قبره فيخبرنا بما رأى وبما سمع.صاحب الدار (للباشا): سألتك بالله أن تخبرني بأية لغة كان سؤال الملكين لك،أبالعربية أم التركية أم السريانية، فإن هناك اختلافًا وأقوالاً بين العلماء.

الشيخ العالم: ناشدتكم الله أن تقصروا عن هذا الرجل ولا تخاطبوه، فإنه فتنةمن فتن إبليس اللعين ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

قال عيسى بن هشام: فلم يسع الباشا إلا الخروج من هذا المجلس وهو يهدر ويغَليويستعيذ ويستعدي، فانخرطتُ وراءه وأنا أذكر قول عمر — رضي الله عنه — في مثلهذا الشيخ الغليظ البدين: »إن الله يكره الحَبْر السمين.« وأردد قول أبي تراب كرم اللهوجهه: »أشكو إلى الله من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضلالاً، ليس فيهم سلعةٌ أبوْرمن كتاب الله إذا ت لُي حق تلاوته، ولا سلعة أنفق بيعًا وثمنًا من الكتاب إذا حرف عنمواضعه، ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر«.

ولحِق بنا البيطار في خروجنا ومعه التاجر الذي كان مقيمًا في المجلس ينادينا،فوقفنا لهما فتقدم التاجر إلى الباشا ومال على يده يقبلها ويقول له:

التاجر: أشُهد الله أيها المولى أنني مصدّق بأمرك وليس بعد العيان من برهان وماّ أخطئ نظري فيك، فأنت سيدي الباشا بعينه، وأنت صاحب اليد التي أتذكرها طولعمري، وما بي من نعمة فمنك، وما أصبحت فيه من ثروة فَبِيمُنك وفضلك، ولست أنسأنّ أصل شهرتي واتساع تجارتي هو أنك جلست في دكاني مرة عندما عثرت بك رِجلكوأنت تقصد زيارة الحسين، فارتفع بتلك الجلسة قدري واشتهر

ذكري وأقبل عليَّ الناسمن دون التجار لتوهمهم فيَّ أن لي برحابك صلةً وبجانبك نسبةً، فأصبحت ولله الحمد فيغنى ومالٍ كثير، وقد بلغني من أحمد أغا هذا ما أنت فيه من الحاجة إلى الدراهم لأجرةالمحامي التي جاءت بك إلى هذا المجلس، ولكنك أنفتَ من ذكرها عندما غضبت لله، وأناأتضرع بخالق الخلق أن تتنازل فتقبل مني ما تسد به حاجتك وتتخلص به من مطالبةالمحامين.

(وأخرج التاجر كيسًا مملوءًًا فقدمه إلى الباشا وهو يرتعد من خيفة الرد،فأخذه الباشا وقال له:)

الباشا: إني أشكرك جميل الشكر لحسن صنيعك،ًوأسأل الله لك حسن الجزاء فهلمّأكتب لك صكا بالمال لأرده إليك عند استرداد أوقافي.

التاجر: حاشا لله أن أكون من أهل هذا الزمن الذين أصبحوا لا يثق بعضهم ببعض،فلا يأمن الأخ أخاه ولا الوالد ولده ولا الصاحبُ صاحبه ولا الجار جاره على درهم واحدً إلا بعقود وصكوك، بل أنا لا أزال من أهل ذلك الزمن الذي لم يكن يتعامل التجار فيهبينهم بغير الثقة والائتمان دون احتياج إلى تحرير الأوراق وتسطير الصكوك، وما يكونالاستيثاق إلا عند توهم الخيانة والعياذ بالله.

قال عيسى بن هشام: فكرر الباشا شكره للتاجر مضاعفًا، وقال لي: انصرف بناإلى المحامي نستنقذ رقابنا من أسره، ثم نذهب إلى المحكمة الشرعية للمطالبة بالوقف،فقلت له: لا بد لنا من محامٍ شرعيّ يطالب لنا بحقنا، فما نخرج من قبضة محامٍ،ًإلا إلىقبضة محامٍ، ونسأل الله السلامة في الختام.

المحامي الشرعي

قال عيسى بن هشام: وأخذت طريقي، مع رفيقي، أنشد صاحباً أسترشده، في محامٍشرعيّ أقصده، وبينا نحن نسير، ونسأل التيسير، إذا بصاحب لي عرفته، فاستوقفته،قال: ما خطبكُ؟ قلت: قضية، في المحكمة الشرعية، فما طَرَق الخبر سمعَه، حتى أجربدمعَه،ً وهول الأمر وهولت، وحوقل وحوقلت، ثم قال: لقد وقعتُ قبلك في هذا البلاء،ً ولما تتم لي النقاهة من الداء،ً وأنا أنصح لك إن كنت مدعياً أن تترك دعواك، وتصبر علىبلواك، أما إن كانت الدعوى عليك، فليس الخيار إليك،ً ولا مرد لحكم القضاء، بتدبيرالآراء، فقلت: للضرورة أحكام، فأرشدني لانتخاب محامٍ، يكون مشهودًا بعدالته، مشهورًابطهارته، بعيدًا عن خُلْف الوعد، بريئاً من خُلق الوغد،[29] لا يتفق مع الخصم، ولا يسرقمن »الرسم« قال: اطلب من أنواع المحال،ٌ أن يحمل الذر الجبال، ولا تطلب في محامٍاجتماع هذه الشروط، فينتهي بك الأمر إلى اليأس والقنوط، ولمحاولة الارتقاء فوق متنالعنقاء،[30] أيسر من ذلك مطلباً، وأوسع مذهباً.

وأقُسم لك بخالص الود، أني لا أثق منهم بأحد، وكيف تكلفني أن أنتقي لك ذئباًمن الذئاب، وأحمل على كاهلي عبء اللوم والعتاب، فأعفني من هذا الاختيار والانتقاء،عافاك الله من جميع الأسواء،ً ثم ما لبث أن خلفني ومضَى، وتركني على مثل جمر

الغَضَى، فسرت كئيباً حزيناً، أبغي سواه مرشدًا ومُعيناً، ًّ ولما لم أجد من أصحابي مَنْيتكفل عليَّ عهدته، باختيار محامٍ يوُثق بذمته، قصدت أحد المعلومين

[29] الوغد: الرذل الدنيء.

[30] العنقاء: طائر مجهول الجسم لم يوجد.

عندي بكثرةالخصومات، وطول المحاكمات، فكاشفته بطَلبتنا ليكشف من مصيبتنا، فقال: اعلم أنالمحامين الشرعيين أجناس وصنوف، فمنهم المبصر ومنهم المكفوف، وفيهم — كتب اللهلك السلامة — صاحب »الطربوش« وصاحب العمامة،ٍوأنا أدلك على أهونهم شرا، وأقلهمِّضرا،ٍوأخفهم رزيةً وبلية، وأكثرهم علمًا بالحيل الشرعية، فعليك بفلان وبيتهُ ُ معلوم، فيمنتهى »حارة الروم«، فقصدنا البيت نشق طُرقًا معوجّة، ونخترق ثنيّات مزدوجة إلى أنانتهينا إلى باب دار، كأنها مطلية بالقار،[31] تسورت بأكوام من الأقذار، وتلفعت بتلالٍ منالأوضار، ورأينا عند مدخل الباب صبيةً يلعبون بالتراب،ًومن بينهم طفلة تجمع علىوجهها من الذباب، مثل البرقع تنقبت به قبل أوان النقاب، ولما تخطيناهم غشيتنْا رائحةالمرحاض، فاستندنا هناك على هضبةِ أنَقاض، بجانبها مذْود أتان، يزاحمها عليه إوَزتانَّ وبطتان، ثم اهتدينا إلى حجرة في جهة اليمين،ًفرأينا أمامها فراناً ينادي:»العجين« »والأجرة«، فسألناه عن رب الدار فأشار إلى الحجرة، فدخلنا فوجدنا فيها حصيرًاً تغطىبالغبار والحصباء، ومتكئًاً تعرى من الفراش والغطاء، وفي زاوية من زوايا المكان، سراجًلا ينفذ نوره من تكاثفُ الدخان، وفي أعلى رفوف الرواق، أحمال كتب وأوراق، قاملها نسيج العناكب مقام الوقاية والتجليد، وألصقتها الرطوبة فحفظتها من التوزيعوالتبديد، وفوق الأرض زجاجات مطروحة من المداد، وفي بياض الحائط تسويد وتخطيطمن لعب الأولاد، وبصرنا برجل:

ت غ يّ ر ح نَّ اؤُهُ ش ي بَ هفهل غيَّ ر الظهر لما انحنى

ووجدناه جالسًا على سجادة الصلاة،ٍ وعن يساره امرأة كأنها السعلاة،[32] فسمعناهيقول لها في تسبيحه:»أتستكثرينَ —ًأدر الله عليك خيرةَ، وأبدَلَك زوجًا غيرةَ — ماأخذتهُ ُ منك لاستنباط الحيلة في التفريق، واستخراج الحكم بالتطليق،

[31] القار: الزفت.

[32] السعلاة: الغول.

فأبعدت عنك زوجًاتكرهينه، لتتبدّلي منه زوجًا تحبينه؟« ثم إنه أحس بدخولنا من ورائه، فارتد إلى اتصالتسبيحه ودعائه، وانتفضت المرأة فتنقبت بخمارها، وتلفعت بإزارها، وخرجت وتركتنامع رجل يخدع الأنام بطول صلواته، ويتلو سورة الأنعام في ركعاته:

المحامي الشرعي

إذا رام كيدًا بالصلاة مقيمُهَا   فتاركها عمدًا إلى اللهِ أقرب

وجلسنا مدة ننتظر خلاصَه من هذا الرياء، وخلاص الملكين من صحيفته السوداء،وخلاصنا من هذا الكرب والعناء، وكنا نشاهد منه في خلال ذلك نظرات مختلَسَاتنحو الباب، كأنه هو أيضًا في انتظار وارتقاب، إلى أن دخل علينا غلامٌ يصيح به: إلىمتى هذه العبادة، فقد بليت السجادة، وحاجات الناس موكولة إليك، وقضاء مصالحهمموقوف عليك، وهذا دولة »البرنس« ينتظرك في القصر، منذ العصر، دعَ مدير الأوقاف،و»نقيب الأشراف« فلم يعبأ المصلي بهذا الكلام، بل جهر بالآية من سورة الأنعام:﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاَ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، فجلس غلام الشيخ وهو يمسح العرق، واشتد بنا الضجر والقلق، فقلنا:من يضمن لهذه الصلاة انتهاء، ولهذا التسبيح انقضاء، وهممنا بالقيام، فالتفت الشيخللغلام، وأشبعه من التأنيب والملام، ثم حيانا بألطف سلام، وقال: بارك الله فيكم وعليكم،وأنا في الخدمة بين يديكم، فقلنا: علمنا أنك رجل عدلٌ عف، فجئناك لقضية في وقف،فقال الغلام: أتطلبون ريعَه، أم تريدون بيعْه، فقلت: سبحان الله وهل تبُاع الأوقاف؟قال: نعم ويباع جبل قاف، ثم تنحنح الشيخ وسعَل، وبصق وتفَلَ، وتسعَّط ثم تمخط،واقترب منا ودنا، ثم قال لنا:

المحامي: دَعونا من هذا الغلام وقُولا لي ما حقكم في الوقف، وما شروط الواقف،وكم يُقَدَّر ثمن العين لتقدر »قيمة الأتعاب« بحسبه؟

عيسى بن هشام: إن لصاحبي هذا وقفًا عاقته عنه العوائقُ فوضع سواه عليه يده،ونريد رفع الدعوى لرفع تلك اليد.

المحامي: سألتك ما قيمة العين.

عيسى بن هشام: لست أدري على التحقيق، ولكنها تبلغ الألوف.

المحامي: لا يمكن أن يقل مقدم الأتعاب حينئذ عن المئات.

عيسى بن هشام: لا تشطُط أيها الشيخ في قيمة الأتعاب وارفُق بنا، فإننا الآن فيحالة عسر وضيق.

الغلام: وهل ينفع في رفع الدعاوى اعتذار بإعسار، ألم تعلم أن هذا شغل له»اشتراكات« وللكتبة والمحضرين »تطلعات«، وأنَّ ى لكما بمثل مولانا الشيخ يضمن ربحالدعوى وكسب القضية بما يهون معه دفع كل ما يطلبه في قيمة أتعابه، وهل يوجد مثلهأبدًا في سَعة العلم بالحيل الشرعية ولطف الحيلة في استمالة محامي الخصم، واستجلابعناية القضاة؟

عيسى بن هشام: ◌ٍّ◌دونك هذه الدراهم التي معنا فخذها الآن ونكتب لك صكا بمايبقى لحين كسب القضية، وليس يفوتك شيء من ذلك ما دام ربحها مضموناً لديك علىكل حال.

المحامي (بعد أن استلم الدراهم يعدها): أنا أقبل منك هذا العدد القليل الآن ابتغاءً ما ادخره الله لعباده من الأجر والثواب في خدمة المسلمين، وعليك بشاهدين للتوكيل.

عيسى بن هشام: وبأية طريقة يكون التوكيل.

المحامي: يجب عليك أن تستحضر شاهدَين يشهدان أمام المحكمة بأن فلان بن فلانَّ بن فلان وكل فلان بن فلان بن فلان »في المرافعات والمدافعات والمخاصمات والمصالحات،والقبض والاستلام والتسليم وفي المطالبة والدفع والإقرار، وفي كل ما يصح فيه التوكيلشرعًا، وفي أن يوكل عنه في الدعوى غيره، وأن يعزله وأن يفعل ذلك مرارًا وتكرارًا كلمابدا له فعله المرة بعد المرة والكرةَ بعد الكرة«، وأنا أنتظر حضوركما غدًا مع الشاهدينومستند الوقف.

عيسى بن هشام: ليس لدينا الآن إلا شاهد واحد يعرف أصل الباشا ونسبه.

غلام المحامي: هذه أول خطوة في تكاليف القضية ومشاقها ولعلك تعرف قيمتها،ونحن نجد لك بتيسير الله من يعرف أصل الباشا ونسبهَ ويشهد به بين يدي الحق.

عيسى بن هشام: وليس في يدنا أيضًا مستند للوقف.

المحامي: أما من جهة المستند فينبغي استخراج صورة من السجل »المصان« »كذا«وهذه خطوة ثانية في متاعب القضية.

قال عيسى بن هشام: وعند ذلك قطع الشيخ المحامي كلامه معنا، واستقبل القبلةبوجهه يتنفل ويتبتل، فقمنا للانصراف وسرت مع صاحبي وأنا غريق في الأفكار أتدبروأعتبر، وأعجب مما رأيت من سكون الباشا وسكوته وحسن احتماله وصبره بعد أنكان شديد الحدة سريع الغضب، يرى القتل واجباً لأدنى هفوة وأقل سبب، فأصبحِّ بفضل وقوعه في هذه الخطوب المتتالية والرزايا المتتابعة لين العريكة واسع الصدر موطّأ

الكنف كثير الاحتمال، حتى إنه لم يأنف ولم يتأفف من كل ما رأيناه في يومنا هذا، بلكانت حالته حالة الفيلسوف الحكيم الذي يجعل دأبه البحث والتأمل في أخلاق الناسأثناء التعامل معهم، وازددتُ يقيناً بأنه لا شيء أسرع في تهذيب النفوس وتربيتها علىالتخلق بالأخلاق الفاضلة مثل ممارسة الخطوب ومصارعة النوائب، وأن أسوأ الناسأخلاقًا وأنكدهم عيشًا هم هؤلاء الأغمار[33] المنعمون المترفون الذين لم يأخذوا العيش عنتجارب الحدثان، ولم تهذبهم صروف الأزمان، ولم يزدني الباشا في كلامه أثناء الطريقعلى أن قال:

[33] الأغمار: جمع غمر، وهو الجاهل الأبله.

الباشا: قلتَ لي: إن المحامين الشرعيين فيهم صاحب »الطربوش« وصاحب العمامةفهل تراهم جميعًا على هذا النمط الذي شاهدناه أم بين الفريقين فرق؟

عيسى بن هشام: اعلم أن الخيرة في الواقع، والحمد لله على كل حالٍ فإن فيهمتحت »الطربوش« مَن هو أشد فتكًا من ضواري الوحوش، وأعرفُ طربوشًا منهم أقسمأمامي بالطلاق ثلاثاً من زوجته، ومن كل زوجة يتزوج بها في حياته على إنكار كلامنطَ◌قَ به في مجلس كنت حاضرَه؛ إرضاءً◌ لأحد أرباب القضايا، وإغضاباً لخالق البرايا،واستهانةً بحكم الشارع، واعتمادًا على قول الشاعر:

وإن أحلِفوني بالطلاق أتيتُها على خير ما كنا ولم نتفـ ـرقوإن
أحلفوني بالعِتاَق فقد درَى ◌ُعبيد غُ لامي أنه غير معتَق

قال عيسى بن هشام: ومضت علينا الأيام ونحن نقصد الشيخ المحامي في كل يومفلا نتمكن من لقائه، فإن ذهبنا إليه في البيت قيل لنا: إنه في المحكمة، وإن ذهبنا إلىالمحكمة قيل لنا: إنه في القصر الفلاني أو القصر الفلاني من قصور الأمراء والكبراءحتى حَفِيت الأقدام، ومللنا الاصطبار، فاخترنا أن نربط له أمام بيته عند الثلث الأخيرمن الليل فنصطاده عند خروجه، وقعدنا بعيدًا عن الباب حتى خرج علينا راكباً أتانهُ◌َ،فتقدمت إليه فقال لي: أرجو المسامحة في هذا التأخير، فالذنب فيه لكثرة مشاكل الأمراءودعاويهم. فتقبلنا عذره وتوجهنا معه إلى المحكمة، فذهب بنا إلى »كاتب الإشهادات«فوجدناه جالسً ِا يلمع في ثيابه: من حُمرة الحذاء في رجله وزُرقة الجبة على كتفه وصُفرةالحزام في خصره وبياض العمامة فوق رأسه:

تعددت ألوانُهُ كأنه قوسُ قُزَحْ

وكان الشيخ المحامي قد تركَناَ مع الغلام والشاهد الذي اختاره لنا، فنظر الكاتبإلى الشاهد نظرة المتوقف، وقال: إنه شاب صغير السن وإنه وإنه ... فمال عليه غلامالمحامي، وألقى في أذنه بعض القول فقام معنا من فوره إلى قاضي الجلسة

لسماع الأشهادبعد أن قال لنا الغلام: وهذه الخطوة الثالثة في تكاليف القضية، ثم انتهى الأشهاد بحمدالله وحسن العناية بنا في أثناء يوم واحد، وقال لنا الغلام عند الانصراف: يجب بعد هذاأن نقدّم عريضة لحضرة القاضي بطلب الكشف من الدفترخانة عن الوقفية في السجل،وأن نوضح فيها نمرة الوقفية وتاريخها وَمِن »عملية« مَنْ هي »يعني اسم الكاتب الذيكتبها في زمانها«، فخرجنا نبحث عن أحمد أغا البيطار لعله يعرف طريقة توصلنا إلىمطلوبنا، فعثرنا عليه وأعلمناه بغرضنا، فقال: إن عندي ورقة فيها نمرة الوقفية كنتتحصلت عليها بطرق مختلفة بعد الجهد الشديد والزمن المديد لإثبات حقي في ريعالوقف، ثم ذهب إلى بيته وعاد إلينا بالورقة فوجدناها قاصرة على ذكر النمرة والتاريخ،ولم يذكر فيها اسم الكاتب الذي عمل »العملية«، فقصدنا غلام المحامي وتوجهنا معهإلى المحكمة، فكتبنا العريضة وقدمناها لحضرة القاضي فوضع عليها إشارة لحضرةالباشكاتب ليتحرى عن مسألة »الشأن« وطلبوا منا شهودًا يشُترط فيهم أن يكونوا منأهل جيل الباشا ليثبتوا شخصيته، ويشهدوا بأنه صاحب الوقف وأن سواه وضَعَ يدهعليه، فأدركتنا الحيرة في الأمر فتكفل لنا الغلام باستحضار أولئك الشهود أيضًا بعدأن قال لنا: وهذه الخطوة الرابعة في تكاليف القضية، ولما نظر الباشكاتب في العريضةووجد أننا لم نبين فيها اسم الكاتب صاحب »العملية« قال لنا: إنه لا يمكن الاهتداء فيالدفترخانة بدون ذلك،ً وإنه لا بد لنا من انتظار السنين والأعوام حتى يمكن العثور علىصورة الوقفية في السجل بالنمرة والتاريخ وحدهما، فعاودَتنا الحيرة فقال لنا الغلام: لاتحزنا فأنا أساعد على سرعة الإنجاز، وأتوجه معكما إلى الدفترخانة إن شاء الله، وهذههي الخطوة الخامسة في تكاليف القضية،ً وما زال الخبيث يعد لنا الخطوات، ونعُ ّد له فيكل خطوة دريهمات، ونحن نسأل الله أن ينقذنا مما أصابنا من حُكم الدهر،ٍ وأن يعجلبانقضاء القضية قبل انقضاء العمر.

الدفترخانة الشرعية

قال عيسى بن هشام: وعكفنا زمناً نشتد في الطلب، والمحامي يشتد منا في الهرب، فلماطال علينا الأمَد في ارتياده، ويئسنا من لحاقه واصطياده، انتقلنا للبحث عن غلامه، حتقبضنا على زمامه، فرأينا الخبيث يٍّ صُعب في الأمور والأحوال، لنسترضيه بالعطاء والنوال،وقال لنا: ًأقول لكما الحق والحق أقول،ً إنه ليس من المتصور المعقول، أن نهتدي فيهذه القضية إلى صورة الوقفية، بمجرد تاريخها أو اسم صاحبها، دون الوقوف علىاسم محررها وكاتبها، ولا يجول في الخواطر والأوهام أن يعَثر عليها كاتب السجلبين تلك الآكام، من غير وحي أو إلهام،ًإلا ٍبعد كر السنين ومر الأعوام، وإن اعتراكمابعض الشك أو الريب،ٍ ولم تصدقا بظهر الغيب، فهلمّا معي أطلعكما على ما يزول معهاللبس، وتقتنع به النفس، فقيَّ دناه بقيود الترغيب والتأميل، وأعطيناه ما يحضرنا منكثير وقليل، فانطلق أمامنا يثب ويحجل، حتى دخلنا بيت السجل، فلما جاوزنا الباب،حيث يجلس الكتاب، ألفينا خُشُباً مسندة، على خُشُ ًب موطدة، وهياكل تفترش الفراء،فوق الأقذار والأقذاء، لا تميز منهم وجه إنسان من إنسان، لعشوة البصر من ظلمةالمكان،ًفتذكر الباشا عند ذلك ظلام الرمس، وكرّ راجعًا ينتظرنا في ضوء الشمس، ثممال الغلام إلى أذنُ أحدهم يكلمه، بما لا أعيه ولا أفهمه، فبادر الرجل بالنهوض والقيام،وسار بالغلام وأنا في عقب الغلام، فما خطونا بضع خطوات حتى حِيل بيننا وبين ضوءالنهار، وتجللنا من حندس الليل بحُجُب وأستار،[34] فوقفت لا أبصر ولا أهتدي، فأخذالغلام بيدي.

وقد عميت عليَّ وجوه المسالك، في هذه المخاوف والمهالك، وسرتُ فوق أرض تهَ ٌشتحت القدم وتلين، كأنها مفروشة بالهشيم تلبَّ د في الطين، وما زلنا

---

[34] الحندس: الليل الشديد الظلمة.

نمشي في أنحاء تلكالمطمورة،[35] على هذه الصورة، حتى تخيلت أنني في قبور قدماء المصريين، أو في هياكلالأسرار بمعابد الرومانيين، أو في طريق الامتحان عند أحرار البنائين، فوجب القلب،[36] منشدة الرعب، خشية أحُبولةٍ نصُبت، أو مكيدة رُتِّبت، ووجمت، ثم أحجمت، وقلت للغلام:ليس بيننا ما يوجب الاحتيال، أو يدعو للاغتيال، وماذا تريد مني في هذا الغيهب،[37] وليسمعي من فضة ولا ذهب، ولا من شيء يستلب أو ينُتهب، فقهقَه الفاجر ثم أقسم باللهوثنَّ ى بالطلاق، أننا نسير في أمان بين غرائر الدفاتر ولفائف الأوراق،[38] وقال: كن آمناًمطمئنًّا على نفسك، وسترى الحقيقة بعيني رأسك، وما كاد الشقي يتم لي هذه العبارة،حتى عثرت قدمي في لفُ َافة فوقعت على غرارة، وإذا بصائح يصيح من تحتها متبرمًامتأففًا، ويقول لي متغطرسًا متعجرفًا: ما هذه الغشاوة يا عديم الإبصار، ونحن لا نزالفي أديم النهار؟ فقمت متثاقلًا متساندًا، وقلت في نفسي منشدًا:

دجً ى تتشابه الأشياء فيه فيجْ ُهل جنسها حتى يصيحَا

ثم تأملت فإذا أنا بخيال ينفض الغبار عن رأسه ولحيته، بذيل مئزره أو جُبته، فتولاني الخوف والوجل، وقلت: من الرجل؟ فقال الغلام: كاتب من كتبة »السجلات،«ينبش عن أوراق في »سجل الأيلولات«، فقلت: وكيف يهتدي لذلك، وسط الظلام الحالك،فقال: أولئك قوم اعتادوا العمل مع احتجاب الضياء، فصاروا كالخفاش يبصرون فيسواد الظلماء:

ولو سار كُ ل الوَرَى هكذا لما حَسَدَالعمى من يبصرون

---

[35] المطمورة: الحفيرة تحت الأرض.

[36] وجب القلب وجيباً: رجف وخفق.

[37] الغيهب: الظلمة.

[38] الغرائر: جمع غرارة وهي الجوالق.

ثم انعطفنا من ذات اليمين إلى شبه قاعة، يلوح فيها من الضوء مثل جناح يراعة،[39]وإذا هو لعاب الشمس يسيل من ثقب،[40] في سقف الجُب، وهو يتموج بأنواع الجراثيم،ۜ تموج الماء بالهشيم،[41]ۡ فخلت أن عجوز الفلك الدوار — أريد بها شمس النهار — خشيتأن تضل في ظلمة هذه المفازة،ۡ فاتخذت لها من لعابها عكازة، تتوكأ عليها للاهتداء،وتدب بها في هذا العماء، فمسحت على بصري، وأحدقت بنظري، فأبصرت وماذا أبصرت،ونظرت وماذا نظرت:

ما إن سمعت ولا أراني سامعًاأب دًا ب ص ح راءٍ ع ل ي ه ا ب اب

نعم رأيت فضاءًً متسعًا تراكم فيه من الأوراق الرثيثة والدفاتر البالية،ۡ مثل الربىالشاهقة والأكمات العالية، غير أن هذه تثمر وتجُني،ۡ وتلك تعث وتبلَى، هذه تكونَّ مخضرة مخصبة،ٍ إن جادها الحيا أينعت بالغض من النبات، وتلك سوداء مجدية، إن

ًَّ بللتها الرطوبة اهتزت باليابس من الحشرات:

فالأرض تبسُط في خد الثرى ورقًا كما تُنشر في حافاتها اليُسُ طوالريح
تبعث أنفاسً ا معطرةً مثل العبير بماء الورد مختلطوهذه بَسَ طت

[39] اليراعة: الذبابة.

[40] لغاب الشمس شيء كأنه ينحدر من المساء إذا قام قائم الظهيرة تراه مثل نسيج العنكبوت.

[41] الهشيم: نبت يابس متكسر.

فوق الثرى ورقً ا ل كـ ن هـ ل ل بـ لـ ى وال ع ٍّ ث م ن بـ س
طوريحها تورث الأسقام ناشقها كأنه من تراب القبر يستعط[42]

وما لبث أن استبان ليشخص الكاتب المرافق لنا، ًفي لمحة ذلك السنا، فإذا هو قصيرالقامة، كبير العمامة، ذو وجهٍ مقنَّ ع بالاصفرار، وعين مكتحلة بالاحمرار، وقد طَومن خلفه الجبة، ورفعها على ظهره كالجُعبة، وفي حزامه دواة من نحاس أصفر، وبينطيات العمامة أوراق بالتواريخ »والنمر«، فاستعذتُ بالله من الشيطان الرجيم، وقلتلذلك الغلام اللئيم:

عيسى بن هشام: هلم بنا أيها المراوغ إلى الباب لنعود إلى ضياء الحياة فقد يئستمن أمرنا، وأنَّ ٌّ ى لهذا الكاتب أن يهتدي للبحث في هذا اللج القامس،[43] والليل الدامس.[44]

غلام المحامي: ًلا تنكرن على مثله الاهتداء في دياجي الظلماء، ولا يهولنَّ ك تشتتالدفاتر وتراكم الأوراق فهي مرتبة في حافظته ترتيباً انطبع فيها من طريق الوراثة عنأبيه وعن جده، فلا تخفى عليه مواقعها كما يتوارث رؤساء »البوغاز« في الإسكندريةهدايةَ السفن عند دخولها بما علموه عن آبائهم من مواقع الأرض في قاع البحر، ولو كانمعنا اسم الكاتب لسهُل البحث ولوَصلنا إلى الغرض.

الشيخ الكاتب: نعم لا تنكر علينا بارك الله فيك اهتداءنا للبحث في هذه الأوراق،والله يعلم أن هذه الدفترخانة مرسومة في ذهني منذ الصغر على أحسن ترتيب وتبويب، ًفهي مقسمة إلى عدة سجلات منها »سجل الباب العالي«، تسجل فيه الأعيان المبيعة غيرالموروثة، ومنها »سجل القسمة العسكرية«، تسجل فيه الأعيان المبيعة الموروثة، ومنها»سجل الأيلولات«، تسجل فيه الأعيان المحصورة من تركة تخُصص أو تباع بالمزاد، ومنها

[42] استعط الدواء، أدخله في أنفه.

[43] القامس: البعيد الغور.

[44] الدامس: الشديد الظلمة.

»سجل الإعلامات«، تسجل فيه المواد التي تصدر فيها أحكام من المحاكم الشرعية من أينوع كان، ومنها »سجل التقارير«، تسجل فيه تقارير النظار وقفًا وغيره، ومنها »سجلالوقفيات«، وتسجل فيه نفس الوقفيات، ويدخل فيه التوكيلات والوصايا والتصادق.

عيسى بن هشام: سبحان الفاتح الوهاب، ومَن يهديني إلى طريق الباب!

الشيخ الكاتب: ... ومنها »سجل الديوان العالي«، تسجل فيه الفرمانات المتعلقةبتولية القناصل وعزلهم، والإعلامات الصادرة من مجلس استئناف مصر في الهيئة التييحضرها القاضي الشرعي أو النائب عنه مع جملة من كبار العلماء من المذاهب، ومنها

»سجل القسمة العربية«، تسجل فيه الأعيان الموروثة المختصة بالذِّ ميين.

عيسى بن هشام: اللهم ارفع عنا الأذى والمقت، وهلم فقد ضاق بنا الوقت.

الشيخ الكاتب (مسترسلًا): ... ومنها »سجل إسقاط القرى« يسجل فيه ما يأخذهالأمراء ويعطونه من الأطيان والقرى، وليس يخفى أنه كان في مدينة مصر محاكم شرعيةسياسية وكانت السيطرة عليها للقاضي من قبل السلطان، وكان لكل واحدة سجل تسجل

الدفترخانة الشرعية

فيه جميع الأنواع »وقد حُفظت تلك السجلات كلها بهذه الدفترخانة«، وكانت مراكزها فيجهات »باب الشعرية«»وقناطر السباع« و»جامع طولون« و»جامع قيسون... «

عيسى بن هشام: يكفي أيها الشيخ فقد وجب الرحيل، ولا حاجة بنا إلى هذاالتطويل والتفصيل.

الشيخ الكاتب (ٍ معددًا): وفي جهات »درب سعادة« و»باب الخلق« و»الصالحية«و»النجمية« و»أحمد الزاهد« و»البرشمية« و»مصر القديمة« و»بولاق« و»جامع الصالح«و»جامع الحاكم... «

عيسى بن هشام: تباركَ من له الأسماء الحسنى، ومَنْ يعيدني إلى الحياة الدنيا.

الشيخ الكاتب: ... ثم »محكمة الباب العالي«، وهي المحكمة الكبرى وقاضيها هوَّ المسيطر على الجميع المولى من القسطنطينية، و»محكمة القسمة العسكرية«، وقاضيهايعين كل سنة من دار السعادة كقاضي المحكمة الكبرى، ويسمى »ِـ القسام« وشغلهالمواريث بأنواعها فقط، و...

عيسى بن هشام (للغلام): لقد مل سمعي، وضاق ذرعي، فاخرج بنا وأنقذني منشر هذه الدار، ومن ثرثرة هذا الشيخ المهذار.

الغلام: لا تضجر ولا تقنط وأنظرني قليلًا حتى أستنير برأي الشيخ لعلنا نجدٍّعنده حلا للعقدة، وفرجًا للكربة.(ثم مال على الشيخ منفردًا به فسمعته يقول له:)مثلك لا يعجز عن استخراج الوقفية بدون الوقوف على اسم كاتبها، وأنت لا تأبالربح والكسب لنا جميعًا، وأصحاب القضية من كبراء الناس أهل السماحة والكرم.

الشيخ الكاتب: مهلًا فقد كدت أتذكر اسم كاتب الوقفية على ذكر السماحة والبذل،فإن لكتابتها حكاية مشهورة في الجود والعطاء منذ ذلك العصر، ولا يزال للخلع التيخُلعت على كاتبها بقايا إلى اليوم عند أهله وذريته وهو المرحوم الشيخ فلان، فدونكوأصحاب القضية فاتفق معهم لوضع هذا الاسم في ورقة النمرة والتاريخ، وجئني بهانافعةً تشفع لنا أجمعين، والله ينفعنا بنفع المسلمين.

الغلام (لعيسى بن هشام): قد تيسرت الحال بإذن الله ووصلنا إلى معرفة اسمالكاتب الذي تسُتخرج به الصورة، والرأي لك في هذه الخطوة السادسة.

قال عيسى بن هشام: ثم انطلق الغلام أمامي يسحبني وراءه حتى خرجنا بحسنصنع الله من الظلمات إلى النور فجَهَرت[45] عيني وسدرت[46] فلم أبُصر في الشمس عندالباب إلا بعد التردد مرارًا بينها وبين الظلام، ولما التقيت بالباشا في الموضع الذي كانينتظرني به سألني عن طول هذا الغياب، فلم أرد أن أضيف إلى

---

[45] جهرت العين: لم تبصر في الشمس.

[46] سدرت: تحيرت.

مصائبه مصيبة أخربوصف ما كنت فيه، بل كتمته إياه وأخبرته بتيسير الحاجة، ثم اتفقنا مع الغلام علأن يباشر وضع اسم الكاتب في الورقة، ويعود في اليوم الثاني إلى الشيخ الكاتب ليأتينابصورة الوقفية، بعد أن نقدناه ما نقدناه.

ثم دارت بعد ذلك علينا الأيام ومضت الشهور، ونحن نتردد على الدفترخانة تارةً فيصحبة الغلام، وتارةً بدونه إلى أن حل الأجل وآن الأوان، فجاءنا الغلام ذات يوم يبشرناً بالوقوف على الوقفية ففرحنا فرح الغواص بدُ ًرة التاج، تحت تلاطم الأمواج، ونهضنامعه إلى الدفترخانة فرأينا الشيخ الكاتب عند الباب يتيه إعجاباً بمهارته في الاهتداءعليها مع قِصَر الوقت، ويحمد الله على حسن الطالع وسعود الجَد فحمدناه على همتهالعالية وصنعه الجميل، فأخرج من تحت إبطِه أوراقًا بالية متخرقة متآكلة لا تستويمنها ورقة مع أختها فيها سطور متقطّعة وخطوط متوزعة لا يستطيع أن يحلها إلامن كان عريقًا في كشف الرموز وفك الطلاسم، فقلت له: إن الاهتداء إلى نقل صورةمفهومة من هذه الأوراق لأعظم مشقةً وأدهى بليةً من الاهتداء على موضعها من تلكالصحراء المظلمة، فقال لي: إن كثرة التعود تيسر العسير وتهوّن الصعب، وقد ورثتُعن المرحوم والدي أيضًا قراءة هذه الخطوط وتلفيقَ ًمارث من أواخر السطور، والعبارةُواحدةٌ لا تتغير تقريباً في كل باب من أبواب السجلات، ورأيته يستعد ليسترسل في أبوابالشرح والوصف، وخفت أن تشتد به نوبة الهذر والإكثار فودعناه وانصرفنا، وكلفناغلام المحامي أن يأتي لنا بالصورة من عنده بعد انتهائها، فطلب منا أن ندفع »رسمها«وأن نأتي بشاهدين يشهدان علينا باستلامها، ووعدنا بأنه ينوب عنا في اجتلابهما بعدأن طالبناَ بالمكافأة الواسعة، على هذه الخطوة السابعة.

المحكمة الشرعية

قال عيسى بن هشام: ولما صارت في يدنا الصورة، بعد تلك المواقف المذكورة، خطا غلامُناالثامنة من خطواته، في بعض روحاته إلى المحكمة وغدواته، فذهب إلى كاتب »الطلبات«لتحديد إحدى الجلسات، ثم عاد فبشرنا بأن الكاتب اتفق مع الرئيس، على أن تكونالجلسة في يوم الخميس، وأنه حرر »طلباً« لحضور الخصوم، في الوقت المعلوم، فأقمناأيامًا نعلل النفس بالأمل، حتى حلّ هذا الأجل، وسمح لنا الطالع بطلعة الشيخ المحاميولقائِه، بعد طول احتجابه عنا واختفائه، ورضيَ أن يتوجه معنا إلى المحكمة، ليكشفعنا بيمُنه كل مظلمة، فسرنا جميعًا نقصد بيت القضاء الشرعي، والحكم المرضيّ، والعدلالمقضي، بوحي الإله وسنة النبي، حيث تقام منابر الهُدَى، وتشاد منائر التُّ قى، وينبلجنور الحقيقة والعدالة، وتنكشف ظلمة البدعة والضلالة، ويؤُخذ من الظالم للمظلوم،وينُتصف من الحاكم للمحكوم، ويسار على الصراط السوي، في الحكم بين الضعيفوالقوي، حيث تتحد المواقف والأقدام، وتستقيم الأوامر والأحكام، وتغدو فيه الثكلَى ربةالأيتام،ًأعزٍ من الفارس رب الرمح والحسام، ويصبح الأعزل الشاكي،ًأقوى من المدججالشاكي،[47]ًويتساوى لديه رب الشوَيهة والبعير،[48] برب التاج والسرير، نعم حيث يكونالمقعد الموروث، عن النبيّ المبعوث، وحيث يعمل بالسنة وآي الكتاب، فينُتصر للذليل علىالعزيز، ويقتدَى فيه تارةً بسيرة عمر بن الخطاب، وأخرى بسيرة عمر بن عبد العزيز،ًوحيث يكون مقر المهابة والجلال، ومصدر الوقار والكمال، وموضوع الطهارة والأمانومنبع العفة والصيانة، وقبلة القنوت والخشوع، ومقام الطاعة والخضوع.

---

[47] المدجج: اللابس لسلاحه، وكأنه تغطى به، والشاكي: التام السلاح.

[48] الشويهة: تصغير الشاة وهي الواحدة من الغنم.

ولما وصلنا إلى هذه المحكمة وجدنا ساحتها مزدحمة بالمركبات، تجرها الجيادالصاهلات، وبجانبها الراقصات من البغال والحمير، عليها سُرُج الفضة والحرير،فحسبناها مراكب للعظماء والأمراء، في بعض مواكب الزينة والبهاء، وسألنا لمَن هذيالركاب، فقيل لنا: إنها لجماعة الكتاب، فقلنا: سبحان الملك الوهاب، ومَن يرزق بغيرحساب، ونحَونا نحو الباب، في تلك الرحاب، فوجدنا عليه شيخًا حنت ظهره السنون،فتخطته رسل المنون، قد اجتمع عليه العمَش والصمم، ولج به الخرف والسقم وعلمناأنه حارس بيت القضاء، من نوازل القضاء، ثم صعدنا في السلم فوجدناه مزدحمًا بأناسمختلفي الأشكال والأجناس، يتسابُّون ويتشاتمون، ويتلاكمون ويتلاطمون، ويبرقونويرُعدون، ويتهددون ويتوعدون، وأكثرهم آخذٌ بعضهم بتلابيب بعض، يتصادمونبالحيطان، ويتساقطون على الأرض، وما زلنا نزاحم على الصعود في الدرج، والعمائمتتساقط فوقنا وتتدحرج، حتى مَن الله علينا بالفرج، ويسر لنا المخرج، في وسط هذاالجمع المتلاصق، والمأزق المتضايق، ووصلنا إلى القاعة السفلى، فوجدنا عندها امرأة حُبلى،تتقلب على الأرض كالثعبان، وتستشهد بالأهل والجيران، أن بعلها أنكر حملها، وحاولناأن نخطو خطوة إلى الأمام، فلم نستطع من شدة الزحام، وكيف بالتقدم في عباب موجملتطم، ومنحدر سيل مرتطم، من نساءٍ صائحاتٍ مُوَلولات، ونائحات مُعولات، ونادباتباكيات، وصارخات شاكيات، كأنهن قائمات في مأتم على مدافن الأموات، تقرحت فيهالعيون، وبحُت الأصوات، وفيهن المسفرة والمتقنعة، والمضطجعة والمتربعة، والحاسرة عنالذراع والرأس، وأختها تفُليها في وهَج الشمس، ومنهن الكاشفة عن ثدَييها ترُضع طفلًاعلى يديها، وغيرها ترضع طفلين في حذاء، وزوجها يضرب رأسها بالحذاء، وأخرى آخذةٌبضفيرة ضرتها، ورضيعُها يتلهف على ضَرتها.

ومن بينهن مَن يتقدمها طليقها، ويتبعها عشيقُها تشيع الأول باللعن والسباب، وتغمز الثاني بكف مزدانة بالخضاب، ورأينا العقيلة المخدرة مع »الأغا« لا يستطيع أنيحميها في حرمة هذا الوغى، وشاهَدنا في الجمع جماعةً من فُجار الخلعاء،

وتبُّ َاع النساء،يغازلون كل غانية هيفاء، ويغامزون كل غادة غَيدْ َاء،[49] ٍ
ويتعرضون لفض النزاع بين

ذوات القناع، وفصل العناد والشقاق بين الطاعنات بالأحداق، فتختلط غمَزَات الطرفبهمزات الكف، فيزول ما هنالك من الجدال والخصام، ويصيرون جميعًا إلى الحسنوالرقيق من الكلام، ورأينا فيما رأينا من غرائب البشاعة، وعجائب الشناعة، رجلًا وامرأةًيتسابقان في ألفاظ الفحش والهجر،[50] ويتباذَّ انِ في أقوال البذاءة والنكر، وهما يتجاذبان فيأيديهما غلامًا، كأنما يحاولان له اقتسامًا، ٌ ليأخذ كل منهما من أعضائه بنصيب، والغلاميبكي من شدة الألم والتعذيب، فاستعذنا بالله السميع العليم، من موقف هذا الجحيم،وسمعنا من أفظع ما سمعناه امرأةً تنتحب وتقول، ونقابهُا بماء العين مطلول: »لو كانللنساء قضاة من النساء لما وصلنا إلى هذه الحالة التعساء، فإن الرجال يميلون لجنسالرجال، ويتناصرون لبعضهم على ذوات الحجال«، فاستعنَّ ا برب المثاني،[51] وصعدنا فيالسلم الثاني، فإذا هو كالأول يتموج بالناس كبيوت النمل، أو خلايا النحل، وانتهينامنه إلى قاعة ممتلئةٍ بصنوف الباعة، هذا يصيح: »الخبزَ والجُبن«، وذاك ينادي »الدخانوالبن«، وآخرُ يقول: »الزبدة والعسل«، وبعضهم يردد: »الفول والبصل«، وبائع الضأنيفتِّ تُ بسِ ٍكينه جماجم الرءوس، والثلاج يصفق بأكواز »العرقسوس«، وهناك »قهوة«يدب فيها الشهود بالعشرات، كدبيب الحشرات فيعرضون أنفسهم على الخصوم للشهادةأو التزكية بأجر معلوم، وغلمان المحامين يروحون بين الجموع ويغدون، فيمكرونبهم ويكيدون، ويتقلبون بين الخصوم ويحتالون، فيخدعون ويغتالون، ودخلنا حجرةًصغيرة من حجرات الكتاب، فثار في وجهنا ما على أطباق الباعة من جيش الذباب،فرجعنا على الأعقاب، ونجونا من الأوصاب، ثم انحدرنا مع غلام المحامي

---

[49] الغيداء: المرأة المنثنية ليناً.

[50] الهجر: القبيح من الكلام.

[51] المثاني: آيات القرآن.

إلى حجرة كبيرةالساحة، فقال: اجلسوا هنا للاستراحة، فأجْلَسَناَ في صدر المكان، بين الكتبة والغلمان.

ولا بد لكل كاتب هناك من غلام، يقوم مقامه في تدوين الأحكام، فسمعت الكاتبالجالس عن اليمين، يقُسِم على أقواله بكل يمين، بأنه لولا اعتراض مركبات الكهرباءوضيق الميدان، لما تأخر حمارُهُ عن حمار فلان، وسمعت صاحبه بجانبه، يحلف بجدهوأعز أقاربه، أنه لولا حبسه للعنان، لسبق كل الحمير في يوم الرهان، ويقول له وهويتلفف في العباء: »قد بلَغَنا عن الأجداد والآباء، أنه إذا صحت الشعرة الخضراء، لم يتعلقبذيل الحمار الهواء«، ثم التفت ذات الشمال فوجدت كاتباً منهم غض الشباب، عظيمالتأنق في لبس الثياب، فهو يتلألأ ويتألق، في سندس وإستبرق، كأنما خاطوا له قَباءًمن أزهار بستان، مختلفة الأشكال والألوان، يفُعِم الأنوف بعِطره، ويعُبِّق الجو بنشره،وأمامه رجل في يده صرة ثياب ينشرها ويطويها، فيأخذها »السيد« منه ويرميها، ويقولَّ له في حدته، وشدة سَوْرته:

السيد: هذه ثياب لا أرضاها ولا أقبلها، وبئس المفصِّل مفصلها.

الخياط: كيف ترى ذلك أيها السيد، وأنا أقسم لك بالقرآن المجيد، أنها أوسع منثياب السيدَين عبد العزيز وعبد الحميد.

السيد: كذبت ورب الكعبة فإن استدارة الكُم ضيقة والرقبة لا تنطبق على الزيالحاضر.

الخياط: وماذا أصنع وذلك كل ما في عرض الحرير، ولو كنا على الزي القديملدخل مع السيد في طي ثيابه، اثنان أو ثلاثةٌ من أصحابه.

أحد أصحاب القضايا: صبح الله السيد بالخير والإنعام.

أحد الكتبة الظرفاء (مُنكتاً): لا، بل بالخيل والأنعام.

صاحب القضية: أرجو سيدي أن يعطيني »الإعلام.«السيد: اذهب حتى يأتي الغلام.

الكاتب الظريف (مورِّياً): عليك به في شارع أم الغلام، تجده جالساً نصا تحتالأعلام.

قال عيسى بن هشام: وعافت نفسي هذه النكت الباردة والمعاني الساقطة، فأعرضتعن الإصغاء، وسرحتُ طرفي في بقية الأنحاء، فرأيت الكتبة كلهم يتفاكهون ويتسامرون،هذا يلَ ُتُ في يده أفيونه، وذاك يكور بين أصابعه معجونه، والغلمان يشتغلون تارةًبأوراقهم، وطورًا يتباحثون في أذواقهم، وأرباب الحاجات بين أيديهم يقاسون سوءالرد، ومطل الوعد، وسمعت أحد الكتبة يخاطب صاحب قضية، بألفاظ بذيَّ ة، ويقولله: »كيف تعطي الغلام هذا المبلغ الزهيد؟ أتظنه كان لك من العبيد؟ أتريد أن يكتبلك ويتعب، (وهو لا أجرة لهُ في المحكمة ولا مُرتب) بغير ربح ولا مكسب؟ إن هذا لمنأعجب العجب!« وجاء رسول القاضي يطلب أحد الكتبة الرؤساء فوجده راقدًا كالنُّ فَسَاء،فبعضهم أشار بتنبيهه من غفلته، وقال بعضهم: لا بل اتركوه في رقدته، أنسيتم حكمعادته، بأنه لا يفيق من غفوته، قبل أن يسيل الأفيون مع الدم في دورته، ثم اتفق

المحكمة الشرعية

معهم الرسول، على أن يرجع فيقول: »إنني لم أجد الشيخ مكانه، وعلمت أنه نزل إلىالدفترخانه«، ثم استيقظ الراقد بعد مدة فتثاءب وتمطى، ثم تدثر وتغطى، ثم عاد إلىُّ ما كان فيه من السبآت، وهو ينشد للمعري من أبيات:

وفضيلة النوم الخروجُ بأهله   عن عالمٍ هو بالأذى مجبول

ثم جاءه بائع كتب وأوراق فصاح به حتى أفاق، وقام بعون الله وحوله، يخاطبالبائع بقوله:

الكاتب: هل أحضرت ما طلبته من الكتب؟

البائع: نعم جئتك بكتب قديمة، لا تقدر لها قيمة، منها كتاب »حل الرموز،لفتح الكنوز«، ومنها »أصول المراسم، في فك الطلاسم«، ومنها »حسن إرشاد الناس فياستخراج الذهب من النحاس«، ومنها »القول المأثور في تأثير البخَُور«، ومنها ...الكاتب: ألم تعثر لي على كتاب في »الاستحضار«؟

البائع: نعم معي كتابان أحدُهما »قلائد اللؤلؤ والمرجان في استحضار الجان«. والآخر »خير المواقيت، لرؤية العفاريت.«الكاتب: بارك الله فيك وجزاك خيراً، فإن عندي نسخة محرقة من هذا الكتاب الأخيرفاصحَبني إلى البيت لنقابلها ونصححها.

قال عيسى بن هشام: وقام هذا الكتاب مع البائع، وأقمت أسخط على هذا الجهلالشائع، والعمل الضائع، وبينا أنا كذلك إذ أشار علينا غلام المحامي بالقيام، فقد آننظر قضيتنا، فخرجنا فوقفنا عند باب الحجرة التي تنعقد فيها الجلسة، فرأينا الزحامخارجها وداخلها على أشد حالاته، وسمعنا الحجاب ينادي تارةً بصوت عالٍ وتارةبصوت منخفض، فسألت الغلام عن ذلك فقال: إنه يخفض الصوت حتى لا يسمعأرباب الدعاوى النداء فتسقط القضية وهو من باب الشفقة والحنو بالمدعى عليه، وفوقَّ ذلك فإن للحجاب أن يدخلوا الجلسة من أرادوا، ويحجبوا عنها من أرادوا، ثم نوديعلينا فدخلنا مع شهود المعرفة الذين استحضرهم الغلام لنا، فوجدنا الجلسة مؤلفة منثلاثة أعضاء برئيسهم وهم جلوس كل واحد منهم بمعزل عن الآخر، وقد تعسر عليَّ أنأفهم كلام الباشا وهو بجانبي يخاطبني لشدة الضوضاء وعلو الأصوات، ثم دخل كاتبالجلسة يرقص في مشيته، وكأنه الطاووس في هيئته فجلس ووقفت عنده بحيث أبصرما يسطره، فوجدته قد تناول القلم بأطراف بنانه يضعه في الدواة تارة ويضعه في أذنهأخرى، ثم يلهو بتفقد ثيابه ويشتغل بلمس الإبر التي تتشبك بها العمامة، ثم ابتدأوا فيسماع القضية،ٍّ وتقدم الباشا مع الشهود فلم أسمع شيئاً مما قالوه أو قيل لهم لكثرةالجلبة والصياح، وإنما رأيت الكاتب يكتب في دفتر الضبط — وكأنما يكتب من عنده —ما أنقله بحرفه وهو:

> استحضر أمام الجلسة المدعي والمحامي والشهود فتقدم المدعي، وعرف أنهَّ فلان بن فلان بن فلان وسمى شاهدي معرفته وهما فلان بن فلان بن فلان،وفلان بن فلان بن فلان الساكنان بالجهة الفلانية شياخة فلان بن فلان بنفلان، وشهد كل منهما على انفراده بأنه يعرف المدعي المذكور، وأشار إليهبيده وهو فلان بن فلان بن فلان المذكور، ثم قال المدعي

المذكور: إن لي قِبلَفلان بن فلان بن فلان دعوى نظر على وقف ومعي مستند دعواي والمدعىعليه لم يحضر مع استلامه علم الطلب المحدد له فيه الحضور في هذه الجلسة.

ثم أمرت المحكمة بانصرافنا للمداولة والنظر في المستند، فوقفنا ناحية من الحجرةننتظر مع من ينتظر، ثم نودي علينا بعد مدة فقالوا لنا: إن المحكمة تعلمنا بمضمونالمادة ٧٢ من اللائحة وهي تقضي — على ما أخبرنا به المحامي — بالإعذار إلى المدعىعليه، وقال: لا بد أن نطلب ذلك من المحكمة؛ لأنه لا يسوغ لها أن تعُذر إلا بناءً علىطلب المحامي، فقدمنا الطلب، فتقرر إصدار الإعذار، والله يكفيك شر ما في هذه الدار،من الأقضية والأقدار، وكثرة الهموم والأكدار.

قصر حفيد الباشا

قال عيسى بن هشام: ودخلنا — لا أدخل الله عليك طوارق النقم، ولا أخرجك من طرائقالنعم — في دَور الإنذار يتبعه الإنذار، والإعذار يتلوه الإعذار، ومندوب المحكمة يعودإلينا بالخيبة، في كل أوبة، زاعمًا أن خدم الخصم لا يقابلونه إلا بالازدراء، كغيرهم منخَوَل أبناء الأمراء، حتى وصلنا إلى حد الإعذار الأخير، ورَمينا المندوب بالإهمال والتقصير،فرأينا أن نخبُر خبره، ونقتفي أثره، ونتحقق بأنفسنا كيف يتسع الذرع، للاستخفافبرسول الشرع، فسرنا وراء المندوب ومعه الشاهدان، يشهدان بأنه أعذر فلان بن فلانبن فلان، وقد أمسك الواحد منهم بكتف الآخر،ً على هيئة تستفز كل هازئٍ وساخر،ٌ وكلمنهم يخد الأرض بحذائه، ثم يعفي الأثر بفضل ردائه.

وهم ينتقلون في المشي من الذَّ ميل إلى الرسيم إلى الوخيد،[52] كأنهم مسرعون إلى جفنةثريد، ونحن من خلفهم نخب ونهرول، ونحُسبل ونحوقل، إلى أن كادوا يغيبون عنالبصر، وكدنا نفقد منهم الأثر لولا أن عثر أحدهم بقضبان مركبات الكهرباء، فطاحتالعمامة وانفلت الحذاء، فانفتل يلتمسها ويلتمسه، فلم يرُ ًَ عه إلا السائق وجرسه، فماتحرك ولا انتقل، حتى أدركته العَجل، وكاد يداس ويقُضى عليه، لولا أن جذبه رفيقهإليه، فحيل بين الرجل وبين عمامتِه ونعله، ووقف مخبولاً لا برأسه ولا برجله، وهويستنجد لهما ويستغيث فلا يغاث، حتى مرت عليهما المركبات الثلاث، فأدركناه وهوممتقع اللون من اليأس والوجل،ً فبشرناه بسلامتهما فاعتم بهما وانتعل، وحمد الله علىهذا اللطف في القضاء، وحمدناه على ما أتيح من التعويق والإبطاء؛ إذ تمكنا من اللحاقبهم، وقدرنا على استئناف السير في عَقبهم.

---

[52] الذميل والرسيم والوخيد: ضروب من السير.

وقد انتهى السير بنا إلى قصر في سُرّة بستان، يزْري في الحسن بقصور بغدادوغمدان، وقد ترصع البستان بأنواع الأزاهر، كأنه محلّى بصنوف اليواقيت والجواهر،والقصرُ في وسطها كأنه الدرة البيضاء، أو البدر بين نجوم السماء:

ك أن ه ج يِ دٌ وب س ت انٌ هُمن حوله عقدٌبديع النظام

وما عساي أقول في وصف روض قد نسجته يد الأرض؛ لتزدان به يوم عيدها ويومزينتها، ونمنمته رداءً لها تختال به في حسن رونقها وبهجتها:

مُ وَزّرة من صنِعة الوبل والنَّ دى بوشيٍ ولا وشيٌ وعصبٍ ولا عَصب[53]

قد أغنى الغواني نسيمُهُ العليل، عن المسك الأذفر، وكفاها ريحُهُ البليل،ُ تعطرهابالطيب والعنبر:

بغرسٍ كأبكار الجواري وترُبة كأن ثرَاها ماء وردٍ على مسك

ومُنىَ العرائس أن لو اتخذت من نوار الأزهار فصوصًا للخواتم، ومن أكمام الأشجارمعاقد للتمائم،ُ وودها أن لو تأزرت من سندس أرضه بأبهى إزارٍ ومرط،[54] وتحلت منجوهر نباته بأزهى شنف وقُرط:

إذا ما النَّ دى وافاه صبحًا تمايلت أع ال يِ ه م نٍ در ن ث ي ر وج
وه رإذا قابلته الشمس ر د ضياءها عليها صقال الأقحوان المن
وروقامت فيه مثمراتُ الأغصان قيام الكواعب الأتراب، ساقياتٍ

[53] العصب: ضرب من البرود.

[54] المرط: كساء من خز يؤتزر به.

بالأباريق والأكواب،ساكباتٍ سؤر الطل من تلك الأقداح، مائساتٍ من رحيق الندى ومداعبة الرياح:

شقِائقُ يحمِلن النَّ دى فكأنه   دموعُ التصابي في خدود الخرائد

فما تخيلنا في هذا الروض مذ رأيناه إلا أننا في حفلة عُرس، جمعت أسباب اللهووأطراف الأنس، قد نصب الغيم عليها سُرادقه،ً ومد مُ ٌ لتف النبات فيها نمارقه،[55] وأشرقتالأغصان الأنوار، إشراق المصابيح بالأنوار، وقامت الأطيار على الأعواد، تتسابق في الترنموالإنشاد، فهي تغرد بألحانٍ يقطع السامع لها حبل النفس، ويأنس إليها مستنفرُ الوحشالمفترس:

رأت زهرًّ ًاٍ غضا فهاجت بمزهَر[56] مثِانيه أحشاءٌ لطفِن وأوصال

وللنسيم بين الشجر نغماتٌ بالهفيف والحفيف، من ثقيل في الضرب أو خفيف،ٍ تصفق لها أكف الأوراق، وتقوم الأفنان للرقص على ساق، مترنحة الأعطاف من خمرالندَى،ً مهتزة القدود بغمز الصبا، تبسم عن أقاحٍ نضيد، يزرِي بثنايا الغيد، ثم تميلبرشيق القوام فتلتقط ما ينقطها به الغمام، والجدول يجري تحت أذيالها ويتعثر،وينساب الماء في ظلالها ويتكسر، كأن حصباءه اللؤلؤ والمرجان، في نحور الحسان، أوقلائدُ العقيان، في أجياد القيان:

ترُوع حصاهُ حالية العذَارى   فتلِمس جانب العقِد النَّ ظيم

ًّ ولما مُلئنا من هذه الجنة طرباً، وقضينا عجباً، قلنا: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، ماأعجز الخلق عن شكر نعماه، وإذا بقومٍ عند باب القصر، كأنهم أفراخ في

---

[55] النمرق: الوسادة.

[56] المزهر: العود.

مخلب صقر،تعلو وجوههُم قَتَرة، ترهقها غَبرة، وهم بين باكٍ ومنتحب، وصارخٍ ومصطخب، فتفرستفي هيئاتهم، وهم يذكرون حاجاتهم، فإذا هم جميعًا في يأس وقنوط، وخيبةٍ وحبوطٍ،وإذا الصيرفيُّ يقول: بصوت المقهور المخذول:

الصيرفـيّ: تعسًا لي لقد ضاع مالي، وذهبت آمالي.

التاجر: وبؤسًا لي لو كنت أعلم بهذه المآل، لم أقع في تلك الحبال.

البائع: يا ويـح نفسي اغتررتُ بالمقام العالي، فخسرت رزق عيالي.

الجوهري: ويلٌ لمن خدعتهُ الظواهر، فضاعت عليه الجواهر.

الصيدلانـيّ: أقسمتُ لا يضيع عنده ثمن الدواء، ولو تعلق بأطراف السماء.

الخمار: تبًّا له من محتالٍ مال على دَنٍّ ي، ثم اختفى عن عيني.

القصّاب: أنا لا يضيع عنده حقي، ولو وضعوا السكين على حلقي.

الخياط: وأنا لا أترك هذا الباب، حتى أمزق ما عليه من الثياب.

الإسكاف: ورأس أبِيه وجدّه، لآخذن ثمن الأحذية من جلده.

الحلاق: أنا ابن جَلَا ً وطلاع الثنايا، وكم لصنعتي من منافع ومزايا، وليتني كنتشوهت خلقته، ومسخت سحنته، فنتفتُ شاربه، وحلقت حاجبه،ّ ً تالله لآخذن بناصيتَيهذا الثقيل البارد،ًّ ولأسدن عليه المصادر والموارد ولألزمنَّ ه صباح مساء، ولو حلّق فيالهواء.

كل هذا والخدم يكتمون وجود صاحب الدار، ويقُسمون أنه لم يبق لديه درهمٌ ولادينار، وإذا هم أحدُ الغُرماء بالدخول منعوه، أو دافَعهم أحدهم دفعوه، وبينما نحن نتأملونتعجب، ونتقلى على الجمر ونتقلب، ونقابل بين سعد المكان، ونحس السكان، إذا برجلإفرنجيّ قد خرج من بيت الحرم، وهو يلتهب غيظًا ويضطرم، ويقول للبواب برطانته،وسوء عبارته: لقد طالبتهُ فأبان الإفلاس والعجز، فلم يبق إلا توقيع الحجز، وإليكقائمة البيان، وحذار من التلف والنقصان، وما كاد »مُحضَر المختلطة« ينتهي ويذهب،حتى حضر »مُحضر الأهلية« يلهث من التعب، فسلم البواب ورقة إنذار، فأخذها وهوَّ يدعو بالثبور والدمار، وبعقب ذلك انصرف

المحضر، وتبعه جميعُ من حضر لاشتداد حرالظهيرة وأوُارها،[57] ولفح الشمس للوجوه بنارها، فانتهزنا هذه الفرصة فتحرك مندوبنُاوتقدم، وخاطب البواب وهو يتلعثم، فقال له: أنا مندوب المحكمة الشرعية، فقال له: لميكن ينقصنا إلا هذه البلية، ثم دفعه في صدره،ًفرده إلينا بظهره، بعد أن أخرجنا منالجنان، وأغلق باب البستان، فأخذ المندوب بيد الشاهدين وهو يتظلم ويتضرر، ووقفَّ بينهما ينادي في الهواء بالنداء المقرر:»يا فلان بن فلان بن فلان إن مولانا قاضي مصريأمرك بأن تحضر إلى المحكمة في يوم الخميس الآتي للنظر في دعوى اغتصاب الوقفالموجهة عليك من قبل فلان بن فلان، وإن لم تحضر في اليوم المذكور ينَصب عنك وكيلًا،ويسمع الدعوى في وجهه ويحكم عليك غيابيًّا«.

ّ ًَ ثم ودعنا المندوب والشاهدين وانصرفوا إلى سبيلهم، وبقيت أنا والباشا في دهشةوذهول وحزن وأسف مما رأينا وسمعنا، ثم استند الباشا إلى سور البستان، وشَرَع يقوللي وهو في تأمله وتفكره:

الباشا: ما زالت بواطن الأمور وحقائق الأشياء تتجلى لي على وجهها منذ غمرنيالدهر في هذه المشكلات والخطوب، حتى تحققتُ اليوم بأن أمور هذه الدنيا إنما تجريكلها على التضليل والبهتان، وتدور على التمويه والبطلان، وتنطوي على الغش والتدليس،فبالله عليك مَنْ ذا الذي يرى هذا القصر بزينته وبهجته وخدمه وحشمه ولا يتولاه الحسدُلساكنيه، والتطلع إلى حسن حظهم وسعادة عيشهم، ثم يرجع إلى نفسه فيسخط علىحظه من الدنيا ويندب نصيبةَ من الحياة وسوء قسمته في العالم!

عيسى بن هشام: لا زلت ترى الحق وتقول الصدق بما يتسع لك من سبيل الهدايةوالحكمة، نعم إن جُ ًل ًمن نراهم من المنعمين المترفين والأغنياء الموسرين لو كشفت عنباطن أمرهم وحقيقة أحوالهم وخبايا معيشتهم من وراء الجداران لوقفتَ على ما يوجبالأسى والأسف، ويدعو إلى الرحمة والشفقة لا ما يدفع إلى

[57] الأوار: حر الشمس والنار واللهب.

الحسد والغبطة، ولأيقنت أنالرجل الأجير الذي يستخرج قوت يومه منغمسًا بعرق جبينه هو أسعد منهم حالاً وأنعمبالاً، والغالب أنهُ كلما كان مظهر العيش زاهياً زاهرًا كان باطنهُ مُقتمًا مظلمًا، وأشد مايكون من البلاء على أهل هذه الطبقة أنهم يقضون أوقات حياتهم في الظهور بين الناسعلى أغرب حالات التصنع، فيكون الواحد منهم غريقًا في بحور الهموم والأكدار، وتراهيقسر نفسه بين الملأ على التظاهر بالسرور والانشراح، وأكثر ما يكون في الضيق والإفلاستراه يتعرض للتبذير والإنفاق، فهو على الدوام يتقلب بين الضيقين ضيق العيش وضيقالنفس، وإن كان عظيم الثروة كثير الغنى، فإنه لا غنى مع ازدياد الحاجات، ولا ماليكفي مع تجدد الرغبات.

الباشا: قد كانت الحال في أيامنا على العكس، إن كان لا يسرك من الرجل ظاهرحاله فإنه يرضيك باطن أمره، ّ َ وربما كان يجتهد في التظاهر بلباس الفقر إذا بلغ حدالغنى، وي ّ َ بُدي الشكوى إذا أسر الرصى.

قال عيسى بن هشام: وقضينا مدة في مثل هذا الحديث وأنا متهلل مستبشر بماأراه ينمو ويثمر في نفس الباشا من التعلق بالمباحث العقلية، والتعمق في معرفة الأخلاقالنفسانية حتى صار من دَيدْ َنه أن يستنبط من كل حادثة يشاهدها ما يرتقي به إلىعالم الفضيلة والحكمة، وازددتُ يقيناً بأن الرجل المرتفع القدر لا يزال غِ ًرا بالأمور غافلًاعن حقائق الأشياء، فإذا وقع في أشراك الخطوب استنارت بصيرته واستضاءت قريحته،وعلم بطلان ما كان فيه بحقيقة ما وصل إليه.

ثم حانت منا التفاتة إلى ما وراء السور، فرأينا خدم البيت وحشمَه قد اجتمعواحلقةً وهم يتحاورون ويتجادلون فسمعنا البواب يبتدئ فيقول:

البواب: ليت أمي لم تلدني وليت أبي لم يعلمني رسم الخط، َّ فقد كلت يدي وحفيَقلمي من طول التوقيع بالاستلام على الإنذارات والمحاضر، َّفقلما يمضي يوم إلا ولي فيهمن التوقيعات ما ليس لرئيس قلم في ديوان، فبئست المعيشة معيشتي وبئس الحظحظي، وليتني كنت قادرًا على الانضمام إلى صف هؤلاء المطالبين والغُرماء، فأخلصبجزء من أجرة الشهور المتراكمة، ومن لي بالتباعد عن هذا البيت

الذي انتشر فيه جرادالحجز، وأزعجت مَن فيه أصوات الغرماءُ، وأزعجني ترددُ المحضرين على صندوق ثيابي.الكاتب: لست أدري والله ما يصنع صاحب البيت، وماذا تحتال لحالته وكيف لنابالمعيشة معه ولم يبق عنده كثير ولا قليل، وإن صَدَق ظني كانت عاقبته من أقبح ماتتصورونه في سوء العواقب، فقد أحسست من كثرة حركته واضطرابه في هذه الأيامأنه يدبر لنفسه أسوأ تدبير للخلاص من ضيقه ليختتم أمرَه بأقبح الخواتم، ويعلم اللهأنه لولا ما ألتقطه في أشغاله من هنا ومن هناك لما تيسر لي القيام بقوت عيالي بعد أنانقطعت عنا أجور الشهور، وقد دعاني هذا الأمير أمس وأعطاني خاتمًا من الياقوتلأبيعه فذهبت به إلى الجوهري الذي كنا اشتريناه منهُ بأكثر من مائة جنيه فلم يدفع ليفيه إلا خمسة وعشرين، فبعتهُ ُ إياه وعُدت للأمير بالدراهم فكأنما فككت الأسيرَ من القيدُّ وأنقذت الغريق من اللج.

الوصيف: ّ الآن انحل ما كان مشكلًا وانكشف لي ما كان غامضًا، فإني رأيت معهأمس ذهباً كثيراً لم أهتد إلى مورده أعطاني منه عشرة جنيهات، وأمرني أن أبتاع منأخيه هذا الكلب الذي ترونه مولعًا بملاعبته منذ الصباح.

الفرّاش: وأنا اشتريت له من صهره تلك الببّغاء بخمسة جنيهات، وأخذت له غرفةفي »تياترو الأوبرا« بثلاثة، وزجاجة عطر باثنين.

الكاتب: فعلى هذا لم يبق معه إلا خمسة جنيهات ولا بد أن أبادر في الحاللمطالبته بإنجاز الوعد الذي وعدته لصاحب الجريدة المعلومة حتى يسكت عنه، ويكفعن التعرض لهُ.

السائق: وأنا أذهب إليه أيضًا لآخذ منه ثمن الريش والإسفنج الذين وعدني به مادام معه من الدراهم بقية.

الخصي: إنكم لفي نعمة وغبطة بما تنالونه من وراء هذا البيع، وهذا الشراء منالربح، ولكن غيركم من الخدم في الحرم قد اقتنعوا من العيش بيسير الأكل والشرب منغير أجر، وصبرنا على هذه الحال وفاء بالعهد لأهل البيت، ويا ليت هذه النعمة تدومفقد سمعتم اليوم وَعيد حضرة البك الجزار، كما سمعتم أمس بإنذار البك الخباز.

السقّاء: ما أظن أن لنا حيلة نلجأ إليها في آخر الأمر إلا أن نطلب منه إحالة أرزاقناعلى ريع الوقف الذي سَلِم وحده من الحجز.

البواب: لقد خاب ظنك وضاع أملك، فإن هذا الوقف الذي كنا نرتكن عليه قد دخلفي دور القضايا والدعاوى، وجاء اليوم مندوب المحكمة الشرعية بالإعذار الأخير، ومنيعلم ماذا يكون من أمره.

(وسمعنا الجرس يدق من جانب الحرم، فتشتت الجمع نحو المطبخ لحلولوقت الغداء، فانصرفنا من موقفنا واكتفينا بما شهدنا).

قال عيسى بن هشام: وحل اليوم الموعود لجلستنا في المحكمة الشرعية فتوجهناإليها ولم يحضر المدعى عليه كعادته، ولما فُتحت الجلسة تقدمنا إليها وشهد أمامهاشهود المعرفة، ثم اطلع الأعضاء على الإعذارات الثلاثة، فوجدوها جامعة للشروط المقررة،فأمروا بأن ينُصب للمدعى عليه وكيل يكون موثوقًا بأمانته معروفًا بالمحافظة على حقوقالغائبين، فاختاروا من اختاروه وكلفوه شرح دعواه مكان المدعى عليه، ثم أخذ محامينا ينظر في صورة الوقفية التي استخرجناها من الدفترخانة ليعدد الأعيان، فلم يجد فيهاجميع ما عددناه لهُ، بل وجد منها جزءًا قليلًا لا يقوم بالتعب في إقامة القضية وخشيَّ أن المحكمة لا تحكم لنا بغير المبين في »الصورة« من العقار فتضيع علينا بقية الحقوق،فطلب من الجلسة تأجيل سماع الدعوى زمناً يتمكن فيه من البحث عن بقية تلك الأعيانالموقوفة، فوافقَهُ الوكيل المنصوب للغائب، فتأجلت القضية إلى ما بعد الفسحة القضائيةمن العام.

وخرجنا من الجلسة مع المحامي وقد فُتح له ولغلامه باب احتيال جديد، ولما سألناهعن المظان التي تنبئنا عن بقية أعيان الوقف تلكأ في الجواب، ثم أحالنا على الغلاموتركنا معهُ وانصرف، فقال لنا الغلام: لا مظنة عندنا غير ديوان الأوقاف؛ لأنه يوجدبهذا الديوان سجلات تسجل فيها مثل هذه الأعيان، وطلب منا أن نتفق معه على أجرمعلوم للسعي وراء هذا الغرض، فوافقنا على هذا المطلب الجديد والله يفعل بنا ما يريد.

الطب والأطباء

قال عيسى بن هشام: ولما حال أمرُنا من المحكمة إلى الأوقاف، وعلمَ الباشا بما هنالكمن قلة الإنصاف، وأنه لا بد لنا من أن نطيل الالتماس والرجاء، ونكرر الدعاء والنداء،ونكثر من الغدوّ والرواح، في كل مساء وصباح، فنبُلِيَ في هذا الديوان جدة الزمن، ونقفّ عليه وقوف العاشق على الدمن، ولما هو مستفيض من اختلال أعماله، واعتلال عماله،وفساد إدارته، وسوء نظارته، نزَل به من الهم والغمّ،َما أورثه الضَنى والسقم، وحلبه من الحزن والكمد، ما أخل بنظام الجسد، فغَدا هزيلًا نحيلًا، ووقع مريضًا عليلًا،فأشرت عليه بالطبيب، قال: يخطئ ولا يصيب، وماذا يجدي العلاج وما يفيد، وللآجالتوقيت وتحديد؟! فأقنعتهُ بأن الاعتقاد بتحديد الأجل، لا يمنع من مداواة العلل، وسبحانمن أرشدنا إلى الدواء، عند حلول الداء، لالتماس الشفاء، فقبل إشارتي بعد طول الإباء،فجئت له بأحد الأطباء، من ذوي الشهرة بالبراعة، في ممارسة الصناعة، فجلس بجانبهٌ يجس نبضه ويقرع صدره،َ ثم استلم قلمه وولاه ظهره.

وأخذ يرقم أصناف العلاج، بيد دائمة الاختلاج، ثم قال: دونكم هذا الدواء، جرعةفي الصباح وأخرى في المساء، ولا تأخذوه إلا من صيدلية فلان فإنه صادق مؤتمن، لأُ يغش في التركيب ولا يغْلي في الثمن،ِ ثم وقف عند المرآة يسوي مفرق شعره، ويصقلما استطال من ظفره، ويرسل اللحظات تباعًا نحو الباب، بنظر مستراب، كأنه يريدأن يستشف ما وراء الحجاب، من آنسةٍ في الخدر أو كعاب، ولما أعوزهُ ما تفقده، طلبأن يغسل يده، وقال: إني أرى حالة المريض شديدة، تقَضي بعيادته أيامًا عديدة، حتىينتهي المرض من شدته، ويتلطف من حدته.

ومضت مدة والطبيب يذهب ويعود، ودرجة الحرارة لا تفتأ في صعود، والمريضُيهذي في شدة حُمَاه، وأنا أتضرع وَا رُحماه، حتى كدت أيأس من الشفاء،

وأسُلم لحكمالقضاء، ولكن زارني أحد الأصدقاء، ممن يولعون بالطب والأطباء، فقال لي وهو يبصرحالته: من الطبيب الذي يعالج علته؟ فقلت: هو الشهير فلان، قال لي: علمت السبب الآن،وأنا أنصحك أن لا تعتمد في الطب، إلا على أطباء الغرب، أولئك قوم قد برعوا في معرفةالأمراض، وتشخيص الأعراض، وأحاطوا بكل جليل وحقير، من البسائط والعقاقير،فالأدواء لا تستعصي في أيديهم، وليس بين الوطنيين من يماثلهم أو يدانيهم، وأنا آتيكبمن هو فيهم أوسع معرفةً وعلمًا، وأشهر صيتاً واسمًا، وقام فعاد بأجنبي يهد الأرضبخطواته، ويكثر من إشاراته ولفتاته، فتقدم نحو المريض فجس ولمس، ثم قطب وعَبس،ووضع طرف منديله على أنفه، وقال لنا في صَلَفه وعُنفه: إن هواء الغرفة فاسدٌ قتال،وداءُ المريض داءٌّ عضال، ولا رجاء إلا باتباع إشارته، في تواتر زيارته، ثم هَزَأ بما رآهمن دواء الطبيب الأول، بعد أن كتب علاجه بوصفٍ ًمطول، وقال: لا يحُسن تركيبهذه الأجزاء إلا صاحب »صيدلية الشفاء«، وما زال هذا الطبيب أيضًا يذهبُ ويحضر،والعلاجُ يتجدد ويتكرر، والمريضُ يتألم ويتضجر، والمرضُ باقٍ لا يتقدم ولا يتأخر، حتىجاء في خاطري أن أجمع منهم جماعة للاستشارة والمداولة، فنخلص من هذه المراوغةوالمطاولة، فلما اجتمعوا وقعوا في الحِجَاج واللجاج، ولم يتوافقوا على تشخيص الداء أوتقرير العلاج، وأقام كل واحد منهم منفردًا برأيه، ًلا يهتدي إلا بهديه، وسمعت بينهممَنْ يقول لرفيقه، لا ينبغي أن نوافق فلاناً في تحقيقه، كما أنه لم يوافقنا على رأينا فيالاستشارة الماضية، وأنكر علينا جميع أدويتنا الشافية.

ًّ ثم خلفوني ونزلوا على الخلاف، وإن كانوا اتفقوا في تناول الأجرة عند الانصراف،وكنت شاهدت بينهم طبيباً يظُهر نفوره من طريقتهم، ويجري معهم على غير حالتهم،فأرسلت في أثره مَن دعاه، وكاشفتهُ بأنني اخترته على سواه، فقال لي: ًإن علة المريضبسيطة فيما أراه، لا يجب فيها هذا الاختلاف والاشتباه، ولعلها ناشئة عن انفعالاتنفسانية، من هموم فجائية، فقلت له: نعم أصبت في النظر، ثم أخبرتهُ بجملة الخبر،فقال: الآن تبين أن معالجة الأطباء كانت بغير اهتداء، ولا يلزم لعلاجه إلا الامتناع عنهذه المركبات، والاكتفاء ببعض البسائط من النبات مع جودة الغذاء،

وتبديل الهواء،فأيقنَّ ا حينئذ بمهارته، وسلمنا لإشارته، فلم يمض إلا بضعة أيام حتى انتقلنا من دَورالسقم والاعتلال، إلى دور النقاهة والإبلال، وجلس الباشا ذات يوم إلى الطبيب يشكرهعلى حذقه وبراعته، ويحاورنا في الحديث على حسب عادته:

الباشا: كيف اهتديتَ أيها الطبيب إلى ما لم يهتد إليه سواك من الأطباء فأدركتَسبب علتي، وأحسنت تشخيص مرضي، وأصبت في اختيار العلاج فكان الشفاء؟ لا شكعندي أنك نادرة عصرك ونابغة زمنك.

الطبيب: لا فضل لي يستحق كل هذا المدح والثناء، والسبب في خطأ الأطباء أن العددالأعظم منهم يسيرون في ممارسة صناعتهم على طريقة معيَّ نة ودائرة محدودة قررتهاالعادة فيهم، َّفهم لا يتخط َّونها ولا يتعدونها، فترى كل واحد منهم يحصر في ذهنه عدةأمراض معلومة وعلل معروفة، فيطبق عليها كل ما يراه من الأعراض التي تظهر له فيعامة المرضى — والأعراض تختلف وتشتبه — َّفيحكم بمعرفة الداء ويأمر بالدواء المعينلذلك المرض المعين بقطع النظر عن الفحص والتأمل في حال المريض أو البحث، والتدقيقفي معرفة الأسباب المادية والأدبية التي يرجع منشأ المرض إليها، ولا يكلف ذهنه التبصرأو التصرف على حال من الأحوال، فيعيش في أسر العادة وقيد الطريقة لا يعبأ بالبحثفي اختلاف الأمزجة وتباين الغرائز، وتفاوت المعايش وتغاير القُوَى في البنُي؛ فلذلك يكثرمنهم الخطأ ويقل الصواب.

عيسى بن هشام: كأنك تريد أنهم يكونون على مثل حال أهل الصناعات الآليةّّ َ الذين يحل فيهم مجرى العادة محل إعمال الفكرة؛ فتنطلق أيديهم على وجهٍ واحدٍوتنصرف أفكارهم عن التصرف أو التفنن في وجوه شتَّ ى.

الطبيب: نعم لقد أصبت في التشبيه، وغير ذلك فإن بين هؤلاء الأطباء من لا يرىفي صناعته إلا آلة لاجتلاب الرزق واصطياد الربح، واستدرار الدرهم والدينار حتىيصلوا إلى اكتناز الأموال، ويصبحوا في مصاف أهل الغنى والثَّ َراء لا يبالي أحدهم أي بابَّ طرق ولا أي سبيل قصد للتوصل إلى هذا الغرض المطلوب، فكل الوسائط لديه مقبولةوكل الطرق عنده مسلوكة، فهو يدخل على المريض طامعًا في ماله لا طامعًا في شفائه،فيحتال له أنواع الحيل لتطول مدته في المرض فيتسع

نصيبه من الأجرة، فيعطيه منأصناف الأدوية ما لا ينفع ولا يضر، أستغفر الله بل ما يضر ولا ينفع ليبقى المريضُ فيحاجة دائمة إلى تجدد العيادة والزيارة، وفي كل مرة يصف له نوعًا حديثاً وصنفًا جديدًاً من المركبات التي يعظم ثمنها بمقدار ما يقل نفعُها، وينفسح له بذلك طريق للكسبوالربح فوق أجر العيادات يرصده له الصيدلي في دفتر شركتهما؛ ليقاسمه أرباح تلكالأثمان الفادحة لتلك الأدوية المتكررة، فيضرب الطبيب في صناعته بقدحين، ويصيب فيالكسب بسهمين، بعد أن يملأ جوف العليل من كل دواءٍٍ ضار، ويخلي كيسه من كلفضة ونضار.

ومن أولئك الأطباء من يجعل همه منصرفًا إلى الإبداع والتفنن، في وجوه التزيِّ يوالتزيُّ ن، ويسلك سبيل التصنع والتكلف، في أبواب التظرف والتلطف، ثم يتفنن مااستطاع في حسن المحاضرة، ويتعمد رقة الحديث والمسامرة، ويتقلب في أساليب المؤانسةوالمجاملة، وأفانين المغامزة والمغازلة، ليقيم له بين النساء بضاعةً رائجةً، وسوقًا رابحةفيحل من أهل الحرم محل الجليس المحبوب، والأنيس المطلوب، وينزل من ربات الخدور،بمنزلة المُحَ ٍّ ب المكرَم، ويكون بين مقصورات القصور، أكرم زائر في أرحب منزل، والنساءُلا يعدمن العلّات، على العلات، ولا تعوزهن العلل، في اختراع العلل، لا سيما إن كانتدعوى المرض، تدُني من نيل الغرض، فيكون للطبيب بينهن زيارات وعيادات، وروحاتوغدوات، والطبيب كما يعلم الناسُ مؤتمَن الجانب، يؤتمن فوق الأهل والأقارب، تفُتحأمامه الأبواب، ويكُشف من دونه الحجاب، فترى له زيارات بين كل صباح ومساء، تكتبله بوافر الأجر وسوءِ الجزاءِ: بوافر الأجر في دفتر حسابه، وبسوء الجزاء يوم عرضهوحسابه، ومنهم من يتطلع إلى ما فوق ذلك فيطمع في ثروة البيت بأكملها وفي حيازةالأموال بأجمعها، فيديم التردد ويوُالي العشرة ويحُكم الصلة ويلحم الخلطة، حتى إذاً تأربت عقدة الحبل تم الاتفاق بينه وبين ربة البيت وصاحبة المتاع على التأهل بها، لاالتفات هناك إلى تفاوت الأقدار ولا عناية بوجود الكفاءة، فتصبح له حليلة بعد أن كانتخليلة، وينتهي ما كان من أمر الداء والعلاج، بما تم من أمر العقد والزواج.

عيسى بن هشام: الآن تبين لي ما كان عليَّ غامضًا واتضح ما كان مبهمًا من أمرالطبيبين اللذين كانا يعالجان الباشا في كثرة الزيارة وقلة نفع الدواء، وشدة التدقيق فيتعيين الصيدلية، وطول استراق النظر لما وراء الحجاب.

الطبيب: أجل، هذا هو حال بعض الأطباء، مع الأعلّاء وأشباه الأعلّاء، فأما حالهممع الأصحاء وذوي السلامة من بعض الخلق فهو أعجب وأغرب، وما يعزب عنك أن كثيراًمن المولعين بسوء التقليد للغربيين والمتهالكين على حب التظاهر بمظهر الرفه والترف،يتغالون في الاحتياط لأبدانهم ويبالغون في التوقي لأجسامهم، فينمو فيهم وسواس المرضوالسقم، فتراهم يتوجسون من كل أكلة شرا، ويتوقعون من كل شربةٍ ضرا، ويتخيلونأن في كل لقمة تخمةً، وفي كل جرعة غصة، فلا يتناولون قدحًا من الماء، أو يستنشقوننفَسًا من الهواء، إلا وفي اعتقادهم أنه لا يخلو من كل هامة سامة، أو جرثومة ضارّة،ولا يزالون على هذه الحال حتى يمتنعوا عما فيه صلاح أبدانهم من المأكل والمشرب،ويبُعدوا ما استطاعوا في طرق الحمية من غير علة ولا داءٍ فيبدلوا الماء الزلال بالماءالمعدني، ويهجروا الأغذية المناسبة لتركيب الجسم، وقوام البدن إلى الأطعمة الغريبة عنأذواقهم المنافرة لنسيج أبدانهم، فيضطرب نظام التركيب وتضعف البنية، ويصبح كلواحد منهم جازمًا بأن به داءً دفيناً وما به من داءٍ، وعلةً كامنةً وما به من علة، فيشكوأمره إلى الطبيب فيكون الطبيب حينئذٍ أسرع من وهمه وخياله في اختلاق علة له واختراعمرض دون أن يفحص أمره أو يبلو خبره، فينزل به ما ينزل من بوائق الخوف والفزع،ويوُالي عليه الطبيب ما يوالي من صنوف الخلاصات المعدنية والجواهر السامة والمركباتالحادة، فيترصف على مائدته من ألوان العلاج والدواء أضعاف ما يترصص عليها منألوان الطعام والغذاء، ويتقيد المسكين بمعيشة لا تنُاسب غريزة البنية ولا فطرة المولدولا طبيعة الإقليم، ولا توافق إلا مَن جمدت عروق آبائه تحت جليد لوندرة، لا من ذابتمفاصل أجداده تحت هجير القاهرة، فلا يلبث أن يأتي على ما بقي في الجسم من قوةٍ،وما في البدن من صحة، ويعيش إن عاش في يد الطبيب حيًّا كميت، ويكون بين الأمواتوالأحياء، لا من هؤلاء ولا من هؤلاء، إلى أن يلحد في لحده،

شهيد طبيبه وقتيل يده،وهناك يخلق بأهله أن يكتبوا بنجيع الدمع لا بسواد المداد، ما كُتب على قبر عظيم منقدماء القواد:»لم تمُتني قوةُ الأعداء، وإنما أهلكتني قوة الأطباء«.

ولقد سرى هذا البلاء فينا مسرَى العادة فأصبحنا لا نرى في جمهور من نراهم منالمترفين المقلدين إلا شاكياً من ألم أو متألمًا من مرض، فراجت سوق الطب وعظُم عددالأطباء وغدت حوانيت الصيادلة في الأسواق أكثر عددًًا من حوانيت الخبازين والقصابين،وصار من متاع البيت وجهاز العروس صناديقُ الدواء وآنية العلاج، وقل أن تجد اليومبيتاً خالياً من مريض ولا مجلسًا ليس فيه من سقيم.

عيسى بن هشام: كأنك تحاول أيها الطبيب الآسي أن تقنعنا بقوة البرهان، وجليّالبيان أن لا فائدة من الطب ولا منفعة في الأطباء.

الطبيب: حاشا لمثلك أن يشتبه عليه القصد أو أن يذهب بقولي خلاف مذهبه،وما قصدت بكلامي هذا كله إلا أن أظهر عيب بعض الأطباء في ممارسة صناعتهمِّ دون التعرض لصناعة الطب في ذاتها، على أنه يمكنني أن أضُيف إلى ما قلته ما قدقيل من قبل، وهو أن العلم علمان: علم تستنير به البصائر وتهتدي به العقول فهوجميل الأثر،ًمحمود الورد والصدر، وعلمٌ تصدأ منه الأفهام،ًوتضل به الأحلام، فهوٌّ وبي المرعي، سيئ العُقبى، وكذلك الطب طبان:ٌطب يصحح الأجسام، ويشفي الأسقام،فهو عظيم النفع جليل القدر، وطب يورث الأمراض ويولد الأدواء فهو شديد الوطءعظيم الضر، ومدار الأمر كله على حسن الاهتداء للتمييز بين النافع والضار والتفريق بينالطيب والخبيث، ولا تتوهمن أيضًا أنني أتناول بكلامي جماعة الأطباء قاطبة، فإن فيهمالصالح كما أن فيهم الطالح، ولكنني أعني من بينهم أولئك الذين يطلبون مجرد الربحمن مباشرة الصناعة مع الجهل بها، أو يتعمدون الحيل وينصبون الأشراك حتى يعتلجسم الصحيح ويزُمن مرض المريض ليكون لهم من وراء ذلك ما يسد بعض شرههمفي الغنىَ واليسار، وما أولى سائر الناس بأن يثبتوا بينهم عادة أهل الصين في معاملةمثل هؤلاء الأطباء، وذلك أنهم يجرون على أطبائهم العطاء ما داموا أصحاء، فإذا نزلبأحدهم المرض انقطع العطاء عن الطبيب

حتى يعود المريض إلى سلامته، فيكون منمصلحة الأطباء على الدوام أن تطول مدة السلامة وتقصر مدة العلة، على خلاف الحالبيننا.

وما ينبغي أن ينصرف شيء مما قلته إلى بقية أهل الصناعة من ذوي الحذقوالأمانة الذين يوفون الصناعة حقها، ويؤدون الواجب عليهم فيها حق أدائه، والذينيراعون في ممارستها ما يكون من تفاوت الأحوال في العلل والأمراض، وما تقضي بهأحكام البلاد والعادات واختلافُ الأمزجة والطبائع، والذين يجعلون لأنفسهم من حسنتبصرتهم وكثرة تجربتهم عُدةً حاضرة لمقاومة الأمراض وصحة تشخيص الأدواء ولطفتناسب العلاج وحسن الإرشاد لرفع الوسواس ودفعِ الخيال، وما يجري هذا المجرى مناستعمال ما يليق بأهل الإقليم الحار مما لا يليق إلا بأهل الإقليم البارد، واجتناب مالا يوافق أمزجة أهل البلاد الشرقية من المركبات المجهزة لطبائع أهل البلاد الغربية،ولقد طالما سمعت عن أشياخي في الصناعة أنه يجب على الطبيب في مصر أن يختار مايكون من الأدوية وغيرها ألين قوةً حتى لا يكون على طبيعة المصريين فيها كلفةٌ، ولايلحق أبدانهم منها مضرةٌ،ٍوأن لا يقدم على كل الأدوية المسطرة في كتب أهل الغرب،فإن أكثرها عُملت لأبدان قوية البنية عظيمة الأخلاط على خلاف المعهود في أهل مصر،فيتعين على الطبيب حينئذٍ أن يتوقف في إعطاء هذه الأدوية للمرضى، ويختار ألينهاوينقص من مقدار تركيبها، ويبدل كثيراً منها بما يقوم مقامه ويكون ألين منه، وأن لايهمل الاعتماد على الأدوية الطبيعية وهي البسائط واللين والحمية والفصد والاستحماموالرياضة والهواء، وأن يكون على الجملة مولعًا بلذة الصناعة في ذاتها لا يعادلها لديهسواها من سائر اللذات، ممتلئ النفس بجلال قدرها وشرف منزلتها من بين الصناعاتوالفنون، فتعظم عنده نفسُهُ ويشرف في عينه قدرُهُ، فيترفع عن سفالة الطمع وحِطةِّ الشرَهِ ويزهد في نيل الغنى من طريق التحايل على اقتنائه من وراء هذه الصناعة الجليلة،وكيف تزدهيه لذات العالم أجمع من مالٍ وجاهٍ أو زخرفٍ ومتاع في جانب لذة الإتقان فيالصنعة والإحسان في العمل، وأية رتبة من مراتب الخلق تماثل رتبة الطبيب العامل، وهوالقيمّ على قوام الأبدان والكفيل بصحة الأجسام والرقيب على اعتدال الأمزجة

والمشرفعلى سلامة الجوارح، لا بل أية صناعة في الوجود تفضُل صناعته وهي أمس الصناعاتبخلقة الصانع الفاطر وتكوين المبدع القادر.

وإذا كان قد بلغ عُجْبِ الصناعة بأحد النحاتين المصورين في الزمن السابق لماازدهاه جمال الإتقان والأحكام في صورة إنسان نحَتَهَا من المرمر أن استخفه الطربواستفزته لذة الصنعة، فعُمّي عليه فأنحى على التمثال بمنحاته، يثُيره على نطق اللسانبعد أن أحكمت فيه خلقة الإنسان، ويكلف الجماد، وقد أتقنت فيه الصنعة، أن يخرجمن الجمود إلى الحركة، حتى أطار عنه بعض أجزائه وبقي التمثال قائمًا إلى اليوميفصح بما فيه من التلف عن نهاية الكمال في جمال الإتقان ومقدار لذة الإحسان في عملالإنسان، فما بالك بلذة الطبيب ومقدار طربه في صناعته إذا هو شاهد أجسام الأحياءأمامه، وقد استخلصها من شوائب الأمراض واستنقذها من آفات العاهات، وردها إلسواء التكوين، وأعاد نظام الخلقة إلى أصله وانتساق التركيب إلى شكله، فهل يجوز فيالعقل لمن يدرك كنه هذه الصناعة من الأطباء أن يرغب عن تلك الدرجة الرفيعة إلىالدرجة الوضيعة، فينزل بصناعته إلى مصاف أهل التجارة والسلع لا يفقه فيها منمعنى سوى اصطياد الدرهم، ولا يعلم لها من مزية سوى الاحتيال على اكتساب الأموال،لا جرم أن الطبيب المدرك يفضّل لذة صناعته في ذاتها على كل لذة، ويسلو عندها أعظممزية في العالم وأعلى رتبة، وفصلُ الخطاب، في هذا الباب، أن يكون مبلغ همته، ومجمعلذته، أن يرى المريض بعد شفائه، بوجه لامعٍ كالدينار، لا أن يراه في طول شقائه، بنظرطامعٍ في درهم أو دينار.

قال عيسى بن هشام: فأعجبني من هذا الطبيب صدقه في مقالته، وحسن نظره فيصناعته، وسألت الله لجماعة الأطباء، أن يهتدوا مثل هذا الاهتداء، ثم إني ودعتهُ بعد أنعين لنا البقعة المناسبة لتبديل الهواء، وقرر ما يناسب حال المريض من العلاج والغذاء،إلى أن يتدرج من النقاهة إلى تمام الشفاء.

الطاعون

قال عيسى بن هشام: فطاوعنا القدر، وعزمنا السفر، التماسًا لبرء الداء، بتبديل الهواء،ونزلنا من ضواحي الإسكندرية قصرًا ذا روضة غناء في بقعة فيحاء،ً لا تسمع فيها إلاهديل الورقاء، إيقاعًا على هدير الماء، فإذا بلل الموج جَناح النسيم، فرفرف على ذلكالروض البسيم، نثَرَ ِالماء درا على تيجان الزهر، ورقرقهُ دموعًا في أحداق العبهر،[58] هناكيتمنى العاشق لو استعار هذي الدموع لمحاجره، فيستلين بها قلب شاجيه وهاجرِه،
ّ ُ وتودّ ِ الغانية لو نظمت من ذلك الدر عقدًا لنحرها، أو نطاقًا لخصرها:

إن هذا المِكان شيءٌ عجيبٌ تضحك الأرض من بكاء السماءذه بٌ ح
ي ث م ا ذه ب ن ا وٌدر حيث دُرنْ ا وفضةٌ في الفضاء

أو قل: إنه المجرة قامت فيه زواهر الزهر، مقام الكواكب الزهر، وعناقيد الكروم،مقام ثريا النجوم، وأنوار الأثمار، مقام الشموس والأقمار، فأقمنا في ذلك الظل الوريف،مدة من أيام الخريف، ومكثنا نقطف القطوف الدانية، بين تلك الأعين الجارية، في عيشةراضية، لا تسُمع فيها لاغية،ٍ آخذين بمستن النحيزة،[59] ومجتن الغريزة، فيما يوافقصحة البدن من طعام شهي، وغذاء مريّ، ورياضة للأعضاء، دون تعب أو شقاء،وتطهيرٍ للنفس من أدران الكدر، بلطف البحث وحسن النظر، وتجريد للصدر من عواملالهواجس، وغوائل الوساوس، بالتبصر في حقائق الوجود، والتمعن في صنعة الخالقالمعبود، وأفضت بصاحبي طِيبُ هذه الإقامة،

---

[58] العبهر: النرجس.

[59] النحيزة: الطبيعة.

إلى المقصود من تمام العافية والسلامة،لولا أن راعنا شيطان من الإنس بخبر الطاعون، فقلنا: إنا لله وإنا إليه راجعون، وسبحانالله والحمد لله ما زلنا نعلل النفس، بزوال النحس والنكس، وما زالت تناوبنا النوائبوالأحزان، وتراوحنا النوازل في كل منزل ومكان، وانبرى الباشا يسألني عن هذا الطاعونوأخباره، وما يتوقعه من هول أفعاله وآثاره، فأجبتهُ بأنه لا يلبث أن يصبح أثرًا بعدعين، وما أصاب إلى اليوم إلا عدد أصابع اليدين، وقريباً يفر من أمامنا هذا العدو المناجز،ونرُدد في أثره قول الراجز:

قد رفع اللّهِ رماحَ الجن وأذهب التعذيب والتجنِّ ي

الباشا: كيف تدعي ذلك وتزعمه، وما عهدت منك إخفاءًً للحقائق ولا تمويهًاللوقائع، وللطاعون في مصر أفاعيل تذوب لها المآقي والأحداق وتتفطر منها القلوبوالأكباد، وهو عندنا من أمراض مصر الموضعية التي تحدث عند اختلاف الفصول،والمصريون يتوقعونه لكل ربيع حتى أطلقوا عليه كلمة »الفصل«، فيقولون: جاء»الفصل« عند ظهور الطاعون، فترتاع النفوس وتنخلع القلوب وتخور القوى وتذهلالعقول، ثم يصول صولته ويفتك فتكته فلا يقف سيلهُ عند حاجز، ولا يمنع اندفاعهمانع، ولا تغيض قرارته حتى يخرب القصور، ويعمر القبور، فتصبح الأطفال يتامى،والنساء أيامى، ويمسي الخلق بين ثاكل ومثكول، وحاملٍ ومحمول: هذا يبكي أباه، وذاكيندب أخاه، وهذه توَُلول على أهلها، وتلك تنوح على بعلها، وقد سمعت عنه في زمانيعن أحد المعمرين يقول في وصفه عند وقوعه في سنة ١٢٠٥:

> ابتدأ الطاعون في شهر رجب سنة ١٢٠٥ وداخل الناس منه وهمٌ عظيم، واشتدبطشه وقويَ بأسه في رجب وشعبان، ومات به من لا يحصى من الأطفالوالشبان والجواري والعبيد والمماليك والأجناد والكُشاف والأمراء، ومات منالصناجق أمراء الألوف اثنا عشر صنجقًا منهم إسماعيل

بك الكبير، وقد أفنعسكر القليونجية والأرنؤوط المقيمين بمصر القديمة وبولاق والجيزة، وكانوالكثرة الموتى يحفرون حفرًا بالجيزة بالقرب من مسجد أبي هريرة ويلقونهمفيها، وكان يخرج من بيت الأمير في الجنازة الواحدة الخمسة والستة والعشرة،

الطاعون

وازدحم الناس على الحوانيت يلتمسون ما يجهزون به موتاهم ويطلبون منيحملون النعوش فلا يجدونهم، ويقف الناس يتشاحنون ويتضاربون علىذلك، ولم يبق للناس شغل إلا الموت وأسبابه، فلا تجد إلا مريضًا أو ميتاًأو عائدًا أو معزياً أو مشيعًا أو راجعًا من صلاة جنازةٍ أو دفنٍ أو مشغولاًبتجهيز ميت أو باكياً على نفسه موهومًا، ولا تنقطع صلاة الجنازة من المساجدوالمصليات، ولا تقام الصلاة إلا على أربعة أو خمسة، ونَدَر من يصُاب ولايموت، وقل ظهور الطعن على الجسم فيكون الإنسان جالسًا فيرتعش منالبرد فيتدثر، فلا يفيق إلا مخلطًا أو يموت في غده إن لم يمت في نهاره،واستمر فتكه إلى أوائل رمضان، فمات الأغا والوالي في أثناء ذلك فولوا خلافهمافماتا بعد ثلاثة أيام فولّوا خلافهما أيضًا. واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مراتفي سبعة أيام، وأغُلق بالمفتاح بيت أمير كان فيه مائة وعشرون نفسًا فماتواجميعًا.

عيسى بن هشام: إني لأظنك تصف لي موقفًا شاهدته من مواقف الآخرة وأهوالالقيامة.

الباشا: وما كان الأمر ليقتصر في الطاعون بعد ذلك على فتكه، بل كان يزيد عليهَّ من البلاء ما دسه الإفرنج للولاة من وجوب إزعاج الناس بأمور تشق على نفوسهميزعمون أنها تدفع الطاعون، فيفصلون بين الناس بعضهم عن بعض، ويفرقون بينالأب وابنه والأخ وأخيه والمرء وزوجه، ثم يهدمون الدور ويحرقون الثياب وينشرونالبخور كأنهم لجهلهم يظنون أن هذه الأعمال التي تؤذي النفوس وتعطل مصالح العبادتشتت شمل الجن، وتكسر أسنة رماحهم، فيزداد الناس ويلًا

على ويل وحزناً على حزنوخراباً فوق خراب، وقد شاهدت بعيني ما تشيب له النواصي في سنة ١٢٢١٠، وقص عليَّ أخي ما رآه منه في سنة ١٢٢٨ وهو في خدمة المرحوم محمد علي باشا الكبير، قال:

أمر جنتمكان محمد علي بعمل »كُورَ نتْيلَه« بالجيزة في اليوم العاشر من ربيعالثاني وعزم على الإقامة بها؛ إذ اشتد عليه الوهم من الطاعون لوقوع القليلمن الإصابات بمصر، ومات به الطبيب الفرنسي وبعض من نصارى الأروام،وهم يعتقدون صحة الكور نتيله وأنها تمنع الطاعون، وقاضي الشريعة الذيهو قاضي العسكر يحقق قولهم ويسير على مذهبهم، واتفق أن مات بالطاعونشخص بالمحكمة من أتباع القاضي، فأمر بحرق ثيابه وغسل المكان الذي فيهوتبخيره بالأبخرة المتنوعة، وكذلك الأواني التي كان يمسها وأمروا أصحابالشرطة أنهم يأمرون الناس وأصحاب الأسواق بالكنس والرش والتنظيفونشر الثياب في كل وقت، وإذا وردت عليهم مكاتبات خرقوها بالسكاكينودخنوها بالبخور قبل تسليمها إليهم، ولما عزم الباشا على كور نتيله الجيزةأمر في ذلك اليوم أن ينادوا بها على سكانها بأن من كان يملك قوته وقوتعياله ستين يومًا، واختار الإقامة فليمكث بالبلدة، وإلا فليخرج منها ويذهبفيسكن حيث أراد، وأُعطوا مهلة أربع ساعات، فانزعج سكان الجيزة وخرجمن خرج، وأقام منهم من أقام، وكان ذلك في وقت الحصاد وللناس مزارعُومرافق مع مجاوريهم من أهل القرى، ولا يخفى احتياج الإنسان لبيته وأهلهوعياله وأسباب رزقه، ّ ُ فيحرمونه من ذلك كله حتى لقد سدوا خروق السوروالأبواب، ومنعوا مراكب المعادي من السير، وأقام الباشا في بيت الأزبكية لايجتمع بأحد من الناس إلا يوم الجمعة، ثم قصد الجيزة وقت الفجر من ذلكاليوم وصعد إلى قصره، ووقف مركبين الأولى ببر الجيزة والأخرى في مقابلتهاببر مصر القديمة، فإذا أرسل الكتخدا أو المعلم غالي مراسلة ناولها المرسلُللمقيد بذلك في طرف مزراق بعد تبخير الورقة بالشيح واللبان والكبريت،فيتناولها

منه الآخر بمزراق آخر على بعد منهما ويعود راجعًا، فإذا قربمن البر تناولها المنتظر له أيضًا بمزراق وغمسها في الخل وبخرها بالبخورالمذكور، ثم يوصلها إلى حضرة المشار إليه بكيفية أخرى، وأقام الباشا علىذلك أيامًا، وسافر إلى الفيوم ثم عاد وأرسل مماليكه ومن يخاف عليه الموتإلى أسيوط.

عيسى بن هشام: اعلم أن ما كان يعترض عليه عامة الناس في الأزمان الغابرة — ولا يزال بيننا إلى اليوم بقية منهم — من الأخذ بأسباب التوقي والاحتياط لدفع غائلةالطاعون لجهلهم بحقيقته وأسباب انتشاره هو الذي يحمينا اليوم من فتكاته وسطواتهالتي قصصت عليّ طرفًا منها، وقد كان جمهور الناس في أزمانكم ينكرون هذه الوقايةويسخرون منها.

الطاعون

الباشا: قل لي بالله أية علاقة بين إحراق الثياب، وتلك الوخزة التي تأتي بالأجل،وأي ارتباط بين هذا البخور وحمى الطاعون، اللهم إلا أن يراد به تلطيف أمزجة الجن.

عيسى بن هشام: لا يفوتنَّك أن كثيراً من الحقائق كانت مكنونة في خفاء الجهلعند عامة الناس لاختصاص بعض الأفراد بالعلم، ولبعد تناوله على بقية الطبقات، فلماانتشر العلم وأضاء برهانه كَشَفَ للناس ما كان مكنوناً عنهم، وأظهر من العلل والأسبابما كانت تقف دونه الأفكار حيْرىَ، فإن كان الناس في زمانكم يعتقدون أن الطاعونمن وخزات الجن برماحها، وأن لا شيء يقوى على رد تلك الرماح الخفية عن العيون،فإن البحث أوصلهم اليوم إلى اليقين بأن للطاعون جنودًا لا تدركها العيون المجردة،وأن لها وخزًا خفيًّا دونه وخز الأسنة وعوالي المران،[60] ولكنهم استعانوا بالعلم فصنعواآلة تجسم الأشياء الدقيقة وتعظمها، وتبرزها مرئية

[60] المران: شجر يتخذ منه الرماح.

للعين فوقفوا بها على حقيقة تلكالجنود، واستنبطوا طرق الوقاية منها فتدرعوا بها لدفع أذاها ورفع غائلتها.

الباشا: وماذا تجُدي الوقاية والحذر من القضاء والقدر؟

عيسى بن هشام: حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء، إن الوقاية من السنَّ ة الشريفةوأحكام الدين المبين فقد ظاهَرَ — عليه الصلاة والسلام — في الحرب بين درعين، وقالالله تعالى:﴿وَأَعِ ِّ دوا لَهُ م ما اسْتطَ َعْت ِ مُ من ق ُ وةٍ﴾، ولطرق الوقاية اليوم أنواع مختلفة لدفعهذا العدو الخفيّ الذي يسمونه »الميكروب« وهو دُوَيبة دقيقة من عالم الذر ينطبق عليهاأحد أوصاف الجن في سرعة التولد وكثرة التعدد في أيسر مدة من الزمن، وهم يتخذونالبخور في الوقاية؛ لينحل تركيبه ويحرقون الثياب والأمتعة حتى لا ينتقل بها عدواهُ.

الباشا: لقد كشفتَ لي معنىً دقيقًا في رماح الجن المسمومة ما كنت إخال أن أحدًايدركه في عصرنا الماضي، وهل لك في أن تطلعني على تلك الآلة العجيبة المجسّمة للأشياءالدقيقة لأزداد تبصرة وهدًى بالنظر في عجائب المخلوقات؟

قال عيسى بن هشام: فذهبت إلى معمل كيميائيّ وأريته نقطةً من الماء تحت»المكروسكوب«، فلما رآها كأنها غديرٌ ورأى ألوف الألوف من الهوام سابحة فيها سجدسجدة التقديس لقدرة الخالق والتمجيد لعظمة الصانع، وتلا قوله عز من قائل:﴿وَمَايعَ ْلَمُ جُنوُدَ رَبِّ كَ إِ َلا هُوَ﴾ فحمدت الله؛ إذ آمن بالبرهان الساطع، ولم يفعل ما فعله ذلكُّ الهندي مع العالم الألمانيّ حيث أراه مثل هذه النقطة وما فيها من الحيوانات؛ ليقنعهبأن ماء الشرب مشحون بما يحرم أهل الهند قتله وأكله من الحيوانات، ُفسخر الهنديمنه وكسر الآلة إصرارًا على الباطل وعنادًا للحق، ولما أيقن الباشا بصدق ما قلته ومارآه، َوأن العلم هزم جنود الطاعون وحطم رماحه ولولاه لمات به اليوم مئات الألوفمكان العشرات سألني يقول:

الباشا: ومن المخترع لهذه الآلة التي تدل بغير واسطة على عظمة الخالق وقدرةالصانع من مشايخ الموحدين وعلماء الدين؟ وفي أية بقعة من بقاع المسلمين كان مولدهلنردد الثناء عليه ونذكر اسمه بالحمد؟

عيسى بن هشام: أقُسم لك بالله وملائكته وكتبه أن أكثر مشايخنا لا علم لهمبها، وأنهم لا يزالون كالعهد بهم في معزل عن هذه العلوم النافعة والمخترعات المفيدة،وما نشط لرؤيتها أحدٌ منهم، وهم إلى اليوم ينفرون من الأخذ بوجوه الوقاية ويفضلونالتعرض لنيران البنادق في معارضتهم لأوامر الحكومة دون الإذعان لوجوب الاحتياطمن هذه الحيوانات الدقيقة، ولا يعرفون منها إلا ما نخَرَ كتبهم من الأرضة.

الباشا: ومع هذا كله فلا مقام لنا اليوم في هذه البلدة التي أصيبت بالداء، وقدوجب علينا الفرار من قَدَر الله إلى قدر الله، فعُد بنا إلى مصر إن شاء الله آمنين.

قال عيسى بن هشام: فأجبته إلى سؤاله وقفلنا إلى القاهرة، بعد أن ودعنا تلكالمناظر الباهرة.

الوبـاء

قال عيسى بن هشام: وأقمنا في مصر مدة وقد أبل الباشا من علته وسقمه، وتمتله العافية والسلامة في جسمه، فأخذت أهنئه ذات يوم بالشفاء والإبلال، من المرضوالاعتلال، وأذكر له أن صحة الأبدان، هي ملاك السعادة للإنسان، وأنك لو جمعت نعمالعالم كلها للمريض، من مالٍ واسعٍ وجاهٍ عريضٍ لانصرفت نفسه عنها انصراف الضبعن الماء، والأرمد عن الضياء والممعود عن شهي الغذاء،[61] وأن خاتم الياقوت في الإصبعالتي أصيبت بدُمّل، لا يساوي عند صاحبه حبةً من خردل، وأن ما اجتمع في سرير الملكمن العزة والبأس، ليهون عند مفقور الظهر أو مصدوع الرأس:

ومن يك ذا فمٍ مرمريضٍيجد مرًا به الماء الزلَالا

وكنت كلما زدته من هذه الموعظة والحكمة، أراه قد زاد في الإعراض عن شكر تلكالنعمة، فتحققت أن المرء إنما يذكر النعيم في البؤس ولا يذكر البؤس في النعيم، وينسىالمرضَ في الصحة ولا يذكر الصحة إلا وهو سقيم، وقل من يحمد النعماء في لبسها،ويدرك سعادة الحياة إلا في نحسها، فهذا معنى من معاني الآية الشريفة: ﴿وَإِذَا مَسَّ

الإِنسَانَ الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنهُ ضُرهُ مَرَّ كَأَن لمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍ مَسهُ﴾، فسألته عما دهاه وأذهله عن شكر الله، فأجابني يقول، في حال الخَبلوالذهول:

---

[61] الممعود: الذي بمعدته وجع من مرض.

الباشا: فيم الهناء بكشف البلاء والضرر، وما انتقلت من خطر إلا إلى خطر؟فإن

أسلِم فمِا أبقِى ولكن سلمتُ من الحِمام إلى الحِمام

ّ َ ألم تسمع معي بخبر انتشار الوباء في مصر بعد أن خلفنا الطاعون في الإسكندرية،فما هذه الرزايا المتساقطة، وما هذه البلايا المتلاحقة، أوكلما انتهينا من بلاء دخلنا فيبلاء، وانصرفنا من شقاء إلى شقاء؟!

عيسى بن هشام: أراك لا تزال كأمثالك من سائر الناس، يغلب عليك الفزعوالوسواس،ًٍ وإن كنت جربت في هذه الحياة شدة الألم وذقت في القبر راحة العدم، وأنما كنت تتمناه على دهرك من الرجوع إلى قبرك، عند اشتداد الكروب، من وقع الخطوب،لم يكن لشجاعة في النفس، تستهين بسُكْنى الرمس، بل كان لضعفك عن احتمال الآلام،من نوازل الأيام، وأراك لا تزال مع صحة الدين، وقوة اليقين، ترهب الموت وتخشاه،وتعتوَرُك الأهوال من ذكراه، وهذا داء في الناس قديم، عز شفاؤه على كل مرشد وحكيم:

ّ َ وخوف الردَى آوى إلى الكهف أهله وعـل م نُوحً ا واب ن ه ع م ل الٌ
س ف نوما استِعذبتِه رُوحُ موسى وآدم وقد وعُ ِ دا من بعده جنَّ تي عدن

ولكنني لا أزيدك في الموعظة ولا أخفف عنك من ويلات الهواجس والوساوس بأحسنمن أن أقرأ عليك مقالة نافعةً اطلعت عليها اليوم في بيان أحوال الناس، وتقسيم طبقاتهمفي أهوال هذا الوباء، فإن أردت تلوتها عليك، ثم ضع نفسك بعدها حيث شئت.

الباشا: هات أسمعني لا زلت للحق راوياً، وللهُدى داعياً.

عيسى بن هشام (قارئاً): »إنما النوازل العظيمة والخطوب الجسيمة محك الطباعومسبار الأخلاق، فهي لشدتها وهولها تكشف عن الناس ما يخفونه عن الناس، وتهتكسجوف التمويه والتزويق عن حقائق الصفات، فلا تتمالك النفوس أن تبقى على التظاهربما ليس فيها، ولا التطاول بما هو مفقود لديها، بل تتجلى

للناظر بما اشتملت عليهضمائرُها واحتوته سرائرها من قوة أو ضعف ومن فضيلةٍ أو نقيصة ومن علم أو جهل،وهنا يتمكن الباحث في الأخلاق من النظر فيها نظرةً التثبت والتحقق وهي مجردة أمامهمن كل غشاء، عاريةٌ من كل غطاء.«

»وليس في باب النوازل والخطوب ما يهُول النفوس ويروع القلوب أعظم ولا أكبرمن مصيبة الموت وبلاء هذا الوباء؛ فلذلك لا نرى بأسًا من الكلام بشيء عما يجده

الوباء

المستقرئ لأحوال الناس من طبقات المصريين وهم بين أيدي هذه النازلة العظمى والمحنةالكبرى.«

»فطبقة العامة أناس جُبلوا في مثل هذه النوازل العامة على التسليم لأحكام القضاءوتفويض الأمر لأقدار السماء، وهم لا يعلمون من أمر الوباء، ما جراثيم الداء، ولا علةالمرض والشفاء، ولا سبب الهلاك والنجاء، وليس في قدرة قادر من البشر أن يزحزحهمعن اعتقادهم أو يحولهم عن يقينهم، ولا في استطاعة أحد من أبلغ الوعاظ وأفصحالخطباء أن يضع في رءوسهم أن الوقاية تمنع من المقدور، وأن الحذر ينجي من المكتوب،وأن طب الأطباء يؤجل في الأجل المحدود، وأن صنوف الدواء تنفع في رد القضاء المحتوم،وهم يرون كل ما يؤمرون به من وسائل الوقاية وأسباب الحيطة أمورًا تضر ولا تنفع فلاتزيد في عمرهم ساعة، ولا تكف عنهم غرب المنون، ولا تفيض دونهم يد قابض الأرواح،فهم بمعزل عن الخوف والهلع، وفي أمانٍ من الذعر والفزع، وفي ضمان من الوسواسوالهواجس، وإن كانوا مقيمين في غفلة عما يجب عليهم لأنفسهم من المحافظة على صحةالأبدان، وتعهد الأجسام بما يدرأ عنها الاستعداد لقبول الداء والوقوع في مخالب الوباء؛لبعدهم عن فهم قوله عليه الصلاة والسلام:»اعقلها وتوكل.« لكنهم لا يزالون على كلحال في صحة من الأرواح وإن أعوزتهم صحة الأبدان.«

»وطبقة الخاصة ونعني بهم أهل الدين واليقين، وهم الذين يعتمدون أيضًا علىالتسليم لأحكام القضاء وحسن الاعتقاد بتحديد الآجال، والإيمان بأنه لن ينالهم

إلا ماقدره الله لهم، ولا تفتأ تجري ألسنتهم في مثل هذه الأهوال بتلاوة الآيات البينات من كتابالله: و﴿لِكُ ِ ل أجَ َلٍ كِتَابٌ﴾؛ ﴿فَإِذَا جَاءَ َ أجَ َلهُ ُمْ لاَ يسَ ْتأَخِ ْرُونَ سَاعَةً ۖ وَلاَ يسَ ْتقَ ْدِمُونَ﴾؛﴿أيَنْمَ َا تكُ َونوُا يدْ ُرِّ ُ ككمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتمْ ُ فِي برُ ُوجٍ مشَيَّ دَةٍ﴾؛ ﴿قُلْ إ ِنِ الْمَوْتَ الذِي تفِ َ ُرونَمِنهُ ْ فَإِنَّ هُ مُلَاقِيكُمْ﴾ تعالى الله أحكم القائلين، وهم الذين يعلمون علم اليقين أن الموتأمر واقع لا مرد منه، وأن الإنسان عرضة له في كل وقت ولحظة، وأن طعمه واحد، سواءأكان بمرض الوباء أو صواعق السماء، أو زلازل الأرض، أو كان بغصة شراب أو عثرةقدم أو لسعة حشرةٍ، وأن نفس المرء خطاه إلى أجله فعليهِ أن ينتظر ساعته في كل حركةوسكون، وعند كل قيامٍ وقعودٍ:

وما نفِسٌ إلا يبِاعد مَ ولدًا ويدُني المنايا للنفوس فتقربُ

وهم يعتقدون حق الاعتقاد أن الحي حي للفناء، وأنه مقيم من دنياه أبدًا في أرضوباء، وإن لم يكن ثم وباء.

ما خص مصرًا وباءٌ وحدها بل كائن في كل مصر وبأ

وأن من فر من المقدور فعلى المقدور نزل، ومن هرب من القضاء فإلى القضاء رَحَل.

مهلًا أمن وبأ فررت وهل ترَى في الدهر إلا منِزلاً موبُوءًا؟

وأن من حانت منيته، لم تنفعه تقيَّ ته، ومن حل أجله، لم يحمه وجله:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنْهَ ولو رام أسباب السماء بسلِم

إلا أنهم مع ذلك كله لا يرون من مانع يمنعهم عن الأخذ بأسباب التقية والحذر،ولا في العمل بمقتضى القوانين المندوب إليها في حفظ صحة الأبدان، وما يقرره أهلِّ صناعة الطب من سبل التوقي والتحرس اتقاءً لما نهوا عنه من الإلقاء بالأيدي إلى التهلكةواحتذاءً لما ترسمه ظروف الأحوال وتقضي به أحكام الزمان،

ولا يجدون الطاعة لإشارةً الأطباء في مثل هذه النوازل مما يخالف لهم سنة أو يناقض لديهم شرعًا، وإن لم يكنمن ورائها فائدة فليس في عقباها مَ ّ ضَرة، ٍ فنراهم لذلك في أجل مقام من شجاعة القلبوقوة النفس وثبات الجنان بفضل الدين واليقين، وعلى أحسن حال من سلامة الجسموطهارة البدن بفضل العلم، وحسن القيام بما يرشد إليه من وسائط الوقاية، لا سلطةللوساوس والهواجس عليهم ولا محل للرعب والرهب فيهم، آمنين مطمئنين يتمتع كلواحد منهم بالروح السليمة في الجسم السليم.«

»وهناك طبقة ثالثة حديثة النشأة حديثة التربية لا من هؤلاء ولا من هؤلاء لميرسخ الإيمان في قلوبهم، ولم تتمكن التربية الدينية من نفوسهم، ولم يتأدبوا بأدبالدين، ولم يرتاحوا لحسن اليقين، ّ بل اقتصرت بضاعتهم على ما تلقوْه في المدارس منالعلوم الآلية والفنون الصناعية دون علوم التربية النفسانية والفضائل الروحانية، وخلَتصدورهم من آيات الله والحكمة، قد أخذوا عن بعض الغربيين عادة التهاون بالشرائع

والازدراء بالإيمان، ولم يحيطوا بشيء من العلوم الموضوعة لتقويم النفوس، وتطهيرُ الطباع ومعرفة الحقائق ورياضة القلوب على التجلدِ والثبات عند وقوع المكروه ونزولالمُلِ ّ مات، فتجدهم قد ظهروا للناس في هذه النازلة الوبائية، وانكشفوا لأهل البحث والنظرأصغرَ خلق الله نفوسًا وأجبنهُ َم قلوباً وأكثرَهم هوسًا ووسواسًا، ّ وأشدهم قلقًا واضطراباًوأعظمهم خوفًا ورعباً وأكبرهَ ُم بلاءً وكرباً، يتمثل لهم الموت في أعينهم على أفظع الصوروأشنع المناظر، فيحاولون الفرار منه وهو ممسك بنواصيهم، ويهابون دُن ّ وُهُ وهو آخذبتلابيبهم، حَ ّ ل ّ الخوف مفاصلهم واستل الرعب نخاعهم؛ فهم يرون في كل عُود نعشًا لهمويحسبون كل صيحةٍ عليهم، أولئك لا إيمان لهم يثبت أقدامهم، ولا علم لديهم يرجحأحلامهم، بل هم على مثل حال المغشي عليه من الموت أو الممسوس من الشيطان

يتوهمونطعم الموت ومذاق الوباء في تنفس الهواء وتناول الغذاء وشرب الماء وملامسة الأيديومخاطبة الناس، فإذا رأى المسكين منهم تلك الآلة الحدباء تحملُ أحد المصابين بالوباءجمد دمه وسال عرقُه وخمدت أنفاسه والتوَ َت أعصابه وأمسك من بجانبه يستنجد بهويستغيث ليحميه من شر العدوى، ويدفع عنه نزول البلوى، وما أشبههم في حالهم هذهمن الخور والهلع والفزع والجزع إلا بمثل أناس قضي عليهم بالإعدام لوقتهم فهم وقوفٌين يدي الجلاد والسياف؛ إذا قُ ِدم أحدهم للسيف والنطع مات الذي يليه من الخوفقبل القتل.

ومنهم من اعتكف على الخمر يشربها ليله ونهاره عساها تجهله كيف اطمأنتبه الحال، ومنهم من يبالغ ويغالي في تناول العقاقير السامة والجواهر القتالة مماوضعه الأطباء لقتل الجراثيم، فهو يشربها ويستعطُها ويدهن بها جسده ويغمس فيهاثيابه ويبلل بها فراشه ويغسل بها آنية طعامه وشرابه، وكلما سمع بزيادة العدد فيالمصابين زاد في مقدار ما يستعمله منها يومًا بعد يوم حتى أصبحت أجسامهم مسمومةًوأبدانهم مهزولة وشفاههم متقلصة وعيونهم غائرة ووجوههم مغبرة وأناملهم مصفرةينطبق عليهم قوله جل وعلا:﴿وَيأَتِ ْيهِ الْمَوْتُ مِن كُ ِل مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّ تٍ﴾، إذا رأيتهمحسبتهم في حال المصابين بالفعل لولا أن هؤلاء يفضلونهم بالخلاص من ألم الداء براحةالعدم والفناء، ولما كان الخوف والوسواس من أكبر وجوه العذاب في الحياة، ومن أعظمالأسباب في رأي الأطباء لجلب الداء كانوا هم أعداء أنفسهم بأنفسهم، وهم أصحابالأرواح السقيمة، في الأجسام السقيمة، لهم النكد في هذه الدنيا ولهم الخزي في الآخرة.«فأين تضَع نفسك الشريفة أيها الباشا من هذه الطبقات؟

الباشا: ما أرى لي موضعًا بعد — إذ عاشرتني وأرشدتني — إلا في طبقة أهلالخاصة الذين يسلمون للقضاء والقدر، ويعملون بالحيطة والحذر، لكنني مع ذلكأفضل الابتعاد عن ضوضاء الناس في هذا الوباء وأرغب في التخلص من النظر إليهموهم في مثل أهوال القيامة من الفزع والهلع، وليس من الصواب أن نجمع بين أكدارناوهمومنا، وبين التأثر لأكدار الناس وهمومهم.

قال عيسى بن هشام: وخشيت على الباشا إن أنا تركته في هذه الحال غريق أفكاره،وأسير همومه وأكداره، أن ينتويهَُ الانتكاس ويعتريه الارتكاس،[62] والنكسة بعد البلة شرأطوار العلة، فبادرت إلى طاعته، وامتثال إشارته فاخترت له من ضواحي المدينة مكاناًقصيًّا، ومسكناً مرضيًّا.

---

[62] الارتكاس: كالانتكاس.

العزلة في العلم والأدب

قال عيسى بن هشام: واعتزلتُ بالباشا مدة من الدهر، نستملح العزلة ونستعذب عليهاالصبر، ونعيش فيها عيش الحكماء، من حسن الرضاء، بحسن الاكتفاء، ونستروح راحةالبعد عن هذا العالم وأذاه، وإغماض الجفون على قذاه، مؤتنسين كل الائتناس، بالوحشةمن الناس، بعد الذي شهدنا من أعمالهم ورأينا، وسمعنا من أقوالهم ووعينا، وقاسينامن عشرتهم ما قاسينا:

عَوَى الذئب فاستأنستُ للذئب إذ عَوَىوص وت إن س انٌ ف ك دتُ أط ي ر

إن سالمتهم حاربوك، وإن وادعتهم ناصبوك، وإن صادقتهم خانوك، وإن واثقتهمكادوك، وإن خالطتهم لا تأمن الاعتداء، وإذا مازحتهم لا تعدم الافتراء، وإذا طالبتهمبحق فإنك لا تسمع الصم الدعاء:

فلو خَبرتهم الجوزاءُ خُبرِي لِما طَلعت مخافةَ أن تكُ ادا

ولو أنك لم تخالطهم إلا في مجالس أنسهم وصفوهم، ومعاهد لعبهم ولهوهم، لم تجن منها إلا كل ما يبعد وينفر، وينغص ويكدر، تدخلها إذا دخلتها مُستروحًامستبشرًا، وتخرج عنها مستقبحًا مستنكرًا، فعيشتهم في كلتا الحالتين قرارةُ معايب،ومجتمع نقائص ومثالب، ومنابتُ أكدار، وينابيع أضرار، ولا راحة في الدنيا إلا لمن تنسكوتزهد، ولا سلامة من الخلق إلا لمن اعتزل وتوحد، وأبعد الناس عن معاشرة البرايا،أقربهم إلى كرم السجايا:

بعدي عن الناس برءٌ ّ من سقامهم وقربهم للحجَ ى وال ِدين أدواءك ال
ب ي ت أفُ رد لا إي ط اء يُدرك ه ولا سنادَ ولا في اللفظ إقواءُ[63]

وعكفتُ مع الباشا في عزلتنا أذهب به كل مذهب، وأنتقل به من مطلب إلى مطلب، فيمطالعة الأسفار والكتب، من تاريخ وأدب، ومن حكم متينة قويمة، وشتَّ ى علوم حديثةوقديمة، أهديه من كل طرف بطُرفة، وأتحفه من كل باب بتحفة، وأجتنب معه ما يدعوإلى الضجر والملل، ويدُني من الكد والكلل، فتارة أخوض معه عُباب البحار، وطورًا أجتازبه سراب القفار، فنرى مَنْ يحرق في البحر مراكبه، ليحمل على اقتحام المنايا كتائبه،ونسمع الشاعر في القفر يحدو بناقته، ويشبِّ ب بمعشوقته، ثم لا يقعد به ذل الغرام عن التفاخر بعز الكرام، ولا ينُسيه ذكرُ الهوى، مواقف الحتف والردى، فيخلط بالغزلالفخر، ويخاطب صاحبته من جوف القفر:

إنَّ ا محيُّ وك يا َسلمى فحيِّ ينا وإن سقيتِ كرام الناس فاسقينا

وإن دعوتِ إلى ج َلُ ى ومكرمةٍ يومًا سَ راة كرام الناس فادعينا

إن تبتدرْ غايةٌ يومًا لمكرُمة تلقَ السوابق منا والمص ِلينا[64]

ول ي س ي ه ل ك م نَّ ا س ي دٌ أب دًا إلا افتلَيْنا[65] غلامً ا سيِّ دًا فينا

إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا ولو نسام بها في الأمن أغلينا

بيض مفارقنا تغلي مراجلُنا ن أس و ب أم وال ن ا آث ارَ أي دي ن ا

---

[63] الإيطاء والإسناد والإقواء من عيوب القافية.

[64] المصلي: السابق.

[65] افتلى: استخرج.

إني لمِن معشر أفنَى أوائلهمإذا ِقيلُ الكماة[66] ألا أينَ
الكمِاة تنِ َحوا أن يصيبِهم المحامونا حُ د الظبِات[67]
وصلنِاها بِأيدينِا

ونرى الناقة تطرب تحته إلى مواطنها، وتشتاق إلى معاطنها، فتحن حنينه، وتئنأنينه، وكلما رآها تشكو مثلَ شكواه، وتصُغي بأذنها إلى نجواه، وتردد برُغائها صداه،[68]وتسعده بترجيعها في هواه، َتأو َه وتنهد، وترنَّ م فأنشد:

لقِد زارني طيف الخيال فهل زار هذي الإبْل طيف خيَ الِ فهاجني
ل ع ل ك راه ا ق د أراه ا ج دَابِ ذوائب طلحٍ بالعقيِق وضال[69]إذا
هَ اومسرحها في ظ ِل أحوى[70] أظ ه رت فَ يِ ه ذوات ح ج كأنها ال
تَ لِوْنَ زبُورًا في الحنيِن ُمنَ علِيهن فيه الصبر غير حلال زلاً
وأنشدن من شعر المطايا وأودعنها في الشوق ك َل مقِال قصيدةً

ثم ننتقل إلى مشاهدة المعامع المشهورة، والوقائع المذكورة، فترى الدماء تجريأنهارًا في الوديان، والمهج تسيل انحدارًا من مسايل الأبدان، والموت واقفًا يحصد الرءوس،ويجني نفائس النفوس، والفارس يمشي في الصفوف مشية الخُيلَاء، ويطعن برمحه كلطعنةٍ نجلاء، ثم ينشد في وصف أثرها وبعُد غورها:

طعنتُ ابن عبد القيس طعنة لها نَفذٌ لولا الشعاعُ أضاءها ثائرٍ

[66] الكماة: جمع كمي، وهو الشجاع ولابس السلاح.

[67] الظبات جمع ظبة، وهي حد السيف أو السنان.

[68] الرغاء: صوت الناقة.

[69] الطلح، والضال: شجر شائك.

[70] الأحوى: ما تضرب خضرته إلى السواد.

ملكت بها كـ ِّفـَ ي فأنهرت يرى قائم من دونها ما وراءها
َفتقِ ْ ِـها

ي هـ ون ع ل ّ َ ي أن ت رُد عيون الأواسي إذ حمدتُ بَلاءها
ج راحُ هـ ا

وتذكو شعلة الحرب فلا تنطفئ نارُها، ولا يخمد أوُارها، إلا وقد غادرت النساءَأيامى، والأطفال يتامى، والأموال نهباً منهوباً، والأعلاق سَلباً مسلوباً، والمدائن خاليةخاوية، والقصور بائدة بالية، والحربُ ُ ينخذل فيها القوي لأوهى سبب، وينتصرالضعيف من حيث لا يحتسب، فكم دالت بها الدول، ودارت الدوائر،ّ وانثلت العروش،وسقطت الممالك، بعد لواء العز المعقود، وبساط المجد الممدود، وبعد ذلك التناهي فيالعظَموت، والتمادي في الجبَروت، وبعد أن لم يكن يدور في الوهم سقوطُها، ويخطر فيالخيال هبوطها، كل ذلك يكون أسرع من لمح البصر، إذا نزل القضاء وحُ ّم القدر، وكلمُ ّلك مهما امتد ظله زائل، وعند التناهي يقَ ْصُر المتطاول.

ثم أدخُل به في مطالعتنا إلى حَلْقة حكيم واعظٍ يسلب الألباب بقوة بيانه، ويخلبالعقول بضوء برهانه، ويسترق النفوس بطلاقة لسانه، ويقول في حقارة الغنى وهوَانه:

»أيها الناس والله لدنياكم هذه أهون عندي من عُراق[71] كلبٍ في يد مجذوم.«

»والمخير بين أن يستغني عن الدنيا وبين أن يستغني بالدنيا كالمخير بين أن يكونمالكًا أو مملوكًا.«

من سره أن لا يرى ما يسوءُ ُه فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقِدا

[71] العراق: العظم أكل لحمه.

»والحياة الطيبة هي حياة الغنى، والغنى هو القنوع؛ لأنه إذا كان الغنىَ عدمالحاجة إلى الناس فأغن ّ ُ ىَ الناس أقلهم حاجة إلى الناس، ولذلك كان الله تعالى أغناالأغنياء:

غنى النفس ما يكفيك من سد خَ ًلة فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقِرا

ويقول في محاسن الأخلاق:»الجود حارس الأعراض، والحلمُ فدام السفيه،[72] والعفوزكاة الظفر، والاستشارة عين الهداية، وأشرف الغنى تركُ المنى، وكم من عقلٍ أسير عندهوًى أمير، ومن التوفيق حفظ التجربة، ومن لان عودُهُ كثفت أغصانه، ومن لانت كلمتهوجبت محبته.«

ويقول في مساوئ الصفات:»الكاذبُ في نهاية البعد من الفضل، والمرائي أسوأ حالاًمن الكاذب؛ لأنه يكذب فعلًا وذلك يكذب قولاً والفعل آكد من القول، فأما المعجب بنفسهفأسوأ حالاً منهما؛ لأنهما يريان نقص أنفسهما ويُريدان إخفاءه والمعجب بنفسه قدعمي عن عيوب نفسه، فيراها محاسن ويبُديها، وإني لأعجب للبخيل يستعجل الفقرالذي منه هرب ويفوته الذي إياه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب فيالآخرة حساب الأغنياء، وأعجب للمتكبر الذي كان بالأمس نطفة وفي الغد جيفة، وأعجبلمن يغُفل صبرهَ ويشكو إلى الناس دهره،ِفإن كان عدو ًا سره وإن كان صديقًا أساءه،وليس مسرة العدو ولا مساءة الصديق بمحمودة:

ولا تَ شَ كّ إل ىَخ لِ قٍ ف تُ ش ِْ م تَ هُشكوَى الجريح إلى العِ ّ َ قبان والرخَمِ

---

[72] الفدام: الخرقة على فم الإبريق.

»والعجز عجزان: أحدهما عجز التقصير وقد أمكن الأمر، والثاني الجد في طلبه وقدفات.«

ويقول في ذكر الحياة والموت:»إنما المرء في الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ونهبٌتبادره المصائب، ومع كل جرعة شَرَق وفي كل أكلة غصص، ولا ينال العبد نعمة إلابفراق أخُرى، ولا يستقبل يومًا من عمره إلا بفراق آخر من أجَله، فنحن أعوان المنونوأنفسُنا نصُب الحُتوف، فمن أين نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شيءشرفًا إلا أسرعا الكرة في هدم ما بنَياَ وتفريق ما جمعا، وعجبت لمن نسي الموت وهو يرىمن يموت«.

ويقول في وصف العلماء:» ٍالخير من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة الطفل الذيهو بالرحمة أحق منه بالغلظة، ويعذره بنقصه فيما فرط منه، ولا يعذر نفسه في التأخرعن هدايته.«

ثم يختم وعظه بقوله:

ال ٍدي ن إن ص اف ك الأق وام كـ ًل هـ م وأي دين لآبي الحق إن
وجبٰاوالمِرء يُعييه قوْدُ النفِس مُصحبِ ةً للخير وهو يقود العسكرَ ً
اللجِ اب[73]

اللهم اكفني بوائق الثقات ومكايد الأصدقاء.

ثم أنتهي بصاحبي إلى مجلس محاضرات بين الأدباء، ومفاكهات بين الندماء، فنقرأمن لطيف بوَادرهم، ورقيق نوادرهم ما ينير ظلمة الفهوم ويجلو صدأ الهموم:

لفِظ كأن معاني ال ُ سكر فمن تحـ ًفظ شيئًا منِه لم يفق تسكنِه
جزلٌ يٖشجع من وافَى لهُ أذناً فهو الدواءُ لداء الجبِن والقلِق

[73] اللجب: الجيش ذو الجلبة.

إذا ت رنَّ م ش اد ل ل ج ب لاقى المنايا بلا خوفٍ ولا فرق
ان ب ه
وإن تمثَّ ل صاد لل ّ ُ جادت عليه بعذبٍ غير ذي رنق
صخور به

وهكذا قضيتُ مع الباشا زمناً ليس بقصير أستخرج له نفائس الأعلاق، من بطونالأوراق، وأقتطف معه زهر الأدب العاطر، من حدائق الكتب والدفاتر، إلى أن قال لي ذاتيوم بين ندم ولَوم:

الباشا: ً إن أعظم ما آسف عليه اليوم تلك الأيام التي أضعتهُا من سالف عمري فيمالا يجُدي ولا يفيد من مشاغل الدهر وملاهي العيش، ويا ليتني كنت قصرت همي منذصباي على مثل هذه المعيشة مع هذا التفرغ لاجتناء فوائد العلوم واقتناء فرائد الآدابمغتبطًا سعيدًا لا حاسدًا ولا محسودًا، أتنقل من مطالعة الكتب إلى مذاكرة العلماء، ومنمذاكرة العلماء إلى مسامرة الفضلاء، ومن مسامرة الفضلاء إلى مطارحة الأدباء، واللهيعلم أن أسفي ليزيد شدة، ًوأن ندمي ليعظم حدة كلما تذكرت ما كانوا يحدثونني به فيأيام دولتي عن مجالس العلم والأدب، فما كنت آبهَ ُ ولا أنتبه إليها، وكنت أظن أهلها قومًامن أهل الكسل والفراغ يجلسون للدفاتر والكتب كما تجلس النساء للغزل والردن،[74]والحمد لله الذي أرشدني إلى الهدى آخر الدهر، فعلمت مقدار هذه النعمة التي حببتإليَّ الحياة ثانية، وهونت عليَّ احتمال متاعبها، وما إخالك تبخل عليَّ بعد الآن وقد علمتنفع ذلك لي، بمداومة السير معي في هذا الطريق الحميد، وما أرى من بأس في أن نتركهذه العزلة حيناً بعد حين للاجتماع بالناس في مجالس الأدب ومجامع الفضل وأنديةالعلم لنتذاكر معهم ما نطالعه ونأخذ عنهم ما يحفظونه، وقد زالت المخاوف واطمأنتالخواطر بزوال الأوبئة والطواعين، والحمد لله رب العالمين.

عيسى بن هشام: لا تطمعن أيها الأمير — دفع الله عنك المكاره — في مثل هذه

[74] الردن: مثل الغزل.

المجالس فقد طوتها الأيام ورمستها الليالي، ولم يبق اليوم من يأنس إليها وينافس فيها.الباشا: كيف يكون ذلك وأنا لا أزال أسمع ما تزعمونه من كثرة المدارس الآن،وانتشار العلوم والفنون وتعدّد الطالبين، وسهولة الحصول على الكتب ووفرة المطابعوإطلاق الأفكار من القيود، وأين هذا مما كنا عليه في الزمن الأول من تعسر الوصولإلى الكتب وتعذّر استنساخها لضن أربابها كأنها لديهم خفايا الكنوز، حتى لقد كانالجهلاء الذين لا ينتفعون بها ولا يفقهون منها شيئاً هم أول من يفاخر باقتنائها،ويعتبرونها ضرباً من ضروب الزينة والزخرف كأنها اليواقيت والجواهر يعجز عنها منيروم الانتفاع بها إن لم يكن ذا ثروة واسعة تمكنه من استنساخها أو ابتياعها، فلا بداليوم أن يكون في يد كل مصريّ كتاب يطالعه، وأن يكون كل واحد منهم قد أصبح فيالعلوم والفنون أليف محاضرة وحليف مذاكرة تزْدَهى به مجالس الفضل وتزهو أنديةالأدب، وكيف لا يكون ذلك وقد ذقت من حلاوة المطالعة والمذاكرة ما أنساني حلاوة كللذة في العالم؟

عيسى بن هشام: نعم شاعت العلوم في هذا العصر، وترقت الفنون وكثرت المطابعوسهُل على الناس اقتناء الكتب ومطالعتها، ولكن قل بيننا عدد الراغبين فيها والمطالعينلها، فكسدت سوقها وبارت تجارتها وأغفلها من ينتفع بها للاشتغال بسواها من الأمورالباطلة والأشياء التافهة، ورغب عنها من كان يقتنيها للزينة لكثرة الانتشار والتبذل،والناس اليوم في حركة لا شرقية ولا غربية قد اشتغل بعضهم ببعض، واكتفوا من دهرهمبحوادث يومهم فتعطلت بينهم مجالس العلم، واندرست مجامع الأدب، واقتصروا علىمطالعة أخبارهم في الجرائد والصحف دون الدفاتر والكتب، وأنَّ ى يكون لهم الاستقرارفي المجالس وهم لا يستقرون في مكان، ولا يهدأون من حركة ولا ينفكون عن غدوّ ورواحولا ينتهون عن نقلة وسفر، وأكثر ما يكون جلوسهم في المركبات، مركبات الخيول أوالبخار أو الكهرباء، وأهل اليسار منهم يقضون جزءًًا من شهور العام مترحلين في بلادالأجانب متنقلين في ديار الغربة للنزهة والتفكه، وقُصارى العلم عندهم أن يتلقى الطالبأشتاتاً منه في المدرسة وأطرافًا، وهو بالسن التي لم يصل فيها بعد إلى تمام التعقلوكمال الإدراك، فيحفظها

ويؤديها كالببغاء، فإن أسعده الحظ في آخر الدراسة ونجحعند الامتحان تأبط صك الشهادة ونفض يده من تلك العلوم، وطرحها عنه طرح الثوبالخلق، ونبذَ ها نبذ القادم على أهله ما أسن من ماءٍ[75] وما جف من زاد انتقامًا لنفسهمما عاناه من مشقة، وقاساه من تعب في درسها وحفظها من غير أن يفقه لها مزية فيذاتها أو يذوق لها حلاوة في طعمها، فإذا هو بلغ إربته ودخل في خدمة الحكومة أصبحكالعامل من العمال لا العالم من العلماء، وقل فيهم بعد ذلك من يصبو إلى العلم وأهلهأو يحن إلى الأدب وكتبه، ولئن مال بعضهم للمطالعة، فإنها لا تتجاوز حدّ الكتب المتعلقةبأصول وظيفته، ولذلك أصبحت كتب العلم والأدب مملولة منبوذة، وثقَ ُل على الناسمطالعتها لما هم فيه من كثرة الحركة والتنقل، وطول الانهماك في الأشغال المتجددة، فلاً يقوى أحدهم على مطالعة صحيفة من كتاب إلا وقد بلله العرق ودهمه الكلال والملال،ونزل به الضجر والسأم، وإنك لترى مثل هذا بيِّ ناً في حديثهم فهم لا ينصتون إلى قصةمتصلة، ولا يتبعون في الكلام قضية مُرتبة، ولا يعجبهم منه إلا ما كان متقطعًا مبتورًاأو مقتضباً مجذومًا.

الباشا: ما أكاد أخُليك أيها الصديق من غلو في وصف هذه الحال، وهل خلا أويخلو زمان في البداوة كان أو في الحضارة من مجالس للعلم، ومجامع للفضل وأسواقللأدب، وما كان زماننا الذي كنت فيه ليخلو من آثارها حتى لقد رأينا فيها كثيراً منالكبراء والأمراء ممن لا نصيب لهم من العلم والأدب لا يغُفلون مجالسهم من وجودشاعر مجيد أو فاضل أريب،ٍ أو نديم أديب أو محدث ظريف تتفكه به النفوس وتستريحله القلوب، هذا والكتب بين الناس قليلة التداول والعلم بعيد التناول، فما بالكم اليومعلى هذه الحال التي تصف والصحف منشورة والكتب مطبوعة وأسماء العلوم مذكورة.عيسى بن هشام: قد استغنى كبراؤنا وأمراؤنا اليوم عن تزيين مجالسهم بالعلموالأدب، وقصروا هممهم فيها على التفاخر بالمقتنيات المزخرفة والأدوات المصنَّ عة من عملالغربيين، فترى الكبير أو العظيم يقلب في

---

[75] أسن الماء: تغير فلم يشرب.

يده العصا المضيئة بالكهرباء مثلًا أو الساعةُّ التي ترن بعدد الثواني وهو يعتقد أنها أجل قيمةً في العين، وأجمل أثرًا في النفس منجميع العلوم التي تستضيء العقول بممارستها، ومن جميع الكتب التي تصفو ساعاتالحياة بمطالعتها،ٍ ولا تتوهمن أنني أجزم لك بخلو هذا الزمن عن مجالس للعلم ومحافلللأدب،َ وما كان كلامي إلا على الوجه الأعم، وقد آن أن أجيبك إلى ما طلبت فأزُور بكبعض المجالس والمحافل لينقطع رَيبك،َ وليطمئن قلبك.

الأعيان والتجار

قال عيسى بن هشام: واستنهضت الباشا أزور به مجلسًا من تلك المجالس المعدودة،والأندية المعقودة، مجلس الوجهاء والتجار، أهل الصيت المرتفع في الأمصار، فشهدت منهازورارًا وانقباضًا، ووجدت فيه انحرافًا وإعراضًا، ثم التفت إليَّ يعاتبني عتاباً شديدًا،ويوسعني عذلاً وتفنيدًا، ويقول لي: ما عهدت منك منذ صاحبتك إلا الخير لي تريده،والنفع تبدؤه وتعيده، وما زلت أشكر لك تلك اليد البيضاء في العزلة عن الناس والتخلصمن مواقف القضاء، دفعًا لما كنت تحذر وتخشى من شر الخاتمة وسوء العقبى بتزاحمالأحزان، وتراكم الأشجان، وما تعقبه من السقم والاعتلال، وسوء النكسة بعد النقهوالإبلال،[76] فما بالك تستنهضني إلى مثل هذه المجالس والمجامع.

وربما كان فيها ما يؤذي العيون وينفر المسامع، وقد شاهدتني يكاد يصيبنيالتلف، من شدة الحزن والأسف، فقلت: أشهد الله ما أبغي لك إلا الخير والتوفيق، فيكل مذهب وطريق، وقد رأيت التجارب أوسعتك كرمًا وحلمًا، وصروف الدهر أكسبتكمعرفة وعلمًا، بعد قلة الاختيار، وكثرة الاغترار، وسوء الابتدار، في الإيراد والإصدار، وماكان فيك من خشونة الملمس، وشموخ الأنف، وضيق العطن، وصلف الرأي، وما أحب لكبعد ذلك أن ترى في أمور الناس إلا مشهدًا يسُلي عن الكرب، وملعباً يفرج عن القلب، فلايكن نظرك إلى أعمالهم في غدوهم ورواحهم وفي أفراحهم وأتراحهم، ونعيمهم وبؤسهم،ورجائهم ويأسهم، مثل نظر الحكيم »هيراقليط«، بل مثل نظر الحكيم »ديموقريط،«كان الأول يشاهد أمور الناس

[76] الإبلال: الشفاء.

فيبكي ويتحسر، وكان الثاني يراها فيضحك ويسخر، فإذاأنشد أحدهما في نصرة مذهبه:

النِاسُ من دنياهم في مأتم ّ ُ فالسحب تبكي والرواعدُتندب

أنشد الثاني في تأييد مشربه:

هذي الحياة روايةٌلمشخص فالليلُ سترِ والنِهار الملِعب

ومن صواب الرأي أن لا تذهب نفسك عليهم حسرات، ولا تذرف عينك من أجلهمالعبرات،ّ وهلم معي أمتعك بزيارة مجلس يؤنس من وحشتك، ويكشف من غمتك،فأسلس مطاوعًا في القياد، ووافقني على ما تبين له من الرشد والسداد،ّ فيممت به دارًاعالية الجدران، واسعة الأركان، شاهقة البنيان لأحد التجار والأعيان، فزاحمنا عند البابسائسٌ يسحب فرسًا مصحباً مطيعًا، ويحمل على كتفه طفلًا رضيعًا، يقول وقد أظهرالغيظ بواطنه الكامنة:»لست أدري والله أسائسٌ أنا أم حاضنة؟« ومن ورائه آخر يحملصفحةً متدفقةً ّبالمخلل،ّ يقول وقد تلوث بمائها وتبلل:»علام أتعب في هذه الدار وأشقَى؟وإلام يدوم هذا الشقاء ويبقى؟ ولست أدري والله أسائقٌ ّأنا أم سقا؟« ولما ولجنا البابإذا بالبواب يقول وفي يده صرة ثياب:» ّ لا مرد للمقدور والمقضيّ، ولا رجاء في العيشالرخيّ، والله ما أدري أبواب أنا أم خصيّ؟« ولما جاوزنا دهليز المكان، إلى باب الإيوان،وجدنا عنده غلامًّا فتي السن يتنهد ويئن، وبين يديه دخان وورق، وبجانبه كتاب مطبق،وهو يقول:»عجباً والله للوالد يشغل ابنه بسجاراتٍ يحشوها فيلهيه بها عن دروس لهيتلوها، لا غرو إن فاضت العيون بسواكبها، واحترقت القلوب بلواهبها، فما أدري واللهأفراش الدار أنا أم ابن صاحبها؟« فما أحس بنا حتى انتفض قائمًا، وتقدم مسلمًا، ثمذهب أمامنا ليذكر قدومنا، وإذا بالوالد مقبلًا علينا يتكفأ في مشيته، ويتعثر في جُبته،ّ فسهل بنا ورحب، وبالغ في التحية وأسهب، ودخل بنا على أهل مجلس مختلفي الأزياءوالهيئات،ّ متبايني الأشكال والسمَات، فمن صاحب عمامةٍ يتعهد بيده رصفها وآخرَّ يجدد لفها، ويحبك بالإبر طرفها، ومن صاحب طربوش قد أماله على

جبينه، فإذا تحركأسنده بيمينه، فترى يده أبدًا لا تسكن ولا تستقر، كأنما هو في تأدية سلامٍ مستمر،ووجدناهم جميعًا قد كثر بينهم اللغو اللغط، وسمعناهم يتحاورون على هذا النمط.أحدهم:ـ نعم لا بد من ذلك إذا يسر الله وتم الاتفاق مع الخواجه فلان، فإنإقامة عمارة أخرى بجانب تلك العمارة مما يأتي بأرباح لا يمكن أن تأتي بها الأشغالالتجارية، وأنا أنصحك يا أبا هاشم أن تترك التجارة جانباً، فقد أصبحت الآن لا نفعيرُجى منها، وتوكل على الله في الاشتغال معنا بالأبنية فهي أنجح وأربح.

الثاني: ومن أين لي زادك الله من النعمة والبركة ما يساعدني على هذا التوسع،والحال على ما تعلم ضعيفة، والحمد لله على نعمة الستر، فهي الغنى الكامل؟

الأول: لا تقل هذا أيها السيد،﴿وَأَـمَا بِنِعْمَةِ رَبِّ كَ فَحَ ـِدثْ﴾ ودعواك ضعف الحال إنهي إلا تواضع منك، والله يزيدك فضلًا على فضل.

الثاني: أستغفر الله يا سعادة البك هذا حسن ظن منك وإلا فالحقيقة غير ماظننت، وقد قلت لك: إن الستر هو الغنى الكامل، وعلى كل حال فالبركة في التجارة، فمنهاكان رزق الآباء والأجداد، وربحٌ مستور، أبرك من ربح مشهور.

ثالث: تالله إنكم لفي ضلالكم القديم، وهل بقي في التجارة التي زاحمكم عليهاالأجانب ربح يذكر أو رزق يطلب، فاتركوا هذا الخمول وعليكم بأشغال الأقطان فيالبورصة، فهي الربح المضاعف والرزق الحاضر يأتيك رغدًا بلا كد ولا تعب، وكم رأينامن فقير وَلَج البورصة فخرج بفضل المضاربات غنيًّا كبيراً، وهذا صاحبنا الخواجة فلاناليهودي وفيكم من أدرك والدته تبيع الخبز بالحارة، قد مارس تلك الأشغال، فأصبحأكثر الناس مالاً وأرفعهم حالاً، ونحن لا نزال على ما تركه لنا الآباء والأعمام، رحمة اللهعليهم.

رابع: ولكن فاتك أيها السيد أن صاحبنا هذا الذي تعنيه لم يصل إلى ذلك إلابأشغال السمسرة، وفيها من الحطة ما لا يخفى عليكم، وهل تريدون أن ينزل أحدٌ منابنفسه إلى هذه الأشغال بعد أن عشنا مثل هذا العمل؟

الثالث: حاشا لله أيها السيد ليس هذا من قصدي، وإنما أردت أن أبين لكم أن هذااليهودي دخل البورصة سمسارًا لا يمتلك مالاً، فأصبح من كبار الأغنياء، فما بالك بمنيدخلها وهو صاحب ثروة، لا شك أنه يخرج منها بعد مدة قصيرة قارون زمانه.

خامس: ما وراء الربح الكثير إلا الخسران الكبير، وقد شاهدنا بأعيننا ما أنتجتهأشغال البورصة من تخريب البيوت العامرة، وتبديد الغنى الواسع وانحطاط العمادالرفيع، وأرى أن الإقدام على هذه المهالك من الجنون المحض »فالله خيرٌ حافظًا.«

سادس: أما أنا، ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين، فقد كفاني تأديباً ما تكبدته منالخسائر في تلك المضاربات على الأقطان، ولولا فضل الله وبركة دعاء الوالدين لما نجوتمن الخراب.

الثالث: لا حول ولا قوة إلا بالله ﴿إنِّ َ كَ لاَ تهْ َدِي مَنْ أحْ َببَتْ َ﴾ كيف تخشونالخسارة في أشغال الأقطان، وتتوقعونها والربح فيها مضمون مع بعض الانتباه لمجربالأخبار وحسن التخمين في الإحصاء، وتقدير المحصول والمطلوب للتسليم، ومع القليلمن الممارسة والجراءة في العمل.

سابع: كيف تدعي ذلك — حفظك الله — وهذا فلان المشهور قد انقطع لهذا العمل، واجتمعت فيه معداتهُ فما زال يهوي في بحر البورصة حتى وصل في الخسارة إلى القرار،وإن كان لا يزال ظاهرًا في أعيننا بمظهر الغنى الواسع والمال الجمّ.

ثامن: سبحان الله ألا تعجبون معي من اتساع الشهرة بيننا بالغنى والثروة، ثم لانلبث أن تنكشف الحال عن القلة والضعف، فكم سمعنا بأن فلاناً صاحب ثروة تقدرُ بألوف الألوف ثم يظهر الخفي ويتضح الباطن، فلا تبلغ الحقيقة معشار تلك الشهرةالكاذبة.

الخامس: نعم صدقت ألم تروا إلى المرحوم فلان كيف كان يفاخرني في كل مجلس،عندما أخذت الرتبة بأنه أكثر مني مالاً وأعظم ثروة، وأن مقامه بذلك رفيع ومرتبتهسامية، فلما توفاه الله انكشفت الحال، ولم يرث عنه أولادُهُ ما يكفي لبقاء

بيته مفتوحًاوبقاء اسمه مذكورًا، وقس على ذلك أمثاله من هذا القبيل فسبحان الغني الدائم.

الرابع: دعُونا بالله من ذكر الأولاد والمواريث، فإنني كلما تذكرت أخلاق آبائنا في هذاالزمن، ورأيت ما وصلت إليه ثروة فلان وما انتهى إليه حال أولاده من الفقر والضنكَّ بعد أن بددوا تلك الأموال الطائلة، وأصبح ذكر أبيهم بينهم نسياً منسيًّا فلا يزورون لهقبراً ولا يطلبون له رحمة، هان عليَّ أن أنفق ما في حوزتي في حياتي، وأن أتمتع بأمواليفي مدة عمري.

الخامس: معاذ الله أن نفعل ذلك بأبنائنا، وما فائدتنا في هذه الدنيا إذا لم نجمعالأموال وندخر الثروة لأعقابنا، ونترك لهم ما يغنيهم عن سؤال اللئيم بعدنا، ولا تجعلالذنب كله على الأولاد في تبديد المواريث، بل الذنب كل الذنب على الآباء الذين يتركونأموالهم هَمَلًا بعد موتهم، ويغفلون عن تقييدها بالوقف فينتفع الأولاد بالريع، وتبقىالعين قائمة والبيت مفتوحًا والاسم مذكورًا، ولا يحتاج أحد من الذرية وذرية الذرية معوجودها إلى ...

السادس: لا مؤاخذة يا سعادة البك في مقاطعة الحديث، ألم تسمع بما حصل فيوقف فلان وفلان وغيرهما، وكيف اغتال النظار حقوق المستحقين، وذهب الوقف ضياعًابين القضايا والدعاوى والديون، حتى آل النظر والاستحقاق فيها لليهود، واندثرتالبيوت وعفَت الآثار، وذهبت أسماء أصحابها كما ذهب أمس قبل اليوم.

السابع: نعم ينفع الوقف ويبقى الميراث على شرط أن يكون بمثل الشروط التيوقف بها المرحوم فلان، فإنه خصص جانباً من الريع لذريته، واشترط أن يحفظ الباقيويدخر، ً وكلما تكون منه نقد عظيم يشُترى به عقار ثم يوقف ويضاف إلى الوقف الأصليليكون في نمو متواصل على توالي الأيام وصروف الحدثان، وبذلك يصير البيت في درجةعالية من الغنىَ بعد وفاة صاحبه فوق ما كان عليه في أيام حياته، فأنعم بها من طريقةوأحسن بها من وسيلة.

الثالث: ليس ذلك من الحزم في شيء،ٍ ولكنه الغلو في البخل والشح ومحبة الادخاربعد مفارقة الحياة، ولقد حرم المرحوم نفسه من التمتع بماله في حياته وحَرَمَ أولادهمنه بعد موته بابتداع هذه الطريقة الغريبة في شروط الوقف.

الأول: أطلبُ منك العفو والسماح وعدم المؤاخذة، فمن يقول: إن المرحوم كانشحيحًا مقتراً، قد والله عاشرته الزمن الطويل فما رأيته يحرم نفسه أو يقتر عليها، وماكانت مائدته لتخلو من الضأن أو الحمام أو الدجاج،ٍ وحقٍ جدك، وإنما كان الرجلحازمًا لا ينفق ماله إلا في الوجوه النافعة.

الثاني: لا اعتماد عندي في هذا الباب على الوقف أو الملك، وخير ما يدخر الوالدلأبنائه وأفضل ميراث لهم أن يحسن تعليمهم وتهذيبهم في المدارس، وأن لا يعودهم فيحياته الإنفاق والتبذير، بل يروضهم على التوفير والتدبير ومعرفة قدر الدرهم والدينار.

الأول: وهل جاءتنا المصائب في أولادنا إلا من هذه المدارس وتعليمها، وهل زادهمذلك التهذيب إلا ما شئت من الفظاظة والوقاحة والكبرياء والمكابرة، ولقد أدهشني فلانبالأمس، وأضحكني في شكواه مرّ الشكوى من حال ابنه المتهذب المتعلم في المدارسوالمجالس؛ إذ قال لي في حديثه:»ما زال هذا الولد يزيد في تعذيبي وتكديري منذ خروجهمن المدرسة، فأصبح لا يكلم أهله إلا بالرّطانة ولا يعرب عن غرضه إلا بالتعنيفوالتأنيب، ولا يرضى عن شيء في البيت، فإذا جاءوا له بالماء قال: فيه الميكروب، وإذاأتوه بالخبز والجبن قال: عليَّ بالميكروسكوب،ًثم ترى الشقيٍ يقسم الأطعمة أقسامًا،فيقول: البيض واللبن غذاء كامل، والخُضر غذاء ناقص، لا ينفع ولا يمري، وأن الأرزوما شابهه من »المواد النشائية« لا فائدة منها سوى أنها تحترق كالوقيد في الجسم، ومازاد منه عن الحاجة فهو شحم يغلظ به الجسد وتتورم به الأعضاء، وأن الفواكه لا بدأن تؤكل من ساعتها إذا تشققت خصوصًا البطيخ؛ لأنه أسرعها قبولاً لتولد الحيواناتالسامة،ٍوهلم جر ّ َّ ا حتى حير الخبيث أهل البيت في طعامه وشرابه فوق ما حيرني فيٌّ اختلاف ملابسه وتعدد أزيائه، وكلما عارضته في شيء شمخ بأنفه استكبارًا ولوى عنقهُاستحقارًا، وسخر بي لجهلي وفخر

عليَّ بعلمه، هذا هو منتهى التأدب الذي يكتسبهأبناؤنا من علوم المدارس، يتعالون على آبائهم ويعيرونهم بعد أن كان الولد كالبنت البكرفي الزمن الماضي لا يرفع طرفه في وجه والده حياءًً ووجلًا، وكان لا يجرؤ على مكالمته إلامجيباً عن سؤالٍ من صغره إلى كبره.

الثاني: ولكن فاتك أن تعليم أبنائنا في المدارس يفيدنا فائدة عظيمة يغُتفر لها كلذنب، وهي دخولهم في سلك الموظفين في الحكومة وارتقاؤهم المراتب والمناصب، ويا ليتآباءنا كانوا التفتوا في أيامهم إلى تعليمنا في المدارس فكنا استغنينا عن ممارسة التجارةوذل البيع والشراء،ٍ وكساد السوق وترويج السلعة بالأقسام والأيمان، فما العيش إلاعيش الموظفين الذين يأخذون مرتبهم في آخر كل شهر نقدًا عيناً وذهباً خالصًا دفعةًواحدة سالمة لأيديهم بلا مطل ولا تسويف، في مقابل جلوسهم بالديوان ثلاث ساعاتمن كل يوم يقضون الجزء الأعظم منها في المسامرات والمفاكهات، ثم ناهيك بما لهمبين الناس من التوقير والتعظيم، وما في قدرتهم من مساعدة الأصحاب ونكاية الأعداء،ورأس المال في ذلك كله الإحاطة ببضعة كتب في المدرسة، فأخبرني حينئذٍ أي ربح فيالتجارة وأي شأن لها يوازي هذا الربح وهذا الشأن في خدمة الحكومة، وسبحان منقسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة.

الرابع:ً كل هذا معلوم ومسلم به، ولكن من أين لك أن ينال ابنك الشهادة وأنتتعلم حال القابضين على زمام التعليم، فقد خرج أكثر أبنائنا من المدارس بلا شهادةوخسرنا عليهم الأموال في نفقاتها، ومن صادفتهُ العناية منهم ونال الشهادة مثل ابني،فإنه لم يزل يتردد على أبواب الحكومة في تطلب الخدمة، والوظائف مشحونةٌ ونظارالحكومة لا يجددون سواها.

السادس: ّ ًَ عسى الله أن يبدل الأحوال وتسقط هذه النظارة ويمن علينا برجوعأولئك النظار الذين يهتمون بمصالح أهل البلد وأبناء الوطن، فترى حينئذ كيف يكونتقدم أبنائنا في المناصب.

الخامس:ٍ حقا إذا ذهب هؤلاء النظار وعاد صاحبك إلى النظارة، فقد أقبل عليناالسعد وانجلت الكروب وصفت الأوقات، وأنا أرجو أن لا تنسى ابني عند السعي

لأنجالكفقد كان معهم في مدرسة واحدة، وهو دائمًا يطالع الجرائد، ويترقب الحوادث التييكون من ورائها سقوط هذه النظارة.

الثامن: أراكم تخبطون في أمر أولادكم على غير هدًى، والأصوبُ عندي أن نعلّمهمالعلوم ليكونوا أسوة أهل زمانهم معرفةً واطلاعًا، لا لأجل التوظف في الحكومة والخروجعن طبقاتهم، وأما من جهة حفظ المواريث في أيديهم بعد مماتنا فأحسن الطرق أن لانقتر عليهم في النفقة أثناء حياتنا، وأن لا نتركهم بمعزل عن أشغالنا، بل نخصص لهمقسمًا من المال يشتغلون به على حدتهم تحت أعيننا ليتمرنوا على العمل، ويدركوا لذةالمكسب بأنفسهم فتتربَّ ى لهم ملكة الحرص على المنافع، وينتفعوا بعلومهم في اتساعتجارتهم والتفنن في أبواب المرابحة، وقد جربت ذلك في أولادي وأنا أرجو فيهم الخلفالصالح إن شاء الله.

السادس: هل جاءت جريدة اليوم؟

صاحب البيت (منادياً لابنه): ائتنا بالجريدة واقرأها علينا.

(يحضر الغلام وفي يده الجريدة ناشرًا لها).

الأول: اقرأ لنا من الأول.

الغلام (قارئاً): الحرب.

السادس: هل وقعت الحرب؟

الغلام: ليس يتبين ذلك من أول المقالة.

السادس: اقرأها من آخرها.

الخامس: اتركها من أولها إلى آخرها، واقرأ في »المحليات« فلا فائدة لنا في وقوعالحرب أو اجتنابها.

الغلام (قارئاً): تأليف الشركات.

الرابع (للسادس): لا يذهب عن فكرك مشروع الشركة الوطنية التي كنا تكلمنا فيتأليفها منا لمشتري الأطيان المعلومة من الحكومة.

الخامس: إن شاء الله يكون لنا نصيب معكم في هذه الشركة.

الثالث: مَنْ أعضاؤها، ومن الرئيس؟

السادس: أعضاؤها فلان وفلان وفلان ورئيسها فلان.

الثالث: معاذ الله أن أقبل الدخول مع فلان في شركة، وهل نسينا ما وقع منه.

الثاني: وأنا لا أقبل الدخول في شركة بعد تلك الشركة المشهورة بخيبة المسعى مالم أكن أنا الواسطة في مقابلة الحكام والمداولة معهم.

السابع: وأنا لا أقبل الدخول فيها إلا إذا كانت »أسهمي« في التأسيس أكثر منفلان.

الأول: وأنا لا أقبل أن يكون فلان رئيسًا عليّ في شركة أبدًا.

قال عيسى بن هشام: واشتد بينهم الجدال والخصام فحملقت العيون وعبستالوجوه وتحركت الضغائن وثارت الأحقاد، ورأينا كل واحد منهم يضمر لأخيه من الشروالأذى، ما لا يضمره القرن لقرنه في ساحة الوغى، فانصرفنا عنهم وتركناهم يموجبعضُهُم في بعض، كأنهم في موقف الحشر ويوم العرض.

أرباب الوظائف

قال عيسى بن هشام: وسرنا إلى زيارة مجلس من أرباب الحكم والولاية، وذوي السياسةوالدراية، ممن بي ُدَهم حل الأمور وعقدها، وبملكهم شقاء الأمة وسعدها، الناشئين في مهدالمعارف والعلوم، والنابغين في أشتات المنطوق والمفهوم، والموصوفين بدقة النظر وبعدالهمم، والواقفين على أخلاق الخلق وعادات الأمم، الذين تنكشف لضوء آرائهم غياهُبالخطوب الداجية، وتنقاد للطف سياستهم أزمة القلوب الآبية، فوصلنا إلى دار يزهربياضُها، ويبهر إيماضها، قد ضربت عليها المحاسن أطنابها، وخلعت عليها الزخارفجُلبابها، فسار بنا الخدم إلى حجرة في جانب الساحة، أعدت للانتظار والاستراحة، وإذابرجل جالس فيها يتمايل بين يقظان ووسنان، فرأسُه كُرَةٌ والكرى صولجان، فلماأحس بقدومنا ودخولنا عليه، انتبه يزيح النعاس بإصبعه عن عينيه، فسلمنا فسلم، وهويتثاءب ويتلعثم، فتخيلناه من ظاهر جملته، وبذاذة هيئته، أنه صانع من الصناع أو تبعٌمن الأتباع، ولكن ما لبث أن ظهر لنا من مخاطبته للغلام، أنه ذو رحم في البيت وذومقام.

ثم التفت إلينا يخاطبنا ويقول، بعد أن ذهب الخادم مستأذناً في الدخول:»قبح اللهالخدم، فهم نقمة من النقم، شرّهم حاضر، وخيرهم نادر، والعناء بهم ليس له آخر، فكمأغضبوا حليمًا، وآذوا كريمًا، وكم كسروا الصحيح، وخلطوا الصريح، وكم ارتكبوا جرمًاوإثمًا، وجاءوا إفكًا وظلمًا وكم فتحوا الأغلاق، واختلسوا الأعلاق، وكم أحدثوا الشقاقوأذهبوا الوفاق، وكم فرقوا بين المرء وأهله، وحالوا بين الفرع وأصله، ولعنة الله عليهمفي الدارين، فقد ذقتُ منهم الأمرين، وكادت تصل بنا أفعالهم الشنيعة إلى ما لا يحُمدمن الجفاء والقطيعة، وابني حرسه الله ينظر ويغُضي، ويتحمل منهم ما لا يرُضي، وهميتجنَّ ون علينا وينتصرون، وإذا أمرتهم بأمر لا يأتمرون، ويشهد الله أنني كلما رأيتمال ابني في أيديهم يتبعثر ويتبدد، وثقته بهم

تتضاعف وتتجدد، ذاب الفؤاد فسالمن العيون، مشوب ًاً بماء الشؤون،[77] وأما وكيل البيت، وما أدراك ما الوكيل، فحسبنا اللهونعم الوكيل، فتىً لا تخطئ في النفاق مخيلته، ولا تطيش في البيت حيلته، دأبهُ المكروالخداع، وديدنهُ الشقاق والنزاع، يرضى طفلًا، ليسخط كهلًا، ويتملق للجارية في الحرم،وللوصيف من بين الخدم «...

هذا، وما زال الرجل يشكو ويتضجر، ويتأفف ويتحسر، فلم ينقذنا من هذهالشكوى التي تصم الآذان، إلا رجوع الغلام بجواب الاستئذان، فانتهينا من شقشقةلسانه، وحمدنا الله على كرمه وإحسانه،ُ ثم اقتفينا أثر الغلام إلى حجرة بادية الرواء،مضيئة بالكهرباء، مفروشةٍ بأثمن فراش، وأبدع رياش، على اختلاف في الأجناس والأنواع،وتباين في الأشكال والأوضاع، فالتحفة الشرقية، تقابلها الطرفة الغربية، وآنية الذهبيضارعها آنية الخشب، فوجدنا المجلس حافلًا بأهل الولاية والقضاء، من الرؤساءوالوكلاء، فأخذنا مجلسنا نستمع ما يدور من السمر، ونجني من أدبهم ما يحلو منالثمر، ودونك بعض ما اقتطفنا وجنيَنا، وسمعنا ووعينا:

أحدهم: نعم حبذا نصرة حزب الجيش على بقية الأحزاب في فرنسا، فإن في ذلك لوتعلمون تحرير رقبتنا وانقضاء محنتنا.

ثانيهم: ما أبعدَ ما ترمي وما أسرع ما تحكم،َ فهلا نبأتنا لله أبوك كيف ترتيبكلهذه القضية واستقراؤك لهذه النتيجة، وما نحن وخذلان الأحزاب الفرنسية ونصرةحزب الجيش عليها!

الأول: أراك لست بعويص الرأي في السياسة، ولا ببعيد الغور في استخراج النتائج،ألا تعلم،َ لا زلت مسددًا، أن في انتصار حزب الجيش قلباً لهيئة الجمهورية ورجوعًابفرنسا إلى الملكية والإمبراطورية أو القنصلية، فتأتينا بمثل أولئك الملوك والقُ َواد الذينَّ دوخُوا الشرق والغرب، وقهروا الممالك وأخضعوا الدول، وأصبحت لهم الكلمة العليا علىأهل البسيطة، فلا يمانعهم في أغراضهم ممانع، ولا يعارضهم

[77] الشؤون: عروق الدمع من العين.

في مطالبهم معارض، وإنيلأعلم علم اليقين ممن عاشرتُ من كبار الفرنسيين وصاحبتُ أنه لولا هذه الجمهوريةلَمَا وصلنا نحن إلى هذه الحال.

ثالثهم: دعنا بالله من هذه الخيالات واتركنا من هذا اللغو، ومثلك لا يحق لهالشكوى من هذه الحال، فإنك متين العلاقة بالمستشار، وما بينك وبين الوصول إليَّ المنصب الذي تتطلع إليه إلا قيد شبرٍ، وأنت مع ذلك في غنى عن خدمة الحكومة بما لَكَمن الغنى واليسر، ولكن ماذا تقول في مَنْ هو في حاجة دائمة إلى البقاء في أسر الحكومةوذل الخدمة، ولولا الاحتياج إلى المرتب والاضطرار إلى الرزق لما أقمت في الخدمة يومًاواحدًا.

رابعهم: وأنا والله لا أنتظر إلا أن يتم لي نصف معاش فأهجر خدمة الحكومة،وأنجو بنفسي من أسر الرق وذل العبودية، ثم أعتمد بعد ذلك على الاشتغال بالتجارة،فهي أهنأ عيشًا وأعظم ربحًا وأبعد بصاحبها عن مواقف الذل والهوان.

خامسهم: ما أسخف الرأي وأضعف الفكر، ومَن ينكر أن خدمة الحكومة على كلحال هي أعلى قدرًا وأرفع شأناً من بقية الحرف والصناعات، وكل أسباب المعايش لاتخلو في هذه الدنيا من المتاعب والأكدار، ولكن خدمة الحكومة أهونها حالاً وأقلها عناءً،ولا يفضل عليها الاشتغال بالتجارة إلا من كان قليل التبصر في الأمور، ويكفيك برهاناًعلى ما أقول أنك تستخدم التاجر وتسخره ما دام درهمك في يدك، ولكن التاجر في حاجةأبدًا إلى أصغر موظف في الحكومة، وإن كان من أغنى الأغنياء، ولو تراهم إذ يفتخرونبينهم بزيارة الكاتب ومجالسة المعاون وتحية القاضي ومخاطبة المدير، لعلمت أن خدمةالحكومة بلغت في أعينهم وأعين بقية الطبقات مبلغًا عظيمًا من الشرف والرفعة، بحيثَّ لو خيرت أحدهم بين الخروج عن ماله وعقاره وتجارته وأطيانه وبين الدخول في صفالموظفين بالحكومة لخرج من كل ذلك خروج السهم من قوسه والأرقم من جلده، ولَحكمَّ بأن السعادة كل السعادة فيما تعده أنت شقاءً وبلاءًٍ وتعتبره ذلا وهواناً.

سادسهم: على رِسلك أيها القاضِي لا تعكس القضية، ولا تقلب الحقيقة، ولا تحملما تراه في أخلاق أهل التجارة والصناعة والزراعة من الاستهانة بحرفتهم والاستعظاملأهل الحكومة على أن حرفتهم خسيسة في ذاتها، بل ذلك حادث فيهم من جهلهم وضعفإدراكهم، ّوإلا فلو تخلى أحدهم عن طبقته، ودخل في طبقتنا يومًا لأدرك في الحال ما كانفيه من نعمة الاستقلال في العمل والحرية في الرأي، ولَعَلِم أن الموظف قد باع للحكومةحريته ووهب لها نفسه تتصرف فيها تصرف المالك في ملكه مقابل مقدار من الماليعُد لأجله ساعات اليوم وأيام الشهر، ويربحه الواحد من أولئك الجاهلين بأحوالنا فييوم واحد وهو أمير نفسه وسيد أهله، ويا ليت آباءنا كانوا انتبهوا إلى تعليمنا الصنعةوتمريننا على التجارة، ولكن بئس ما صنعوا وبئس ما خلفونا له، ولو أنهم كانوا أدركواما انتهت إليه حال الخدمة في الحكومة اليوم، ولم يغتروا بما كان للحكام في الأزمانالسالفة من الصول والطول والقوة والحول، واكتساب المال من الجاه، ولو علموا أنهسيأتي زمان على هذه الحكومة التي كانوا في أيديها كالأيتام في يد الوصي يكون أربابُّ المناصب فيه كالأطفال في حجر المرضع؛ لعضوا الأنامل ندمًا ولأرسلوا بدل الدمع دمًاعلى ما فرطوا في أمرنا وأهملوا في شأننا.

الخامس: إنك لتتكلم بكلام العجائز اللائي يقنعن من دهرهن بالخسيس منالملبس والمطعم، وأين أنت هداك الله من طلب المعالي وابتناء المفاخر، وتشييد المجدوخدمة الوطن وارتقاء المناصب للقدرة على النفع والضرة، وأين أنت من قول الشاعرالحكيم:

ولوًّأن ما أسعى لأدنى معيشة كفاني، ولم أطلب قليلٌ من المالول كـ نَّ
مِ ا أس ع ى لـ مِـ ج دٍ مُ ؤثَّـ ل وقد يدُرك المجدَ المؤثَّ ل أمثِالي

وإلى الله المشتكَ ◌َى من زمن صغرت فيه النفوس، وضعفت الهمم وماتت العزائم،ورضي الناس فيه بالخمول والسكون وبالعيش الدون.

السادس: إني لأعجب منك أيها الفاضل كيف يغيب عنك الصواب إلى هذا الحد،فترى أن في خدمة الحكومة سؤددًا وعلاءً ◌ً ومجدًا وسناءً، وما هي إلا الذل

والشقاء، والبلاءفي أثر البلاء، ٍوأنا أفصل لك الحال تفصيلًا لتعلم أن بقاء أمثالك في خدمة الحكومة معالقدرة على التنحي عنها عجزٌ وضعف، وجهلٌ براحة الحياة وأيّ جهل فأقول:

تنقسم الرغبة في خدمة الحكومة إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: الرغبةُ فيها للمال؛ أعني لسَ ِد العَوَزِ وكفاف العيش، وصاحبُ هذا القسميكون في حال المضطر الذي حكم عليه الدهر باحتمال الهوان لضرورة الرزق، فهومثلي يغبط حال كل صانع وتاجر وزارع، ويتمنى على الدوام أن يخرج من خدمةالحكومة إلى صف أهل الصناعات الحرة.

والقسم الثاني: الرغبة فيها للجاه؛ أعني عزة المنصب ونفوذ الكلمة ومضاء الحكم،وهو ميدان بعيد الشأو واسع الأطراف ليس لشوطه نهاية، ولا لحدوده غاية، ولا بـ ّ دُفيه للجواد من كَبوة، وللسيف من نبَوْ َة، وطالما كان اعتلاء المناصب، وارتقاء المراتب،داعية للرزايا والمصائب، ومجلبة للبلايا والنوائب.

ّ ُ والشر يجلبهالعَلاء وكم شَكا نيأ علِ ٌي ما شَ كاهُ َقنْبَر[78]

ولو سلمنا أن صاحب المنصب سلم من المعاطب ونجا من الخطوب، فهو لا يزالطول حياته في هم ونصب كلما ارتقى في المنصب درجة، وجد فوقها درجة أخربيحسد من يليها، ويحقد على من يعتليها، ولا يفتأ مستعظمًا لما فوقه طامعًا فيهمستصغرًا لما في يده راغباً عنه، فهو في ذهول دائم عن التمتع بلذة الحياة التي يجريوراءها غير راض عن نفسه، ولا الناسُ عنه راضون، وهذا هو منتهى الشقاء والبلاءوملتقَى الكمد والكدر.

---

[78] قنبر: هو مولى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ذلك الخائبُ الشقِيُّ وإن كا ن يُرَى أنه من السعَ دَاءِيحسبُ
الحظ كلَّه في يديه وهو منه على مَدَى الجوزاءِ

وأخلِقْ بمن كان همه أبدًا التطلع إلى غير ما في يده أن يكون أنحس البريةحالاً وأمضهم عيشًا، ولذلك زهد الراسخون في العلم من الفلاسفة والحكماء في اعتلاءالمناصب، ورغبوا عن اغتراب غاربها، وحذَّ روا العقلاء من السعي وراءها وشغل النفسبها، هذا كله إذا كان المنصب عظيم الجاه نافذ الأمر، وكان الوصول إليه من طريقالفضيلة والشرف، والحصول عليه من باب الجدارة والاستحقاق، فأما والطريق إلىالمناصب كما نراه اليوم قاصرٌ على التوسل والتوسط وإهراق ماء الحياء، والمنصبعلى ما تعلم لا أمر فيه ولا نهي، ولا حل ولا عقد، فالفرار منه أجدر بطالب الجاهوأحرى، والتباعد عنه أشرف بذي الفضل وأسنى، والنزول عنه نعم المنصب العالي،لطلاب المعالي.

والقسم الثالث: الرغبة في المنصب لشغل النفس دون سواه دفعًا للسأم والملل وتضييعًالأوقات الحياة وساعات العمر في الاشتغال بحاجات الناس، والتلهي بها عن تهذيبالنفس، ولا يدخل في هذا القسم إلا من كان فارغ الفؤاد خاوي الصدر خالياً من كلأدب وفضل مشغول الضمير بالوساوس والهواجس، فأكره شيءٍ لديه نفسه وأثقلحمل عليه حياته، ولا بد له من مشاغل متجددة ومسائل متعددة تشغله عن الخلوةبنفسه التي صارت عنده إذا هو خلا بها لحظةً كأنها خليَّ ة من خلايا الزنابير أو وكرٌمن وكور الأفاعي، وهيهات أن يبلغ المسكين غرضه يومًا؛ لأن من ضاقت عليه نفسهُكان العالم عليه أضيق، ومن ثقلت عليه أخلاقه فالخليقة عليه أثقل.

والقسم الرابع: الرغبة في خدمة الحكومة لخدمة الوطن ونفع الأمة، وهذا مطلب عقيمالنتيجة أيضًا؛ لأنه لا يتفق لنا الجمع بين المحافظة على البقاء في المنصب، وبينالاستقلال في الرأي الذي تقتضيه مصلحة الوطن، ومن أراد أن يخدم وطنه فليتخلصمن قيود الحكومة ويخدمه، وهو مطلق اليدين واسع التصرف.

ولا تنس فوق هذا كله ما يعقب حلاوة الولاية من مرارة العزل، خصوصًا في بلدينسبون فيه إلى صاحب المنصب كل فضيلة وينزعونها عنه إذا سقط منه، فالرجالعندنا بالمناصب لا المناصب بالرجال على عكس ما قد قيل:

ّ َ إن الأم ي ر ه و ال ذي يُضحي أميرا يوم عزلهإن زال
س ل ط ان ال ولا ية لم يزُل سلطان فضله

فمن ذا الذي يقبل الدخول في خدمة الحكومة، وهو يجد عنها محيصً ًا إلا منأضله الله على علم، ولذلك فإني عاهدت نفسي أن أتخير لأولادي في تعلمهم صناعةيتعيشون بها أحرارًا، وتكون معهم أينما حلوا وساروا لا يسلبها منهم تقلب السياسةوتغير الحوادث، ولا يؤثر فيهم غضب زيدٍ أو رضى عمرو.

سابعهم: لله أنت ما أحلى بيانك، وأجلى برهانك! وأنا معك في هذا الحكم، وعلى هذاالعزم.

الثاني: اتركوا هذه الخطب المكدّرة والأفكار المحزنة، وخذوا بنا في حديث غير هذايفرّج عنا ويروّح، ولا تجمعوا علينا بين ذل النهار وهمّ الليل، وهل لك يا فلان أن تقوممعي للمسابقة والرياضة بالبسكليت؟

الأول: الأحسن من هذا أن تأتونا بالفونوغراف نستمع إليه.

ثامنهم: أو قوموا بنا إلى عرس فلان فقد بلغني أن فيه »بوفيه« لم يسُمع بمثلهحسناً ووضعًا.

الأول: أنا معك.

الثامن: لكن على شرط أن تقيم معي هناك نستمع الغناء.

الأول: لست معك في هذا، بل نخرج من البوفية إلى الأزبكية لسماع الموسيقاالإنجليزية أو الأوبرا التليانية.

الرابع: أنا لا أتوجه معكما؛ لأنني ذاهب إلى

»الكلوب.«السابع: انتظروا قليلًا حتى نقرأ جرائد المساء.

الخامس: عليَّ بالجرائد الفرنسية منها فهي أصح من العربية أخبارًا وأغزر مادة.

الثالث: اقرءوا الجرائد العربية أولاً واحدة بعد أخرى أو بعضها مع بعض.

الثاني (قارئاً): »آسيا في أوروبا وأمريكا في أفريقيا.«

الرابع: ماذا جرى لصوابك يا عزيزي؟ اقلب الصحيفة الأولى فما لنا ولهذه المقالاتالافتتاحية، وما لنا ولهذه الأفكار الصبيانية؟

الثاني (قارئاً في الصحيفة الثانية): »الإسكندرية لمكاتبنا«؛ »الأمة برجالها والمناصببأربابها والمعارف هي التي تخرج لنا رجال المستقبل، ومن أين لنا بالرجال إذا كانتتبخل بالمال، فالمستقبل حينئذ مظلم والوطن آسف ولا نهضة للأمة إن لم تنهضالعواطف لإنشاء مدرسة كلية أو معارف أهلية وبخلاف ذلك كان... «

الرابع: حسبك أيها القارئ حسبك، أما قلنا لك: لا تقرأ هذه المقالات المعلومة؟السابع: اترك »الإسكندرية« إلى غيرها.

القارئ (الزقازيق لمكاتبنا): يثني العموم بلسان واحد على حضرة مأمور البندرلاهتمامه بالكنس والرش ...

الثامن: أنعمْ به وأكرم وأكثر الله من أمثاله في خدمة الوطن عليك يا صاحبيبالحوادث الداخلية.

القارئ: »يسافر سعادة العضو الوطني في السكة الحديدية إلى الإسكندرية في هذاالمساء، ويحضر سعادة مدير البوستة إلى العاصمة على إكسبريس الصباح «...الثامن: اترك قراءَ ة هذا »المانيفستو« أيضًا.

القارئ: »سبقنا فذكرنا أن مجلس النظار بحث في الجبانات، والآن نذكر نصالقرار «...

الثامن: جعل الله الجنة قراره ومثواه، فدعه واقرأ لنا سواه.

القارئ: »وصل سعادة السردار إلى أم درمان، وقد بلغنا عن ثقة أن أهم ما يشتغلبه الآن هو السؤال عن أحوال السودان.«

الثامن: سبحان الله كنت أظن أنه سيشتغل هناك بالسؤال عن أخبار اليابانوحوادث اليونان.

القارئ: »يسم البوليس الكلاب الضارة
«...الثامن: نسأل الله السلامة والهداية للجميع.

القارئ: »كتب إلينا أحد أفاضل الأطباء بأنه اكتشف علاجًا يشفي من كل داءمزمن ومرض عضال، ويقول — حفظه الله — في آخر رسالته: إنه من غرامه بصدقلهجة جريدتنا صار لا يفارقها حتى ولا في منامه على فراشه «...الثامن: لا نزاع في هذه الكفاءة وسبحان الموفق.

القارئ: »رزء عظيم: قد فجع الإسلام وانهدم ركن الدين وأظلم الكون؛ إذ قصفتالمنون غصن نقيب الأشراف بالدير الطويل عن ست وتسعين سنة قضاها في عمل البروالإحسان؛ فكان لنبأ موته أسف وحزن في قلوب أهل بلده خصوصًا والقطر المصريعمومًا.«

الثامن: لا حول ولا قوة إلا بالله، لا بد أن تكون أسعار البورصة هبطت لهذا النبأهبوطًا فاحشًا في القطر المصري، خصوصًا وفي الولايات المتحدة عمومًا.

القارئ: »نفيد حضرات القراء أنه لا يزال التحقيق جارياً في قضية التزييف، ولميتم فيها شيء للآن، ومتى تم نبادر إلى نشره إفادةً لحضراتهم كما هي عادتنا في نشرالأخبار بأوقاتها«.

الثامن: أفادكم الله ونفعنا بهذه الأخبار.

القارئ: »فاتنا أن نذكر أن حضرة وكيل دائرة الهياتم كان في مقدمة المشيعينلجنازة المأسوف عليها، وردة جعلان في الأسبوع الماضي، وكذلك فاتنا أن نهنئ حضرةمكاتبنا الفاضل »بنزلة واكد«، حيث رزقه الله بولادة مولود جعله الله من أولاد السعادة«.

الثامن: جلّ من لا يغفل ولا ينسى، ولكن فاته أن يذكر أكان ذكرًا أم أنثى.

القارئ: »لدغت عقرب ابنة في قسم الوايلي«.

الثامن: نعوذ بالله هذا كله ناشئ من إهمال الحكومة في »الاحتياطات الصحية،«ومن غفلة البوليس عن ضبط الوقائع الجنائية.

القارئ (للثامن): يكفيك يا حضرة القاضي من السخرية والاستهزاء واسمع لهذاالنبأ العظيم.

الثامن: سمعًا وطاعة.

القارئ: »بلغنا اليوم أن الحكومة تبحث الآن في مشروع فتح شارع المرور، ونحنبلسان العموم وبالنيابة عن الأمة المصرية الأسيفة نحذرها من عواقب هذا المشروعالوخيمة، الذي يكون من ورائه رسوخ قدم الأجنبي في البلاد، وسنشرح لحضرات القراءمضار هذا المشروع في مقالة افتتاحية«.

الأول: إن هذا الخبر لا يعلم به أحد سواي، فكيف وصل إلى الجرائد؟

الثامن: إني لأخشى إن دام إفشاء الأسرار على هذه الحال أن يعمد أرباب الحلوالعقد إلى استخدام الخُرس في مجالس الحكومة رجوعًا إلى العادة القديمة في مجالسالوكلاء بالدولة العثمانية.

الرابع (للثاني): اقرأ بقية الأخبار المحلية.

الثاني: لم يبق في الجرائد الثلاث إلا التلغرافات والإعلانات.

الرابع: أراك لم تقرأ إلا جريدة واحدة فما قولك:»الجرائد الثلاث«؟الثاني: هي كما تعلم نسخة واحدة في الأخبار، وإن كانت مختلفة في الأسماء.

الرابع: اقرأ لنا التلغرافات.

الثاني (قارئاً): »ديروط الساعة ٨ والدقيقة ٣٧ كان الاحتفال بتوديع حضرةالنشيط معاون بوليس المركز هائلًا، وتليت الخطب وأنشدت القصائد والتفصيلبالبوستة«.

الرابع: ما هذه الصغائر؟

الثاني: هي التلغرافات الخصوصية.

الرابع: علينا بالعمومية.

قال عيسى بن هشام: وما قرأ القارئ التلغرافات السياسية حتى استدار أهل المجلسحلقةً يكثرون اللغط في شرحها، ويرجمون الظنون في تأويلها.

وما فيهم إلا من هو على خلاف لرأي صاحبه، وإذا هم قد عادوا إلى مثل ما كانوافيه وقت دخولنا عليهم، ولما وجدنا الجدال يحتدم بينهم اشتعالاً، خرجنا من بينهمانسلالاً، وتركناهم في سياستهم يتيهون، وفي ضلالهم يعمهون.

العرس

قال عيسى بن هشام: ولما فرغنا من زيارة تلك المحافل المشهودة، والمجالس المعدودة،قلت للباشا: قد آن أن نعود إلى ما كنا فيه من الانفراد والاعتزال، ونبتعد عن مثل هذاالاختلاط والابتذال، فأجابني وهو يظهر التوقف، ويبدي التأفف:»ما بالكُ تقطع عليَّ الطريق، في البحث والتحقيق؟ وما لَكَ تحرمني السعي والاجتماع، للاطلاع على العاداتوالطباع؟ ولِمَ تختار أن نقتصر على ما في الكتب والأوراق، لمعرفة الآداب والأخلاق؟ فنتركالنظر للخبر، واللمس للبس، والممارسة للمقايسة،ۥ وأي الطبيبين أدق صنعًا، وأكثر نفعًا:الطبيب الذي يقتصر على الكتب في درس الأعضاء والأحشاء، أم الطبيب الذي يدرسها فيتشريح الجثث وهي تسيل بالدماء؟ على أنه قد زال عني في هذه المدّة، ما كان يعترضنيمن الغضب والحدة، وانقلب العسر من أمري يسرًا، وغدا التقطيب بحمد الله بشرًا،وصرت لا أقابل عيوب الخلق، بغير الحلم والرفق، وتعلمت أن أتحلم، ولا أتألم وأتبصر،ولا أتحسر، وأتدبر، ولا أتضجر، فأنا اليوم أتفكه بمخالطتهم وأتروح بمباسطتهم، فلميبق لك من عذرٍ وجيه، ترتضيه بعد ذلك وترتجيه.«

وما زال الباشا يجري على هذا النمط في الشرح والبيان، ويأخذني بالبرهان في أثرالبرهان، حتى ملكني بسلطان حجته، وأنزلني على حكم رغبته، وكنت دعيت فيمن دُعيمن الناس إلى وليمة عُرس من أكبر الأعراس، فقلت له: عندي اليوم حدّ الكفاية، فيبلوغ الغاية،ۜ فهلم إلى المحفل الذي تحتشد فيه المحافل، والمنهل الذي تتفرع عن المناهل،وسرت به منذ أرخى الظلام من سجوفه وأستاره، وبدأ في الطور الأول من أطوارِه، فماقرُبنْاَ من قصدنا حتى وجدنا الليل هناك نهارًا يتألق،ۥ وفحمة الدۜجى جمرة تتحرق،فدخلنا ساحة كأنها مدينة، تبرجت في يوم الزينة، فوقفنا هنيهةً في وسط المزدَحم، لانجد موضعًا للقدم، حتى أخذ بيدنا أحد المستقبلين بالباب، من

ذوي العلامات في الثياب، فدسنا بين جماعة لم نعرف منهم أحدًا، ولم يحسنوا لتحيتنا ردا، فجزيناهم على ذلك
بغض الطرف، وأقمنا بينهم لا ننطق بحرف، ثم أخذنا نتلمّس بأعيننا صاحب الدار،فلا نهتدي له على قرار، كأنما صنعت الوليمة في غيبته، وأقيم الاحتفال انتظارًا لأوبته،أو أننا أخطأنا العرس إلى سواه، واشتبه علينا مقره ومثواه، فهممنا بالقيام والمسير،لولا أن أشار لنا بالسلام مشير، فتبيناه صديقًا لنا من الخُلصاء، في جمع من الفضلاءوالأدباء، فقصدناهم فأفسحوا لنا بينهم مكانا رحباً، وجلسنا معهم نجتني ثمر الحديثيانعًا ورطباً، وعلمنا منهم أن رب الدار في ذهول لا يدرك ما يذرُهُ وما يأتيه، وأن صاحبالبيت لا يدري الليلة بالذي فيه، وأن لا تثريب عليه ولا لوم، فهو مشغول بتحية كبارالقوم، ممن لم يخالطهم قبل اليوم.

الباشا: وهل يدعو الناس إلى أعراسهم من لم يعرفوه أو يخالطوه من قبل؟

أحد الأصدقاء: نعم يدعو الناس إلى أعراسهم كل من علا له صيتٌ، واشتهر لهاسم من الأمراء والكبراء والعلماء، فمنهم من يجيب الدعوة ومنهم من لا يجيبها لعدممعرفته لصاحب العرس، وبين الكبراء جماعة اشتهروا بأنهم لا يخيبون للداعي رجاءً،ولا يتخلفون مرة عن إجابة الدعوة حتى صاروا من عمد الزينة وأساطين الأعراس.

الباشا: وما الغرض لصاحب العرس من هذا كله؟

الصديق: الغرض منه أن يذاع بين الناس تشريف هؤلاء الكبراء والعلماء لبيته،وأكثر الذين نراهم يقيمون ولائم الأعراس ينفقون عليها جانباً عظيمًا من ثروتهم لاغرض لهم منها سوى ذلك وحده، وفيهم من وصل به حب الشهرة والفخفخة أن أنفقفي إقامة العرس جميع ماله، ثم بقي عليه من الدين ما أخل بنظام معاشه، وأعرفتاجرًا من التجار أنفق الجانب الأعظم من رأس ماله في إقامة عرس كبير، ثم قسم دفاترتجارته إلى شطرين: شطر يحتوي على بيان ما بقي لديه من أصناف التجارة وأجناسها،وشطر يتضمن أسماء من حضر العرس من الأمراء

والكبراء، وقل أن تشتري منه صنفًاإلا ويذكر لك منهم اسمًا يقسم بحياته ورأسه أن الصنف جيد والثمن في جنبه هين.

الباشا: ما كنت أعهد أن الأعراس تكون على هذه الحال من استخدامها للشهرةوالصيت، بل كنت أعهدها أنها تقام لائتناس صاحب العرس بأصحابه وأصدقائهومشاركتهم له في صفوه وهنائه، ولإطعام المساكين ومساعدة الفقراء.

الصديق: ليس للفقراء اليوم ولا للمساكين نصيب في طعام الأعراس، بل هو مننصيب مثل هذا الوفد الخارج أمامك وأضرابهم.

الباشا: إني أعرف من هؤلاء الخارجين ثلاثة أشخاص اجتمعت بهم في مجلسللعلماء.

الصديق: نعم هذا الوفد كله من كبار العلماء وحملة الشريعة وأئمة الدين.

الباشا: وما لي أراهم يسرعون ويهَرولون في خروجهم، وما الذي وقع لهم حتىيتركوا العرس منذ أول الليل، وليت شعري ما الذي أزعجهم وأخرجهم، أنزل بالدينمكروهٌ؟ أحل بالإسلام خطبٌ؟ أحدث بين الناس حادث بدعةٍ يستدعي قيامهم للأمربالمعروف والنهي عن المنكر؟

الصديق: لم يحدث من كل ذلك شيء ولم يعرض لهم عارض، وإنما هي عادةلهم ألفوها في الولائم والمآدب إذا انتهوا من غسل أيديهم بعد تناول الطعام بادروا إلىالخروج من العرس، فتراهم عند قول أحد الظرفاء »يدٌ في الكباب، ورجل في الركاب«.والذين يعتذرون لهم يقولون: إنهم علماء عاملون بقوله تعالى:﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾وإنهم يرون سماع الغناء مكروهًا في الدين فلا يجلسون في العرس بعد الطعام خشيةأن يبتدئ الغناء فيحل بهم المكروه.

الباشا: ومن هذا الشيخ المتخلف عنهم القادم علينا؟

الصديق: هذا الشيخ المتخلف عالم من أفاضل العلماء ونبهائهم، وهو قادم عليناللجلوس معنا، فإن فينا من يأتنس به ويصبو إلى مجالسته.

الباشا (للشيخ بعد جلوسه): أرجوك أن تسامحني في فضول القول، فلا صبر ليعن الاستعلام والاستفهام خصوصًا إن كان في الأمر ما يخص الدين، فقد قيل لي:

إنالسبب في مغادرة وفد العلماء للعرس في عقب الطعام هو كراهتهم لحضور مجلسالغناء، فهل لك أن ترشدني إلى القول الأصح في هذا الباب، وما الذي يجب أن يؤخذ به،وكيف انفردت أنت عنهم بالبقاء والجلوس ورضيت سماع الغناء إن كان مكروهًا.

الشيخ المتخلف: الكلام في هذا الباب طويل، وما أظن السبب الأعظم في المبادرة ّ َ بالخروج إلا طلب الجسم للراحة بعد الامتلاء.

الباشا: إني أريد أن أهتدي بهديك في باب سماع الغناء وتقرير كراهته أو إباحته،فلا تبخل علينا بفضلك وعلمك، والوقتُ وقت مسامرة، فإن أردت أن نقضي جانباً منهً فيما ينفع ويفيد فقد أديت واجباً عليك في الدين، وجعلتنا لك من الشاكرين.

الشيخ المتخلف: اعلم أن طرب الغناء أمر غريزيّ راسخ في طبيعة الحيوان، ومنالحيوانات العجم وضواري الوحوش ما تسمع الغناء فتحن إليه وتسكن به، فيضعفمن قسوتها ويكسر من حدتها، وربما ذلت به رقابها وأمكن قيادها، وهذه الفيلة وهيمن أكبر الحيوان أجسامًا وأشدها بطشًا إذا سمعت صوتاً مرنمًا أو كلامًا منغمًا لم يلبثهذا الجسم العظيم أن يتمايل ترنحًا ويهتز طرباً — ولو كان في مواقف النيران — اهتزاز الحمامة المطوقة على فنن من الأفنان، وهذه الإبل المعروفة بأنها أغلظ الحيواناكبادًا تراها إذا براها السرى وأضناها التعبُ وأهلكها الظمأ فتغنَّى لها الحادي ذهلتفي الحال عما أصابها، وتعللت بالغناء عن مناهل الماء، وهي على الخمس في ظمئها أوالعشر،[79] ونشطت به تستعيد القوى لاستئناف السرى، وطالما شاهد المشاهدون هوامالأرض ودوابها تخرج من كهوف الجبال وبطون الرمال، فتجتمع جيوشًا تتبع جيوشالحرب في مسيرها، وقد ظهر لأحد الباحثين من علماء الطبيعة عن علة ذلك الاتباعأن صوت الموسيقى أمام الجيوش هو الجاذب لها، والدافع بها للخروج من أوكارهاوأحجارها للمسير خلف الجيش، ومن الروايات

[79] الخمس والعشر: من أظماء الإبل.

العتيقة أن أحد الموسيقيين من الفلاسفةِّ كان عند شاطئ بحر يبغي الشاطئ الآخر ولا يجد ما يحمله إليه فجلس يلهي نفسهبالغناء وإذا بدلفينٍ[8180] قد شق أمواج البحر يتدنى من صاحب الصوت، فلم يزل في تدنيهوالفيلسوف في تغنيه حتى حاذى الشاطئ وسكن يستمع، فأيقن الفيلسوف أنه استهواه3بتأثير الغناء وذلله بقوة الطرب فامتطاه يسخره كيف شاء، فوق عباب الماء، كأنه مطيةوَجْناء، تسير في عرض البيداء على توقيع الحداء، وحكاية إبراهيم بن المهدي في اقتيادهالوحوش الضارية بسحر غنائه مشهورة مذكورة.

هذا بعض ما يقُال في تأثير الغناء في الحيوانات العجماء مع ضعف إدراكها وكثافةإحساسها ونقص خلقها، فما بالك بتأثيره في الإنسان وهو أسمَى الحيوان رتبة، وأكملهخلقةً، وأعظمه إدراكًا، وأصفاه جوهرًا، وألطفه روحًا؟

ٌّ والغناء في تعريف قوم من الفلاسفة فن يقصد به تحريك النفس بتنسيق الصوتوتأليفه على طريقةٍ ترتاح لها الأذن، فتهتز له نفوس أرباب المدارك العالية والأمزجةالصافية، وهو القوة المساعدة لقوة النطق في التأثير في السامع، وكان القدماء يعتبرونهلغة عامة لسائر الناس يفهمونها على اختلاف لغاتهم وألسنتهم، وكان لا بد لطالبالفلسفة عندهم من الإحاطة بفن الموسيقا مع الرياضيات، وقد عبر عنه الحكيمانالكبيران »فيثاغورس« و»هرمز« أنه علم التنسيق لكل شيء، ولذلك أطلقوا عليه لفظة»أرمُونيا« ومعناها النظم والتنسيق ومنه الترتيل، وكلهم مجمعون على أن لا شيء فيالعالم يعادل تأثير الغناء في تهيئة النفوس وتوطئة القلوب لقبول الفضائل والكمالات،وعندهم أن الذي لا يتأثر منه لا بدّ أن يكون به نقص في الخلقة، والغناءُ مغروس فيطينة الإنسان منذ نشأ في حجر الطبيعة، ومنذ استهل في المهد باكياً فلا يسكن إلا به،ولا يرُاح عنه إلا بتطريبه، وفضلُ تأثير الغناء

---

[80] الوجناء: الناقة الشديدة.

[81] الدلفين: دابة بحرية وهي المعروفة بالدرفيل.

في النفوس على تأثير الكلام كفضل الشعرالبليغ في لغته على ترجمته كلامًا غير موزون إلى لغة أخرى.

والوقائع كثيرة جمة في التاريخ تشهد بقوة تأثير الغناء، منها أن أهل مدينة إسبرطةكانوا في فتنة اشتدّ لهيبها وعظُم شرها، فعمد جماعة من الموسيقيين إلى مكان الزعماءالقائمين بأمرها، فما زالوا يغنُّ ّ ونهم حتى طربوا فصفت أرواحهم ورقت نفوسهم ولانتعريكتهم، فانتهوا من أنفسهم عن إشعال نار الثورة فخمدت، وقام صياح الطرب، مقامصياح الشغب، ومنها أن أهل سويسرا كانوا ينزلون عن رءوس الجبال للاحتشاد فيالجند، فإذا انعقد جمعُ ُ هم أغرى العدو بهم من يغني فيهم بلحنٍ لهم معروف يتغنى بهالرعاة في قلل الجبال فيشتغل في نفوسهم لهب الوجد، وتهيج فيهم ثائرة الحنين وينزعبهم الشوق إلى منازلهم فيلقي أسلحتهم عن أيديهم، ويذهب بهم على وجوههم، وقدتكرر وقوع ذلك فيهم حتى قرر رؤساؤهم الحكم بالإعدام على كل من تغنَّ ى بينهم بذلكالغناء، ومنها حكاية الحكيم أبي نصر الفارابي مع سيف الدولة بن حمدان؛ إذ أضحكأهل مجلسه وأبكاهم ثم أنامهم وتركهم، وقد كان خطباء الدولة الرومانية يتسابقونإلى تنسيق أصواتهم في الخطابة وتتبُّ ع النغم لتأثير القول في النفوس، وربما استصحببعضُهم مع أحد الموسيقيين بآلة من آلات الطرب، فيجعله بجانب المنبر حتى إذا وجدهً خرج عن النغم أو شد نبهه بصوت الآلة فيرجع إلى الأصل، ولسنا نجد بين الأمم أمة فيبداوتها وحضارتها وماضيها وحاضرها إلا وعندها الغناء في الجيش آلة من آلات الحربتعين على ممارسة الأهوال، وتثير إلى منازلة الحتوف، وكان القدماءُ ُ منذ عهد داود — عليهالسلام — يعتقدون أن الغناء يشفي من الأمراض والأسقام، وكان »إيسمين« في مدينة»تيب« يزعم أنه يشفي من عرق النَّ سَا بصوت الناي، وكان »هوميروس« و»جالينوس«و»بلوتارك« من بعدهما يؤكدون أن الغناء يشفي من الطاعون ومن داء المفاصل ومننهش الأفاعي، وقام اليوم جماعة من كبراء الأطباء في أوروبا يقررون بعد كثرة التجاربأن الغناء دواء نافع لكثير من الأمراض، وأطلقوا عليه لفظة »ملوُترابيا« يعني العلاجبالطرب، كما قرروا من قبل »الهيدرُوترابيَا« وهي المعالجة

بالماء »والاليكترُوترابيا« وهيالمعالجة بالكهرباء، وقد جرب أطباء فرنسا تأثير الغناء في وظائف الأعضاء بآلة حاسبة،فوجدوا أنه يزيد في دورة الدم وفي حركة التنفس سرعةً مقبولة، وذهب بعضهم أنللأخشاب التي تتخذ منها آلات الطرب تأثيراً آخر على المريض مثل اتخاذ الناي من خشبالكينا فإن سماعه يشفي من الحمى، وبلغت العناية بهذا الفن في ألمانيا أنهم جعلوهدرسًا من الدروس الأساسية يبتدئ به التلامذة ابتداءَهم بحروف الهجاء، وينتهون منهانتهاءهم من دروس الفلسفة.

وجماع القول في هذا الباب من جهة البحث والنظر أن الخالق جلت عظمته قد جعلمن فضله ونعمته على الإنسان لكل حاسة لذة؛ فلذَّ ةُ النظر في تناسق المرئيات وترتيبأجزائها وذلك هو الجمال، ولذة الذوق في ائتلاف الطعوم وذلك هو العذوبة، ولذة الشم فيلطف الرائحة وذلك هو الطيب، ولذة اللمس في تناسب أجزاء الملموس وذلك هو النعومة،ولذة السمع في اتساق الصوت وحركة توقيعه وذلك هو الغناء.

وأما القول فيه من جهة الدين فقل أن تجد دين اً من الأديان في أنحاء العالم إلاويستعان فيه على العبادات بالترتيل والترنيم والتنغيم، لما ينشأ عن ذلك من صفاءالنفوس وانتعاش الأرواح للتجرّ د والاتصال بالعالم الروحاني، وما كان الدين الإسلاميوهو دين الأذان لينكر سماع الغناء ويحكم بكراهته، وشأنه في فطرة الإنسان على مابيَّ نته لك، وناهيك بما ورد في الخبر الصحيح أن النبي ﷺ سمع نسوةً يتغنَّ ين في وليمةعرس، فلم ينكر ذلك عليهن، وقد استقبله — عليه السلام — نسوة من الأنصار عندَّ مقدمه من إحدى الغزوات بالدفوف والمزاهر وهن يتغنين على الإيقاع بقولهن:

طلع البدر علينا　　من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا　　م ا دع ا ل لِ ه داع

فلم ينكر ذلك عليهن أيضًا، وهذا عمر بن الخطاب، على المعروف من غلظته وشدتهفي الدين، قد سمع الغناء فلم ينكره ولم يكرهه بل استعاد ومزح،

رُوي عن أسلم مولاهقال: مر بي عمر — رضي الله عنه — وأنا وعاصم نغنٍّ ي فوقف وقال: أعيدا عليَّ . فأعدناعليه وقلنا: أينا أحسنُ صنعةً يا أمير المؤمنين؟ فقال: مثلكما كحمارَي العباديّ قيل له:

ّ ُ أي ٌ حماريك شر؟ قال: هذا ثم هذا، فقلت له: أنا الأول من الحمارين؟ قال: أنت الثانيمنهما، وكان عبد الله بن جعفر على قرابته من رسول الله وصحبته له كثير الجلوسلسماع الغناء عظيم الاحتفال به.

ورُوي أن معاوية قال لعمرو بن العاص: امضِ بنا إلى هذا الذي قد تشاغل باللهووسَعَى في هدم مُرُوءته حتى نعيب عليه فعله؛ يريد عبد الله بن جعفر بن أبي طالب،فدخلا إليه وعنده من المغنيّن »سائب خاثر« وهو يلُقي الغناء على جَوَارٍ لعبد الله، فأمرعبد الله بتحية الجواري لدخول معاوية،ّ وثبت سائب مكانه وتنحى عبد الله عن سريرهلمعاوية، فرفع معاوية عمرًا فأجلسه إلى جانبه، ثم قال لعبد الله: أعِ َدْ ما كنت فيه، فأمربالكراسي فألقيت، وأخرج الجواري فتغنَّ ى سائب بقول قيس بن الخطيم:

ديارُ التي كادت ونحن على مِنىً تحُ ل بنِا لولا نَجاءُ الركائبومثِلك قد
أصبيَ تُ ليست بِكنَّ ـِةٍ ولا ج ارة ولا ح ل ي ل ة ص اح ب

ّ َ وردده الجواري عليه فحرك معاوية يديه وتحرك في مجلسه، ثم مد رجليه فجعليضرب بهما وجه السرير، فقال له عمرو: اتَّ ئِدْ يا أمير المؤمنين فإن الذي جئت لتلحاهأحسن منك حالاً وأقل حركة، فقال معاوية: اسكت لا أباَ لَكَ فإن كل كريم طروب.

ودخل المغنون منزل سُكينة بنت الحسين سبط رسول الله، فأذنت للناس إذنٍاً عاما،فغصت الدار بهم وصعدوا فوق السطح، وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها، ثم إنهمسألوا »حُنيناً« أن يغنيهم صوته الذي أوله:

هلا بكيت على الشباب الذاهب

فقال لهم:»ابدؤوا أنتم، فقالوا: ما كنا لنتقدمك ولا نغني قبلك حتى نسمع هذاالصوت، فغناهم إياه، وكان من أحسن الناس صوتاً فازدحم الناس على السطح وكثرواليسمعوه، فسقط الرواق على مَن تحته فسلِموا جميعًا وأخُرجوا أصحاء، ومات حُنيئُتحت الهدم، فقالت سكينة عليها السلام:ً لقد كدر علينا حنين سرورنا«.

وذكُر الدلال المغني عند عبد الله بن أبي عتيق بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق — رضي الله عنهم — فقال: إنه كان يحسن:

ِل ِمنْ ربَ عٌ بذات ال ِجيش أمسى دارسًا خَلقَ َا

ثم استقبل ابنُ أبي عتيق القبلة يصلي،ّ َ فلما كبر ّ َ سلم، ثم التفت إلى أصحابه فقال:

اللهم إنه كان يحسن خفيفَه فأما ثقيلهُ فلا ... الله أكبر.

ولقيَ »ابن أبحر« عطاء بن أبي رباح وهو يطوف بالبيت الحرام، فقال: اسمعصوتاً للغريض، فقال له »عطاء«: يا خبيث أفي هذا الموضع؟ فقال ابن أبحر: ورب هذهالبنية لتسمعنَّ ه خفيةً أو لأشيدن به، فوقف له فتغنى:

عُ وج ي ع ل ي ن ا ربَّ ة إن ك إن لا ت ف ع ل ي ت ح
ال ه ودج رج ي
أن ي أَت ي ح ت ل ي ي م إحدى بني الحرث من مذحج
ان ي ة
ن ل ب ثُ ح ولاً ك ام لًا ك لا ن ل ت ق ي إلا ع ل ى م ن
ل ه ج
ّ َ في الحج إن حجت وأه ل ه إن ه ي ل م ت ح جُ
وماذا مِنىً ج؟

فقال له »عطاء«: الكثير الطيب يا خبيث.

ووليَ قضاء مكة الأقوصُ المخزومي فما رأى الناس مثله في عفافه ونبله، فإنه لنائمليلةً في جناح له؛ إذ مر به سكران يتغنى بصوت للغريض فأشرف عليه فقال: يا هذاشربت حرامًا، وأيقظت نيامًا، وغنَّ يت خطأ، خذه عني، فأصلحه له وانصرف.

وكان لأبي حنيفة — رحمه الله — جار بالكوفة يغني، فكان إذا انصرف وقد سكريغني في غرفته فيسمع أبو حنيفة غناءه فيعجبه، وكان كثيراً ما يغنِّ ي:

ّ َ أضاعوني وأي فتى أضاعُوا ليوم كريهةٍ وسداد ثغر

فلقيه العسس ليلةً فأخذوه وحبس، فَفَقَدَ أبو حنيفة صوته تلك الليلة فسأل عنهمن غد فأخبر، فدعا بسواده وطويلته فلبسهما وركب إلى عيسى بن موسى فقال له: إنلي جارًا أخذه عسسُك البارحة فحُبس وما علمت منه إلا خيراً، فقال عيسى: سلموا إلىأبي حنيفة كل من أخذه العسس البارحة: فأطلقوا جميعًا، فلما خرج الفتى دعا به أبوِّحنيفة وقال له سرا: ألست كنت تغني كل ليلة:

ّ َ أضاعوني وأي فتىً أضاعوا؟ فهل أضعناك؟ قال: لا والله ولكن أحسنت وتكرمتأحسن الله جزاءَ َك، قال: فعُد إلى ما كنت تغنيه فإني آنسُ به ولم أر به بأسًا، قال: أفعلإن شاء الله.

هذا جملة ما يذكر في طرب الغناء طولت فيه وأسهبت ليتبين لك منه القول الراجحوالوجه الصالح.

الباشا:

تعالى الله ما شاء وزاد اللهِ إيماني

ّ ِ ما هذا الذي أراه من بحر العلم المتدف ِّق والفكر المتعمق؟ وما هذا الإبداع والتفننفي أطراف المعقول والمنقول؟ وما هذا التضلع في علوم الأولين والآخرين؟ وما عهدت قبلاليوم في العلماء من اجتمع له مثل ما اجتمع للشيخ من دقة النظر وصحة القياس، وسعةالاطلاع في تواريخ الأمم على اختلاف ألسنتها

وأجناسها، يتنقل في تقرير البرهان وشواهدُّ البيان تنقل النحل على جنىَ الأزهار فيخرج بنا من التاريخ اليوناني إلى الروماني إلىالأوروبي إلى الإسلامي فعجباً له، أأعجمي وعربي؟ وشرقي وغربي؟ وكيف انفردت أيهاالشيخ عن بقية إخوانك المشايخ ولم تأخذ بنهجهم في طريقهم، فتقف عند حد العلومالشرعية والأقوال الفقهية، ثم خالفتهم إلى التوسع في العلوم الدنيوية والمباحث العقلية؟

الشيخ المتخلف: لم أخالفهم إلا لأن العلم حق شائع في بني الإنسان، ونورٌ ساطعيستضيء به جميع الأنام، فلا يختص به أهل إقليم دون إقليم، ولا أهل ملة دون ملة، ولايقف الإنسان منه عند حد، ومن طلب العلم وارتاحت له نفسه لم يمنعه تخالفُ اللغاتوتفرق الأجناس عن اجتناء ثمره من أي لسان كان وفي أية أمة كانت وفي أي عصر منالعصور، وما في الأديان دين يبعث أهله ويحض بنيه على طلب العلم والتقاط الحكمةبأي وجه من الوجوه مثل الدين الإسلامي، ولكن قد فشا في علمائه داء الكسل، فاقتصروافي طلبهم للعلم على نيل رتبة العلماء دون العلم في ذاته، واعتقدوا أنهم على الهدى ومنسواهم في ضلال.

الباشا: قل ما شئت في كسل علماء الدين الإسلامي وسواء تراخيهم واشتغالهمعن العلم لا بالعلم، ولقد بلوت مجلسًا من مجالسهم ضاق منه صدري، وعيل صبري،ولا أزال كلما تذكرتهُ جاش بي الهم والغم وتملكني الأسف والحزن، وأراك أيها الشيخالفاضل أحسنت كل الإحسان بتوسعك في الاطلاع وتبحرك في طلب العلم، ۛوتعلقك بأسبابالعلوم الأوروبية، ولكنني مع ذلك لا أتمنى لجميع علماء الدين مثل ما أنت فيه خشيةأن تلهيهم هذه العلوم عن علوم الشرع، وتستدرجهم إلى الخلط والخبط، وقل في الناسمن يحكم نفسه للتوسط في الأمور والاعتدال في المطالب، والوقوف عند الحد، ولستأدري إلى اليوم، يعلم الله، ۛأي العالمين أضل سبيلًا وأسوأ مصيرًا: العالم الذي يتخبط فيظلمات الخرافات، ويضرب في تيه الترهات ويغوص في لجج الأباطيل بلباس الدين، أمالعالم الذي يوُغل في علوم الأوروبيين، ۛويأتم بسنة المخالفين للدين ويغتر بتمويه المموهينفيضله الله على علم.

الصديق: ليس هذا وقت الجدال في تلك المباحث الدقيقة، والتفتوا بنا إلى سماعالغناء قليلًا فقد احتشد له المغنُّ ون.

الباشا (ملتفتاً): نعم أصبت، وهل لك أن توفق لي بين حالة المغنين التي أراهمعليها الآن في احتشادهم على منصة الغناء وبين ما سمعته آنفًا عن هذا الفن من الجلالوالكمال، فانظر إليهم تجد أحدهم يمزح ويقهقه،ً والآخر يتثاءب ويتمطى، وهذا يبصقيميناً ويمخط شمالاً، وذاك يصيح بأعلى صوته القهوة القهوة، وتأمل في هذا الواقفمنهم فوق المنصة على رجلٍ ٍواحدة وبيده الرجل الأخرى يخلع منها نعله في وجوهالحاضرين، وأين ما ينبغي أن يكون عليه المغنِّ ي من سكون النفس واجتماع الخاطر،وانشراح الصدر وصفاء الروح لحسن تأدية الغناء، واستهواء النفوس إليه؟

الصديق: لا تؤاخذهم بما هم فيه فإنهم نشأوا في أمة يرى السواد الأعظم فيها أنصناعة الغناء من سافل الصناعات، وأن في ممارستها حطة ونقصًا.

فصغُرت لذلك نفوس المغنين وهانت عليهم صناعتهم، ولم يروا فيها سوى أنهاأداة للكسب والارتزاق على مثال بقية الصناعات، فهم والحدّادون أو هم والبناؤون سواءبسواء، وذهلوا كل الذهول عن جمال الصنعة وجلالها، وغفلوا كل الغفلة عن لذة الفنوأدبه وصاروا يؤدونه كما يتفق لا كما ينبغي، وكما يجيء لا كما يرُضي، ولا يغيب عنَّ فطنتك أنه لا بد للمغني من أن يثق في نفسه بتأثير غنائه في نفوس السامعين حتىتثور فيه نشوة الطرب، ويتبادل معهم لطف الانفعال، فتتصل القلوب وتتجاذب الأرواحوتصعد به نفسه في مراقي الفن وتسمو به في صناعته إلى مدارج الكمال، وإلا كان المغنيإذا غنى في غفلة السامع واشتغاله عنه كمن يقرأ للنائم كتاباً، أو يسرج للأعمى سراجًاۗ فيحل به من التواني والفتور ويعتريه من الانقباض والضيق ما يذهب برونق الصنعةويمحو بهجة الفن، وإنك لتحقق صدق ما أقول إذا نظرت معي نظرة إلى هيئة السامعينفي هذا المكان، فعن يمينك جماعة من الأعيان والتجار تراهم مشتغلين بمراقبة كل داخلوخارج عساهم يحظون بإشارة تحية أو إيماءة تعطف، فهم لا ينفكون طول ليلهمفي قيام وسلام للتزلف إلى الكبراء

والحكام، وحديثهم لا ينقطع عن التفاخر بمعرفتهموالتباهي بأقدارهم، وعن شمالك خليط من القضاة والمحامين لا ينتهون أبدًا من المناقشةفي صنوف الدعاوى والقضايا، ولا يستريحون لحظة من تفسير المواد وشرح البنودواستنتاج الأحكام، ولا يترك المحامون القضاة إلا بعد أن يحتالوا على استنفاد ما عندهممن الأفكار والآراء في الوقائع المختلفة والمسائل المشتبهة؛ لينتفعوا بها ويستندوا عليهافي مرافعتهم أمامهم ويتأكدوا بها ربح ما لديهم من المشاكل والدعاوى، ومن قدامكطائفةٌ من الأمراء والحكام لا هم لهم إلا أن يجتلبوا توقير الحاضرين واحترامَهم بالتأنقفي الجلوس، والتكلف في الشمائل والانتفاخ في الثياب والفتل في الشوارب، أجسامُهمحاضرة وقلوبهم غائبة، وأبصارهم شاخصة وألبابهُم ذاهلة على هيئة التماثيل والأصنام؛فاسألوهم إن كانوا ينطقون، ولئن نطقوا بكلام فإنما يدور على أن اليوم كان شديد الحر، وأن أوان الرحيل عن مصر قد حل، ومن خلفك ثلة من الأحداث، لم تهذبهم الأحداث،وشبان لم يرَبُّ هِمُ الزمان، مرمَى الغاية عندهم أن تكون ملابسهم على الزي الجديد، وأنتفرغ أجسادهم منها في قالَب من حديد، فهم لا يتحركون حركة إلا بألف حساب، خشيةأن ينفرط نظام الثياب، فإن قعدوا فكالقاعدين للمصور في حفظ الأشكال والأوضاع،وإن هم وقفوا فكالمصلوبين على الأجذاع، ولئن تجاوز حديثهم حديث الملابس والأزياء،اشتغلت ألسنتهم بذكر النساء، وروَوْا عن زوج فلانٍ أو بنت فلان، ما تنقبض منهالنفوس وتقشعر الأبدان، ولم يبقَ غير هؤلاء من طبقات الحاضرين من يلتفت إلى سماعالغناء ويتفرغ له إلا طبقة الغوغاء من الخدم وغيرهم، فكيف يتيسر للمغنِّين في هذاالمقام أن يتقنوا في عملهم، أو يتفننوا في صناعتهم أو يحافظوا على أدب المجلس ويراعواحرمة الفن؟

قال عيسى بن هشام: وانقطع الحديث بمرور صاحب العرس أمامنا مر السحاب، فانقض على الواقفين عند الباب، كأنه بارقة شهاب، أو نازلة عذاب، يدفع بيديه عنالشمال وعن اليمين، في صدور القاعدين والقائمين، لا يشك

من رآه أنه أسيرٌ حُـَّل عنهالوثاق، أو عبد من العبيد يطلب الإباق، فالتفَت الباشا يسأل الصديق: أجدار هَوَى فيالبيت أم حريق؟

الصديق: لا هذا ولا ذاك وإنما جاء الخبر لصاحب البيت بقدوم جماعة من رجالالإفرنج ونسائهم.

الباشا: أتراهم يريدون إقامة ألعاب إفرنجية مع الأغاني العربية؟

الصديق: ولا هذا أيضًا بل هم قوم من السائحين الأوروبيين في البلاد الشرقيةيتشوقون في مطالعتهم الآثار المصرية إلى رؤية المحافل والأسواق، فإذا سمعوا بحفلةعرس هرعوا إليها بنسائهم وأولادهم لتسلية الخاطر بدرس العادات والأخلاق.

الباشا: قد تبين لي آنفًا أن صاحب العرس من أهل الصعيد، فأية صلة بينه وبينسياح الإفرنج تدعوه إلى دعوتهم في عرسه؟ أم من عاداتهم أن يهجموا على بيوت الناسبغير دعوة ولا استئذان كالطفيليين.

الصديق: هم من المدعوين لا من المتطفلين، ولا يلزم لدعوتهم أن يكون لصاحبالعرس أدنى صلة بهم أو أن يعرف أشخاصهم ويفقه لسانهم، ولكن حضورهم فيحفلة العرس أمر مرغوب فيه عند صاحبه ينشرح به صدره، ويزهو به عنده قدره،ويراه فخرًا له يعلو به ذكره، ومجدًا للبيت يرتفع به عماده وهو في دعوتهم بالخيارإما أن يرسل إلى بعض تراجمة الفنادق فيعطيهم عددًا من تذاكر الدعوة بغير أسماءمعينة ليوزعها على من يكونون في خدمتهم من السياح، فيبيعها التراجمة إليهم بقيمةمعلومة من الدراهم كأنها تذكار الملاهي العامة، ويعتقد الأجانب أن تلك عادة من عاداتالشرقيين أن يدخل الناس إلى أعراسهم بأثمان معينة، وإما أن يترقى صاحب العرس،فيخاطب أصحاب الفنادق الكبيرة بأن لديه حفلة عرس في الليلة الفلانية، ويرغب أنيحضرها كذا عددًا من السياح، فيتحف صاحب الفندق نزلاءه فيما يتحفهم به بالدعوةإلى العرس، فإذا شرفوا صاحب العرس بحضورهم هرع إلى حسن استقبالهم، وبالغ فيالتلطف والترحيب بهم، وأنزلهم فوق منازل الأمراء والكبراء ونسي كل من في العرسسواهم، وتفرغ طول ليلته لخدمتهم كما تراه من صاحب هذا

العرس، وانظر إليه كيفيتيه عجباً ويشمخ كبراً وهو يتقدم نساءهم ليدخل بهن إلى بيت الحرم لمشاهدة زفافالعروسين بعد أن أجلس رجالهن على رءوس العظماء والأمراء في صدر المكان.

الباشا: وما هذا الذي أراه في أيدي النساء يحملنه معهن، كأنه الأسفاط فيهاالحلي لهدية العروس،[82] فهل بلغ بهن الكرم إلى تكليف أنفسهم تقديم الهدايا لعروس لايعرفنها ولا يعرفن أهلها من قبل؟

الصديق: هذه آلات الرسم والتصوير يحملنها ليأخذن بها مناظر الحرم وصورَّ النساء في زينتهن وتبرجهن، وما تكون عليه هيئة الزفاف ليتهادَين بها إذا رجعنإلى ديارهن، وربما نسُخت منها ألوف النسخ لتباع في الأسواق الأوروبية وتنشر هناكللاستهزاء والسخرية.

قال عيسى بن هشام: ومنذ عاد صاحب العرس من تشييع السائحات إلى الحرم،كالصاعدات إلى الهرم، تقدم إلى صدر المكان، ونظر في الوجوه بإمعان، ثم دنا من طائفةالكبراء والأمراء، وقصد الأمير المقدّم فيهم بلا مراء، فوقف أمامه وقفة الإجلال والإعظام،ودعاه لافتتاح قاعة الشراب والطعام، فقام الأمير يمشي أمام الصفوف في خُيلَائه،مشية القائد يوم بلائه، وفتح له الباب ففتح المائدة، ولا فتح سعد للقادسية، والمعتصملعمورية، ومحمد للقسطنطينية،ٍ نعم ولا فتح جده الأعلى للأقطار الحجازية، ودخلت فيأثره صفوف الجموع، وهم في سكون وخشوع، دخول التُّ قاة، للصلاة، والعفاة للصلات،ثم ما لبثوا أن هجموا على المائدة هجوم الفوارس البواسل، على الحصون والمعاقل، لابل هجوم الأسود الضارية، على الأشلاء الدامية، والذئاب الخاوية، على الشياه الراعية،والنسور على القبور، والذباب على الشراب، واشتد الزحام وزلت الأقدام، وضلت المذاهب،واصطكت المناكب، وشخصت الأحداق وامتدت الأعناق،ً وتهدلت الشفاه، وتحلبت الأفواه،وتحركت الأشداق، وتقارعت الأطباق، وتصاولت الأيدي بالمُدى،ٌ كالظبى في الوغى،

---

[82] جمع سفط: وهو الوعاء.

والتفتالساق بالساق، واشتد الهول وضاق الخناق، ثم انجلت المعمعة عن شهداء التخم، وأسراءالبشم، وقتلى الطعام وصرعى المدام:

بأجسامٍّ ُ يحرالقتل فيها[83]وما أقرانُهاّ َ إلا الطعامُ

ولعبت الكئوس بالرءوس، والشمول بالعقول،[84] والراح بالأرواح، وذهبت العقاربالوقار،[85] والبطنة بالفطنة، فاختلط الحابل بالنابل، والعالي بالسافل، والرفيع بالوضيع،والأمير بالحقير، هذا يمزح، ويقهقه، وذاك يتمتم ويتهته، والآخر يقيء طعامًا، وسواهيقيء كلامًا، ولم نسمع بينهم من قولٍ يفهم ويعقل، أو حديث يؤثر وينُقل، إلا ماسمعناه يدور بين شاب متكلف متصنع، وكهل مجرب متضلع.

الكهل: أليس من أسوأ الأسواء وشر البلاء ما نراه من حال هذا الصعيدي صاحبالعرس كيف اعتزل سنة آبائه وأجداده، وانسلخ عن مألوف العادة في قومه وديارهوطفر طفرة واحدة إلى العمل بعادات الغربيين والتقليد لبدع الإفرنج، فجرى في الاحتفالبالعرس على نمطهم وأسلوبهم مع جهله بها، وعدم ملاءمتها لطبعه، وكيف لا يرُثىلحال هذا المسكين وقد أنفق جانباً عظيمًا من أمواله لإقامة المهرجان على هذا الطرازالغريب عن ذوقه، فهو في حيرة وذهول لا يدري ما صنع، ولا يعلم ما يفعل في وسطهذه السوق القائمة والزحام الهائل، وانظر إلى مقدار السخط النازل فوقه والاعتراضالمصبوب عليه من أكثر الذين دعاهم ليرضيهم بعمله، ويكرمهم بحسن صنعه بعد أنتكلف لهم ما يفوق الطاقة، وارتكب ما يخالف العادة، ثم اشهد معي بأنه أساء إلىنفسه وجنى على أهله.

الشاب: ما أراه إلا أنه أحسن صنعًا وأجاد عملًا، وأخذ بالسنن الأرشد في التحليبشعار المدنية والتعلق بأسباب الترقي في الحضارة، وقد آن أن يستوي أهل

---

[83] يحر: يشتد.

[84] الشمول: الخمر.

[85] العقار: الخمر أيضًا.

الأرياف بأهلالمدن في السير على النهج الغربي لهوًى كان ذلك أو جدا، وأن يخلعوا عن رقابهم أغلالالعادات العتيقة وربقة الأفكار القديمة، فترتفع الأمة وتنتفع البلاد.

الكهل: أي نفع يرتجَى لأهل البلاد بخراب البيوت ودمار الدور، ولئن امتد الزمنقليلًا على عمد الأرياف وأعيانها وهم يرسلون بأبنائهم إلى البلاد الأوروبية، ثم يهجرونمساكنهم ومساكن آبائهم، ويتركون مزارعهم ومرافقهم ليسكنوا معهم عاصمة البلادبعد عودتهم ويتخلقوا بأخلاق الغربيين ويتبرأوا من كل ما كانوا فيه من قديم وعتيق؛لم تلبث الأموال أن تذهب ضياعًا، والدور أن تمسي خراباً، وأن تصبح المزارع بأيديالأجانب الذين يقلدونهم في امتلاك الأطيان وزراعة الأراضي، كما يقلدونهم هم في باطلالمدنية وزخرف معيشتها.

الشاب: أظنك كنت تريد أن يقام الاحتفال بزواج هذا الشاب المتمدين بين الأحواضوالمستنقعات في قرية أبيه، وبين الأوباش والهمج من فلاحيه ومزارعيه، فيبدل المقاصيربالخيام، والكهرباء بالمشاعل، و»البوفيه« بالسماط، والصحاف بالقصاع، والأباريقبالجرار، و»الديند« بالدفين، و»المايُّ ونيز« بالعصيد والهليون بالفول، وعش الغرابالحلبة، و»الموستارْدَا« بالمش، و»المربَّى« بالرطب، و»المانجو« بالدوم، و»التكريز«بالجميز، و»الشمبانيا« بالمزهر، و»الكاب« بالحليب، و»الكنياك« بعرق البلح، والموسيقبالمزمار، والأوتار بالأذكار، و»البيانو« بالأرغول، و»الأوركِسْتِر« بالرباب، و»الباللو«بالسحجة، و»مس أوُستن« ببنت أم شنب، وموكب الزفاف بلعب الهوارة، ثم يدعومشايخ العربان بدل القناصل العظام، ونظار الزراعة بدل نظار الحكومة، وكتبةالمراكز والصيارف، بدل أمراء البورصة والمصارف، ويضع على رءوسهم سعف النخيلوالعراجين، بدل أكاليل الأزهار والرياحين.

الكهل: يكفيك فقد أسهبت في الشرح والوصف، وأنا أقول لك: نعم يعجبني أنيكون الأمر على مثل ما تسخر منه ما دام من عاقبته عمران البيوت وحفظ الأموال، وبقاءالأحساب وإطعام المساكين، وبر الأقارب وإسداء الخير للأصحاب والجيران، وإدخالُالسرور على النفوس بما يرضيها ويلائم أذواقها، بهذا ينتفع أهل

البلاد ويرضَى الناسبعضهم عن بعض، ولا أرضى أبدًا أن ينقلب الحال كما أراه ما دام من ورائه عواقبالخراب وسخط الناس، وعقوق الأهل ولصوق العار، ووقوع الفضيحة وسوءُ المصير،ومن الذي يعارض فيما أقول من أهل العقول الصائبة، وهو يرى هذا الرجل العريقالنسب في أهل الصعيد أهل الشهامة والحمية، وذوي الغيرة والأنفة، ومن حوله الخصيانعلى ما نشاهده الآن يطالبون أن يأمر الخدم بحمل صناديق الخمر لشرب النساء فيالحرم، وهو يعرف حكاية الأعرابي الذي سقوه الخمر في أحد الأعراس، ولم يكن ذاقهامن قبل، فلما ثارت سَوْرتها قال لمن حوله من أهل البيت:»إن كان نساؤكم يشربنهافقد زنين ورب الكعبة.« ولست أدري على كل حال ما الغرض الدافع لصاحب هذاالعرس إلى احتمال كل هذه الفضائح والمعايب، فإن كان غرضه إرضاء أهل العاصمةبإنفاق تلك الأموال الطائلة في إقامة الاحتفال، فقد أغضبهم وأسخطهم جميعًا على مانسمعه ونراه، وليس فيهم إلا كل منتقد لعمله معترضٍ على فعله يرميه بعضهم بالتبذيرويرميه بعضهم بالتقصير، وإن كان الغرض من هذا التوسع في الإنفاق إذاعة الشهرةبعظم الثروة والغنى بين الناس، وانتشار ذكره بالكرم والجود، فلهذه الشهرة وجوهٌأخرى تفيده وتفيد الناس، ولابتناء المحامد سبلٌ شتى ترُضِي النفوس وتسر القلوب، ولوكان اقتصر في إقامة الوليمة على نصف ما أنفقه فيها، وبذل النصف الآخر في باب منأبواب البر والإحسان مثل مساعدة الفقراء وإنشاء الملاجئ، وإقامة المستشفيات وإعانةذوي الصناعات لخلد ذكره بين قومه بالعمل الصالح، ولأقاموا لمجده صروحًا من طيبالأحدوثة وجميل الثناء.

قال عيسى بن هشام: وما نشعر إلا وقد انقطع علينا سماع بقية الحديث بصياحجماعة من خدم المائدة يدعون المدعوين للخروج من القاعة، حيث لم يبق على المائدة منطعام ولا شراب، ويعدُونهم بالعودة إليها بعد غسل الآنية وتجديد الألوان، فلم يسمعلهم أحد ولم يلُتفت إلى صياحهم، فأخذوا في التصفيق بالأكف تنفيراً لهم كتنفير الدجاج،فلم ينتقلوا ولم يتحركوا، فعمد الخدم إلى آخر حيلة يضطرونهم بها للخروج، فأطفأواالأضواء، وتركوهم يتخبطون في الظلمات

ويتساندون على الجدران يطلبون الأبواب،فسبقناهم إلى الخروج، والتقينا في خروجنا عند الباب بصاحبين يتنازعان في هذه الحال،ويتخاصمان في شدة السكر، فلطم أحدهما صاحبه فسقط على الأرض يتخبط في قَيئِه،وينشد هذه الأبيات في هذره وهَزئه:

شربتُ الخمر حتى قال صحبي: ألست عن الـِسفاهِ بـِمستفيق؟
وحـتـى م ا أوس د ف ي م أنام به سوى التـُّرب الـَسحيق ب ي تٍ
وحتى أُغلِق »البُوفيه« دوني وآنست الهوان من الصديق

وسمعنا الآخر ينشد وهو ينتفخ تيهًا وعجباً، ويصعر خده صلفًا وكبراً:

شربت الخمر حتى خلتُ أني أبو قابوسَ أو عبد الـمِدَان

وسمعنا في الخارج عزف الموسيقى تتقدم العروس لزفافه عند دخوله الحرم،فسكت المغنون وضج المكان واضطرب الحاضرون، ووقف الجالسون، وصعد بعضهمفوق الكراسي يتطاولون لمشاهدة العروس وهو في زمرة من إخوانه وأترابه يخطر بينهم،ويرفل حتى إذا توسطوا ساحة الدار وقفوا به وقفةً، فقام أحد الحاضرين فصعد علىمنصة المغنين صعود الخطيب على المنبر، فشخصت نحوه الأبصار ومالت إليه الأسماع،وإذا هو يخطب بخطبة هذه نسختها:

أيها الحاضرون والغائبون، هذه ليلة قامت فيها أعواد السرور، على منابرالحبور، وأشرقت فيها أهلة المسرة والبدور من سماء القلوب وأرض الصدور،وطلعت فيها كواكب السعود من أفق العيون، فانجلت عن بصائرنا غمائمالأحزان ووبل الشجون، ولو أني لست من فرسان هذا الميدان، الراكبين لحيازةقصب الرهان،ٍ ولا من المجردين لسيوف الخُطب وخُطَب السيوف، بحروفالرماح، ورماح الحروف، ولا من الممتطين في شروح البلاغة متون الضوامر،ولا من السابحين في بحور

النظم والنثر على كل كامل ووافر، ولا من الساحبينفي حلة سحبان، ولا من المتدرعين في حصون المعاني والبيان، وقد حيل بينالعَير والنَّ زوان، إلا أن ما أعرفه في هذا العروس من العلم والإقدام، وما له فيمستعمرات التربية من وطأة الاحتلال ورسوخ الأقدام، وما أعتقده فيه منمحبة الأوطان ومصادقة الإخوان، كما أن ما أعلمه وأتحققه في العروس التيتزف إليه هذه الليلة، من علمها بتدبير المنزل وفروض العَيلْة، وما هو مشهورعنها لدى كل قاص ودان، مما يوجب حسن القبول والامتنان، وما شهدلها به معلمو المكاتب ومدرسو المدارس، بأنها أنس المحافل وبهجة المجالس،وما أراه على وجوه الحاضرين من الكرم والسماح، وأتوسمه في جباههم منالفرح والانشراح، كل ذلك هو الذي جرأني على الوقوف في هذا الموقف الحرج،وسط بحر هذا العرس المتموج، وإني أتوجه إليكم بوجهي لتضربوا عنتقصيري صفحًا، وأتقدم لكم بنفسي لتطووا عن هفواتها كشحًا، وأطلب منكمأن تشربوا معي نخُ َب الكئوس، في نخَب العروس، وتقولوا معي: فليحيَ هذاالشاب في هناء وسرور، ورخاءٍ وحبور، ممتعًا بنشأة الرفاء والبنين، وناشئةالأولاد الناجحين، ما ناح القمري في رياض البساتين، وصاح الأخدري[86] بينالأعشاب، آمين آمين.

ثم نزل الخطيب فقابلته الأكف بالتصفيق والأفواه بالتهليل، والصدور بالتبجيلوصدحت له الموسيقى ثلاثاً بالسلام، ثم أعقبه على المنبر شاعر من المشهورين بينالخاص والعام، فأنشد هذه القصيدة النادرة والمدحة الباهرة:

ب أوق ات ال ه ن اء ال ص اف ي ات   تجَ لى الأنس من كل الجهات

لقد قام البشير بها ينادي   على أهل العروسين الهداة

في تلك الصدور الفرح يجري   كما تجري خيول الصافنات

---

[86] الأخدري: حمار الوحش.

فبشرى أيها الشهم المفدى   ب خ ي ر ال غ ان ي ات الآن
س ات
ظفرت بدرة في عقل ماس   م ن ال م ت أدب ات ال راق ي
ات
وق د زف وا ب ه ذا الأف   إلى شمس الهدى والمكرمات
ق ب درًا
تغذت بالمعارف والمعالي   ف ح ازت زي ن ة ال م ت ع
ل م ات
يرجى أن يكون كذا بنوها   ل دى أي ام ن ا ال م س ت ق
ب لات
بهم تزهو الشبيبة في المرامي   وتغدو للحمى أقوى الحماة
ب هم ترقى ال مواطن مرت.   وت ص ب ح ق دوة ال م ت
قاها   رب ي ات
كجيش في البلاد عَ رَمرميّ   وجند في الحروب مبرزات
وتمشي التيه في أوج المراقي   وترفل منه في حلل الثبات
فتصبح أنت خير أبٍ كريم   وتصبح تلك خير الأمهات
ودمتم بعد ذاك بألف خير   ونعمى بالبنين وبالبنات
ولولا الاختصار وضيق وقت   لجئت بألف بيت شاهقات

ثم انتهينا بحمد الله من الشاعر بعد الخطيب، وعاد المغنون إلى اللحن والتطريب،فأخذت أجيل النظر وأقلب الطرف، من ركن إلى ركن ومن صف إلى صف، فلم أجدفي الحاضرين بلا استثناء من هو ملتفت إلى سماع الغناء، بل رأيتهم يوجهون النظرإلى السماء، ويكثرون من الإشارة والإيماء، كمن يتضرع بالدعاء، لكشف المحنة والبلاء،فرفعتُ مثلهم نحو السماء بصري، فدهيت من حيث أدري ولا أدري؛ إذ رأيت نوافذالدار، مهتوكة الأستار، وفي كل نافذة هيفاء مسفرة النقاب،ٌ كالدمية في المحراب، أوكالصورة تتألق في إطارها كالشهاب، أو كالبدر بدا مسفرًا من

خلل السحاب، تنُفذ منهامثل خيوط الغزالة[87] للمغازلة، وتجُرد من اللحظات مثل سيوف الكماة للمنازلة، فتصيدطيور القلوب الحوائم، وتفتك بمهج النفوس الروائم، ثم تراها تومئ بكأس الصهباء، إلشفتها الحمراء، وتلمس واسطة العقد، بزهرة من الورد، فيشتبه على الرائي وجه الأمر،باختلاف اليواقيت كالجمر، ياقوتة الخمر، بياقوتة الثغر، وياقوتة الزهر، بياقوتة النحر،ثم لا تفتأ ترسل الإشارة تلو الإشارة، تارة بالمروحة وأخرى »بالسجارة«، مع ابتساماتتوضح عن مكنون الصدور، وتفصح إفصاح المعاني في السطور، والرجال من تحتهنيجاوبونهن على أعين النظار، طورًا بإشارات الأيدي وطورًا بلغة الأزهار، وكل مغازلفيهم يعتقد أنه امتاز على سواه،ً وتغلب على أهل النوافذ بهواه، وأضرم فيهن نار العشقوجواه، وخلع قلوبهن بدعواه، وما بالنوافذ سوى أزواجهم وبناتهم، أو أخواتهم وبناتأخواتهم، والمغنِّ ي يستقبل وجوههن في هذه الأثناء، بوجه ليس فيه أدنى حياء، فيغنيهنمن الأصوات والألحان، ما يثير من الغرام ويهيج من الأشجان، والخصيان يصعدونإلى الحرم بأوراق وينزلون منه بأوراق يتخيّرن فيها الأدوار السائرة على ألسنة العشاق،في وصف حرارة الأشواق، ومرارة البعد والفراق، وما زالت الحال تتزايد قحةً ووقاحة،وتتضاعف هتكًا وفضاحة، حتى قام في وسط المكان جماعة من الأصحاب، يتقاذفونبألفاظ القذف والسباب.

ثم إنهم انتقلوا من التلاعن والتشاتم إلى التضارب والتلاكم، فقام الحاضرون علىالأقدام، لمشاهدة ميدان النزال والخصام،ٍ ثم توسط رجال الشرطة بينهم لفض المخاصمة،وسوقهم إلى المحاكمة، بعد أن تمزقت الثياب تمزق الأوراق، وتخضبت الوجوه بالدمالمهراق، فصارت الأفراح أتراحًا، وانقلب الغناءُ نواحًا، وقلت لصاحبي: هلمّ بنا إلى الفرار،من مواقف التهمة والعار، وخرجت به أسوقُه أمامي، وأقول له في بعض كلامي: لقد حقلك بعد الذي رأينا ونظرنا، وبلَونا وخَبَرنا، أن تلتهب بالغضب والحنق التهاباً، أو يذهلكالدهشُ والعجب فلا تعي جواباً، وهل بقي

[87] الغزالة: الشمس.

بعد ذلك فرقٌ بين سرور الدنيا وحزنها، أوفضلٌ لظهر الأرض على بطنها، ًّ فأجابني بلسان الحكيم المدرب، والحليم المهذَّ ب، وهويبتسم استهزاء، ويهزّ كتفيه ازدراء: لم يبق في بفضل الحكمة فضلٌ للسخط والغضب،وعجبي اليوم مما أرى يكون من العجب.

العمدة في الحديقة

قال عيسى بن هشام: وتمكن من الباشا حب الاستكشاف والاستطلاع، لدرس الأخلاقوسبْر الطباع، وتبدلت الوحشة عنده بالائتناس، في مخالطة الناس، فصار يلح عليَّ ويلجفي الطلب، أن أذهب به في هذا السبيل كل مذهب، وأنا أداوره وأحاوله، وأماطلهُ وأطاوله،وهو لا ينفك يستنجزني ويستقضيني، وإذا استعفيتهُ لا يعفيني، فقلت له: لم يبق أمامنامن المجالس والمنتديات، إلا ما اشتملت عليه الأزبكية من المخجلات المُندياَت،[88] وما تضمنتهُمن صنوف الرجس والنكر، وفنون الفسق والسكر، وأنا أجلك أن أسلك بك مسالك الظنةوالتهمة، وأن أحلك محال الريبة والشبهة، وأربأ بسنّك وقدرك أن تختلط بتلك الزمر،وتدخل معهم في تلك الغمر، وتقسر نفسك الشريفة على ما لم تألفه من مثل ما يعملون،وشروى ما يفعلون،[89] فلا نأمن حينئذ نقد الناقدين، وطعن الطاعنين، وقاسمتهُ إني لكلمن الناصحين، فقال: ألي تقول ذلك وقد آتيتني من دروس الحكمة العالية، وضروبالفلسفة السامية، ما أزدري معه عذل العاذلين، وأحتقر به لوم الجاهلين؟! ولن يضيرالنفس الشريفة الطاهرة، أن تجاور النفس الخبيثة الفاجرة، وقل أن يعُدي المريضالطيبب، وتذهب رائحةُ الدفر،[90] برائحة الطيب والإمعان في رؤية النقيصة والرذيلة، يزيدالنفس الفاضلة تمسكًا بالفضيلة، ولا يعرف قدر الرشد والهداية، إلا من نظر في أعقابالضلالة والغواية، وبالظلمة يعُرف فضل الضياء، وبضدّها تتبين الأشياء، ذلك من فضلما علمتني مما عُلمت رشدًا، ولقد كان من أدب الحكام في

---

[88] المنديات: المخزيات.

[89] شروى: مثل.

[90] الدفر: النتن.

أيام دولتنا، وزمن صولتناأن يغيروا من هيئاتهم، ويستروا من سماتهم، ويبدّلوا من أزيائهم المعروفة، بأزياء غيرمألوفة؛ ليتمكنوا من مخالطة الناس على اختلاف أشكالهم ويقفوا على جلية أمرهموحقيقة أحوالهم، فلم يكن ذلك مما يضر بسمعتهم، أو يحط من رتبتهم، عند ظهورأمرهم، ووضوح سرهم، فلا عليك إذًا أن تسلك بي ما شئت من المسالك، ولا تخش عليَّ شيئاً من تلك المعاطب والمهالك.

قال عيسى بن هشام: ولما لم يبق لي بد من امتثال حكمه، وتنفيذ عزمه، قصدتبه من الأزبكية روضتها الغناء، وحديقتها الفيحاء، فلما وصلنا إلى بابها، ووقفنا عند»دولابها«، وضعت فيه أجرة العبور، كما توضع النذور في صندوق النذور، ودرت فيهدورتي ودار الباشا دورته، فقال لي وهو يدافع الغضب وسَورته: هل كتب على الداخلينفي هذه الجنة الزاهية أن يدور الإنسان دورة الثور في الساقية؟ فقلت له: نعم شاعالتخوين بين الناس في جميع الأشياء، فاخترعوا لهم مثل هذه الآلة الصماء؛ لتكون رقيباًعتيدًا، لا يستطيعون معها اختلاسًا ولا تبديدًا، فهي ترقم من الداخل عند كل دورة، ماينقده الداخل فيها من الأجرة فلا يضيع منهُ مثقال ذرة. ولما جاوزنا الباب أعجب الباشاحسن المنظر وازدهاه، وراقه بهاء المكان واستهواه، وتملكه الابتهاج وتولاه، فقال: ماشاء الله لا قوة إلا بالله! لمن هذه الجنة من كبراء البلد؟ قلت: هي ملك كل واحد وليستبملك أحد، أنشأتها الحكومة من »المنافع العامة« لنزهة الخاصة والعامة. ثم سرنا نطوففي أنحاء الحديقة، بين أشجارها الوريقة، وأغصانها الرشيقة، وأزهارها الأنيقة، والباشايهتز طرباً ويميل عجباً، لحسن هذا المنظر العجيب، والمنبت الخصيب، ثم وقف بنا وقفةًبين برد الظلال وخرير الماء، ورفع ببصره يقدس باسط الأرض ورافع السماء، ثم رأيتهينحني للركوع انحناء القوس بعد أن أنشد قول حبيب بن أوس:

أرضٌ إذا جردت في حسنها فكرك دلتك على الصانع

وسمعته يتلو في الركوع والسجود، قول صانع الوجود:﴿وَلله يسَ ْجُدُ مَن فِي

ّ َ السمَاوَاتِ وَالأْرْ َضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالهُ ُم بِالْغُدُ ِو وَالْآصَالِ﴾، وقوله أيضًا عز من قائل:

﴿تسَ ُبِّ حُ لَهُ ّ َ السمَاوَاتُ ّ َ السبعْ ُ وَالأْرْ َضُ وَمَن فِيهِ ِن وَإِ ّ ِ نِ من شَيْءٍ ِ إِ َلا يسَ ُبِّ حُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِ َ ّ َ ن لاتفَ ْقَهُونَ تسْ َبِيحَهُمْ﴾.

ثم انثنيت به في طلب الراحة، فجلسنا على أريكة من أرائك تلك الساحة، ودارتبيننا هذه المخاطبة، بما اقتضته المناسبة:

الباشا:ٍكيف لا يكون هذا المكان بالناس غاصا، وبالمرتاضين مزدحمًا، يشاهدونجماله ويتفيأون ظلاله ما دامت الحكومة قد أباحته لكل رائح وغادٍ كما تزعمه؟ ومالي لا أرى فيه غير هؤلاء الأجانب في أزيائهم، بأبنائهم ونسائهم، فهل وقفته الحكوةً على الغربيين وحرمته على المصريين، فإنني لم أجد فيه أحدًا منهم منذ دخولنا إلى هذهالساعة؟

عيسى بن هشام: لم تؤُثر به الحكومة قومًا دون قوم، ولكن المصريين كأنهم ألفواالتهاون باللذات الروحانية وتغافلوا عنها، وأخصها معرفة ما حسن في الأشياء، وتمييزالجمال والكمال ومواضع الإحسان والإتقان في صنعة الوجود، ورياضة الفكر والنظرفي مطالعة كتاب الكائنات، ونظام المخلوقات التي تسبح بحمد خالقها؛ أي: تدل عليهبصنعته فيها، وكأن الواحد منهم قد حبس نفسه وقيد فكره في الوجود على الماديات،فلا يكاد ينظر في دهره نظرة المشاهدة والإمعان في خلق السماوات وما يتألق فيها منالشموس والأقمار والنجوم والكواكب، ولا في خلق الأرض وما ينبت فيها من النبات،ويدب من الحيوان ويجري من البحار ويرسو من الجبال، وهي بجمال صُنعها وكمالوضعها.

تصيح بمِن يمِ ُر: ألا تراِني فتفهم حكمة الخلق العجيب؟

الباشا: جل الخالق الصانع، ولكن لأي سبب ألف المصريون غفلتهم عن التمتعبهذه النعمة؛ نعمة المشاهدة ولذة المطالعة وصار الأجانب يتعلقون بها دونهم ويمتازونبها عنهم؟

عيسى بن هشام: لا سبب فيما أعلم إلا التمادي في التهاون والتراخي عن إيقاظهذا الشعور الغريزي الكامن في النفس، وتنميته بالرياضة والتفكير ومعاودة الإمعانوالتدقيق، وقد اعتنى الأجانب به عناية خاصة فاجتهدوا في تنميته وترقيته، حتى صارلديهم ملكة من الملكات وفنًّا جميلًا من أرقى الفنون فدربوا عليه ومرنوا فيه وسرى فيدمائهم يتوارثه الأبناء عن الآباء، فترى الطفل فيهم إذا شب ودرج، وأراد أن يتحف أهلهيومًا بادر إلى الأرض، فاقتطف منه أول زهرة من الربيع وتسابق بها إليهم، كأنما عثرلهم على كنز لحسن الوقع عندهم، ولقد برعوا في الصناعة بفضل هذا الشعور ودوامنموه، ولم يقتصر الحال فيه عندهم على المرئيات الطبيعية، بل تجاوزه إلى المرئياتالصناعية، ففيهم من يبذل الألوف من الدنانير والملايين من الدراهم لاقتناء صورة منالصور، ورسم من الرسوم يحسن تمثيل زهرةٍ من الزهور أو دائرةٍ من الشفق أو راعمن الرعاة أو حيوان من الحيوانات بما لا مناسبة بين قيمته في الأصل الطبيعي، وبينقيمته في الشكل الصناعي، وقل أن تدخل دار ميسور منهم إلا وتجد أنحاء الجدرانمزدانة بألواح التصاوير والتهاويل مما يحُاكي المناظر الطبيعية، فلا يفوت صاحب الدارأن يتمتع بحسن المنظر في داخلها إن حجبته عن مشاهدة جمال الطبيعة في خارجها،ولقد جرهم ذلك إلى شدة الولوع بمشاهدة الآثار القديمة، والتنافس في اقتنائها والغلو فيِّ التحفظ عليها والضن بها، فكم رأينا من قطعة من الحجر أو غيره تزدريها الأعين بيننا

ًّ ولا يعبأ بها المصري، ًّ فيطرحها في كناسة منزله فلا تزال كذلك حتى يلتقطها الأجنبي فيبحثه وتنقيبه، فتصير عنده في قيمة فريدة التاج أو يتيمة العقد، وكم رأينا من السياحمن يتكبدون مشاق الأسفار ويتحملون أهوال البحار وأخطار القفار مع إنفاق الألوفالمؤلفة من الذهب والفضة لمشاهدة آثار الدمن، وما عفا من الرسوم في هذه الديار، وربماً رأينا المصري ساكن القاهرة يشب ويشيب ويكتهل، ويشيخ

ويعمر ويهرم، ولم ير منالأهرام القائمة في جواره غير صورتها المرسومة على ورق البريد، وربما لم يلتفت إلرؤية ذلك أيضًا حتى يدركه الموت.

الباشا: تالله إن ذا لمن العجب، ولو كان الأمر يجري على القياس لكان المصريون فيمقدمة الأمم التي ينمو فيها الشعور بلذة التأمل في بدائع الكائنات، ومحاسن الموجوداتلرقة طباعهم، ولطافة شيمهم، وسرعة التأثر والانفعال في نفوسهم، ولما ميزهم الله بهمن حسن الإقليم واعتدال الجو وفيض الماء وخصب التربة، ولانحصار موارد أرزاقهمومعاشهم في استنبات الأرض، وطول ممارستهم للفلح والحرث والزرع والحصد، ۶وكلمن رأى الإقليم المصري كالزبرجدة الخضراء في وسط رمال الصحراء، لا بد أن يحسدأهله على التحلي بهذه الفريدة من عقد الطبيعة، ويغبطهم على دوام تمتعهم باجتلاءهذا المنظر الذي يجلو البصر ويثلج الفؤاد وينعش القلب، ٍويلطف من هواجس النفسوبلابل الصدر فتصفو الروح، فتخف من قيود العالم السفلي إلى الاتصال بمعارج العالمالعلوي، فترتاح هناك هنيهة مما تقاسيه في مصارعة العيش من ضروب الأكدار والآلام،وتفر من وجهها إلى وجه ربك ذي الجلال والإكرام، واعلم — وهذه لفظة طالما أفادنيتكرارها على لسانك فاسمح لي بها مرة من لساني، وما أعلمك إلا عن خبرة وتجريب— أن الفرق بين الإنسان والحيوان لا ينحصر في الخلقة، ففي الخلقة ما يشبهه، ولا فيالنطق ففي الحيوان ما ينطق، ٍولا في الذكاء ففي هوام الأرض ما يفوقه ذكاءً، وإنما المزيةالتي تميزه عن سائر الحيوانات والخَصلة التي يفضُلهُا بها هي إدراك حقيقة الوجودبالإمعان والمشاهدة وطول الفكر والنظر في خلق السموات والأرض للاهتداء إلى معرفةخالقها، وعبادة صانعها، قال — جل وعز — في محكم بيانه:﴿أفَلَا ينَظُرُونَ إلِىَ الإْبِ ِلِكَيفْ َ خُلِقَتْ * وَإِلىَ السمَاءِ كَيفْ َ رُفِعَتْ * وَإِلىَ الْجِباَلِ كَيفْ َ نصِ ُبتَ ْ * وَإِلىَ الأْرْ َضِ كَيفْ َسُطِحَتْ * فَذَ ِكرْ إنِّ َ مَا أنَتَ مُذ ِكَرٌ﴾، هذه هي اللذة الروحانية التي أسعد الله بها الإنساندون سائر المخلوقات وهي أشرف اللذات، وأصفاها وأفضلها وأبقاها، وما يتقرب العبدإلى الله زُلفى في عبادته بأجل من النظر والتفكير في حسن صنعه وكمال خلقه، قالوهو أحكم القائلين:﴿إ ِنَ فِي خَلْقِ ِ السمَاوَاتِ وَالأْرْ َضِ وَاخْتِلَافِ ِ

الليلِ ْ وَالنَّ هَارِ لَآيَاتٍ ٍ لأوُلِيالأَلْ َباَبِ * ًالذِينَ يذَكُ ْرُونَ اللهِ قِياَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنوُبِهِمْ وَيتَفَ َ ًكرُونَ فِي خَلْقِ ًالسمَاوَاتِوَالأرْ َضِ رَبَّ ناَ مَا خَلَقْتَ هَٰذَا باَطِلًا سُبحْ َانكَ َ فَقِناَ عَذاَبَ النَّ ارِ﴾، ولا يقف على مقدار هذهاللذة الروحانية تمام الوقوف إلا من تجرد مثلي يومًا من عالم الأجسام والفناء، إلى عالمالأرواح والبقاء، ولا ينبئك مثل خبير.

ولو كانت الأمور تجري على القياس أيضًا لاشتغل المصريون بلذة هذه المشاهدة،وسعوا في نموها فيهم؛ إن لم يكن من جهة لطف الإحساس والشعور فمن جهة انصرافهمإلى تقليد الغربيين، والعمل على نمطهم في مختلف أحوالهم كما شاهدته منهم عياناً فيجميع حركاتهم وسكناتهم، ولكن لعل هناك من خفيّ ًالأسباب ما حرمهم اطراد التقليدفي هذا الباب.

عيسى بن هشام: لم يكن هناك من سبب يمنعهم غير ميلهم إلى الفتور والانقباض،سواء أكان في الماديات أم الأدبيات، وهم على شدة وَلَعلهم بتقليد الأجانب لا يقلدونهم إلافيما خف وهان من الزخرف المموه والبهرج الكاذب والملاذ الشهوانية مما لا ينتج عنهإلا سقم الأجسام ونفَاد الأموال، وما عدا ذلك من أمور المدنية النافعة فمجهول عندهمبل مرذول لديهم، وإجمال القول في هذا الباب أن مثل المصري في أخذه بالمدنية الغربيةكمثل المُنخْ ُل يحفظ الغث التافه ويفرط في الثمين النافع.

الباشا: يا أسفا عليهم كأنهم تخلوا عن فضائل مدنيتهم القديمة، ولو يتحلوابفضائل المدنية الحديثة، فأصبحوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوةٍ أنكاثاً.

قال عيسى بن هشام: وما زال الحديث يجري بنا على هذا النحو حتى وصلنا إلىالمغارة المصنوعة في بعض أنحاء الحديقة، فرأينا صنعًا جميلًا وشكلًا بديعًا، وأعجبناتدفق الماء من ثنايا الأحجار، فجلسنا على سُرر هناك أعُدّت للزائرين، وإذا بجانبنا ثلاثةأشخاص مِن المصريين شغلهم اتصال الحديث بينهم عن الالتفات إلينا، فأقمنا نسترقالسمع ونلتقط اللفظ، فتبين لنا من سياق كلامهم أن أحدهم

عمدة من عمد الأرياف،وثانيهم تاجر من تجار الثغور، وثالثهم فتىً من أهل البطالة والخلاعة، ومما التقطناهمن قول العمدة للخليع في مجرى حديثه:

العمدة: وأين الآن ما دخلنا الحديقة من أجله، فقد طال بنا الجلوس ولم نر شيئاً؟وهل كان جُل القصد ومنتهى الجهد أن نجلس هنا في وخامة الأشجار ورطوبة الهواءوعفونة الماء؟ وتالله ما أجد فرقًا بين هذا المنظر وبين منظر ذلك المستنقع الذي خلفتهخلف بلدتنا، ولعمري إن الأوز الذي يسبح فيه هناك أكثر عددًا وأعظم سمناً من الأوزالذي يسبح أمامنا، وما الفائدة في طول جلوسنا أمام هذه الأشجار العقيمة التي لا تثمرولا تغني من جوع؟ وأين نحن من ذلك الثمر الشهي والصيد الطري الذي وعدتنا بهوأطمعتنا فيه!

الخليع: مهلًا فلن يفوتك من هذا شيء وإن كنا أخطانا الغرض هنا؛ لأنني كنتأظن الحديقة على عهدي القديم بها، وما كنت أتخيل أن الأمر وصل بها إلى مثل هذاالخراب من الظباء والغزلان، إلا منذ أخبرني أحد الأصحاب بعد دخولنا بأن الحكومةاشتغلت بأمر هذه الحديقة لخلو يدها من الأشغال، فباشرت الإصلاح فيها بمنع ذواتالبراقع والمآزر من دخولها والتجول في أنحائها، ولا أقول في هذه النازلة إلا قول الجرائدفي التأفف من أعمال الحكومة:»حسبنا الله ونعم الوكيل.«

التاجر: وعلى هذا فقد ذهبت تلك الليالي والأيام التي كانت فيها الحديقة مرتعًاللحسان، وملعباً للقيان، ولطالما دخلتُ هنا وحيدًا فريدًا فما أكاد أنصب الحبالة، وأضعَّ الحب حتى أقتنص من آرامها مثنى وثلاث وربُاع.

العمدة: يعلم الله أن العاصمة أصبحت على حال لا تصح معها الإقامة إلا مدة قضاءالحاجة والرجوع إلى البلد فورًا،ً وإلا فقد عرض الواحد منا دَرَاهمه للضياع وصدرهللانقباض، وإلى الآن تراني في غاية الأسف والحزن على ما جرى لي أمس في سهرتيَّ مع فلان الموظف؛ إذ جرني للنزهة معه فطاوعته على هواه أملًا في إنجاز حاجتي عندهفسحبني من مكان إلى مكان، ومن حان إلى حان يشرب هو وأصحابه على حسابي،وكأنما أجوافهم دنانٌ متخرقة فلا تمتلئ أبدًا من الخمر، وكأنما كيسي كنز

لا يفنبالإنفاق، وما كدنا ننتهي من حانات الخمر حتى اندفعوا إلى بيوت القمار، فأصبحتّ مصدع الرأس من الخمر، فارغ الكيس من القمر.

التاجر: ولِمَ تطاوعه على أغراضه وتنقاد مع أصحابه، وتنفق مثل هذا الإنفاق منغير حظ ولا لذة؟ وإن كانت لك حاجة ترجو قضاءها منه كما تزعم فيكفي في ذلك أنتضع »المبلغ المناسب« في يده، وتتخلص منه ومن أصحابه فلا تسايرهم،ٍ ولا تعرضنفسك للتورط معهم كما فعلت.

العمدة: يحق لك أن تعترض وتلوم فقد أراحكم الله معاشر التجار في المدن منمتاعبنا ومصائبنا مع الحكام؛ فإن أشغالكم لا تتعلق بهم كما تتعلق أشغال الفلاحة فيالأرياف، فنحن في اضطرار دائم إلى استرضائهم »والمبلغ المناسب«، الذي تقول عنه لايكفي وحده في قضاء الحاجة، بل يلزم الإنفاق عليهم في كل زمان ومكان علاوة على تلكالمبالغ، وإن لم يكن لك عندهم حاجة في الحال، وكم من كلمة واحدة من موظف صغيركانت سبباً في تعطيل عمل كبير، وما يدريك أن الذي تغضي عنه الليلة ولا تلتفت بنظركإليه في حانات الأزبكية يصبح غدًا قاضياً في المحكمة أو حاكمًا في المديرية؟

الخليع (مقاطعًا): إذا كانت الليلة الماضية قد انقضت على غير هواك، فلنا عنهاعوض من ليلتنا هذه إن شاء الله.

العمدة: ٍأنصدقك في وجود العوض وقد أخلفتَ وعدك معنا في هذه الحديقة، وآذنالليل بالدخول وليس في اليد شيء من الصيد؟

الخليع: ٍ صدقني بالله، فإني ما كنت أعلم بما أصاب الحديقة من أمر الحكومة؛لأنني كنت مقيمًا بحلوان مدة طويلة، وجئت وأنا أحسبها على حالها الأول، ولكنني قدرتبت لك الآن سهرة في فكري تفوق في حسنها كل سهرة مضت، فإني أعرف صاحباًلي أخبرني عن بيَضْة خدر من بيت فلان باشا، فقوموا بنا وأنا أذهب للحصول عليهاهذه الليلة بما يمكن من الحيل، وسأكتم عنها أمرَكما إلى أن تصير معي في الموضع الذيأختاره، ثم أرسل إليكما من هناك بمن يأتيني بكما، فيكون دخولكما على حين غفلة، فلاتستطيع الاختفاء ثم تضطر إلى البقاء في مكانها،

وحينئذٍ يدور بنا المجلس معها دورةالأنس والسرور، ولكن لا أخفي عنكما أن مقدار ما معي من الدراهم الآن لا يكفي لإعدادّ معدات هذا المجلس، وأخشى إن أنا ذهبت إلى البيت لآخذ دراهم أخرى أن يمنعني أهليمن الخروج ثانية، كما هي العادة عند النساء في التضييق على الرجال.

العمدة: لا عليك فعندي من الدراهم ما يكفي وزيادة.

قال عيسى بن هشام: وقاموا في الحال للسعي وراء اللهو والمجون، وقام الباشايسحبني وراءهم للعلم بما سيكون.

العمدة في المجمع

قال عيسى بن هشام: وخرجنا في أثر الخليع والعمدة والتاجر، وقد ألقت ذكاء يمينها فيكافر،[91] ثم أضيئت بعد ذلك شموع الكهرباء، فعادت الشمس متوزعة في مصابيح الضياء،كالنجوم تتلألأ في أفق السماء، وتقشع دياجي الظلماء، ولما توسطنا ساحة »الأوپرا«و»الأوپرا بار«، وقف الباشا وقفة الإعظام والإكبار، يكفكف غرب الدمع والاستعبار،ويقول: سلامٌ على إبراهيم، أإبراهيم في النار، كيف لا يضطرم القلب استعارًا، ويجرىالدمع مدرارًا، فلا أستطيع أواري،[92] ولا أستطيع أواري، وقد تمثل أمامي في هذه البقعة،وهي موسومة بسوء السمعة، بطل مصر، ورافع بنود النصر، وقائد جيوش الحربوهاديها، في مفاوز الأرض وبواديها، وموقد نيران الوقائع وصاليها، وخائضُ غمراتالمعامع وجاليها:

في كل منبت شعرةٍ من جسمهأسدٌي.م ُد إلى الفريسة مخلبا

وكيف جاز لهم أن يضعوا عنوان البأس والجدّ،َ في مواضع الهزل والدد،[93] ويقيموالإبراهيم صنمًا على صورته، في وسط سوق الفسوق وسرته، مشيراً بيمناه إلى مواطناللهو والفجور، وأماكن الفحش والعهور، ودينه ينهاهم عن تشييد الأصنام وإقامتها،ويأمرهم بكسرها وإبادتها، ويا بؤس قوم جعلوا اليد التي كانت تشير للكماة والفرسان،في ميدان الضرب والطعان، بمصافحة المنايا، ومقارعة الأقران، تشير اليوم وسط هذاالميدان، بمغازلة البغايا، ومعاقرة الدنان،ٍ فسبحان محول الأحوال

---

[91] ذكاء: اسم للشمس. والكافر: الليل.

[92] الأوار: حر النار.

[93] الدد: اللهو اللعب.

ومبدّل الأزمان، فقلتله: ما هذه الأفكار المحزنة، أحنيناً إلى تلك الأزمنة، وقد انقضت بخيرها وشرها، وذهبتبحلوها ومرها، وأين أنت من طريقك في الحكمة والسداد، ومن سبيلك في الهدايةِّ والرشاد؟ فخفض عليك من حزنك وهمك واترك تلك الهواجس فأنت ابنُ يومك، ولاتجعل لهواك القديم عليك سلطاناً مطاعًا، فذهب ما استفدناه من العلم ربحًا مضاعًا، أماإقامة التماثيل في الميادين، ومخالفتها للشرع والدين، فقد أقامها حكامنا تقليدًا للغربيين،ولمن ينكرها أحد من طلبة العلم وعلماء المسلمين، فاستنامت إليها الأفكار، ولم يوقظهاالتحريم والإنكار.

وأما وضع التمثال في هذا المكان دون سواه، وإشارته فوق الحصان بيمناه، فلعلالآمر بوضعه أراد أن يذكر هؤلاء الغافلين الذاهبين بما كان لآبائهم الأولين، من الشأنالرفيع، والركن المنيع، أيام إمارته، وينبههم على ما انتشر ذكره في الآفاق،ً وخلدته لهمبطون الأوراق، من اقتحام المهالك، وافتتاح الممالك، تحت قيادته، وهو يشير اليوم بتلكاليد؛ ليستفزهم إلى مواقف العز والمجد، ويستنفرهم عن مواطن الخلاعة والبطالة إلىمواطن الشجاعة والبسالة، فتبسم الباشا من قولي ضاحكًا، وقال: ما عهدتك في الجوابمحاولاً مماحكًا، فقلت له: دعَ هذا وانظر إلى هذه البنية الإيوانية، ذات الأرائك الخسروانية،فقال: أعظم به من بناء، بين بيوت الكبراء! قلت: هو بيت لهو رفع إسماعيل قواعده،وبوأ الناس مقاعده، يشاهدون فيه صنوف الألاعيب، وضروبَ الأعاجيب، مما يؤخذ عنأساطير الأولين، وأقاصيص الراوين، وما تفتن فيه كل غادة حسناء، من جمال الزينةُّ وحسن الرواء،ٌ وتفتن به كل قينة هيفاء، من فنون الرقص والغناء، اقتداءًً بالغربيينفي ديارهم، واحتذاءًً لآثارهم، وقد بقي من بعده تنفق عليه الحكومة من عيش الصانعوالفلاح،ٌ لتفكهة النزلاء والسياح، ثم انظر أمامك إلى هذا المجتمع الملتحم، والموقفالمزدحم، فالتفت فقال: ما هذه الضوضاء العظيمة؟ أمأتمٌ ما أرى أم وليمة؟ قلت له: لابل هو مجتمعٌ عام تتزاحم فيه المناكب والأقدام، لمسامرة الأصحاب، ومعاقرة الشراب،وبينا نحن كذلك؛ إذ وقف بأصحابنا المسير، عند باب هذا الحان الشهير، فسرنا فيعقبهم، ولحقنا بهم، فسمعنا الخليع يقول لصاحبيه:

كونا هنا في الانتظار، حتى أعودإليكما بالأخبار، إنجازًا لوعدي، وإيفاءًً بعهدي، فأجاباه بالقبول، وتقدمَا للدخول، فقالالعمدة للتاجر: ما أحوجني إلى تضييع الزمن، ورياضة البدن، بشرب كأس من العقار،ولعب دور من »البليار« وقال التاجر: وما أحوج يدي إلى ملامسة ورق القمار، وأذني إلىرنين الدرهم والدينار! ثم صعدنا وراءهما إلى قاعدة بأعلى المكان، أعُدت للعب والرهان،فتقدم العمدة وهو يهزّ أعطافه وأردانه، فتسلم كُرَة »البليار« وصولجانه، وقعد التاجروهو يرتعد من الفرق، في مجلس اللاعبين بالورق، وجلسنا نحن للنظر والسمع، في غمارذلك الجمع، فسمعت عن يميني أحد السماسرة المعروفين بالدهاء، يقول في مناقشة لأحدأرباب الثروة والغناء:

السمسار: لا نزاع ولا جدال في أن ينابيع الثروة قد نضبت بذهاب تلك الأيامالماضية، التي يغتني الرجل فيها بكلمة ويثُري بإشارة فيصبح بها أغنى الأغنياء بعد أنكان معدودًا من الفقراء، ولقد وصل المصريون الآن إلى زمن كله ضيق وعسر ولم يبق منحكامهم من يقطع الأقطاع ويهب الضياع، وبقيَ الغني الحازم فيهم على الحال الخمولوالانكماش لا يستثمر أمواله، ولا يستربح ثروته، وقد زادت الحاجات وتعددت وجوهالمطالب يومًا بعد يوم،ٍفأصبح مضطرا إلى الإنفاق من تليده فَسَرَى النقصان إلى رأسالمال حتى إذا مضى لسبيله لم يترك لأهله وذريته، إلا ما يقوم بالكفاف وحده بعد توزعهبينهم، وكن على يقين أنه لا يمضي جيل واحدٌ على هذه الحال إلا ويندثر بين المصريينما بقي من بيوت المجد والغنى، واعلم أنه لم يبق أمامنا اليوم سوى بيت واحد هو منبعالمنابع في الثروة والمال، وكنزُ الكنوز في الغنى واليسار؛ يقوم للمصريين مقام أعظم بيتمن بيوت الحكام الذين كانوا ينعمون عليهم بالسيب والعطاء، ويدفعون عنهم الضراءبالسراء، وما يخفى عليك أنه بيت البورصة.

الغنـيّ: اسكت ولا تذكر لي اسم البورصة، فقد سمعنا في هذه الأيام عن فعلها بفلانوفلان ما فيه عبرة للمعتبر وموعظة للمتدبر.

السمسار: ألتمس من سعادتكم غض النظر عن الاستشهاد بفلان وفلان، فإنالخسارة لحقتهما من سوء رأيهما وشدة جهلهما، أما أحدهما فإنه كان يعتمد

فيالمضاربة بأمواله على التفاؤل والتطير،ًّ وكان لا يأخذ إلا بكلام إحدى العرافتين: العرافةالسودانية أو العرافة الإفرنجية، تلك بودعها، وهذه بورقها، ومن نوادره في الأخذ بالتفاؤلأنه سمع رجلًا مجذوباً يصيح في الطريق بقوله:»اذهبْ يا يزيد« وكان لا يزال مترددًابين البيع والشراء لا يرجح بين الهبوط والصعود، فتفاءل بالكلمة واعتمد عليها وسارمن تـِّوَه إلى سمسار، فأمره أن يشتري له عشرين ألف قنطار، فنصحه وحاول أن يحوّلهًّ عن رأيه فلم ينتصح ولم يتحول، وهبطت الأسعار في اليوم الثاني وتوالىَ هبوطها فكانما كان من خسارته،ُّ وأما الثاني فكان جل اعتماده على الأخذ بأفكار أرباب الجرائدوالثقة بالأخبار الكاذبة من الموظفين، ولم يعمل برأي السماسرة الذين هم أدرى الناسبوجوه المضاربة، وأعلمُهُم بطرق الصواب فيها.

الغني: لن تزيدني والله براعتك في البيان والبرهان إلا ابتعادًا عن مضاربة البورصةوعن أهوالها، ولا أعتبرها في نظري إلا أكبر باب من أبواب المقامرة، والمقامرة هي عينالمخاطرة.

السمسار: أما المخاطرة فهي لاصقة بالإنسان في كل حركة وسكون وملازمة لعملهفي كل زمان ومكان،ًّ ومن أراد أن يتوقى الأخطار ويسلم من المخاوف، فلا يباشر عملًامن الأعمال، والأولى له أن يترك هذا العالم إلى سواه، واسمح لي بآخر قول أقوله لك فيهذا الباب وهو أنك أخبرتني بمقدار محصولك في هذا العام، وهو ثلاثة آلاف قنطارمخزونة عندك إلى اليوم، لم تبعها تربصًا لصعود الأسعار، ولم تبال بما يلحق القطنفي طول خزنه من نقص الوزن وما يتهدده من بقية الأخطار كالسرقة والحريق، فإذاً كنت فضلت الانتظار لصعود الأسعار على هذه الحال في ثلاثة آلاف قنطار، فما الذييمنعك عن مثل هذا العمل في ثلاثين ألف من »الكونتراتات« دون كلفة ولا مشقة، كالتياحتملتها في استخراج المحصول؟ فإنك لا تدفع هنا ثمن أرض ولا تنفق على حرث ولاتؤدي ضريبة، ولا تبذل ماء وجهك لري الأطيان، ولا تحني ظهرك لأصاغر الحكام، ومادخلت في قضية ولا وقعت في

منازعة ولا تخوفت شيئاً من الآفات، سماوية كانت أمأرضية، بل هو ربح يأتيك عفوًا صفوًا ولا رأس مال له سوى أربعة حروف أو خمسةتخطها بيمينك في التوقيع.

الغني: يجوز أن يكون في قولك هذا بعض ما يقنع، ولكني لا أجد نفسي تطمئنيومًا إلى ولوج هذا الباب.

السمسار: أنا لا أكلفك أمرًا عظيمًا ولا أدعوك إلى أدنى خسارة، وما عليك إلا أنتجرب صدق نصيحتي، فتشتري ألفين من »الكونتراتات« فتنتظر بها صعود الأسعار معأقطانك المخزونة، وأنا أضمن لك الربح ما دمت آخذاً برأيي، ولا تستمر في هذا الانكماشوالحذر اللذين هما علة تأخر المصريين، وخذ في النشاط والإقدام اللذين هما سبب تقدمالغربيين، واعلم أن الفرق في سرعة الربح بين ما يشتغل به الناس من التجارة والصناعةوالزراعة، وبين أشغال البورصة و»الكونتراتات« كالفرق ما بين السفر على ظهور الجمالوالطيران على أجنحة البخار، أو ما بين نسخ الكتب بالخط ونسخها بالطبع، ولكل زمانما يقتضيه من العمل ويحكم به من السير، وأنت المخير مع ذلك فيما ترضاه لنفسك.

الغني: وكيف حال الأسعار اليوم؟

السمسار: كما كانت أمس وهي فرصة ثمينة للشراء.

الغني: خذ لي اليوم خمسمائة قنطار للتجربة.

قال عيسى بن هشام: وتركنا هذا العصفور قد وقع في يد الصائد المحتال، والتفتناإلى ذات الشمال، لسماع ما يدور من الجدال، بين رجل فرغ كيسُه من المال، وامتلأترأسه من الآمال، وبين تبِيع محامٍ من الأجانب،ّ يتلقط القضايا من كل جانب:

التبيع: لا أشير عليك أبدًا برفع هذه القضية أمام المحاكم الأهلية، وهي معروفةبجبنها وخوفها من الحكم على الحكومة في مثل هذه القضايا، ولئن حكمت مرة فقلماتبادر إلى التنفيذ، أما المحاكم المختلطة فإنها لا تحسب لغير الحق حساباً، وسواء لديهاالحكومة والأهالي، والتنفيذ فيها أسرع من نفاذ السهم عن القوس، كما أن المحاكم الأهليةلا تعرف قدر هذه القضية ومنزلتها من التاريخ، ولا تقدر لك

الفائدة من عهد وضعاليد عليها إلى الآن، فلا مندوحة لك عن المحاكم المختلطة، ولكن أخبرني قبل كل شيء عنتلك الشجرة هل لها ذكرٌ في الحجة باسمها التاريخي المعلوم، وهل يمكنك إثبات نسبكمتصلًا إلى الواقف؟

صاحب القضية: أما الشجرة فمذكورة في حجة الوقفية أنها »شجرة العذراء،«وهي قائمة على أرض سواد، وأما نسبي فهو متصل بأحد عتقاء الواقف السلطانالغوري، ولكن من لي بدخول القضية في المحاكم المختلطة وأنا رجل من رعايا الحكومة؟ومن لي بمحامٍ أجنبي وأنت تعلم ما يلزم لمثله من المبلغ الجسيم في »ـ مقدم الأتعاب«الجعالة؟

التبيع: هون عليك الأمر، أما رفع القضية إلى المحاكم المختلطة، فإنه سهل هينيكون بالتنازل عن القضية لأحد الأجانب، وأما المحامي الأجنبي فأنا أتكفل لك باقناعالمحامي الذي أشتغل معه ليقبل القضية غير أن يلتفت إلى »مقدم الأتعاب«، وإنما يتفقمعك على مناصفتك فيما تأتي به القضية من الأموال، وأما الأجنبي الذي تتنازل له عنالقضية فهو حاضر في مكتبنا تحت يدنا لتسخيره في مثل هذه القضايا، وما عليك الآنسوى النفقات والرسوم القضائية.

صاحب القضية: لا بأس بما تقول ولكن ليس عندي ما أستغني عنه اليوم لتلكالنفقات، ولو كنت واثقًا بعض الوثوق بكسب القضية لبادرت إلى بيع الحصة، التيبقيت لي من العقار، ولكنني أخشى أن تذهب الحصة وأخسر القضية فأصبح بلا مالولا أمل.

التبيع: لو كنت تعلم بمهارة معلمي وما له من علو الشأن في المحاكم المختلطة،ومن الاتصال بقناصل الدول لاستخرت الله في بيع الحصة ورفع القضية.

صاحب القضية: استخرت الله واعتمدتُ على هذا الرأي.

التبيع: فقد أذنتني حينئذ بالكلام مع المعلم، ولك أن تحضر غدًا لعقد الشروط.

صاحب القضية: أمهلني أيامًا حتى أجد من يشتري الحصة بالثمن المناسب.

التبيع: أنت في سعة من الوقت لبيع الحصة، إنما يجب أن تبادر بإحضار الأوراقوالمستندات من الغد للاطلاع عليها ودرسها.

صاحب القضية: بيني وبينك مساء الغد في هذا المكان.

قال عيسى بن هشام: وتركنا أيضًا هذه السمكة، تتخبط في الشبكة، ثم حولناالنظر إلى العمدة في لعبة البليار، فما راعنا منه إلا أن ضرب الكرة بصولجانه ضربةأفقية فأطارها إلى وجه أحد الجالسين من الأجانب، فاستشاط غضباً واحتدم غيظًا، وقامهاجمًا على العمدة يريد به شرا وهو يدمدم ويطمطم والعمدة يجمجم ويغمغم، وكاديقع ما تسوء عقباه لولا أن أسرع التاجر، فحال بينهما وأخذ بيد الأجنبي يستعطفه،ويبالغ في الاعتذار إليه حتى لانت شكيمته بافتتاح زجاجتين من »الشمبانيا« لعقد الصلحعلى حساب العمدة، ثم عمد العمدة إلى الجلوس فلم يمهله الذي كان يلاعبه وطلب منهاستكمال اللعب، فقام إليه مكرهًا وقلبهُ يرتجف ويده ترتعش، فما هي إلا الضربة الثانيةحتى أخطأ الكرة بصولجانه، فأصاب غشاء البليار فخرقه وشقه، فذهب الخادم مسرعًاوعاد بصاحب »البار« ومن ورائه بقية الخدم وهو يقول لهم بصوت عالٍ: كيف تسلمونعصا البليار لهذا الفلاح الأخرق فيخرقه ويتلفه؟ ثم وقف للعمدة يطالبه بثمن ما أتلفَّ وتعويض ما عطل وقدره له بخمسة عشر جنيهًا لا يتجاوز عن درهم واحد منها، فأخرجالعمدة كيسه، فأحصى ما فيه عدا فإذا هو لا يزيد عن ثلاثة عشر جنيهًا فلم يقبل منه،فتوسط إليه بعض الحاضرين، فقبلها متكرهًا وجلس العمدة متكدرًا، ولقد كان اللعببالأفعوان، أقرب إلى السلامة من هذا الصولجان، ثم استمر جالسًا ينتظر انتهاء التاجرمن لعبه حتى قام عنه زاعمًا أنه خسر فيه ثلاثة جنيهات، وقعد بجانبه يظهر التأسفوالتندم فقال له العمدة: دع عنك الأسف والكدر فالضائع ضائع ومصيبتك على كل حالأخف وقعًا من مصيبتي، وبينما هما على هذه الحال إذا بالخليع قد حضر من غيبته يقول لهما هاشًا باشا وفرحًا مرحًا:

الخليع: أشرق أنسنا وسعدت ليلتنا وطاب وقتنا وانقضت حاجتنا، وأسأل الله أنيطيل لنا ليلنا ويبعد عنا نهارنا فقد تم مرادنا وهلم بنا.

العمدة: ونحن نسأل الله أن يقصر ليلنا ويدني منا نهارنا، فاقعد معنا نقصصعليك ما دهانا في غيابك.

الخليع (بعد سماع القصة): وَيلِيْ ثم وَيلِيْ فأنا الملوم؛ إذ تركتكما فوقع لكما ماوقع، ولكن قدر الله لكما ولطف بكما، أما مصيبتي الآن فهي أعظم من مصيبتكما وأبلغ،فماذا أقول وماذا أفعل؟ وكيف أدفع وبأي عذر أعتذر، وقد أخرجتُ البيضة من خدرهاوالظبية من كناسها، واستعد المجلس لحضورنا وأنسنا؟التاجر: الأمر أيسر مما تخشاه فما يفوتنا الليلة ندركه غدًا.

الخليع: ذاك شيء لا يدُرك في كل وقت وحين، وهذه المرة هي بيضة الديك لبيضةالخدر، وكيف يمكن فضّ هذا المجلس وتأجيله وقد مضى قطع من الليل وتعذرت سبلالرجوع.

كيف الرجوعُ بها وحول قبابها   سُمرُ الرماح يملن للإصغاء؟

فخلصاني ناشدتكما الله مما وقعت فيه وأنقذاني من هذا البلاء العظيم.

التاجر: وما وجه الخلوص وقد علمت بتفصيل الحال؟

العمدة: تالله إن الحرمان من هذا المجلس النادر لأعظم مصاباً من كل ما نابنا،ولو كان الوقت نهارًا لأسرعت إلى »البنك«، فأخذت ما يلزم لنا من الدراهم.

التاجر: إذا كانت الرغبة انتهت بك إلى هذا الحد، فالأمر يسير ومعي الآن ما يكفيوأنا أقوم لك مقام »البنك« فكم تطلب، ولأي ميعاد تكتب؟

الخليع: هكذا يكون الصديق، في وقت العسر والضيق، فحيَّ اك الله وأبقاك.

العمدة (للتاجر): أعطني عشرين جنيهًا تكون معي على سبيل الاحتياط.

التاجر: ولك الفضل، هاك سبعة عشرًا جنيهًا تبلغ العشرين المطلوب بالثلاثة التيخسرتهُا هنا أمامك، وألتمسُ منك كتابة ورقة على سبيل التقييد.

قال عيسى بن هشام: فما كان أسرع من الخليع في استحضار الدواة والقرطاس،لإجابة هذا الالتماس، فطلب العمدة منه أن يكتب الصك عنه، ثم

خرجوا والعمدة يجررأذياله،ٌّ ويحك قَذَالَه،[94] وخرجنا خلفهم في الحال، نتبعهم متابعة الظلال.

[94] القذال: ما بين الأذنين من مؤخر الرأس.

العمدة في المطعم

قال عيسى بن هشام: ولما صرنا في الطريق أخذ الباشا يطيل من فكرته، ويقصر منمشيته ويقول: ما هذا الذي أرى من فساد هذا الورى؟ كأن ناقعًا نقعهم في خابية،[95] جمعت أخلاط الكبائر، أو غامسًا غمسهم في جابية،[96] وعت أمشاج الجرائر،[97] أوَ ًكلماخطونا خطوة رأينا من الغش والمكر أصنافًا وأضراباً، أو حضرنا ندوة شهدنا من الخداعوالنفاق فصولاً وأبوابًا؟ فما أتعس من يعاشرهم! وما أنحس من يحيا فيهم! وما أشقىمن يجاورهم! وما أسعد من يجافيهم! وا غوثاهُ من الإنسان، في هذا الزمان، فقلت له:

قدْك[98] بل في كل زمان:

لن تستقيم أمورُ الناس في عُصُ رٍ ولا استقامت فَ ذَا أَمنًا وذا رُعبا ولا
ي قِ ومُ ع لِ ى ح ق ب نِ و زم ن من عهد آدم كانوا في الهوى شُعُاب

هكذا كان بنو آدم، تأخر عهدهم أو تقادم، فهم على ما هم فيه أبدًا، أمس واليوموغدًا، وما عساك تقول في ذرية الشيخ آدم وزوجه حواء، وقد قالت من قبل فيهم ملائكةالسماء:﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يفُسِدُ فِيهَا وَيسَفِكُ الدمَاءَ﴾، وما عساك تقول في قوم تربالصغير منهم قبل الكبير، والمولى قبل الأمير، يهون عليه أن يفتدي ما أسف من الدناياوسفُل من المطالب بمنطقة البروج، ومجرة

---

[95] الخابية: الجوة الضخمة.

[96] الجابية: الحوض.

[97] الأمشاج: الأخلاط والأوساخ. والجرائر: جمع جريرة وهي الإثم.

[98] قدك: بمعنى كفاك.

الكواكب؟ وما عساك تصف خلقًا أفضل مافي أعضائه، أكبر سبب لشقاء الخلق وشقائه؟

أفضلُ ما في النفس يغتالها فنستعيذ اللهِ من جنده

هذه المضغة التي بفيه، ويقال: إنها أفضل ما فيه، لو نسجت مضغة على قدرها،حُمَات العقارب[99] — حماك الله — لحمتها، ولعاب الأفاعي — عافاك الله — صِبغْتها،لكانت في جانب هذا اللسان أخف ضرا، وأهون شرا، وما عساك تنعت نوعًا نعت اللهواحدًا منهم في آية من الآيات بتسع صفات:﴿حَلافٍ مهِينٍ * هَمازٍ مشاءٍ بِنمِيمٍ * منَّ اعٍ

ِ للْخَيْرِ مُعْتدٍ أثِيمٍ * عُتلٍ بعَدَ ذلِكَ زَنِيمٍ﴾.

ف ٍ أف لعصريهم نهار وجنِسي رجال منِهم ونساء وحنِدسٍ

وليت وليدًا مات ساعة وضعه ولم يرتضع من ِ أمه النُّفساء

وما يدريك أن ما رأيته من أخلاق هذا النفر، أفضل من أخلاق من علاهم من سادةالبشر؟ ولعل ما أدركته من طمع الغنيّ ومكر السمسار وخداع التبيع، وما تبيَّنته منغش التاجر وغفلة العمدة واحتيال الخليع، هو دون ما تكنُّه صدور الكبراء، وتجنُّهقلوب الأمراء، تحت حجاب التكلف والتطبع، ويسترونه عن أعين الناس بستار التمويهوالتصنع، وكلما اعتلى الإنسان درجةً في المقام، وخطا فيها خطوة إلى الأمام، تقنع لهابقناع وتلثم بلثام، فتجد حقائق الخلائق مرموسةً تحت صفائح الدهاء، مضروحة بينجنادل الرياء، بل ربما كان أخلاهم أخلاقًا حساناً، أبلغهم في التظاهر بها زورًا وبهتاناً،كان لي صاحب تراه من لسانه غَضَنفرًا رئبالاً،[100] يحمي

---

[99] الحمة: الإبرة التي تضرب بها العقرب.

[100] الغضنفر والرئبال: من أسماء الأسد.

عريناً ويحرس أشبالاً، تتقيهالقياصرة، وتخشاه الأكاسرة، فإذا كشفت عن قلبه، وحسرت عن لبُه، وجدته شاةً تعطفعلى سخلها،[101] وظئرًا تحنو على طفلها،[102] وأعرف آخر قد ضجت أحرف الفضيلة من ذكرهابقلمه ولَوكها في فمه، وهو مع ذلك يخمش وجهه ويدمي جفونه إن سمع أن مُختلسًااختلس دانقًا دونه، وفيهم من يملك من وجهه التغير بالانفعالات المتناقضة، والتلونبالألوان المتعارضة، فتكون دموعه طوع إرادته، وابتساماتهُ عند حاجته، قال حكيمٌ لآخر:ما أكثر ما تتحول رقعة الشّطرنج وتتقلب! قال له: تقلب وجه الإنسان أعجب وأغرب،وقد تبقى الأخلاق الذميمة، والصفات اللئيمة مطوية عن النظر، محجوبة عن البصر،حتى يتاح لها كاشف من الحوادث فينزع عنها الفدام،[103] ويحسر اللثام، فيظهر الطبعالسقيم، ويبدو الخلق الذميم، ومن عوامل التبيين والبيان في أخلاق الإنسان الغضبوالجُبن، أو السكر والحزن، ونحن الآن في ساحة السكر فهلم بنا، نلحق بأصحابنا،فأدركناهم وهم وقوف يتشاورون وسمعناهم وهم يتحاورون.

العمدة: دعوني من هذا كله فقد صاحت عصافيرُ بطني ولم يدخل جوفي اليومشيء من الطعام سوى لقمة الصباح التي أكلتها مستعجلًا، فهيّا بنا إلى »السكة الجديدة«نعطف على »العَطفي« فإن طعامه دسم وسمنه زبدة ولحمه سمين.

التاجر: ما هذا »العطفي« الذي تذكره وأين أنت من كباب »الحاتي« وحمام »لوُكه«أو طواجن »الفار« وأرز »العجمي«؟

الخليع: ما هذا الخلط ونحن في وسط الأزبكية بين »النيوبار« و»سان جمس بار«و»اسبلندد بار« وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين؟ وناهيك بهذه الأماكن ونظافتهاوحسن خدمتها وعلو قدر الواردين عليها.

---

[101] السخل: جمع سخلة، ولد الشاة.

[102] الظئر: المرضعة.

[103] الفدام: غطاء الإبريق.

العمدة: دعنا من هذه الأماكن فإن طعامها لا يسمن ولا يغني من جوع، خصوصًاوأنا على هذا الخلو من بطني.

الخليع: وأنا لا يمكنني على كل حال أن أترك هذه الأماكن، وأذهب معكما إلىالحوانيت التي تشيران بها، وأخشى أن يراني بها أحد ممن يعرفني فأصغر في عينه.

التاجر: إذا كان الأمر كذلك فأنا على رأيك.

الخليع (للعمدة): لا مناص لك حينئذ فضعيفان يغلبان قويًّا فادخل بنا »النيوبار.«قال عيسى بن هشام: فدخلوا ودخلنا معهم، وجلسوا وجلسنا على مقربة منهم، وماخلع الخليع طربوشه حتى نزع العمدة عمامته، وما ضرب الخليع بيده على المائدة حتىَّ صفق العمدة بيديه، فحضر الخادم ومعه قائمة الألوان، فتناولها العمدة ونظر فيهانظر المريض إلى وجود العُ ـود، ثم ناولها للخليع ليقرأها فأخذها وتأمل فيها وشرع يسردالألوان حتى انتهى منها، والعمدة لاهٍ عنه والتاجر منصتٌ إليه.

الخليع (للعمدة): ماذا تحب وتختار؟العمدة: أختار المَرَق
ومن بعده لحم الفرن أو الكبما.

التاجر: وأنا أطلب كباباً وقرعًا وأرُزًا.

الخليع: وأنا أختار »فاتحة الطعام« أولاً،ثم خلاصة اللحم بالبيض وأرزا بفاكهةالبحر ودجاجة بعش الغراب وسماناً بالكمأة، وهليوناً بالزبدة.

العمدة: ما هذه الأسماء الغريبة؟

الخليع: هي أطعمة خفيفة لا تقوى معدتي على هضم غيرها.

التاجر: »كُل ما يعُجبك والبس ما يعجب الناس«.

قال عيسى بن هشام: فيذهب الخادم ويجيء للخليع بفاتحة الطعام من زيتونوفجل وسمك مملحٍ وزُبدة، فيتأمل العمدة فيها ثم يميل على قطعة الزبدة فيبتلعها وهويقول: أزبدةٌ وسمك؟ فيطلب الخليع سواها، ثم يأتي الخادم بصحن المرق للعمدة، فيجدهقد أكل ما كان وضعه أمامه من الخبز وعطف على خبز الخليع

يأكل منه، فيأتيه الخادمبنصيب آخر فيتناوله العمدة ويفتُّ ه في صحن المرق حتى يمتلئ ويفيض على المائدة، ثمَّ إنه انحنى فأنحى عليه وصفق يطلب صحناً آخر وخبزًا آخر، وهو يميل في هذه الأثناءعلى طعام الخليع، فيأخذ قطعةً من الدجاجة ويضعها أمامه، ويحاول قطعها بالشوكةوالسكين فتفلت منه إلى الأرض فيقوم فيلتقطها ويأكلها باليد، ثم يأخذ جزءًا من عشالغراب فيقضم منه فلا يألفه فيمجه ثم يرده إلى صحن الخليع ثانية ويقول: ما هذهالقشور التي يطبخونها هنا وهي عندنا شائعة على الجسور تفحص عنها الخنازير فيالأرض بأرجلها فتستخرجها ولا تأكلها، فتبقى ملقاة على ظهر الطريق لا يمسها إنسانولا حيوان، ثم يأتي الخادم بالمرق فيطلب منه خبزًا آخر فلا يكفي لامتلاء الصحن،فيعاود الطلب فيمل الخادم ويقول له: إنما أنت هنا يا سيدي في مطعم لا في مخبز.الخليع (للخادم): ما هذا الكلام البارد »يا جورج«؛ أليس لكل شيء ثمن هنا؟ونحن نأكل بدراهمنا ما نشتهي ونطلب ما نريد.

الخادم (للخليع): لا مؤاخذة فإن كلامي ليس موجهًا إليك.

الخليع: إن لم يكن الكلام لي فهو لصاحبي، وصاحبي هذا أعز عليَّ من نفسي.

العمدة: دعهُ يأت لنا بخبز ولو بالثمن ولا تشغل نفسك بما يقول مع أنه يقال: إنهذه المطاعم العالية تبذل الخبز للآكلين مجاناً.

التاجر (للخادم): أعطني أيضًا لوناً من الخضر.

العمدة (للخليع): قل للخادم يحضر لي مع لحم الفرن فحل بصل.

الخليع: كل شيء يجوز إلا أكل البصل في هذه الليلة.

العمدة: لا مؤاخذة فإن النفس الملعونة ذهبت إليه من غير ترو.

التاجر (للخادم): ائت لي بشيء من الحلوى أو الفاكهة.

العمدة: إذا كان في الفاكهة برتقال أو بلح فأعطني منه.

الخليع: ولا تنس »يا جورج« أن يكون في نصيبي من الفاكهة »مانجو« و»قشطةخضراء« و»موز« و»أناناس.«

العمدة (للخليع ممازحًا): ومن قال: إنك لست من الناس؟الخليع (للخادم): هات زجاجة نبيذ أخرى بغبارها.

قال عيسى بن هشام: ولما حضر الخادم بالفاكهة وانصرف أسرع العمدة بيده إليها،فانتقى من كل فاكهة زوجين ودسها في جيبه وهو يقول: هذه تنفعنا للتنقل بها علىالشراب فيما بعد، ثم حضر الخادم بآنية من البلور الملون فيها ماء وقشر ليمون، فوضعأمام كل واحد منهم إناء، فهم العمدة بشرب إنائه في الحال، فبادره الخليع ونزعه بيدهعن فمه.

العمدة: لماذا تمنعني عن شرب هذا »الخشاف«، وقد أنعشتني منه رائحة الزهر؟الخليع: هذا يا سيدي ماء لغسل أطراف الأصابع بعد الأكل.

التاجر: من عاش رأى!

العمدة (للخادم): الحساب »يا خواجا.«التاجر: القهوة.

الخليع: الخلال مع كأس من »الكونياك« بجانب القهوة، ويأتي الخادم بجميعهذا فيتناول العمدة ريش الخلال فيتخلل بريشة، ثم يعيدها إلى مكانها، ويأخذ أخربفينكش بها أذنه ثم يمسح ما علق بها في غطاء المائدة، ثم يلتفت إلى الخليع ويطلب منهأن يقرأ قائمة الحساب ويخبره بكميَّ ته.

الخليع: أربعون فرنكًا.

العمدة: اقرأ جيدًا فإن هذا غلط فاحش.

الخليع: قد قرأت وحسبت وأعرف أنهم لا يغالطون هنا.

العمدة: ما هذا النهب والسلب، وما هذا الإسراف والتبذير؟ لو كنا ذهبنا إلى مكانمن الأماكن التي عددناها قبل دخولنا هنا لكنا ملأنا البطون، وتمتعنا بالطعام الكثير معالثمن القليل، ولو كنا توجهنا إلى المحل الذي أبيت فيه لكنا وجدنا من الأكل ما يكفينابغير ثمن؛ لأن في غرفتي برمة أرز بحمام مما أحضرته معي من البلد، ولا شك في أنالخادم يريد أن يستغفلنا فزاد في الحساب ما أراد، وأنا رجل لا أقبل

الغفلة على نفسيولا أدفع هذا الحساب، وسأكشف لكما هذا الغش بكل طريقة، فإنه يهون عليَّ أن أبددعشرة جنيهات في الهباء ولا يهون عليَّ أن أدفع قرشًا واحدًا بطريق الغش والاختلاس.

(ـ ثم إنه رفع كأس النبيذ وهو في حدته فصك به قدحًا آخر ممتلئاً لاستدعاءالخادم، فانقلب الكأس وأهُرق النبيذ على غطاء المائدة، فحضر الخادم فعزّعليه ما رأى).

الخادم: ما هذه الليلة السوداء؟

العمدة: هذا ما أقوله أنا أيضًا، فقل لي ما هذا الغلط في الحساب؟ وهل تريدون أنلا يدخل محلّكم بعد اليوم أحد؟

الخليع: هل في الحساب غلط »يا جورج« ؟

الخادم: وأي غلط يكون في الحساب بعد الذي حصل، وهذا هو بيان الثمن أمامكل صنف؟

العمدة: أي حساب وأي بيان! ولكنك أنت الكاتب له.

الخادم: نعم أنا الكاتب له ولكنك أنت الآكل له.

العمدة: وهل أكلنا أربعين صحناً حتى ندفع أربعين فرنكًا؟الخادم
(للخليع): أرجوك أن تقنعه.

العمدة: وهل أنا جاهل حتى يقنعني؟الخليع
(وهو قائم): حاشا لله يا سيدي.

التاجر (للخليع): إلى أين؟

الخليع: أراهم وضعوا في لوح التلغرافات السياسية تلغرافًا جديدًا أريد أن أقرأه.

الخادم (للعمدة): أعطني الحساب ولا تعطلني عن الشغل.

العمدة: هاك عشرين فرنكًا لا أدفع سواها.

الخادم: ليس هنا محل المساومة في ثمن الطعام بعد أكلِه.

التاجر: زدهُ فرنكين.

الخادم: لقد كان الأولى بكم أن تأكلوا في غير هذا المكان ما دمتم بهذه الصفة.

التاجر: لا تغلط »يا خواجا«، فإن حضرته يأكل في مثل هذا المكان، وفي أعظم منه،ولكنه يحب الأمانة ويكره الاستغفال.

الخادم: وهل أنا خائن؟ وأنا صاحب شرف مثلك ومثل أعظم منك.

التاجر (للعمدة): حقيقة إنه لقليل الحياء.

العمدة: وحياتك لا أخاف منه ولا يأخذ مني غير هذا المبلغ.

صاحب المحل (وقد حضر مع الخليع): ماذا جرى؟العمدة: خادمك يسرقنا ويشتمنا.

صاحب المحل: هذا كلام لا يقال عن محلنا.

التاجر: وذاك كلام لا يقال لنا.

صاحب المحل (للخليع): عهدي بك لا تصاحب إلا الكبراء والظرفاء، فما هذاالشيخ الذي جئتنا به هذه الليلة، وقد شاهدتهُ من مكاني يفعل أفاعيل انتقدها جميعالحاضرين، فإنه كان يبلع الزبدة، ويطوي الخبز، ويمد يده إلى صحن سواه، ويعيدإليه فضلة ما يأكله، ويتناول قطعة الدجاجة من الأرض فيلتهمها، ويلوث المائدة بالمرقوالنبيذ، ويمسح يده في الغطاء، ويكسر الكأس ويختلس الفاكهة فيضعها في جيبه، ويهمبشرب ماء الغسل، وينكش أذنه بريشة الخلال، ولم يكتف بهذا كله حتى أخذ يغازلالسيدات ويغامزهن، فقمن مستقبحاتٍ مستنكراتٍ، وقام كثير من المترددين على المحلاشمئزازًا من هذه الأفاعيل، ولا أشك في أنه إذا حضر عندنا شيخ آخر مثل هذا أن يبتعدالناس ويتعطل المحل.

الخليع: ٍ لا تلقبه بلقب شيخ فإنه سعادته من الحائزين للرتبة الثانية، وله سعيٌفي رتبة التمايز، ولا تستصغر قدره فهو من كبار الأغنياء في الأرياف.

صاحب المحل (للعمدة): لا تؤاخذ الخادم يا سعادة البك فهو على كل حال خادمكوالمحل محلك.

العمدة (للخادم): يجب عليك أن تعرف الناس وتتعلم حسن المعاملة من حضرةالخواجا صاحب المحل، ووالله لولا حسن ذوقه ولطفه لما زدت عن العشرين فرنكًا،ولكني أعطي الآن ما تطلبه مراعاة لخاطره عن طيب خاطر وحسن رضاء.

صاحب المحل (للخادم): اسأل حضراتهم ماذا يشربون على حساب المحل لتأكيدالمعرفة والمسامحة فيما حصل.

قال عيسى بن هشام: ثم مال الخليع على العمدة يشير عليه بأن يطلب دورين منالشرب لإكرام صاحب المحل في مقابلة إكرامه لهم، فطلب العمدة ثم طلب، وشرب ثمشرب، وقام بعد الدفع يتمايل ويتثنى، ويتثاءب ويتمطى ويشكو للخليع فعل الكأس،وهجوم النعاس، فيقول له: هذه عادة تكون عند الامتلاء، ولا يصرفها إلا كئوس الصهباء،فهيا بنا الآن، نذهب إلى الحان، فخرجوا وخرجنا من ورائهم نستقصي بقية أنبائهم.

العمدة في الحان

قال عيسى بن هشام: وأخذوا طريقهم إلى الحان المقصود، والحوض المورود، وفيما نحننسير، بين تقدير وتفكير؛ إذ التفت الباشا إلى ذلك الفُندق الكبير، بل الخورنق والسدير،[104]فرأى فيه شموس الكهرباء مشرقة، وينابيع الضياء متدفقة، ٌّيلوح فيها زنجي الليلبقميص أبيض، ويبدو فيها أديمه كالآبنوس المفضض، وعمد المصابيح كأنها أغصاناالأشجار، أزهرت بالأنوار مكان الأنوار، فصاركل عمود منها عمود فجر، يفجر ثغرةٌ الدجنة أي فجر، وكأن منثور الشموع في ظلمة الحلك، منثور النجوم في قبَّ ة الفلك،ورأى تحتها صفوفًا من الرجال، بين صفوف من ذوات الحجال، على سُررٍ متقابلين،وأرائك متكئين، يسعدهم الجَد المقيم، ويٍَ رُفرف عليهم الرفهُ والنعيم، فطفق يسألني:أتراه محفلًا ليوم أنُس؟ أم زفافًا في بيت عُرس، أم تراها ليلة مهرجان، لقبيلٍ منالجان، نسوا تفاوت الجنس، فأنسوا إلى الأنس، وهجروا جوف الأرض لظهرها ودرجوامن بطنها إلى حجرها؟ فقلت له: نعم هؤلاء شياطين الإنس يطوون البر والبحر،ويقطعون الحزن والوعر، ويطيرون في السماء، ويمشون على الماء، ويخرقون الجبال،وينسفون القلال، ويقلبون الآكام وهادًا، ٔويبسطون الربى مهادًا، ويجعلون القفار بحارًا،ويحيلون البحار بخارًا، ويسُمعون من بالمشرقين، أصوات مَن بالمغربين، ويستنزلونلبصرك أنأى الكواكب، ويعظمون في عينك أوهى العناكب، ويجمدون الهواء، ويذيبونالحصباء، ويستحدثون الأنواء، ويزنون الضياء، ويستشفون خبايا الأحشاء، ويكشفونخفايا الأعضاء، فقال لي: أئنَّ ٍِك لتحدث عن جن سليمان، في هذا الزمان، قلت له: هؤلاءسيآح الغربيين أهل المدنية والحضارة، الناظرون إلى الشرقيين بعين المهانة والحقارة،فإن نظروا إليهم من جهة العزة فنظرةُ

---

[104] الخورنق والسدير: قصران معروفان.

العقاب من شماريخ رضوى وثبير[105] إلى جنادبالرمل وضفادع الغدير،[106] وإن نظروا إليهم من طريق العلم، ٍفنظرة معلم الإسكندر عالمَّ العلماء إلى صبي يتهجى في العين والياء، وإن نظروا إليهم من باب الصناعة، فنظرةُ

»فيدياس« ء صانع التماثيل والدمى[107] إلى بنَّ اءٍ يقيم أكواخ القُرى، وإن نظروا إليهم منجهة الغنى، فنظرة صاحب المفاتيح التي تنوء بالعصبة إلى أجير ينضح عرقًا تحتالقربة، وإن نظروا إليهم من جهة الفضائل النفسانية، فنظرة الحكيم »سقراط«، شاربالسم غرامًا بالفضيلة، إلى الشرير »أرسطُرَاط« حارق المعبد ولعًا بالرذيلة، تلك دعواهمفي نفوسهم، وقولهم بأفواههم.

وهم في رحلتهم إلى الشرق على ضربين: أهل الفراغ والجدة الذين أبطرهم الغنوألهاهم الاستمتاع ببدع المدنية ولم يبق في أعينهم جديد، فانتقمت منهم الطبيعة فيخروجهم عن سننها فسلطت عليهم داء الملل والسأم، فأصبحوا هائمين على وجوههم فيالأقطار والبلدان، وحطتهم القدرة إلى الاستشفاء من ذلك الداء بالتنقل في البلاد المنحطةعنهم في درجات المدنية والإقامة في الأقطار الباقية دونهم على الفطرة الغريزية، والضربالثاني منهم أرباب العلم والسياسة وأهل الاستعمار والاستنفاض[108] يستعملون علومهم،ويعملون أفكارهم في احتلال البلدان وامتلاك البقاع، ومنازعة الناس في موارد أرزاقهمومزاحمة الخلق في أرضهم وديارهم، فهم طلائع الخراب أدهى على الناس في السلم منطلائع الجيوش في الحرب.

قال عيسى بن هشام: وانقطع الحديث بدخول أصحابنا في الحان، واصطفافهمحول الدنان، فأخذنا مجلسنا بقربهم، ننظر ما يصُنع بهم، وإذا الخليع يلتفت عن اليمينوالشمال، ويبادر الخادم بالسؤال:

---

[105] الشماريخ جمع شمراخ: وهو رأس الجبل. ورضوى وثبير: جبلان معروفان.

[106] الجنادب: جمع جندب وهو الصغير من الجراد.

[107] الدمى: جمع دمية وهي الصورة المنقشة من الرخام أو العاج.

[108] استنفض المكان: نظر جميع ما فيه حتى يعرفه، وأهل الاستنفاض الذين يبعثون في الأرض يتجسسون.

الخليع (للخادم): ِّّ ألم يشرف دولة »البرنس« هنا في هذه الليلة؟الخادم: هو في داخل المكان وسيعود إلى مجلسه في الحال.

العمدة (مدهوشًا): هل يجيء هنا البرنسات، وهل يليق بنا أن نجلس للشرب فيمكان يحضروننا فيه، فلم اخترت هذا المحل ولم لا نذهب إلى محل سواه؟

الخليع: لا بأس علينا هنا وسترى كيف أفعل حتى لا تخرج من هنا إلا والبرنسمصافحك ومُجالسك.

العمدة: لا تهزأ بي ولا تمزح، فأين نحن من البرنسات؟

التاجر (للعمدة): لا تستبعد ذلك، فإن لبعض البرنسات أخلاقًا واسعة ونفوسًاترُابية، ومن رأيهم الاختلاط بالناس والتساوي بهم في مجتمعاتهم ومعاملاتهم.

العمدة (للخليع): وهل لك معرفة سابقة به؟

الخليع: كيف لا أعرفه ولي معه جلسة في كل ليلة؟ وكثيراً ما أوصلته آخر الليل إلىقصره.

العمدة: إنك لتبالغ؟

الخليع: لا مبالغة ودونك البرهان.

قال عيسى بن هشام: ويقوم الخليع واقفًا عند عودة البرنس إلى مجلسه، فيومئالبرنس إليه بالسلام فيتبعه إلى مائدة عليها صنوفٌ وألوان من الخمر والنُّ قل فيجلسبجانبه مع الجالسين حوله يخاطبه بصوت يسمعهُ العمدة من مكانه:

الخليع: لا زال أفندينا في أسعد حال وأنعم بال.

البرنس: وأين أنت؟ فقد سألت عنك مرارًا.

الخليع: أنا في الخدمة تحت أمر أفندينا وعند طلبه، وما منعني عن المبادرة إلىمجلسكم العالي إلا اصطحابي بصاحبين أحدهما من عمد الأرياف والآخر من تجارالثغور، لصقا بي للبقاء معهما وألحا عليَّ أن أصحبهما.

أحد الجلساء (ممازحًا): لا بل تسحبهما.

البرنس (منكتاً): وهل هنا »زريبة« يا بك؟

جميع الجلساء (ضاحكين): لله در أفندينا في هذه النكتة فما ألطفها وأرقها!

البرنس: أنا لم أتعلم التنكيت ولكن يصادفني منه بعض كلمات في بعض الأوقات.أحد الجلساء (لآخر): انظر بالله يا أخي حدة البرنس في لطافته، وشدّته في رقته،وقوة إدماجه في ألفاظه.

الجليس: وأنت ما شاء الله ما أفصحك الليلة في تعبيرك! وما أبلغك في كلامك!

أأنتتأخذ هذه الجمل عن الجرائد؟البرنس (للخليع): ماذا تشرب؟

الخليع: العفو يا مولاي فلا بد من الرجوع إلى صاحبي أولاً حتى أتخلص منهما.

البرنس: وهل هما من الأغنياء المعتبرين؟

الخليع: أما العمدة فإنه يمتلك ألف فدان، وللتاجر في بلده أعظم خان، وللعمدةعشرة وابورات للري وعنده الرتبة الثانية، وللتاجر وابور للحليج وعنده وعدٌ بالثالثة.

البرنس: لا تحرمنا من وجودك ولا بأس من استدعائهما للجلوس معنا.

أحد الجلساء (لآخر): قم بنا نفُسح لهما.

الجليس: انتظر قليلًا حتى يأتي »ِ الدور« المطلوب مع صحن بلح البحر الذي أوصعليه البرنس آنفًا.

قال عيسى بن هشام: وينصرف الخليع إلى صاحبيه لإحضارهما، فينهض له العمدةوافقًا لتبجيله وتعظيمه، فيسقط من يده »فم السجارة« على الرخام فينكسر فينحني إلىالأرض يجمع شظاياه،ً ويظهر عليه من الأسف والكدر ما لا يقدر، فيجره الخليع إليهويقول له:

الخليع: لا يليق بنا أن نكون على هذه الحال من الأسف لأجل هذا »الفم«، فإنالبرنس ينظر إلينا، وقد جئت لك بدعوة منه للجلوس معه.

العمدة: ليس أسفي على »الفم« في ذاته؛ بل لأنه تذكار عندي من حضرة مأمورالمركز، كنت أهديته فرسًا فأهداني إياه؛ فهو ثمين عندي من هذه الجهة، ولكن قل ليكيف يدعوني دولة البرنس إليه، وكيف ذكرتني له؟

التاجر: أي نعم قل لنا كيف كان ذلك وهل جرى لي ذكر عنده أيضًا؟

الخليع: قد قلت ما قلت وذكرت ما ذكرت، ويقال في المثل:»أرسل حكيمًا ولاتوُصه.«

العمدة: أحب أن أسمع تفصيل ما دار من الكلام بشأني، فإني رأيته يضحك كثيراًوأنت تكلمه.

الخليع: أخبرته بقصتك مع سمسار القطن ولطف حيلتك معه حتى حرمتهَ أجره.

التاجر: وعلى ذكر السمسار هل تعلم أن دولة البرنس باع قطنه في هذا العام؟

قال عيسى بن هشام: فكان جواب الخليع أن أخذ بيد العمدة وتبعهما التاجر حتىصاروا أمام مائدة البرنس، فطأطأ العمدة إلى ركبة دولته، فدفعه بيده فاستلمها العمدةوقبلها مرارًا بطناً وظهرًا، فتبسم له البرنس وأشار إليه بالجلوس، فامتنع واستمر واقفًاويداه إلى صدره حتى أقعده الخليع مع التاجر بجانبه بعد شدة الإلحاح.

البرنس (لأحد جلسائه): لا تنس أن تذكرني غدًا بتصوير الفرس »سيرين«، فإن»الدوك أوف بروك« أرسل إلى صاحبنا المستشار يطلب مني صورتها ليعرضها في معرضالسباق بلوندره.

الجليس: الأوفق أن يكون ذلك بحضور المستشار في اليوم الذي عينه أفندينا لهللغداء مع مفتش الري.

البرنس (للعمدة): ماذا تشرب يا حضرة الشيخ ... يا بك؟

العمدة (واقفًا على قدم التاجر): ألتمس السماح يا مولاي فإني لا أشرب شيئاً.

التاجر (متململًا من الألم): العفو يا أفندينا أستغفر الله فإن ذلك لا يليق فيحضوركم.

البرنس: لماذا جئتما هنا إن لم تشربا؟

الخليع: يشربان حسب أمر دولتكم فالامتثال فوق الأدب.

قال عيسى بن هشام: ويتناول الخليع »علبة السجارات« من أمام البرنس، فيعطيللعمدة واحدةً وللتاجر واحدةً فيتحاشى العمدة إشعالها في حضرة البرنس ظاهرًا —وربما كان غرضُهُ الباطن إبقاءها لديه أثرًا من البرنس يفتخر به عند أقرانه — ثم يأتيأحد باعة الزهور، فيهمس في أذن البرنس بكلام يقهقه له، ويأمر الخادم أن يعطيه كأسًافيشربه وينصرف، ثم يلتمس الخليع من البرنس أن يسمح للعمدة بطلب زجاجة من»الشمبانيا«، فيسمح له ويلتفت إلى العمدة يخاطبه بقوله:
البرنس (للعمدة): كيف حال المحصول عندكم، وكم رمى الفدان من القطن؟العمدة: رمى الفدان عندي سبعةً بأنفاس دولتكم.

التاجر: المحصول جيد ولكن الأثمان في هبوط، وهل باع دولة أفندينا أقطانه أمهي باقية؟

البرنس (لأحد جلسائه): أنا لا أدفع في ثمن الخنجر الذي رأيناه اليوم أكثر منعشرين جنيهًا، ولو كان عليه تاريخ صنعه لدفعت ما يطلبه صاحبك فيه.

الجليس: لا بأس به إلى الثلاثين.

البرنس: ما الذي تراه في مسابقة الخيل غدًا؟الجليس: أرى فرس البرنس سابقًا بغير شك.

قال عيسى بن هشام: ولما جاءت الزجاجة المطلوبة بادر العمدة إلى جيبه، فأخرجمنه ذلك الموز فمَسَح واحدة منه وقدمها إلى البرنس، ووزع البقية على الحاضرين، فيجدأحدهم صوفًا متلبدًا في الموز فيعافه ويتركه على المائدة.

أحد الجلساء (للعمدة): هل هذا الموز من زراعتكم، وهل تنضجونه في الصوفعندكم؟

العمدة: ً كلا يا سيدي بل هو موز »النيوبار«، ولم يمكث في جيبي غير مسافةالطريق، ومعي أيضًا برتقال أحمر وبلح أصفر وقشطة خضراء.

أحد الجلساء: أظن أن لكم شركة مع حسن بك عيد في تجارة الفاكهة؟التاجر: حضرته لا يشتغل بالتجارة، وليس كل الناس من يقدم عليها فهي ربحمحفوف بالخطر.

العمدة (للخادم): أحضر لنا أيضًا زجاجة شمبانيا إنكليزي.

أحد الجلساء (لآخر): يظهر أن الفدان رمى بعشرة.

الجليس: في البنك العقاري.

البرنس: وما معني إنكليزي؟الجليس: يعني أنها من جنس الجنيه.

قال عيسى بن هشام: وفي هذه الأثناء يعود بائع الزهور فيلقي في أذن البرنسكلامًا، فيقوم البرنس في الحال ويخرج والبائع في أثره، ثم يتسلل الجلساء من بعدهواحدًا واحدًا فلا يبقي منهم أحد، وتخلو المائدة للعمدة فيشرب سؤر الكأس التي تركهاالبرنس، ويميل على ما بقي في آنية النقل فيأتي عليه أكلًا.

التاجر (للعمدة): ينبغي أن تطلب من الخادم غيرها قبل حضور دولة البرنس.

العمدة: أنا لا أطلب شيئاً إلا في حضور دولته.

الخليع: أظن أن دولته لا يعود في هذه الليلة، وهذه عادته إذا هو قام مع أحدالباعة عند تمام نشوته.

العمدة: ولكنني لم أره دفع شيئاً من الحساب.

التاجر: لعل لهُ هنا حساباً جارياً.

الخليع: نسأل الخادم.

العمدة (للخادم): ألم يدفع دولة البرنس شيئاً؟الخادم: لم يدفع شيئاً قبل خروجه.

الخليع: وكم الحساب؟

الخادم: مائة وواحد وعشرون فرنكًا.

العمدة: أنا لا أصدق أن أفندينا يخرج من غير أن يدفع ما عليه من الحساب، ومعذلك فلننتظر عودته.

الخادم: إذا قام البرنس على هذه الصورة فإنه لا يعود، وإن أردت أن لا تدفع ثمنما شربه البرنس فأنا أقيده في حسابه.

العمدة: وأنا إذا كنت أدفع شيئاً، فلا أدفع إلا ثمن ما شربه دولة البرنس وحده.

(وفيما هم على هذا النزاع؛ إذ دخل أحد وكلاء المديريات، فينهض العمدةلمقابلته ويلح عليه في الجلوس معه، ثم يلتفت إلى الخادم بصوت عال:)

العمدة: عليَّ ٍّ بتفصيل الحساب وبين لي فيه ما شربه دولة البرنس، وما أكله دولةالبرنس، وبكم شرب أصحاب البرنس، وكم شربنا مع البرنس، وكم شرب قبلنا البرنس،واسأل سعادة البك الوكيل ماذا يشرب وعُد لأدفع لك كل الثمن المطلوب.

الوكيل: أنا لا أشرب شيئاً.

العمدة: كيف لا تتفضل علينا بالشرب معنا كما تفضل دولة البرنس إرضاءًلخاطرنا؟

الوكيل: لا بأس أن أشرب كأسًا واحدًا من »الكنياك.«

العمدة: لا والله لا تشرب إلا »شمبانيا« كما شرب معنا دولة البرنس.

الخليع (للعمدة): لماذا لم تقدمنا للتعارف بسعادة البك؟

العمدة: سعادته وكيل مديريتنا، وحضرته (مشيراً إلى التاجر) من أكابر التجار،وحضرته (مشيراً إلى الخليع) من ظرفاء مصر.

الخليع (للوكيل): تشَرفنا بهذه المعرفة، وكيف حال سعادة المدير، فهو من أعزأصحابي وطالما قضينا معه أوقات أنس وسرور؟

العمدة (للوكيل): أظن أن سعادتكم حضرتم إلى مصر في عقب كشف الرتب المقدمإلى الداخلية.

الوكيل: نعم كنت اليوم في الداخلية، وسينتهي الأمر إن شاء الله على ما نحب.

العمدة (للخادم): زجاجة شمبانيا أخرى.

الوكيل: يكفي فإني أريد أن أنتقل إلى داخل المكان في مجلس إخواننا القضاةووكلاء النيابة.

الخليع: لا لزوم؛ لانتقال سعادتكم، فأنا أدعوهم للجلوس معنا وفيهم فلان وفلانمن أعز أصدقائي.

الوكيل: لا تكلف خاطرك بذلك، فإن الأليق أن أذهب للجلوس معهم.

العمدة (للوكيل): إذا كان الأمر كذلك، فكلنا نقوم مع سعادتكم ويأتينا الخادمبزجاجة الشمبانيا هناك.

الوكيل: إن أردت ذلك فلا بأس.

قال عيسى بن هشام: فيقومون فيجلسون مع أهل ذلك المجلس، ويحضر الخادمبزجاجة الشمبانيا فيرجوهم العمدة الشرب منها فيمتنعون، فيشدد فيمتنعون؛ فيقسمعليهم بالطلاق وهو يتلعثم سكرًا إلا شربوا معه، ثم يتناول الكأس ويقوم متساندًا علىالخليع ليشرب معهم فما يكاد يضع الكأس في فيه حتى تأخذه غصةٌ فلا يملك نفسهعن رد الفعل فتتلوث ثيابه، ويبادر الخليع مع الخادم إلى سحبه داخل المكان ليصلح مافسد من أمره.

ثم لبثنا مدة ننتظر العمدة، ونترقب له الرجعة والعودة، حتى أقبل يتهادى فيمشيته، بعد أن أفاق من غشيته، وعمد إلى الخروج والخليع عن يمينه يناجيه، والتاجرعن شماله يرائيه ويداجيه.

العمدة في المرقص

قال عيسى بن هشام: ولما خرجوا من ذلك المحفل، ونحن أتبع لهم من الظل، سمعناالعمدة يشكو للخليع في طريقه، ما يجده من انقباض الصدر وضيقه، ويسأل التفريجلكربه، والترويـح عن قلبه، ويذكره بما كان من الوعود، ويطالبه بزيارة ذلك المجلسالمعدود، ويقول له: تالله لقد أنصبتنا وأجهدتنا، فهلم بنا الآن إلى ما وعدتنا، لنربأ عناالهم بربيئات الخدود.

ونكشف عن الغم بكاسفات البدور، ونجلو أعيننا بنجل العيون، وننعش أنفسنابناعسات الجفون، ٍونستصبح ليلتنا بالوجوه الصباح، قبل أن يصبحنا جيش الصباح،فيقطع عليه الخليع كلامه، ويدفع عن نفسه ملامه، بأن طول الانتظار، يذهب بحسنالاصطبار، ولا صبر لذوات الدلال، على خلف الوعود من الرجال، وقد جاءني رسولها فيغفوتك برسالة، تشكو فيها ما لحقها من السآمة والملامة، وتنُحي عليَّ بالعتاب المر، وأنما فعلته معها ليس بفعل الحر؛ إذ اخترقت من أجلنا ما اخترقته من السجوف والكلل،[109] وتحملت في مجيئها ما تحملته من الخوف والوجل، حذر الوشاة والرقباء، وخشية الأهلوالقرباء، ثم إنها أقامت طويلًا في انتظار اللقاء، وهي على مثل حر الرمضاء، فإذا الوعدبلا وفاء، ًوإذا الدين بلا قضاء، وكأنما كانت تنتظر غائباً لا يؤوب، وتستمطر سحاباًلا يسح ولا يصوب، فذهبت بحسرتها، ومضت لطيَّ تها،[110] وفاتنا ما كنا نبتغيه، وأيأسناما كنا نرتجيه، وتلك فرصة أضعناها، لنزغة شيطانٍ أطعناها، فيقول التاجر: إذًا ماالذي اكتسبناه، بعد الذي احتسبناه؟ وماذا أفدناه، بعد الذي فقدناه؟ وأين منا ما نجمبه شملنا، ونبدد به

---

[109] السجوف: جمع سجف وهو الستر. والكلل: جمع كلة، وهي ستر رقيق.

[110] مضى لطيته: أي لنيته التي انتواها.

ليلنا؟ فيقول له الخليع: لم يبق أمامنا في هذه الساعة سوى ملاعبالرقص والخلاعة، عسانا نجد فيها بديلًا، مما لم نجد إليه سبيلًا، فيخُرج العمدة دراهمهفيعدها، ثم يخشخش بها ويردها فيقول له التاجر: ًلا تهتم فدرهم الأنس ميسر، ويقولللخليع: تقدم، فما من شيء عليك معسر، فيعطف بهما الخليع من غير إبطاء، إلى حانللرقص والغناء، فدخلوه ودخلنا من خلفهم، وجلسوا وجلسنا في صفهم، فرأينا المكانحومة وغى احتدم وطيسه، وميدان حرب اصطدم خميسُه،[111] عجاجته الدخان، ومتارسةٍّ الدنان، وسلاحه الأباريق والأقداح، ودروعه الغلالة والوشاح، ونباله أصمة القوارير،[112] وطبوله توقيع العيدان والمزامير، ومغافره العصائب والأكاليل،[113] وأعلامه المآزر والمناديل،وقُ ًواده وشجعانهُ ُ، قُ ًواده وغلمانه، وكأن منصة الرقص هي حصنه الحصين، وصاحبالحان هو قائد الكمين، وكأن المغنين هم الكماة والأقران والراقصات الحماة والفرسان.

أولاتُ ًالظلم[114] ٍجئن بشرظلمٍ وق د واج ه نَنَا م ت ظ ٍل ِم
اتف وارس ف ت ن ةٍ أع لام غ ٍي لِقَ ينك بالأساور م ُ علمات

وترى كل ذات ثدي حاسر بارز تنادي: هل من منازل أو مبارز؟ ثم تتبختر وتجول،وتخطر وتصول،ً فترمي كل طامع في وصالها، بسهام اللحاظ ونصالها، ثم ترشق بهاالدنان تارةً فتسيل بدم العقار، وتشق بها الجيوب أخرى فتسيل بدم النضار:

---

[111] الخميس: الجيش.

[112] صمامة القارورة: سدادها.

[113] المغفر: زرد ينسج من الدروع على قد الرأس.

[114] الظلم: ماء الأسنان وبريقها.

وقد أُغمِدن في أزُر ولكن سيوفُ لحاظهن مجـٍ رداتقد حن
زناد شوقٍ من زُنودٍ ب نِ ارحٍ ل يِّ ه ا م ت وق دات

وترى في وسط تلك المعركة، من كل هلوُكٍ مهلكة،[115] تنساب في حلة رقصها وتسعى،كأنها حية في قميصها أو أفعى، لعاب الأفاعي القاتلات لعُابها، وأنياب الأسود الضارياتأنيابها، تنفث السم رائحةً وتنتهش غادية، وإن رأيتها شادنةً وسمعتها شادية، فتربالقوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

قال عيسى بن هشام: ولما طال جلوسنا، وضاقت أنفاسنا، وكاد يغمى علينا من كريهالروائح المنبعثة من أرجاء المكان المتصاعدة من أكنافه: رائحة عكر الخمور، ورائحة عرقالأبدان، ورائحة زيت المصابيح، ورائحة الدخان والحشيش، ورائحة أنفاس المخمورين،ورائحة تلك المراحيض التي لم يدخلها ماء، ورائحة الأرض التي تسقى بالأقذار ولمتسطع فيها شمسٌ ولم يتغير عليها هواء، فإذا امتزجت هذه الروائح بعضها ببعض،انعقدت منها في جو المكان سحابة سوداء تمطر الأدواء، وتساقط الأوباء، فتستنشقهاالأنوف وتمتصها الرئات وتضوَى بها الأجسام وتتضاءل منها ذبُالات المصابيح تضَاؤُلهافي أجواف المناجم وبطون الكهوف،ـٍ وكاد الباشا يختنق وهم به الغثيان فهم بالقيامفأمسكت به وقلت له:

عيسى بن هشام: أيصير مثلي على هذا المقام، ولم أشهد في عمري معركة ولمأحضر معمعمةً، ثم يجزع منه مثلك وقد مارست الحروب وشاهدت الوقائع تحت سحبالعجاج وفوق جثث القتلى، وأشلاء الجرحى لا تبالي برائحة الجيفة، ولا برائحة الدممزوجًا بصدأ الحديد؟

الباشا: لقد كان ذلك ولكن في الخلوات والفلوات، حيث تسطع الشمس وتجريالرياح، ولم أستنشق تلك الروائح منحصرةً كانحصارها في هذا المكان، ومع

[115] الهلوك: الفاجرة.

ذلك أتجلدمثلك للبقاء به كيلا يفوتنا شيء مما نحن بصدده من بداية الأمر إلى نهايته.

وبينا نحن كذلك إذا بصديق لي دنا مني فسلم عليَّ ، وأظهر لي تعجبه مندخولي هذا المحل، فأظهرتُ له تعجبي من دخوله أيضًا فأجابني بقوله:

الصديق: إن السبب في دخولي هنا هو البحث عن رجل احتال عليَّ في بعض الشئونثم غاب عن نظري، وأنا أعلم أنه يأوي إلى مثل هذا المكان فدخلته على كره مني بعد أنحرمت على نفسي التردد عليه منذ زمان بعيد، وحُكمُ الضرورة مطاع، ولكن قل أنت ماالذي جاء بك إلى هذا الوكر وكر الأفاعي، وأدخلك في هذا العُ ِش عش الشيطان؟عيسى بن هشام: أدخَلَناَ فيه حب الاستطلاع والاستكشاف عن الأخلاق والعادات،ولكنني فيه غريب لا أفقه كثيراً مما أرى، والحمد لله الذي سخرك لنا في هذه الساعة؛لتبين لنا ما غمض وتبُدي لنا ما يخفَى.

الصديق: لك ذلك مني وفوق ما تريد.

قال عيسى بن هشام: وجلس الصديق معنا يحدثنا ويرشدنا، ويسرد علينا من غرائبالوقائع وعجائب النوادر في هذا الباب ما أدهشنا به، ثم انقطع الحديث بيننا بدخولرجل يتمايل سكرًا، فاخترق صفوف الجالسين وقد سكنت ضوضاؤهم، وهدأت حركاتهملسماع الغناء من إحدى القيان البارعات فيه، فأعناقهم نحوها مشرئبَّ ة وأبصارهم إليهاشاخصة كأنهم جالسون تحت المنبر يستمعون أحسن الحديث من وعظ الخطيب،واستمر السكران في سيره يقع بينهم مرة ويقوم أخرى، حتى وصل إلى منصة الرقصوالغناء، فضرب عليها مرارًا بعصا في يده ونادى على من فيها بأعلى صوته يطلب العدولعن الغناء إلى الرقص، فلم يسمعوا لندائه، فالتفت إلى زمرة من الجالسين وطلب منهممساعدته على غرضه فنادوا معه: الرقص الرقص، ونادى الراغبون في السماع: الغناءالغناء، فانبرى لهم السكران يهزأ بذوقهم ويسفههم في سوء اختيارهم، فأجابه سفيهمنهم على سفاهته، فهجم عليه السكران بعصاه فقفز صاحب الحان من مكمنه إلىالسكران فأخذ بتلابيبه، ويقوم طالب

الغناءِ حينئذ من مكانه فيشبع السكران ضرباًوصفعًا فيتعلق السكران بخناقه وينادي: البوليسَ البوليسَ، فيجتمع غلمان الحانٌّ يجرونه إلى الخارج وهو ممسك بعنق الضارب له لا يخليه، حتى إذا صاروا إلى البابأدركهم جندي البوليس، وقبض على المتضاربين فيتعرض له صاحب الحان، ويمنعه منالقبض على الضارب ويقول له: ليس لك إلا أن تأخذ هذا السكران وحده فقد جاءنا بعدأن امتلأ سكرًا من الخارج يعربد في محلنا، وكأنه مأجور من أرباب الحانات الأخربللإضرار بنا وإحداث الفشل في محلنا، فيأبىَ الجندي إلا أن يسوق المتضاربين معًا،فيغمزه صاحب الحان ليلين له فيبتدره أحد غلمانه قائلًا له: لا لزوم لما تأتيه مع هذاالجندي من المصانعة، وغرضُنا يقُضى بدونه فإن حضرة معاون القسم جالس عندناداخل »البار« مع صاحبته.

صاحب الحان

(للجندي): لم يبق لك من وجه لسحبهما إلى القسم، وتعالوا ندخل جميعًا عند حضرة المعاون في »البار.«

الجندي: هذه حيلة غير خافية تريد بها تهريب صاحبك، وكيف يكون حضرةالمعاون موجودًا الآن في »البار« والنوبة عليه الليلة في القسم!

صاحب الحان: ما عليك إلا أن تدخل وهما في قبضتك لتراه بعينك، فيجيب الجنديصاحب الحان إلى ذلك، فيدخل فيرى المعاون جالسًا بجانب صاحبته خالعًا رداءه علىكتفها، وطربوشه على رأسها وهو يسقيها من كأسه وتعاطيه من كأسها.

صاحب الحان (للمعاون): لقد تعطل المحل يا حضرة الأفندي في هذه الليلةوتعطيله لا يرضيك، فإن هذا الرجل دخل علينا سكران ولم يشرب من محلي شيئاً فعربدبين الجالسين،ً وأخل بنظام الاجتماع، ثم تعدى على هذا البك بالشتم والضرب وهو منأجل المترددين على المحل، والغريب أن جندي البوليس هذا لم يسمع لقولي فيه،ً بل صممَّ على سحبه مع ذلك المتعدي إلى القسم وهو من أبناء الكرام، ولا يليق بكرامته أن يساقمع هذا السكران إلى المحاكمة.

المعاون (للجندي بعد أن يلبس طربوشه): ما هذا الذي أسمعه؟

الجندي (رافعًا يده بسلام التعظيم): لم أعلم بوجود حضرتكم هنا، والأمر إليكم.

المعاون (للجندي): إذا كان الرجل السكران في حالة سكر بين فخذهُ وحده إلىالقسم، وما دام حضرة البك لم يحصل منه اعتداء بشهادة حضرة الخواجة، فلا لزوملذهابه معك، ويكفي أن حضرته يعطينا وعدًا بالحضور غدًا إلى القسم لأخذ شهادتهعلى هذا السكران.

(وعند ذلك يدفع صاحب الحان بالسكران إلى الخارج مع الجندي).

الجندي: إذا كنت تطاوع غلامك كل مرة فيما يشير به عليك يا حضرة الخواجة،فليس يكون حضرة المعاون عندك في كل ليلة والأيام بيننا.

هشامصاحب الحان

صاحب الحان: ًّّأوصيك بهذا السكران شرا، ولا يكن عندك شك في دوام الرعايةبك.

قال عيسى بن هشام: وخرج السكران أمام الجندي مدفوعًا في ظهره، يقع ويقومويستعدي ويستنجد، وعدنا إلى داخل الحان ننظر ما يجري فيه، فإذا صاحب الحانومعه البك خصيم السكران قد جلسا مع حضرة المعاون والكئوس تغدو عليهم وتروح،فجلسنا ناحيةً نستمع لهم ونؤثر ما يجري من حديثهم على نحو ما ترى:

(للمعاون): لماذا أوعزت إلى صاحبتك بالقيام عند جلوسنا معك؟المعاون: أنا لم أوعز إليها بشيء ولكنها هي التي قامت مُغضبة.

صاحب الحان: ولأي سببٍ أغضبتها؟

المعاون: لم آت سبباً يغضبها، بل هي التي انتحلت سبباً كدرتني به وكدرت نفسهاأيضًا.

صاحب الحان: لا شك أن ما حصل هو من باب الدلال دون سواه، وسأدعوها فيالحال لعقد الصلح بينكما.

المعاون: لا دخل للدلال هنا، ولكن جرى في أمر حضرة البك والسكران ما هو علىخلاف هواها، فإنها كانت ترغب في التضييق على الأول والتفريج عن الثاني؛ لأن حضرةالبك هو من أكبر أصحاب المغنية، والمغنية من ألدّ أعدائها.

صاحب الحان: لقد حرتُ في أمر هذه الفتاة، فإن ضروب حماقتها لا حد لها وفيَّ كل ليلة تأتيني بنوع من المشاكل جديد ينتج عنه ما لا يعوض من خسارتي، ولولامنزلتك عندي ومنزلتها عندك لما أبقيتها في المحل يومًا واحدًا، ولا كابدت إعطاءها في كلشهر مقدار ما يأخذه وكيل المديرية مرتباً من الحكومة، ولو شاهدت منها ما أشاهدهكل ليلة من تسافهها على الرجال، وتخاصمها مع النساء اعتمادًا على سلطتك واتكالاً علىمساعدتك لعلمت مقدار حماقتها وجنونها.

صاحب الحان

المعاون: نعم إن حماقتها عظيمة وطالما شددت عليها؛ لتجنب المنازعات والمشاجراتحتى لا يقال: إن علاقتها بي هي التي تجرئها على ارتكاب ذلك، ولكنها على كل حالسليمة القلب خفيفة الروح.

صاحب الحان: صدقتَ وهي مع ذلك تحبك حبًّا صادقًا.

(وهنا تدخل المغنية في البار بعد انتهائها من الغناء، فتتقدم نحو هذا المجلسلتسأل من حضرة البك صاحبها عما تم عليه أمر المخاصمة مع السكرانفيقول لها).

البك: أنا في غاية التشكر لحضرة المعاون الذي أنصفني، وفي غاية التكدر لما وقعله من فلانة بسببي، فإنها اهتاجت غضباً لما علمت بمساعدته لي وهي تبغضني لعلاقتيبك، فبحياتي عليك إلا ما قبلت التوسط في الصلح بينكما، وإزالة ما في النفوس فتعودراضية على حضرة المعاون ويتم الصفو لنا جميعًا.

: أنا أوافق على هذا الرأي.

المعاون: وأنا لا أرفضه.

البك: وأنا أرسل في طلبها.

قال عيسى بن هشام: وتحضر الفتاة فيقع نظرها على المغنية جالسة مع المعاونوأصحابه، فتشتعل جذوة نار من الغضب وتنقلب لبُؤةً هاجت لفقد أشبالها، فتشتمُّ وتسب وتقذف وتلعن وتنفل وتبصق وتنقض على المغنية فتأخذ ببرقعها فتزيلها منمكانها، وتلتفت إلى المعاون فتتوعده بالشكاية والطعن فيه لدى رؤسائه، ثم إلى صاحبالحان فتتهدده بأنها لا ترقص في ليلتها، فلا يسع صاحب الحان إلا أن يتلافى الفضيحة،فيجرها إلى خارج البار بالقوة ليتمكن المعاون أن يتسلل هارباً، ثم أخذ ينصحهاويحذرها ويقول لها: إن المعاون قد ذهب إلى القسم الآن وقلبه مملوءٌ منك حقدًا وغيظًا،فإذا أنت لم ترجعي عن حماقتك وتصعدي إلى المنصة للرقص أوعزت إلى المغنية أنتمسك بك وتذهب معك إلى القسم،

والحاضرون يشهدون أنك تعديت عليها بالضرب،والمعاون هناك ينتظرك للتشفي منك.

قال عيسى بن هشام: فوقع هذا القول منها وقع الماء في النار، وإنذار الحجز على أهلالدار، فهدأ جأشها، وسكن طيشها، وصعدت للرقص على منصتها،ً تتأوه من حسرتهاوغصتها، وعُدنا للجلوس أمام الميدان. ننظر ما يكون من الغلبة والخسران.

قال عيسى بن هشام: وجاءَ دور الرقص فضجت الغوغاء، واشتدت الضوضاء،وامتدت الأعناق بالصفير والنعيق،ً واشتغلت الأكف بالتصفيق، ترحيباً وتأهيلًا، وتكبيراًوتهليلًاً؛ إذ قامت على المنصة هلوكٌ ورهاء،[116] عمشاء مرهاء،[117] فطساءُ فوهاء، عجفاءشوهاء[118]ً مزججة الحاجبين، محمرة الخدين،ً مبيضة الساعدين،ً مخضبة اليدين، قدألبست وجهها من الطلاء نقاباً، وأسدلت على أطرافها من الدهان ثياباً بأصباغ شتَّ ىوألوان، بين أبيض ناصع وأسود فاحم وأحمر قان،ًتتلون تلون الحرباء، في هجير البيداء،وقد وارت ما تعرض من جسمها، وتعرى من لحمها، بأنواع العقود والقلائد والأساور

[116] الورهاء: الحمقاء.

[117] المرهاء: التي ابيضت بواطن أجفانها.

[118] العجفاء: المهزولة.

والمعاضد، والدمالج والجلاجل، والمناطق والخلاخل، فأخذت في الرقص والحجلان، علىتوقيع الضروب والألحان، وبجانبها خادم ما شككنا من قبح هيئته، أنه إبليس اللعينفي طلعته، رُكِّبت منه أقبح هامة، على أسوأ قامة، بوجه قُدَّ من الصخر، وعين كعينالصقر، وأنف كمنسر النسر، وفم يرمي بالزبد كالبحر، وشفةٍ مهدولة، وعمامة مجدولة،وفي يمينه قدح وإبريق، يسقيها منه بكأس من حريق، لا بكأس من رحيق، ويعاطيهامن غسلين أو قطران،[119] ويجرعها من حميم آن، وكلما أترع لها كأسًا، همست فيأذنه همسًا، ثم تشير بطرف الكف، إلى بعض الجلوس في أول صف، فيصيح اللعينصيحة الأسد في عريسته،[120] وقع بصره على فريسته، فيجيبه غلام الحان جذلاً وابتهاجًا،ويأتيه بالزجاجات أزواجًا، فيفض عنها الفدام، ويصففها أمامها تحت الأقدام، ولايزال خادمها يملأ لها ويسكب، وهي تشرب وتطلب لا تكتفي ولا تقتنع، ولا تروىولا تنقع، كأنما يمتح لها من قليب،[121] ويصب في وادٍ جديب، أو يملأ من ماء منبثق،ويفرغ في دن منخرق، فإذا دبت في عروقها نمال الخمر، واشتعلت في جوفها اشتعالالجمر، جدت في لعبها ودَوَرَانها، واشتدت في قفزها وجولانها، وتلوت كالحية في طرقها، ولعبت كالسلحفاة بعنقها، والخادم أمامها ينازلها وتنازله، ويغازلها وتغازله، ويراقصهاوتراقصه، ويقارصها وتقارصه، وهي ترسل على الحاضرين أقوالاً بذيئة، وتخاطبهمبألفاظ قبيحة رديئة، فتفتر لها الثغور، وتنشرح الصدور، ليس فيهم إلا كل مستحسنمستزيد، ومستملح مستعيد، إلى أن تخُور قُواها، وتغور عيناها، وتتقلص شفتاها ويكلحشدقاها، وينضح العرق من أطرافها وتراقيها، وينعقد الزبد بنحرها وفيها، فتضطر إلىإزالته، وتعمد لإزاحته، فتتناول المنديل تمسح به من وجهها وذراعها فيتلون بأشكالالصبغة وأنواعها، فيغدو المنديل كأنه قوس قزح، بما تصبب من أديمها وارتشح،وينكشف التمويه والتلبيس، ويفتضح التلفيق والتدليس، فيظهر ما بطن ويبرز ما

[119] الغسلين: ما يسيل من جلود أهل النار.

[120] العريسة: بيت الأسد.

[121] القليب: البئر.

كمن،وتنقلب إلى صورة سعلاة، تتراءى في سراب فلاة، أو غُول تكشر وتصول، أو دب يهتزويدب، فحولنا عنها الوجوه استنكافًا واستنكارًا، ولوينا الأناق استقباحًا واستقذارًا،ومال الباشا على الصديق يسائله في دهشته، ويقول له في نفرته: أعلى مثل هذه تذوبالقلوب،؟وتنشق المرائر والجيوب؟ وهل وصل العمى بالناس إلى هذا الحد، ولم يبق فيهمتمييز للغزال من القرد؟

الصديق: نعم إن هذه التي تهرب منها الوحوش لفظاعتها، ويتعوذ منها الشيطانلدمامتها، هي عند هؤلاء الحاضرين دمية القصر، وفريدة العصر، كم ذهبت بأموالوأودت بأرواح، وكم أضاعت شرفًا وأزالت مجدًا، وأذلت رقاباً وأفسدت حكامًا، وكم فرقتبين المرء وزوجه، وولدت العقوق بين الوالد وولده، وألهبت العداوة بين الأخ وأخيه، وكمخربت بيوتاً عامرة، ودنست أنساباً طاهرة، وكم بذرت للشر أسباباً، وفتحت للسجونأبواباً، وهؤلاء الذين تراهم جلوسًا في هذا المستنقع الوبيء والمرعى الوبيل يقضون فيهليالي الشهر تباعًا، وشهور العام ردافًا لا تتوهمنَّ هم من أسافل القوم ولا من أدنياءالناس،ّ بل فيهم الكبير والأمير والسري والوجيه، وانظر عن يمينك إلى هذا الجالس بينإخوانه جلسة الكبرياء، فهو أحد أبناء الأمراء، مات أبوه وترك له أموالاً جمة فالتف حولهقرناء السوء من أهل البطالة والفراغ، ّ
فبدأ في تبديد تلك الأموال باقتناء الخيول المسومة،والمركبات المطهمة، ثم ثنى بالإسراف الفاحش في مهرجان زواجه، ثم ثلث بتسليم مابقي منها لأيدي العواهر والفواجر،؟وأخصهن هذه اللخناء التي لم يبق له منها إلا التمتعبالنظر، وهي لا تنظر إليه، ولا تسأل عنه بعد أن استفرغت أمواله، وانظر عن شمالكإلى هذا الجالس الذي يفتل شاربيه، ويحملق بعينيه، ويغمز بحاجبيه، فهو من أبناءالكبراء أيضًا ماتت أمه فورث عنها أموالاً طائلة، ولم يمض على موتها بعضة أيام حتىأوقعه سوء طالعه في مخالب هذه الخداعة الغرارة، فهو لا يصبر عنها، ولا يقطع المجيءإليها في كل ليلة، وهي تسلبه كل ما تصل إليه يده من خفيف وثقيل، وما كان لأمه منحلي وجواهر غير ما ينثرُه من الذهب والفضة في أرض هذا المكان، وانظر أمامك إليَّ هذا الجالس معظمًا بين جلسائه مبجلًا، فهو من كبار الحكام في الأرياف وقع في أشراكهذه المرأة

فكادت لفظاعة أعمالها معه أن تسلخه من شرفه، وتسقطه عن منصبه وهومع ذلك لا يسلوها، ولا يلهو عنها، وليس له في مدة إقامته بالقاهرة غير بيتها مأوى،ومرقصها ملهى، فإذا هو عاد إلى مقر وظيفتِه عاد بغير لبه، فيسعى في استغواء العمدوالأعيان لإقامة الولائم والحفلات، واستئجار هذه الراقصة لإحياء لياليها، وانظر إلى هذاالشيخ الجالس منفردًا منزوياً ويده مرتشقة بين صدغه وعمامته، فهو من أعيان البلدلم يمنعه وقار السن وهيبة المشيب من الوقوع في أسر هذه الغاوية؛ فأخذ يبدد عندهافي شيخوخته ما كان جمعه في شبيبته.

الباشا: لو أنه كان لهذه المرأة مزية ظاهرة من مزايا النساء لقلنا: الهوى في الناسداء قديم، والولوع بالحسان أمرٌ بديهٌ والعذر غير معدوم، ولكن ما بالهم والمرأة في القبحوالدمامة بمنزلة الشيطان، والهروب منها مندوب إليه، فهل تعلم لذلك من سبب خفي؟

الصديق: السبب فيه حب التباهي والتفاخر والأثرة، والاختصاص، وقد اشتهرتهذه البغي بإتقان الرقص والتفرد فيه، وأنفُسُ الجهلاء مولعة بالشهرة الباطلة والصيتالكاذب يتشبثون به عُميَ النواظر، عُمْهَ البصائر، فهم يرون أن الاختصاص بمثل هذهالشهيرة في فنها وإن قبح منظرها، وساء مخبَرهُا هو الفخر كل الفخر والسبق كلالسبق، وهم مجبولون على الحكاية والتقليد؛ فلذلك نفذ فيهم سهمها وسرى في عروقهم
ّ ُ سمها.

الباشا: إن كان لا يوجد في هؤلاء الناس عقول تردعهم، ولا يوجد بينهم واعظيرشدهم، أفلا كان هناك من سلطان يزعهم، وحكم يكف الأذى عنهم؟

الصديق: لا واعظ ولا ناصح ولا سلطان ولا وازع، وقَ ّل بيننا من يشتغل للناس فينفع الناس.

قال عيسى بن هشام: وانتهت الراقصة من رقصها، فدخلت حجرة لتغيير لباسهاوإصلاح ما فسد من حالها،ّ ثم نزلت منها وقد جددت ألوانها وأدهانها وسارت تتكسرفي مشيتها بين الجموع وهم يرمقونها رمق الشهوة،ُ ويتطلعون إليها

تطلع البهيميةفتزحزحت لها المجالس وحُ ًلت لها الحُبى، وأعد لها كل فريق كرسيًّا بجانبه وتناثرتعليها الإشارات بالتفضل بالجلوس، فلم تعبأ بشيء من ذلك ولم تلتفت إليه، واستمرتفي تكسرها وتهاديها حتى وصلت إلى مقام صاحب الحان، فوقفت معه ملاعبةً مداعبةوممازحة مضاحكة، وجاء خادمها في عقبها فاستوقفه إليه ذلك الحاكم من حكامالأرياف، فوقف بجانبه يهزل معه ويمزح، ثم شاهدنا الحاكم يخرج من جيبه بعضالدراهم فوضعها في يده، فانصرف الخادم إلى الراقصة فكلمها وأشار بيده إلى الحاكميستعطفها له، ويستدعيها إلى الجلوس معه، فأبانت عن أمارات الإباء والرفض في أولالأمر، ثم انتهت بها لجاجة الخادم إلى الرضاء والقبول، فقصدت مجلس الحاكم وقصدالخادم غلام الحان، فما جلست حتى كان الغلام بجانبها يحمل في يده أربع زجاجاتمن الشمبانيا فبزلها كلها بمبزله،[122] ففارت وفاضت وانتشرت كلها حببا والغلام متلاهعنها لا يسرع الإملاء منها، حتى إذا لم يبق بها إلا مقدار صبابه[123] صبَّ ها الخبيث فيالأقداح وقدمها للفاجرة، فبادرت إلى لمس كل كأس لمسةً بيدها وفيها، ثم يعود الغلامبعد هنيهة لأخذ الزجاجات الفارغة فتأمره بإحضار سواها، وهكذا يتوالى الحال فيطلب الأدوار حتى يبلغ إلى الدور الخامس في مدة يسيرة، وجميع الجالسين لا يتحولونبنظرهم عنها يراقبون حركاتها وسكناتها، كأنما يرصدون نجمًا أو يرقبون هلالاً، ولماانقطع ورود الزجاجات التفتت العاهرة إلى خادمها وهو على بعد منها، فرأته يشير إليهابحاجبيه تارة وبطرف لسانه أخرى فهمت بالقيام، فأمسك الحاكم بأذيالها فصفعتهصفعة مزاح على قفاه، ًبعد أن لعنت أمه وأباه، استرضاءً له عن تركها إياه، فهشوبش اعتقادًا منه أنها لا تعامله بهذه المعاملة إلا لسقوط الكلفة وتمكن الألفة، وتنسلمن حضرته إلى حيث أشار الخادم، فتهبط على الفئة التي عن يميننا وفيها ذلك الشابالذي أفنى في حبها ماله وأضاع في هواها شرفَه، فخاطبته بلسان اللوم والعذل تسألهلأي سبب دعاها، ولأجل أية علة أقلقها من مكانها، فيتلعثم المسكين ثم يجيبها بأنهدعاها لمصلحتها

[122] بزل الخمر: ثقب إناءها والمبزل المثقب.

[123] الصبابة: البقية في الإناء.

وقضاء حاجتها، فإن المحامي أخبره بنجاح قضيتها، فتتبسم له قليلًاثم تلتفت عنه إلى سواه، فيستحلفها بالود القديم والعهد العتيق أن تجلس معه لمحةليقص عليها تفصيل الخبر، فتتنفر منه فيرميها بسوء الوفاء وخيانة العشرة، ويبكتهاً مذكرًا لها بما كان بينهما من الصفاء والهناء، وما أتلفه في معاشرتها من نضار وعقار،فتلطمه على وجهه لطمة المعلم المؤدب وتجلس إلى جانبه، وتسأله أن يدع عنه ذكر تلكالليالي والأيام الخوالي، وأن يحفظ عنها »قصة الأضراس« في باب الاعتبار.

وروت له هذه القصة التي هي عندهن عماد الصنعة وأساس الفن: زعموا أنفتى كان يهوى فتاة وتهواه، فعاشا تحت جناح الحب زمناً سعيدًا، ثم طرأ على الفتسفرٌ يبعده عنها في طلب المال وجاءت ساعة الوداع، فانهملت العبرات وتوالت الزفرات،وأقسمت له بأن العيش لا يطيب لها من بعده، وأن الموت أهون عليها من بعُده، وسألتهأن يبُقي عندها أثرًا منه تتعلل به في غيابه ساعة الحنين، وتشم منه ريحه وقت هيامالذكرى، فقال لها: سأترك لك بضعة مني وأنتزع لك أثرًا من بين لحمي ودمي، ثمعمد بيده إلى فيه، فاقتلع لها ضرسًا من أضراسه غير مبال بألم الانتزاع ووجع الاقتلاع،وناولها إياه يقطر بالدم فأخذته منه وأشبعته لثمًا وتقبيلًا ووضعته في حقة نفيسة،وسافر سفره ومضت عليه الأيام والليالي، ثم آب من سفره خائباً لم يظفر بحاجته ولميفز بطلبته رقيق الحال ضعيف الركن، فذهب إلى دار صاحبته وقد أضناه الشوق وبراهالنوى فلما طرق الباب ولمحته من النافذة تنكرت له وأنكرته، فناداها أنا فلان فاسمحيلي بالدخول، قالت له: ومن فلان فإني لا أعرفه؟ قال لها: خليلك وحبيبك صاحب العهدالوثيق والعشرة الطويلة، قالت له: كل الناس عاشر وفارق فأيهم أنت؟ قال لها: أناصاحب الضرس، قالت: أوَلَك ضرس عندي؟ قال: نعم، قالت: فادخل فدخل فأجلستهوأحضرت أمامه حقة كبيرة وأمرته بفتحها ففتحها فوجدها مملوءة بكمية عظيمة منالضروس، وقالت له: دونك إن كنت تعرف ضرسك من بين هذه الأضراس فأنا أعرفكاليوم من بين الناس. ولما أتمت الواعظة وعظها انصرفت عن هذا المجلس إلى مجلس ذاكالشيخ الوجيه، فيقوم لتحيتها واقفًا ويبُدي لها نواجذه متهللًا، فتجلس معه وغلام الحانفوق رأسها ينتظر

طلب الزجاجات، فلا تلتفت إليه فيديم الوقوف فتأمره بالانصرافقيعود خائباً، وتقول للشيخ: إنها لا تريد أن تحمله في حبها مغرمًا ولا تقيسه عندهاببقية الحاضرين الذين تسلبهم لصاحب الحان، فيخرج الوجيه من حزامه عقدًا يتلألأفيضعه بين يديها، فتبسم له وتنعطف إليه وتقيم عنده مدة في مضاحكة ومغازلة، ثمتقوم لتنصب على سواه شباكها، وترمي لصيد القلوب أشراكها.

تِ حُيي وجُ وه الشرب فعل مُ مسال[124]يُضاحكه والكيد كيد محارب

قال عيسى بن هشام: وأقمنا نتأمل في أفعال هذه البغي الفاجرة، ونفكر في أعمالهذه الخدّاعة الماكرة، ونعجب كيف يقتدر مثلها على ختل الرجال، فترميهم في مهاويالغواية والضلال، وهي عارية من ثوب الجمال، مجردة عن جميع المزايا والخصال،مفرعة في قالب الوقاحة، معجونة من حمأة الدمامة والقباحة، وما زالت الفاجرة تتقلببين الجالسين وتتنقل، وتتجول بين الصفوف وتتحول، وتروح إلى صاحب الحان وتغدو،وتخفَى آونةً ثم تبدو، منطلقة اللسان بالسب والثلب، منبسطة اليد بالنهب والسلب،ممتدة الكف باللطم والضرب، دائبةً في السكب والشرب، وهي في تنقلها تقطب تارةوتتجهم، وتفتر تارة وتتبسم، وتنبسط حيناً وتنقبض، وترضى ساعةً ثم تمتعض، وتعاملكل إنسان بما يلائمه، وتجري معه على ما يوائمه، فتضل الألباب والنُّهى، ويقع الجميع فيأسر الهوى، وآية حبها وميلها، أن تصفع الصب بنعلها، فإذا أضافت إلى الضرب بالنعال شق القباء ونتف السبال[125] كان في ذلك بلوغ الآمال، بدنو ساعة الوصال، واستوىالمضروب يفاخر أصحابه وخلانه، ويباهي أنداده وأقرانه، كالظافر في ساحة الطعانوالضراب، والفائز بالغنائم والأسلاب، فيغالي في إظهار الابتهاج والائتناس، وتنبسط يدهفي الكيس ويدها في الكاس، والغلام على رأسه بالآنية، يصب لها زجاجة كل ثانية، وهيتصب

[124] الشرب: جامع شارب للخمر.

[125] السبال: مقدم اللحية.

الكئوس في الهاوية، كأن حلقها قناة وكأن الساقي ساقية، وحانت منها التفاتة إلىالخليع وصاحبيه فإذا العمدة يشير بيديه، ويغمز بحاجبيه، ويقول للخليع في اشتعالهوالتهابه ويخاطبه في ارتباكه واضطرابه:

العمدة (للخليع):ٌ لقد أسعدنا الجد وحلت لدينا عاقبة الصبر ولئن فاتنا الأنسبالغائب فما أكمل أنسنا بالحاضر، وهذه الراقصة التي اجتمعت على محبتها القلوبوافتتنت بها العقول هي عندي الضالة المنشودة والأمنية المطلوبة، ومن يبلغنا إياها سواكويمن علينا بها غيرك؟

الخليع: هذه هي الفتَّ ةانة المشهورة بكثرة العشاق والطلاب ولا عيب فيها غيرالمزاحمة عليها، والمورد العذب كثير الزحام، والوصول إليها من دونه أهوال.

وإنك إن أرسلت طرفك رائدًا لقلبك يومً ا أتعبتك المناظررأيت
الذي لا كـ ـًلهُ أنت قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابر

التاجر:ٍ نعم هذه هي البضاعة الثمينة والسلعة الرائجة؛ فاز من حازها وخسر منفاتها، ولو كانت الأيام أيام ربح ورخاء لصبا إليها القلب وولعت بها النفس، ولكن لربالعيال ما يشغله عنها ويبعده منها.

العمدة: ليس يفوتنا على كل حال أن نتمتع بها الليلة بالمجالسة والمغازلة، ونرويبمحادثتها الغليل ونشفي بكلامها الهيام.

الخليع: حبذا لو جلست معنا ساعة، ولكنك ترى من المزاحمة فيها والمنافسة بينالحاضرين في الغرام بها، والغرم عليها ما يجعل نيل الغرض متعسرًا، ودرك الطلبمتعذرًا.

العمدة: أما المزاحمة عليها فإن لنا من مهارتك ونباهتك ما يقرب الأمل بالوصولإليها، وأما المنافسة في الغرم عليها فالأمر مستدرك والدراهم موجودة.

التاجر: ما أشك بعد هذا في نيل الغرض وقضاء الوطر، وستنتهي ليلتنا بمسكالختام.

قال عيسى بن هشام: ويدعو الخليع خادم المرأة، ويهم بإعطائه شيئاً من الدراهمفيسابقه التاجر فيمنعهما العمدة ويقوم مقامهما، فيلقي الخليع في أذُن الخادم قولاً،ويطول الخطاب بينهما همسًا، ثم يذهب الخادم فيعود بمولاته تتيهُ دلالاً، وتتثنَّ ى اختيالاً،وتبدي الرضى من خلال التمنع فتسلم على أهل المجلس، وتخص الخليع بابتسامة وتجلسبجانبه، وتسأله عما جرى في المجلس بعد انصرافها عنه بالأمس فيقطع عليها هذا الحديثبالقهقهة، ثم يبدأ بعقد التعارف بينها وبين العمدة، ٍويطنب لها في علو شأنه ورفعةمقامه فترحب به فيرفع العمدة يده إلى رأسه مرارًءا تشكرًا لها، فتلمح فص الخاتم يتألقَّ في إصبعه ويتوهجُ فتضع يمينها في يمينه وتجرها إليها ترصد الحجر، فيسيل الرجلطرباً وابتهاجًا ويعتقد أنها كلفت به حبًّا وغرامًا، ًفلا يروعه إلا أصوات الأصمة ينزعهاالغلام عن الزجاجات تباعًا، وكلما أفرغ أربعًا عاد بأربع حتى هال التاجرَ من ذلك ماهاله فمال إلى الخليع يناجيه، ًفسكنَ الخليع من رَوْعه، وأزال الهواجس عنه، فيميلالتاجر إلى الأقداح يسكب ويشرب، وإلى المرأة يهازل ويغازل، ويعاطي ويناول، والعمدةعلى حاله باهتٌ ًشاخص ومولً ع موله، والخليع مسرور مبتهج، لا يرسل الكأس عن فيه،إلا ممسكًا بأخيه، والمرأة تخدع وتكيد، وتقول للغلام: هل من مزيد؟ ثم يخُرج العمدةساعته من جيبه ويتشاغل عن النظر إليها بالحديث، فتقبض المرأة عليها تتمعن فيهاوتقول له: قد آن أوان الانصراف وحانت ساعة الختام، ٍوتقوم مودعة فيتلهف العمدةويتحسر، ويسألها أن تتم جميلها بالبقاء معه بعد الانصراف في مجلس آخر، فتضحكٍّ له ضحكة القبول وتلطم الخليع بالمروحة على خده وتغادرهم إلى صاحب الحان فتجلسمعه، ويأخذ الناس في الانصراف والخدم في رفع الكراسي وإغلاق بعض الأبواب، ولا يبقفي المكان غير أصحاب الوعد من العاهرة: ذلك الحاكم الوامق، وذلك الغلام الوارث، وذلكالشيخ المتصابي، وهذا العمدة المغرور بتاجره وخليعه، فإذا طال عليهم الانتظار ويئسالواحد بعد الآخر من صدق الوعد عمدوا إلى الانصراف يصحبهم الهم، ويرافقهم الكدرإلا العمدة، فإنه يلح في الانتظار لشدة ما به من سكر الهوى وسكر الخمر.

سُكران سكر هوًى وسكر مُدامةٍ ومتى يفيق فتًى به سُكران!

ويقصد المرأة في مكانها عند صاحب الحان وهو يتعثر في مشيته، ويجرر في عباءتهفيقف بين يديها يستنجزها الوعد، فتغضي عنه، فيلح عليها،ُ فتلج في الإعراض، فيخرجمن جيبه كيس الدراهم ويبسط به راحته راجياً متضرعًا، فتظهر له الجفوة، فتشتدَّ به الصبوة، فيترامى عليها فتدفعه برجلها عنها فيقع على الأرض فينتثر ما في الكيس،فيعمد الخليع لالتقاطه فيسبقه إليه صاحب الحان، ويتماثل العمدة واقفًا فيمد يده إلىالمرأة فيأخذ بضفيرتيَها يجذبها نحوه، فتسبُّ ه وتلعنه وتمسك بصاحب الحان، ويستمرالعمدة في الشد والجذب فتخُونهُ الصفيرتان فيرتمي على ظهره طريحًا، وهما في يدهوالمرأة باقية في مكانها تصيح وتستغيث،ُ فينقض من أقصى المكان رجلٌ رث الهيئةقبيح الطلعة وسخ العمامة يرفع في يمينه هراوة ويتأبط في شماله صرة ثياب، فيقععلى العمدة ضرباً بالهراوة، ويدفع العمدة عن نفسه ضرباً بالضفيرتين، ويتوسط بينهماالتاجر فيسأل الرجل عما يعنيه في الأمر فيقول له: إنه زوج المرأة وإنه يدافع عن حريمه،ولا يرجع عن غريمه، فيتعرض له التاجر يمنعه عن الفتك بصاحبه، فينصحه الخليعبالرجوع عنه؛ لأنه الرجل من أهل »الحماية« وفي التعرض له إلقاءٌ باليد إلى التهلكة،فإنه فوق القانون يجني ولا عقوبة عليه، فما يسمع العمدة هذا القول حتى يستنجدبالخليع لينقذه من بلائه، فيتقدم الخليع فيكلم الزوج طورًا والحليلة تارة وصاحبالحان أخرى، فينتهي النزاع بينهم على أن يترك العمدة ما التقطه صاحب الحان مندراهمه مرضاة للمرأة عن إهانتها وعوضًا لها عن خسارة الضفيرتين، ثم يقوم صاحبالحان وينادي غلامه وهو مشتغل بإطفاء الأنوار، فيسأل عن حساب العمدة فيكوّنه لهفيلتفت إلى العمدة قائلًا:

صاحب الحان (للعمدة): والآن فادفع لنا ثلاثة عشر جنيهًا ثمن المشروب، وانظرماذا تعطينا من العوض في تعطيل المحل بهذه الأفعال الصبيانية.

العمدة: ما هذه الحسبة وما هذا الكلام؟

صاحب الحان: أما الحسبة فصحيحة، وأما ما أتيته فإنه لا يليق بمقامك وأنترجل من أهل الوجاهة والرفعة، ولكنها الخمر أم الشرور،ٍ وإن خالها الشارب أم السرور،وما كان لك أن تتعلق بهذه المرأة المشهورة بتمنعها عن أهل التنافس فيها، والنساءغيرها كثيرات في المحل، وإن كان لا بد لك منها فأنا أسعى في الصلح بينكما عند تشريفكالمحل في الليلة الآتية، وأرجو أن لا تتوقف في دفع هذه الحسبة الصغيرة، فإني لا أرضىلك الإهانة ولا ترضى لنفسك الفضيحة.

العمدة (للتاجر): هل عندك ما نسدد به هذا المبلغ؟

التاجر: ِّ لا وحق العشرة وحرمة الصحبة، فلم يبق معي من الدراهم لا قليل ولاكثير.

العمدة (للخليع): دبِّ رني يا صديقي في أمري وانظر لي طريقة الخلاص.

الخليع: يعز عليَّ والله ما نحن فيه ولكن عزت الحيلة، ولو كان صاحب الحانيقبل مني ساعتي هذه رهناً على هذا المبلغ لرهنتها عنده، ولكنه ربما استضعف قيمتهاعن قيمة المطلوب، ولو كان في الوقت سعة لذهبت لاستحضار النقود بأية طريقة كانت.العمدة: إن كان الأمر ينقضي بالرهن، فهذه ساعتي أثمن من ساعتك وهي عنديأعز عليَّ من روحي؛ لأني أخذتها هدية من دائرة »البرنسيس« يوم بعثُ لها أطيانها،وعليها حروف اسمها منقوشة، وقد قدرها لي الجوهريّ بخمسين جنيهًا.

الخليع: إن كان الأمر كذلك فلا يليق رهنها، وعندك الخاتم ترهنه مكانها.

العمدة: هذا هو الأصوب وإن كان الخاتم أغلى من الساعة قيمة، فخذه يا حضرةالخواجة رهناً عندك حتى أسدد لك المطلوب في الغد.

صاحب الحان: أنا لا آمن لهذه الفصوص اللماعة، فقد غشوني فيها مرارًا بإحكامالتقليد في صناعتها، وليس هنا الآن من أثق به من أهل الصناعة ليكشف لي عن حقيقةهذا الفص.

التاجر (بعد أن يمعن في الفص): كيف تقول ذلك وهو من الماس القديم وقيمته لاتنقص عن مائة جنيه، وأنا مستعد لرهنه عندي على خمسين جنيهًا، فانتظروني ريثماأذهب إلى محل مبيتي وأرجع إليكم بالمبلغ.

صاحب الحان (مكفهرا): ليس عندي وقت للانتظار فقد مضى الميعاد المقرر لإغلاقالمحل، وهذا جندي البوليس واقف أمامنا يتعجلني في مطاوعة أوامر الحكومة.

الجندي: نعم مضى الميعاد ولا بد من الإغلاق حالاً، فانظروا معكم شيئاً آخر للرهنُ يفض به هذا المشكل.

الخليع (للعمدة): أعطه الساعة، فلا حول ولا، وليس هناك ما تخشاه عليها فإنننانستخلصها غدًا بعد أن تقابلني في الصباح بقهوة الموسكي.

صاحب الحان (بعد التأمل في الساعة): هذه الساعة لا توفي قيمة المطلوب وحدها،فاترك الخاتم معها أيضًا.

العمدة: هذا لا يصح مطلقًا، فإن المبلغ المطلوب لا يزيد عن ثلاثة عشر جنيهًا علىفرض صحته.

الخليع: ما دام العزم أكيدًا على فك الرهن غدًا، فسيان رهن قطعة أو قطعتين، وأناأرجو الخواجة أن يتجاوز لنا عما يطلبه من العوض في تعطيل المحل.

صاحب الحان: إني أتجاوز عنه لأجلك.

قال عيسى بن هشام: ويشدد جندي البوليس في طلب الإغلاق في الحال فلا يسعالعمدة إلا التسليم في الخاتم والساعة، وبينا الجميع يتأهبون للخروج والمرأة واقفة تهزأوتسخر؛ إذ دخل رجل قبيح الخلقة جهم الوجه عريض القفا جاحظ العينين واسعالمنخرين أهرتُ الشدفين، فأخذ يجيل في الحاضرين نظرهُ يميناً وشمالاً، ثم تقدم إلى المرأةفسبها ولعنها ولطمها ولكمها وقال لها: قد فات الوقت ومضى الميعاد وأغُلقت الحانات،وأنا قاعد في انتظارك بالبيت وأنت واقفة هنا تلعبين وتسخرين، فأين هذا الصيد الذيألهاك عني وأنساك أمري يا عاهرة، فتجيبه مع الذل والانكسار بأنها أخطأت، ولكنلها العذر فقد وقعت حادثة مع بعض العمد يشهد بها الحاضرون، وتذكر له ما كانمن هجوم العمدة عليها ونزع ضفيرتها، فيشهد زوجها مع خادمها بتفصيل الواقعة،فيزمجر الرجل ويتوعد ويعمد للحاق بالعمدة

وهو يعدو نحو الباب، فتستعطفه الفاجرةوتطلب منه أن لا يكدر على نفسه صفاء الليلة بالوقوع في مخاصمة أخرى، وتطلب منهاالإسراع إلى البيت في صحبتها.

وخرجنا مع الباشا نتعوذ من كيد النساء، ونتأسف على وقوع الرجال في أشراكالمكر والدهاء، وكيف نزل العمى بهم والجهل، حتى يستسلموا لهذا الخدع والختل،ويخرجوا عن مثل هذا المكان الدنيء والموطن الرديء، وقد خرجوا من الثروة والشرف،ودخلوا في البؤس والتلف، ونزلت بهم أنواع المرض والسقم، وصُبَّ عليهم سوط الأحزانوالنقم، ثم التفت الباشا إلى الصديق، يسائله في أثناء الطريق:

الباشا: ألا تخبرني أيها الناقد الخبير كيف يصبر مثل هؤلاء الناس على الإقامةفي هذا المكان، وكيف يترددون عليه لياليَ متتابعاتٍ، ولا يدركون ما يدركهم فيه منالهلاك والوبال، وقد كاد يقُضى عليَّ للإقامة فيه بضع ساعات،َّفما وجار الضبع وماوكر الظربان[126] وما قبر الميت، يرحمنا الله وإياك، بأنتن رائحةً ولا أقذر مكاناً ولا أسوأمقامًا من هذا الذي كنا فيه.

الصديق: يصبر الناس على الإقامة في هذا المكان ويكثرون من التردد عليه بحكمالتدرج، وإلف العادة وقوة التمادي، وكأنما أبدانهم تتلقح شيئاً فشيئاً بسمه فلا تحسبضرره وألمه، كالمريض يذهله المرقد عن ألم الداء وبتر الأعضاء، وإن شئت فكالهنديُّ يتدرج ويرتقي في تناول الأفيون وهو سم قاتلٌ حتى ينتهي بجسمه إلى حال لو لسعتهمعها عقربٌ أو لسبته حية لم يؤثر سمها فيه.[127]

الباشا: أفدت بما شرحت، وقد بقي عليك أن تفسر لي ما أشكل عليَّ من أمر الرجلينمع العاهرة، أحدهما الذي يقول: إنه زوجها، والثاني الذي أخذت بيده أمامه إلى بيتها.

---

[126] الظربان: دويبة كالهرة منتنة الرائحة.

[127] لسبته: لدغته.

الصديق: أما الزوج فإنه رجل من سفلة المغاربة المنتمين إلى دولة أجنبية تحميهمن سلطة القوانين المصرية أن تناله عند مخالفتها، وهذه المزية هي التي تؤهله عندالعاهرة للتأهل به، فتدخل حينئذ في حمايته وتخرج ببركته عن دائرة المحاكمة والعقوبةإذا أتت في فسقها وفجورها ما يخالف أوامر الحكومة، ويعيش الرجل معها زوجًا بالاسموديٌّ وثاً بالفعل، وذلك في مقابلة شيء من الدراهم يتناوله منها في كل ليلة، وهذه الطريقةقد تألفها الناس ولم تقتصر على العواهر، بل تعدتهن إلى أرباب القضايا وأصحابالجرائد، فترى صاحب القضية يتنازل في الظاهر عن قضيته إلى أحد أولئك المسخرينمن رعايا الدول الأجنبية؛ ليخرج بها من نظام المحاكم الأهلية إلى نظام المحاكم المختلطةإن ترجح لديه نجاح قضيته فيها، وترى صاحب الجريدة الذي يزعم أنه الواعظ المرشدبين الناس إلى محاسن الأخلاق وغرر الفضائل يضع على جريدته اسم الواحد منهم بأنههو المسئول عما يُنشر فيها ويطبع، يملؤها بما تسول له نفسه من الطعن على أولياءالأمور وأرباب الحكومة وأشراف الناس، ويسوّد صحيفته بكل فاحش من القول وبذيءٍمن الكلام، فإذا عوّل أحد الناس على محاكمته يومًا من الأيام وارى وجهه على المحاكمبوجه الأجنبي وقال لك:ًما ذم ّّ الأمراء ولا هجا الأشراف ولا طعن في الناس إلا صاحبالاسم المسئول فعليك به، فإذا التمسته وجدته بائع نعال يصفق بها في عرض الطريق،وينتسب إلى دولة من أكبر الدول الأجنبية يمتنع بحمايتها من سلطة المحاكم والقوانينالمصرية، ولا سبيل إلى محاكمته إلا في بيت القنصل.

ِّّ وأما الرجل الذي سحبته العاهرة بيدها إلى بيتها فهو صاحب ودها وحبيب قلبهاتفضله في آخر ليلها على كل رجل يتعلق بهواها، ويبذل نفسه في سبيل رضاها، ولاتعجب من سوء معاملته لها وسوء غطرسته عليها، فذلك مما يزيدها فيه حبًّا ويولعهابه شغفًا، والنفس الدنيئة الحقيرة لا تميل إلا لمن يبادرها بالإهانة والتحقير ولا تنقادإلا لمن يتناولها بالضر والأذى، فهو يضربها ويؤذيها على ما شهدت ورأيت، ثم يتمتعبها دون المتهالكين عليها وينتفع بما تجمعه له من أموالهم لفضل هذا الوحش الضاريعندها على تلك الدواجن التي تدب حولها.

الباشا: لا شك أن في هذا نوعًا من الجزاء لهذه البغيّ على بغيها في الناس وسلبهاللأموال وفتكها بالأرواح،ّ وقل لمثل هذا الجزاء المعجل في الدنيا قبل العذاب المؤجل لها فيالآخرة.

الصديق: لا تستهينن أيها الأمير الجليل بما ينال مثل هذه العاهرة في دنياها منالجزاء، فإنهن جميعًا في معيشة كلها هموم وأدواء، ومن تأمل في حقيقة أحوالهن خففمن سخطه عليهن ووجدهُّن أحق بالشفقة من القسوة، فإن هذه الأموال التي ينهبنهاوالأسلاب التي يسلبُنها لا تلبث في أيديهن إلا ريثما ينفقنها في الحليّ والحلل، والعاهرة لاتنتهي حاجتها من الزينة ولا تخلو من حبيب تكفله وخليل تقوم عليه، فهي على الدوامفي عسر شديد ودين ثقيل، وإن جميع ما عليها من الحليّ والجواهر وما يتألف في عنقهامن القلائد وفي معصمها من الأساور وفي رجليها من الخلاخل إنما هي كلها في الحقيقةُّ أغلال وقيود يسحبها بها الصائغ والجوهري في أسر لا فكاك لها منه طول الحياة، وهي

ّ ُ كما رأيت تقضي ليلها إلى الصباح في شرب السموم من الخمور وفي تحريك الأعضاءوالأحشاء بتلك الحركات المنهكة لقُوى الأبدان، وفي اشتغال الفكر بمراقبة الناس وتكلفالتحبب إليهم، وفي التفنن للتحايل عليهم، ثم التعرض لسوء المنازعات والمخاصمات معدوام التذلل والخضوع لصاحب الحان، ّ َ فإذا انتهت من ذلك كله وصلت إلى بيتها منحلةالأعضاء مفككة المفاصل فترتمي على فراشها كالرمة في مكان هو أقذر من ذلك الحانوأفسد منه هواءً، وربما لم تذق في يومها طعامًا ولم تتناول في ليلها غذاءً، فإذا قامت منَّ نومها بعد نصف النهار كالذي يتخبطه الشيطان مصدعةً مخمورةً لا تشتهي طعامًا ولاتسيغ شراباً حتى إذا تماسكت قليلًا بادرت إلى إصلاح الفاسد منها ومداراة القبيح فيهابأنواع الزينة واللباس، وقعدت لمقابلة زائريها إلى أن يدخل عليها المساء فتعود لما كانتعليه، لا تزال المسكينة هكذا دائرة في حلقة من التعب والوصب ولا خلاص لها منهاإلا بحلول الأمراض والأوجاع، ثم يقُضَى عليها وهي في المعصية بعيدةً عن ذوي الحنووالإشفاق من الأهل والأقارب، وذلك هو البلاء العظيم والعذاب الأليم.

قال عيسى بن هشام: وما راعنا في طريقنا إلا صوت الديك يؤُذن بالصباح وصوتالمؤذِّ ن يؤذن حي على الفلاح، فأسرعنا نطلب مأوانا، وندرك أم مثوانا، ونحن نسأل ربالأرض والسموات، أن يغفر من ذنوب المسلمين والمسلمات.

العمدة في الرهن

قال عيسى بن هشام: ولما ارتفع وجه النهار أو كاد، ومسحنا عن النواظر كحل الرقاد،بادَرنا كل الإبدار، بالخروج من الدار، لنلحق بأولئك الرفقاء،ًّفي المكان المعين للقاء،فقصدنا »قهوة القزاز بالموسكي« فوجدناها تتموج بالداخلين، وتضطرب اضطراباًبالواقفين والقاعدين، فوقفنا هنيهةً نرسل النظر إرسالاً، ونتصفح الوجوه يميناً وشمالاً،حتى اهتدينا إلى »الصديق« جالسًا فجلسنا عن جانبيه، ورأينا العمدة جالسًا بجانبنامع صاحبيه، فإذا العمدة يئن تحت الهموم المتقاطرة، من سواد ليلته الغابرة، حيثناله فيها من الهون ما ناله، وأضاع تحت أقدام الراقصات شرفَهُ وماله، ورهن ما رهنمن حلية ومتاع، من غير لذة ولا استمتاع، فهو متخاذل متضائل:»ٌله شق مائل، ولونٌحائل، ولعابٌ سائل«،ًّ وسحنة مغبرة، وأنامل مصفرة، وجفونٌ محمرة وأحداقٌ جامدة،وأعضاء هامدة، ورأسٌ متصدع، ونفس متقطع، يفتح تارة فاه، ويحك طورًا في قفاه،فيخاله كل من يراه، نضو سفر[128] أضناه السرَى وبراه، أو حِلْف تسخير أدمته العصاوألهبه السوط؛ ليبلغ من جهد »السخرة« منتهى الشوط، وإذا التاجر بجانبه يقلبحدقتيه ويتحلب بشفتيه، ويصعد أنفاسًا كالحريق، في ميزاب من الريق[129] كأنه ذئبيهم بالعثيان،ٌ ويخشى صولة الرعيان، أو صائدٌ يخاف أن يخونه كيده، ويفُلت منهصيده، والخليع بينهما يطرق برأسه، ويكتم ما في نفسه،ٍ متفكرًا ينكُت الأرض بعصاه،ويحاول أن يبلغ من الغرض أقصاه، دائباً يبرم الخديعة ويهيئ العُدة؛ ليسقطها علىرأس التاجر ودماغ العمدة، ورأينا هنالك من دونهم نفرًا لا يحولون عنهم نظرًا، كأنهمالطيور الجارحة تترقب حمامة سانحة، فاستخبرنا من

---

[128] النضو: المهزول من الحيوان.

[129] الميزاب: القناة يجري فيها الماء.

الصديق، عن شأن هذا الفريق،فقال: هم جماعة من الفئة الباغية الماكرة، والطائفة الرابحة الخاسرة، طائفة الوُسطاءوالسماسرة، وشاهدنا الخليع يوُحي إليهم باللحظ والنظر، كأنه يعاهدهم على النجحوالظفر، ثم سمعناه يقول للعمدة تهويناً لأمره، وتيسيراً عليه من عسره:

الخليع: لا تهتم يا مولاي ولا تغتم، فالخطب أهون مما تظن والأمور بأمر اللهميسرة والحاجات بإذنه مقضية.

التاجر: إن كان التيسير من جهة الاقتراض، فأنا لا أتصور أن أرباب الأمواليقرضون اليوم أحدًا بدون التوثق من الرهن لزوال الثقة بين الناس في هذا العهد عهدالمماكسة والمضاربة، وفي هذه الحالة أراني أولى الناس بتأدية هذه الخدمة لصاحبي،فإني له أرجح جانباً وأربح معاملة وأنقص في قدر »الفائدة« من سواي.

العمدة: لا أرى في ذلك من بأس لو كان في الوقت سعة وفي الحالة مهلة تسمحبما يقتضيه إجراء الرهن من الكشف والمعاينة، والتحديد والتقويم والتقدير والتحرير،والتقييد والتسجيل إلى غير ذلك.

الخليع: ولا تنس ما يكون وراء ذلك من سوء السمعة وقبح الشنعة بين الأهلوالجيران، وصدق من قال:»بيع الشيء خير من رهنه، والرهن بيعٌ وغبن.« وأنت بحمدالله لك صيت بالغنى وشهرة بالثروة، وأنا أضمن أن توقيعك وحده يكفيك مؤونة الرهنعند الاقتراض.

التاجر (للخليع): ما أحسن هذا لو أنه يتم، ولكن لا تنس أنت أيضًا ما قيل:»إنالذي يقرضك على الشهرة والسمعة، لا بد أن يأخذ فائدة شهر في جمعة«، ولن يخاطرأحد من أرباب الأموال بمالِهِ من غير رهن إلا من ضمن الفائدة الجسيمة والربح الطائل.الخليع (للتاجر): ما بالك تعسر علينا في الأمور مع إمكان تيسيرها، ولا يأخذكُّ شك فيما أقول فأنا أضمن الحصول على القرض في هذه الساعة في هذه القهوة في هذهالجلسة، ولا محل للتخوف من جسامة الفائدة ما دام وقت الحصاد قريباً والتسديد

عتيدًا.

العمدة (للخليع): هكذا يكون التسهيل والتيسير بين الأصحاب والأصدقاء، وهكذاتكون محاسن الشيم، يا أبا المكارم والهمم.

التاجر: قد قلت ما عندي، وكل إنسان حرّ في عمله.

الخليع (للعمدة): قل لي كم تريد أن يكون مبلغ القرض؟

العمدة: يكفيني على ما أظن مقدار مائة جنيه لسداد الحاجة في الحالة الراهنة.

الخليع: هذا التقدير ضعيف، وماذا ينفع مثل هذا القدر القليل وبماذا يفيد؟ وعليكقبل كل شيء تسديد ما لصاحبنا هذا في ذمتك من الدين، ثم يتبعه ما لصاحب الحانلفك رهن الساعة والخاتم، وأضف إلى ذلك ما يلزم لك من المال لتأجير البيت الذي تريدسكناه في حلوان وما يتبعه من أثمان الفرش والأثاث، هذا غير ما يجب أن يكون في يدكللبذل والإنفاق في أوقات الأنس والطرب، وأنت بلا شك في حاجة عظيمة إليها بعد كل هذاالتعب والكدر،ً فلا بد لك حينئذ من اقتراض مبلغ خمسمائة جنيه على الأقل، ولا سيماأن أرباب الأموال الذين أعرفهم لا يقرضون أقل من هذا المقدار إن كانت مدته قصيرة.

(وهنا يوُمئ الخليع إلى جماعة السماسرة بالحضور فيتقاطرون عليه، فيهمسفي أذن أحدهم كلامًا ثم يجهر بالخطاب فيقول:)

الخليع: اعلموا أن سعادة البك هو العمدة فلان الفلاني من كبار المزارعين، الذينيمتلكون من الأطيان والعقار ما هو معروف مشهور، ولم يسبق له اقتراض مال قط،وليس عليه دَين مطلقًا وأطيانه وأملاكه خالصة له بلا منازع ولا مشارك، وقد حلّتبه ظروف استنفدت جميع ما كان يحمله معه للإنفاق في مدة وجوده بالقاهرة، وهوالآن في حاجة إلى اقتراض خمسمائة جنيه يقوم بتسديدها في أوان الحصاد الآتي، ولستأرضى له أن يقترض مثل هذا المبلغ الزهيد بالرهن من أرباب المصارف الكبيرة لما يجريعندهم من طول التحري والتنقيب، وتضييع الوقت جهلًا منهم بحالة أعيان البلاد.

أحد السماسرة: مرحباً بسعادته مرحباً، وما هو بالمجهول عندنا فإننا نعرفه كلناوبما وصفتهَ من شرف البيت وسعة المال زاده الله منه، كان للمرحوم والدي مع المرحوموالده معاملة قديمة وصحبة أكيدة، وطالما سمعت من والدي وأنا صغير السن أنه لايوجد بين أعيان القطر مثل المرحوم في الصدق والأمانة وكرم الخلق وسماحة النفس،ولكنك تعلم أن الدراهم عزيزة المنال في هذه الأيام وقلّ من يخاطر بقرض هذا المبلغ منغير رهن يوازيه أضعافًا مضاعفة، ولو كان الأمر لي وحدي لَمَا تأخرت عن إجابة الطلببدون ميثاق أو رهن أو فائدة إكرامًا للصحبة القديمة بين والدَينا وتوثيقًا لعرى المحبةبيننا، ولكن شريكي في الأشغال رجل متفرنج من أبناء هذا العصر لا يعرف حقوقالمودة القديمة، ولا يرضى بقرض المال إلا إذا كان مستجمعًا للشروط القانونية، ومعذلك فأنا أعمل معه جهدي وأترضاه بضمانتي أولاً و»بتشريف« مقدار »الفائدة« ثانياً،فإن اتفقتم معي على أن تكون الخمسمائة بثمانمئة إلى وقت الحصاد باشرت معه الأمروقمت بالخدمة الواجبة عليَّ لسعادة البك.

التاجر: سلامٌ قولاً من رب رحيم، أيكون مقدار الربا فوق مقدار نصف القرض ...ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين؟

السمسار (للتاجر): لعل مولانا من المجاورين بالأزهر الشريف، فإنه لا يستعظممثل هذه »الفائدة« في الأحوال الحاضرة إلا من يعتقد بتحريمها، على أن الربا محرّمعندنا أيضًا كما هو محرّم عندكم، ولكن »الضرورات تبيح المحظورات.«العمدة: حضرته ليس من المجاورين بل هو من التجار المشهورين.

السمسار: إذا كان حضرته من التجار، فلا بد أن يكون واقفًا على ضيق الحالوقلة المال وكساد السوق وعالمًا بمقدار »الفائدة« في قرض من غير رهن، ثم إنه لا يجهلفي الأشغال تكاليف المشاركة ... والمساهمة ... والمقاسمة ... إن شاء الله.

التاجر: نعم نعم ولكن يجب إنقاص مقدار »الفائدة« على كل حال، فإن أنت رضيتبأن يكون مبلغ الخمسمائة بسبعمائة وخمسين رضيت أنا لسعادة العمدة بالاقتراضمنك وحكمت بذلك عليه.

السمسار: ما أصعب المعاملة مع التجار! وما دمت حكمت حكمك فلا مرد لهَّ عندنا وما علينا إلا الطاعة والقبول إكرامًا لسعادة البك، فتفضلوا بالذهاب معي إلى المحلعلى بركة الله لإتمام الأمر مع شريكي.

الخليع: لا حاجة إلى ذهابنا جميعًا ويكفي أن يذهب معك سعادة البك وحده، فإنالمسألة صارت بسيطة ونحن نمكث هنا في الانتظار.

قال عيسى بن هشام: وقام العمدة مع السمسار وأقمنا جالسين في مكاننا نتشاغلبالحديث مع الصديق، ونستفيد من واسع علمه أمورًا شتى مدة من الزمن، وإذا بالعمدةعائدًا وحده مقطب الوجه منقبض النفس، فأسرع الخليع والتاجر إلى لقائه واستخبارةً عما جرى له.

العمدة: لعن الله الحاجة والاضطرار، وما كان أغنانا عن هذا الخراب والدمار.

الخليع: وماذا وقع بك ودَهَمك، هل خاب الأمل في عقد القرض أم عقدته وسُرقتمنك الدراهم؟

العمدة: لم تسرق كلها بل نصفها.

التاجر (شاهقًا والخليع محملقًا): وكيف كان ذلك؟

العمدة: ركبت مع الرجل وذهبنا إلى محل شريكه، فأجلسني هناك ناحية وكتبالصك وختمتهُ، ثم إنه انفرد بشريكه يناقشه ويجادله، ثم عاد إليَّ عابس الوجه يقوللي: إن الأمر متعذر متعسر وإنه بذل كل ما في وسعه من طرق الإقناع والرجاء؛ ليقبلشريكه بقرض المبلغ، فلم يقبل ولم يتحول عن رأيه، ثم أخذ يظهر لي أنواع التأسفوالتوجع لخيبة مسعاه ويشير عليَّ بالصبر أيامًا حتى تنفرج الشدة وتنقضي الأزمة،فأريتهُ شدة ما بي من الحاجة إلى الدراهم في هذا الوقت، وليس في الاستطاعة تأجيلالاقتراض وهممت بالرجوع إليكما لترشداني إلى باب آخر يأتي بالتيسير المطلوب، فدنامني شريكه عند ذلك، وقال لي يعز عليَّ والله أن أردك خائباً وأرفض رجاء شريكي،ولكنك تعلم مقدار العسر والضيق الذي لحق بهذا القطر في هذا العام من كساد الموسم،وانخفاض النيل وانتشار الدودة وكثرة المضاربات، وظهور الأوبئة والطواعين، وأنا أقسملك بشرفي وذمتي وأولادي أنه لا يوجد في محلنا

من الدراهم الآن سوى أربعمائة جنيههي أمانة عندي لطفل يتيم من أقاربنا نشتغل له في استثمارها بكل احتراس واحتياط،ٌ وأنا أضن بها وأحرص عليها أشد من حرصي على أموالي، ومع ذلك فقد فكرت طويلًا

ّ ً وعولت على أن أضعها بين يديك لشرف مكانتك عندنا وحسن سيرتك، وجعلتها أولخدمة جليلة نقدمها إليك، فأسرعت إلى قبولها مع الشكر والامتنان، فأخرج صرة ووزنما فيها من الذهب ثم سلمه إليَّ فعددته فوجدته أربعمائة تمامًا، ثم وضعتها في جيبيَّ وطلبت منه تغيير الصك؛ لأن المبلغ المسمى فيه يزيد مائة جنيه عما قبضته من الذهب،فتلكأ في الإجابة واعتذر إليَّ بأن فرق ما بين المبلغين يبقى عنده بعضه لربح اليتيموبعضه لنفقات القضية من رسوم وأتعاب محاماة إن وقع مني تقصير في التسديد عندالميعاد — لا سمح الله — كما هي العادة السائرة اليوم، فهالني الأمر ونبذت الدراهموطلبت منه أن يرد لي الصك في الحال، فلم يلتفت لقولي واشتغل عني بالكلام مع بعضالوافدين إليه وأنا مقيم على مثل الجمر، وكلما أشرت إليه بإشارة من بعيد ليكلمني لَوَىوجهه عني وأظهر الاشمئزاز مني، فتفقدت السمسار الشريك داخلَ المكان وخارجه فلمأجد له أثرًا،ً فاشتد بي الكرب وحرقني الغيظ فلم أتمالك نفسي وهجمت على صاحبالمحل، فأمسكت بتلابيبه أطالبه برد الصك، فأظهر لي حينئذ من الملاينة والملاطفة ماحل خناقه من يدي، وقال لي:ً إنه لا يمنعه عن إجابة طلبي إلا غياب الشريك فإن الصككتب بحضوره، ولا يجوز أن يسلمه إليَّ بدون علمه، فعليَّ أن أنتظر أوبته، وبينما نحنعلى هذه الحال وإذا بسعادة عمر بك صهر مديرنا قد دخل علينا فما وقع بصري عليهحتى تراخت مفاصلي خجلًا منه، وحياءً ً أن يسمع ما يجري بيننا ويراني في مثل هذاالموقف فتسقط منزلتي في عينه وعين صهره، فتقدمت إليه وسلّمت فرد علي التحيةبالتكريم والتعظيم، فلحظ اللئيم صاحب المحل ما أنا فيه فانتهز الفرصة وقص علسعادة البك قصتنا على حسب هواه، وطلب حكمه في الأمر، فقال له سعادة البك: لايليق بك أن تتنازع مع حضرة العمدة فأنا أعرفه رجلًا من عيون المديرية التي يديرهاصهري وله شهرة عظيمة بحسن السيرة وسعة الثروة، ثم التفت إليَّ وقال:

وأنت لايجدر بك أن تخالف حضرة الخواجة وهو رجل مشهور بالأمانة وحسن المعاملة، وإذاكانت نقطة الخلاف في مائة الجنيه التي حجزها عنده لنفقات القضية، فأنا لا أشك فيَّ أنه سيردها إليك بتمامها عند إيفاء الدين في ميعاده، وأنت بحمد الله في ثروة لا يتُصورمعها التأخر عن التسديد،ً وإن كنت لم تتعامل مع الخواجة إلا في هذه الدفعة ولم تجربمقدار أمانته وحسن عهده فإني أكفل لك صدقه ووفاءه، فاضطررت من كل الوجوهإلى التسليم والإذعان، وأخذت الدراهم وسلمت على سعادة البك وقلت له عند خروجه: لايظنن سيدي أنني اقترضت هذه الدراهم للضرورة والعسر فإن الأمور ميسرة بفضل الله،ونعمةُ الله وافرةٌ عليَّ كما يعلمه سعادة صهركم المدير، ولكنني وجدت فرصة لا تعوضفي أثناء إقامتي بالعاصمة وهي مشترى أطيان من أحد أولاد الذوات، وهو في حاجة الليلةإلى استلام العربون، ولا يمكنه أن يمهلني ريثما أستحضر له المبلغ من البلد، فاضطررتللاقتراض على هذه الصورة، فقال لي: نعم ما تفعل وبارك الله لك في البيع والشراء، ثمإنه حملني سلامًا وكلامًا لسعادة المدير، وانصرفت وخلفته مقيمًا مع الخواجة، وحضرتَّ إليكما ولم يدخل في يدي من مبلغ الدً ين المسمى بسبعمائة وخمسين جنيهًا إلا أربعمائةجنيها فقط، فهذا معنى قولي لكما لم تسُرق مني الدراهم كلها، ولكن سرق نصفها.

قال عيسى بن هشام: وكنا نشاهد في أثناء هذا الحديث رجلًا واقفًا على رأس العمدةينتظر انتهاءَه من الكلام، وهو يمدّ إليه يديه ويحرك شفتيه، فتبينا من هيئته أنه سائقالمركبة يطالب العمدة بالزيادة في قيمة الأجرة، ولما فرغ العمدة من كلامه بادره السائقبقوله:

السائق: خلصنا من فضلك يا سيدنا فقد طال وقوفي وعطلتني عن شغلي.

العمدة: أنا لا أعطيك شيئاً زيادة عما دفعته إليك ففيه الكفاية.

السائق: مَن يقول يا حضرة الشيخ: إن خمسة قروش، تكفي في أجرة المركبة مدةساعتين تنقلت في أثنائها من مكان إلى مكان، ثم عدت بك إلى هذه القهوة، وأنا لا أبرحمكاني حتى تعطيني الأجرة اللائقة بهذه المدة، وإن كان الذنب من جهتي؛

لأنني قبلتأن تركب معي ورفضت ركوب الخواجة الذي استوقفني قبل ركوبك ظنًّا مني أنك منكبار العمد الذين لهم تردد كثير على العاصمة، ويعرفون مقدار أجرة المركبات، ولكنظهر لي الآن أن هذه أول مرة لك في زيارة العاصمة، وفي ركوب المركبات وجعلتني أفضل»برنيطة« الخواجة على عمامة السيادة، فلا حول ولا قوة إلا بالله، خلصنا يا سيدي.

الخليع (للسائق): اسكت عن هذا الكلام البارد، وهاك قرشًا سادسًا خذه وانصرف.السائق: كن محضر خير يا حضرة الأفندي، واعلم أنني لا أقبل زيادة قرش أوقرشين مطلقًا، فإما الأجرة اللائقة وإما الذهاب معي إلى صاحب المركبة؟العمدة: دونك قرشًا آخر فاتركنا واذهب لحالك.

السائق: كيف أذهب وكيف أقبل سبعة قروش في أجرة هذه المسافات الطويلة معطول الانتظار، فهل تحسبها أجرة ركوبك من هنا إلى محل الخواجة أو أجرة انتظاريهناك زيادة عن الساعة، أو أجرة ركوبك من محل الخواجة إلى دكان الكوارع، وانتظاركمدة الأكل، أو أجرة رجوعك إلى هنا ووقوفك في الطريق عند بائع الفاكهة؟التاجر: دكان الكوارع ...! وبائع الفاكهة ...!» ـ واحر قَلْبآه ممن قلبهُ ُ شبِمُ«.[130]

أهكذا يكون شرط الصحبة والوفاء تتركنا على الجوع، وتنفرد دوننا بالأكل ونحنمعك لم نذق منذ أمس طعامًا؟

العمدة: ٍ ما ألجأني إلى ذلك وحق الصحبة إلا الجوع المفرط، واحتياج الجسم إلى مايقيمه، فإني أحسست بالنور ظلامًا في عيني من خلو البطن، وأشهد أن الجوع كافر.

السائق: أدركوني برحمتكم فهذا جندي البوليس يأخذ نمرة المركبة؛ ليكتبها في ّ َ المخالفات حيث خلفتها واشتغلت عنها بكم.

---

[130] الشبم: البارد.

الخليع:ً لقد صدعتنا وشغلتنا فخذ هذا القرش أيضًا، وأنا أخلصك من جنديالبوليس، وإلا فإني أقوم إلى »القسم« وأرفع الشكوى لاجترائك علينا، ولا تجد في »القسم«من يرحمك.

السائق: ما باليد حيلة، أعطني ما تريد وقم اشهد عند جندي البوليس بأنني فيانتظاركم حتى أخلص من المخالفات، والله يعوضني خيراً ولا يحكم عليَّ بركوب أمثالكممرة ثانية.

الخليع (للعمدة عائدًا): قد انتهينا والحمد لله من جميع العقبات، فلننظر الآن فيتدبير شئوننا، وهلمّ فادفع أولاً مبلغ الصك المطلوب منك لصاحبنا هذا، ثم نثنيّ بصاحبالحان لفك الرهن، ثم نثلث بمشتري المقتنيات اللازمة لك.

العمدة: نعم لك ذلك وهذا هو المبلغ المطلوب لصاحبنا جزاه الله خيراً.

التاجر (بعد استلام المبلغ): أستغفر الله فالفضل والشكر لك على كل حال، ولكنيتعذر عليَّ أن أرد إليك الصك في الحال؛ لأنني تركته بالمنزل فالأليق أن تبُقي المبلغ حتىآتيك به غدًا.

الخليع: سبحان الله ما هذه المعاملة التجارية بين الأصدقاء الأوفياء، وهل يجوزبينهم ذكر الصكوك والخطوط في معاملتهم؟ فتقديم الصك وبقاؤه عندك سيآن ما دامالمبلغ تسدد لك ودخل في جيبك.

العمدة: ِّ صدقت صدقت فليس بين الإخوان ما يدعو للتوقي والتحرس في مثل هذهالأمور، وقوموا بنا إلى صاحب الحان.

الخليع (للتاجر ضاحكًا): انظر إليه فلا يزال قلبهُ يحن وهواه يميل إلى سكان تلكالمعاهد والديار.

العمدة: أقول لك الحق، إن غيظي من معاملة تلك المرأة القاسية شديد وحنقيعظيم، ولست أنسى ضروب تفننها في التدلل عليَّ والتمنع مني، ولا أغفل عن تلك النظراتالتي كانت ترسلها إليَّ بالتعطف والتلطف وأنا أسحبها من شعرها، وبودي لو أراها مرةثانية فأوسعُها عتاباً وأشبعها تأنيباً.

الخليع (مبتسمًا): أنا فهمت غرضك وعرفت نيَّ تك، تريد من العتاب أن ينتهي بكإلى العُتبىَ وتخرج بها من التعنيف إلى التلطيف، وما ألذَّ الرضى بعد الغضب! وما أمتنالصداقة بعد العداوة! لكني أقول لك قول المشفق الناصح: إنك مهما حاولت مع هذهالمرأة، فلا يمكن أن يخلو لك وجهها بالليل مطلقًا لكثرة شغلها وازدحام الحائمين عليها،وإنما الرأي لك أن تلتمسها نهارًا وتدعوها للغداء معك في بعض جهات النزهة، وأناأفضل نزهة الأهرام على سواها، فإنها تكون هناك خالصة لك من دون الناس بمعزلعن العذَّ ال والرقباء.

التاجر:ّ َ ما أدق الحيلة وما ألطف الرأي!

العمدة (للخليع): لله درك فما حار من أنت حاديه، ولا ضل من أنت هاديه، وهيابنا إلى الحان أولاً لفك الرهن.

الخليع: ولعلنا نصيب خادم المرأة هناك فنرسله إليها بعرض التماسنا، ولا شكعندي في إجابة سُؤالنا.

العمدة: نعم نعم وليكن الاجتماع بها غدًا فخير البر عاجله.

الخليع: لك ذلك بكل تأكيد إن شاء الله.

قال عيسى بن هشام: وقاموا ونحن نعجب من كيد الإنسان للإنسان بما لا يأتيهحيوان مع حيوان، ثم بادرنا نحن أيضًا إلى القيام، على أن يكون الاجتماع غدًا في الأهرام.

العمدة في الأهرام

قال عيسى بن هشام: ولما وقفت بنا الركاب في ساحة الأهرام، وقفنا هناك موقف الإجلالوالإعظام، قُبَالَة ذلك العلم الذي يطاول الروابي والأعلام، والهضبة التي تعلو الهضابوالآكام، والبنيَّ ة التي تشرف على رضْوَى وشمام،[131] وتبُلي ببقائها جدة الليالي والأيام،وتطوي تحت ظلالها أقوامًا بعد أقوام، وتفني بدوامها أعمار السنين والأعوام، خلقتثياب الدهر وهي لا تزال في ثوبها القشيب، وشابت القرون وأخطأ قرنها وخط المشيب،ما برحت ثابتة تناطح مواقع النجوم، ٍوتسخر بثواقب الشهب والرجوم، ٍوتحدث حديثالمشاهدة والعيان، ما تعاقب الفتيان،[132] وتناوب المَلَوَان عن قدرة هذا الإنسان، في بدائعالصنع والإتقان، وتنبئ عن قوة هذا الضعيف الضئيل، في إقامة هذا الأثر الجليل، وكيفجاز لهذا الفاني البائد، أن يصدر عنه مثل هذا الباقي الخالد، وجل صنع القدير الخالق،في تصوير هذا الحيوان الناطق، حيث جعله مصدرًا للأعمال المتناقضة، والأفعال المتغايرةالمتعارضة، فبينا تراه يصعد إلى أجرام السماء وعوالمها، ويبحث بفكره في رسومهاومعالمها، ويسير بعلمه في أنحائها ومناكبها، ويهتدي لحساب أقمارها وكواكبها؛ إذ تراهيعثر عثرة برجله، فيكون فيها منتهى أجله، أو يكبو في طريقه، فيغص بريقه، ويهويبإذن الله إلى مكامن الخُلد،[133] وهو طامع في شجرة الخلد، فهو ذاك الذي كبُر وصغُر وعظموحقر، ًوعز وذل، وكثر وقل، وصعد وهبط، وعلا وسقط، وصلح وفسد، وعرف وجحد،وسعد وشقِي، وفني وبقي، وسبحان القاهر فوق عباده.

---

[131] جبلان معروفان.

[132] الفتيان: الليل والنهار.

[133] الخلد: الفأرة العمياء.

ثم انتقلنا من التفكير إلى التفسير، وانبرى الباشا يكشف عن ضميره ويقول لنا فيتعبيره:

الباشا: كنت أعتقد وأنا في سالف الأوان، أن هذه البنية لمصر تاجُها الذي تفاخر بهالتيجان، وأعجوبتها التي تباهي بها الأقطار والبلدان، وشاهدها الذي يشهد لها بالمدنيةوالعمران، ولكني أراها اليوم بعد أن استضاءت بنور العلم واهتديت بهُدى العقل،وبحثت في حقائق الأمور، أن لا مزية فيها ولا خير منها، سوى أنها أحجار مرصوفة،وجنادل مصفوفة، لا تمتاز عن جبل من الجبال،ٍأو تل من التلال، فهل تعلمان لها منمعنى غامض التوى عليَّ فهمه،ٍأو سرٍ خفي عز عليَّ علمه؟

الصديق: ليس لها على الحقيقة من سر خفي ولا من فائدة بادية سوى أن بعضالقدماء من أغبياء الملوك وطغاة الولاة كانوا يعتقدون بالرجعة في هذه الدنيا بعد الممات،وأن أرواحهم تعود ثانية إلى أجسادهم بعد أن تتنقل مدة من الدهر في أجسام أخرى،فكان همهم في حياتهم مصروفًا إلى حفظ أجسادهم من البِلَى بعد موتهم في قبور مشيدةقائمة على الدهر؛ لتعود إليها الأرواح بعد طول التنقل والتطور مثل هذه الأهرام وخلافها،والناظر في الآثار المصرية يحكم حكمًا قاطعًا أن التقدم والتفنن في البنيان والتصويرعند المصريين ينتهي أغلبه إلى المعابد والمقابر، وكانت قصورهم وبيوت ملكهم مبنيةبلبن الطين كأدنى الأكواخ، قانعين بذلك في جانب تسخير الأمة بأسرها في نقل الصخورورفع الأثقال لابتناء مثل هذا البنيان، واتخاذه قبراً لهم تحفظ في جوفه أجسادهم بعدتحنيطها سالمة من البِلَى إلى الرجعة — ولكن إلى المتحف متحف الجيزة — فتسخير الأمةالمصرية وتعطيل أعمالها وتمزيق أبدانها وإهراق دمائها وإزهاق أرواحها في بناء هذهالصخور إنما كان لفكر ساقط، واعتقاد سخيف من ملك جاهل لفائدة له موهومة، أومن عمل كاهن ماكر لمنفعة له معلومة، ومثل هذا لا يكون فيه من فخر لمفتخر، ولا منٍّ عزة لمعتز، وما هو إلا الظلم والغشم والضلال والجهل، وما لهذين الهرمين من معنااليوم غير أنهما قائمان على الدهر شاهدَي عدل على سابق الشقاء في الأمة المصرية، وماكانت تقاسيه من فظاعة الظلم والهوان ومرارة الاسترقاق والاستعباد، ولو كان

لأولئكالملوك أدنى لمحة في ارتقاء المدنية والعمران لكانت هذه الأحجار والصخور مرتفعة فيبناء القناطر والجسور، وتالله لباني القناطر الخيرية مثلًا ءُ في نظر الباحث المدقق أحقبالعزة والفخر من أولئك الملوك عباد الأوهام، ومستعبدي الأنام، وما أعلم لهذا الهرم منمعني آخر يذُكر سوى أنه صار يومًا من الأيام منبراً من المنابر اعتلاه جبَّ ارٌ آخر فرنسياسمه نابليون، فخطب من فوقه على جنوده بكلام يهز فيهم أريحية التفاخر والتباهي،ويخدعهم به ليظلوا على العمى في طاعته يمارسون الحروب ويعانون أهوال الوقائع،ويصبرون على الموت والقتل في هواه، وما لهذا البنيان اليوم من فائدة حاضرة إلا كونهصار مورد رزق لجماعة من العربان التهوا به عن ابتغاء الرزق من قطع الطريق علىالسابلة، ومما يحضرني الآن من كلام بعض المؤرخين في شأنه: أن الملك الذي شيده أمرٌ أن يكتب على جدرانه عقب الفراغ منه هذه العبارة عن لسانه على جهة التحدي:»إنيابتنيت هذا البناء في ثلاثين عامًا، ً فإن جاء بعدي من الملوك من يدعي القوة والقدرةفليهدمه في ثلاثمائة عام.« ولو عقل المسكين أنه سيأتي عصر من العصور يمكن فيهلأحقر صعلوك أن ينسف هذا البناء في لمحة واحدة، فيجعله كالعهن المنفوش والهباءالمنثور بمقدار قبضة اليد من بعض الأجزاء الكيميائية لما اغتر بسعة القوة والسلطان،ِ ولما تحدً ى بشيء سلمه ليد الحدثان، وليس للحدثان من أمان،ً اللهم إنك تعلم أنه عملضائع، من جهل شائع، لا ينبغي للمصري أن يراه إلا بدمع منهمر، وقلب منفطر؛ لأنهالشاهد الأكبر على كبرياء كُبرائه، وهوان أجداده وآبائه.

قال عيسى بن هشام: وهنا رأينا أصحابنا قد أقبلوا وبينهم تلك العاهرة الفاجرة،فأشارت عليهم بالجلوس، فاتخذوا لهم مجلسًا في ظل من ظلال الأهرام، وانبسطوا علىبساط الشرب والنقل، فقطعنا من بيننا حديثنا وانتهينا إلى جوارهم لنسمع ونرى منأخبارهم وأحوالهم، فإذا العمدة يقول للتاجر متظاهرًا أمام المرأة بمظهر الباحث المدققوالعالم المحقق:

العمدة: هل لك علم أيها الصاحب بشيء عن أصل الأهرام، وسبب وضعها وتاريختشييدها؟

التاجر: كيف لا يكون لي علم بذلك، وقد وقفت على قصتها تمامًا، وقرأتها مرارًا فيكتاب »قصص الأنبياء« عند الكلام عن سيدنا نوح — عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام— بحيث يمكنني أن أقصها عليك حرفًا بحرف:»ذلك أن الملك »سودون« كان ملكًا علىمصر قبل الطوفان، فرأى في منامه رؤيا أفزعته فاستدعى السحرة والكهنة والمنجمين،وقص عليهم أنه رأى النجوم تناثرت والقمر هاوياً إلى الأرض، فقالوا له: إن هذه الرؤياتدل على حدوث طوفان عظيم يغمر الأرض قريباً، ولا يبُقي على شيء فيها، فارتاعالملك واستشارهم ماذا يفعل للنجاة من هذا الحادث العظيم، فأشاروا عليه بابتناء هذهالأهرام حتى إذا حل الخطب انتقل إليها، واستعصم بها مع أهله وحاشيته وذخائرهوكنوزه، فحشد الملك الألوف المؤلفة من الخلق وسخرهم لهذا العمل، فأتموا له هذا البناءفي مائتين وخمسين عامًا، ثم كساها بالديباج وفرشها بالحرير، ونقل إليها من نفائسالجواهر وذخائر الكنوز ما تعب الناس في حمله ونقله شهورًا كثيرة، ثم إنه جمع السحرةفحصنوها له بالأرصاد والطلاسم، ولما قرب وقت الطوفان لجأ إليها بأهله وحاشيتهوطَغَى الطوفان فلم ينج منه إلا أهل السفينة وعُوج بن عنق وهذه الأهرام، وعوج بنعنق هذا هو حفيد آدم — عليه السلام — ٍ ولد في زمن جده وأدرك موسى — صلوات اللهعليه — وذكروا أن ذلك الطوفان الذي علا الهضاب والجبال لم يبلغ حدّ ركبتيه، فكانيخوض فيه مع السفينة فإذا أحسّ بالجوع مدّ يده إلى قاع البحر، فأخذ الواحدة منالسمك فيدُنيها من عين الشمس ويأكلها مشوية، ولما انقضى الطوفان وعاد العمران إلىالدنيا أخذ يعيث في الأرض فسادًا دهرًا طويلًا، حتى بعث الله موسى — عليه الصلاة — فشكا الناس إليه ما يفعله عوج بن عنق،ً فدعا الله أن يكفيهم شره، وكان عوج بن عنقَّ قد حمل صخرة فوق رأسه؛ ليلقيها على أهل بلدة حل بهم غضبهُ ُ، فأرسل الله تعالى طيراًله منقار من الفولاذ فما زال ينقر الصخرة من وسطها حتى ثقبها فسقطت في رقبةحاملها،ٍ وصارت غلا له يمنعه عن الحركة والانتقال، فجاء موسى

بعصاه وكان طوله —عليه السلام — أربعين ذراعًا وطول العصا أربعين ذراعًا، ثم إنه وثب في الهواء أربعينذراعًا، وضرب عوج بن عنق ضربة فلم تتجاوز كعبيه، ولكن قوة سيدنا موسى ألقته إلىالأرض؛ لأنه من أوُلي العزم، فوقع عوج بن عنق في النيل فحسره عن أرض مصر سنة كاملة ووقعت الوحوش الضارية تنهش من رجليه، فكان إذا مرّ عليه مار عند رأسهقال له:»إذا وصلت بسلامة الله إلى قدمي فامنع عني ما يؤلمني من هذا الذباب.« يعنيالوحوش المفترسة، وبقي على هذه الحال إلى أن مات فاتخذوا من أضلاعه قناطر للنيل،واتخذت الوحوش من عينيه وأذنيه ومنخريه كهوفًا ومغائر تسكنها، وكفى الله العبادشره وفساده.«

العمدة: سبحان الخلاق العظيم، أرجوك بالله يا أخي أن تشتري لي نسخة من هذاالكتاب أحملها معي إلى البلد؛ ليقرأها لنا إمام المسجد أو مأذون الناحية عند خلونا منالأشغال.

قال عيسى بن هشام: وكان الخليع في هذه الأثناء مشتغلًا بمحادثة المرأة متفرغًالها، يضاحكها وتضاحكه ويشاربها وتشاربه، فلما انتهى التاجر من قصته أقبل الخليععلى العمدة يلاطفه ويؤانسه ويقول له:

الخليع: هل رأيتَ بالله عليك يومًا أعظم أنسًا وأتم سرورًا، وأجمع لأسباب الهناءوالصفاء من يومنا هذا؟

العمدة: ٍحقا إنه يوم سعدٍ وأنس غير أني كنت أود أن يكون هذا المجلس في البيتلا في الخلاء، وتحت السقف لا تحت السماء، ٍفإنك ترى كثرة السياح والعربان من حولنا،وفي ذلك من التضييق على حريتنا ما لا يخفى عليك.

الخليع: لا تخش الناس ولا تشغل نفسك بالخلق، واغتنم اللذات بكل جسارةوإقدام، وليس للإنسان سوى ساعة الصفو إن لم يغتنمها ترك الدنيا بصفقة المغبون،وأنا أقترح عليك الآن أن نعمل مثل عمل السياح في الصعود إلى الأهرام حتى لا يفوتناشيء من أسباب التنزه.

التاجر: دعنا من هذا الاقتراح فليس هو من شأننا، وأية لذة بالله عندك في صعودالجبل، واحتمال المشقة والتعب مع التعرض للخطر في كل خطوة؟

الخليع: ٍهذا أمر سهل جدا وقل من يزور الأهرام إلا ويصعد فيها مسافة علىقدر جهده، وانظر إلى هذه النسوة الأمريكيات الصاعدات النازلات في أيدي العربان أمامعينك، هل تراها تخشى خطرًا أو ترهب تعباً، وهل يليق بنا معشر الفحول من الرجالأن نكون أدنى من النساء جرأةً وإقدامًا، ًوعلى كل حال فلا بد لنا من الصعود قليلاًّ ليعلم من حولنا أننا جئنا مثلهم لزيارة الآثار لا للهو والخلاعة، والسيدة توافقني علىهذا الرأي.

العمدة: وأنا أوافق عليه أيضًا، أرجو الله أن نعثر في صعودنا على فص منالفصوص العتيقة التي طالما عثرتُ على مثلها في التل الكُفري بناحية بلدتنا، ولكن كيفنترك سيدتنا وحدها؟

التاجر: أنا أنتظركما معها.

الخليع: لا بل تصعد هي معنا أيضًا اقتداءًً بهذه السيدات.

قال عيسى بن هشام: ويقومون للصعود ويتلكأ التاجر في أخرياتهم ويحاولالتخلف عنهم فيدفعه العمدة بكل قواه ممازحًا له وساخرًا منه لشدة تخوفه وحذره،والخليع والمرأة يغُريانه به ويضحكان لضحكه وما كادوا يصعدون قليلًا حتى حانتمن العمدة التفاتة إلى الأرض، فهاله ما بينه وبينها من الفضاء فامتقُِعَ لونه وارتعدتفرائصُه، ٍومال على الدليل البدوي مستغيثاً به أن ينُزله إلى الأرض معتذرًا أن الصفراءلعبت برأسه فلا يقوى على متابعة الصعود، فيدركه الخليع فيسنده مع البدوي فيسقطُّ من أيديهما فيحمله البدوي على ظهره وينزل به، فما يبلغ الأرض إلا ونسمع من المرأةصياحًا وعويلًا من فوق الهرم وهي تناديهم جميعًا أن يبحثوا لها عن فَ ٍص الخاتم الذيوقع من إصبعها، فيلحق بها الخليع فيبحث فلا يجِ َدُ شيئاً فينزل معها فيتلقاها العمدةَّ بالتخفيض والتهوين عندما تتلقاه بالبكاء والعويل، ويغلب على ظن التاجر أن الفَ ً صريما لم يسقط في حال الصعود بل في حال الجلوس، ويطلب من العربان أن يدركوهبغربال يغربل به الرمل عساه يجده فيه،

هذا والمرأة لا ينخفض لها صوت، ولا يرقأ لهادمع ولا تنتهي لها شكوى، والخليع يطُيِّ ب من خاطرها تارة، ويميل على العمدة طورًايظهر له الأسف من الحادث الذي كَ ًدر عليهم الصفو وأبدلهم بالأنس حزناً، وأن هذه ّ َ شيمة الدهر قلما يتم فيه صفاء أو يكمل فيه سرور، وما من لذة إلا وهي مشوبة بالألم:

فسد الزمانُ فما لذيذخالصٌ مما يشُ وبُ ولا سرورٌ كامل

على أن المصيبة هينة ما دامت في المال دون النفس، ومن ذا الذي يدري بما هو مخبَّ أله في الغيب،ٌ والحمد لله على اللطف في القضاء، ولا يزال الخليع بالعمدة حتى يتقدم إلىالمرأة، ّ ٌ ويقسم لها أنها لا تبيت الليلة إلا ولديها فص مثل الفص الضائع، فتشكره وتقولله: أنَّ ى لها بمثل ذلك الفص وهو من الياقوت النادر المثال في لونه وصفائه، فيعيدعليها القَسَم بأنه سيأتيها في الغد بفص أثمن منه وأجمل،ٌ ثم إنه يشد على يدها توثيقًاٌ للوعد فتشد على يده للتقبيل فيعز عليه حينئذ أن يرى إصبعها بخاتم من غير فص،فيخلع خاتمه الذي استخلصه من الرهن ويلبسها إياه حتى يأتيها بغيره، ويعودون إلىمجالسهم ويأخذون فيما كانوا عليه من المسامرة والأنس، ويقول العمدة بعد استقرارالمجلس بهم:

العمدة: ما أحسن المجلس وما أضيق الوقت وحبذا لو واصلنا الليل بالنهار!

التاجر: لعلك تريد أن نقضي ليلتنا مثل تلك الليلة الماضية في ذلك الحان المنحوس.الخليع: وهل تظن أنه يمكن لنا التمتع بصاحبتنا في الحان مثل ما نتمتع بها الآن،وقد شاهدنا بأعيننا ما حولها هناك من المزاحمة والمخاصمة؟العمدة: وما العمل حينئذ.

الخليع: العمل أنني أكلفها أن تتمارض هذه الليلة، وترسل إلى صاحب الحانبتعذُّ ر حضورها عنده.

العمدة: نعم الرأي ما ترى.

قال عيسى بن هشام: ويأخذ الخليع في استعطاف المرأة لقبول هذا الطلب، فتمتنعأولاً معتذرة بما بينها وبين صاحب الحان من الشروط التي تقضي عليها بدفع عشرةجنيهات إليه تعويضًا عن كل ليلة تتأخر عن الحضور فيها، فيلتفت الخليع إلى العمدةينتظر رأيه، فيميل العمدة على المرأة متعهدًا لها بدفع هذا التعويض، ثم يتساءلون فيمابينهم كيف يقضون ليلتهم في الأنس والسرور، فيرى العمدة قضاءها في البيت، ويربالتاجر قضاءها في التنقل بالمرأة في »البارات« ويرى الخليع قضاء جانبٍ منها أولاً فيمشاهدة الرواية البديعة الجديدة التي تمُثل في »التياترو« العربي، فيقع اتفاقهم على هذاالرأي الأخير فيسرعون بالقيام ليدركوا فسحة الجزيرة أولاً، وينصرفون على هذا العزمالمؤكد، ًوالميعاد المحدد، ٌويعن »للصديق« أن نتخلف عنهم، ريثما تنقضي فسحة الجزيرةبهم، وأن نقضي هذه المدة الوجيزة، في زيارة قصر الجيزة، ثم نلحق بهم عند المساء فيدار التمثيل والتشخيص، وديوان الروايات والأقاصيص.

قصر الجيزة والمتحف

قال عيسى بن هشام: ووصلنا إلى قصر الجيزة ومتحف الآثار، ومُلتقَى السيارة من سائرالأقطار،[134] فدخلنا روضة تجري الأنهار من بينها، كأنها الجنة بعينها، ولما رأى الباشامسالك الروض منضدة وطُ ًّ رقه مرصعة مزردة، حسبها أرضًا مفروشة، ببسُ ُّط منقوشة،وأشكل الأمر عليه، فهم بخلع نعليه، فقلت: طريقٌ معبَّ د[135] لا فرش منجد، وحصباءومرو[136] لا بساطٌ وفرو، ثم شاهدنا قصرًً ًا يكل عنه الطرف، ويقصر دونه الوصف، فسرنانرتاد خلاله، ونتفيأ ظلاله، فإذا الأسود مقصورات في المقاصير، والأساود مكفوفات فيالقوارير،[137] ورأينا النمور في الخدور،ٍ والرئال في الحجال،[138] والذئاب في القباب، والظباءفي الخباء، فقال الباشا: لمن هذه الجنان؟ وكيف يسكنها الحيوان؟ وما علمت من قبلأن الليوث الضواري، تسكن مغاني الجواري، وأن أوابد[139] البيد[140] تتحجب في خدور الغيد.فقلت له: سبحان القادر العظيم، هذا بيت إسماعيل بن إبراهيم، طالما كانت حُجُراتهُمطالع للأقمار، ودرجاته منازل للأقدار، كان إذا نادى صاحبه فيه »يا غلام« شقيتأقوام وسعدت أقوام، ولبَّ ى نداءه البؤس والندى، بأسرع من رجع الصدى، وكان مناحتمى بظل هذا الجدار، تحامته غوائل الأزمان والأدهار، هنا كان يفُصل الأمر ويحكم،وينقض

134 السيارة: القافلة وأصلها القوم يسيرون.

135 طريق معبد: أي مذلل.

136 المرو: حجارة بيض رقاق براقة.

137 الأساود: جمع أسود وهو العظيم من الحيات.

138 الرئال: جمع رأل وهو ولد النعام.

139 الأوابد: جمع آبدة وهي الوحش.

140 البيد: جمع بيداء وهي الفلاة.

الحكم ويبرم، هنا كانت تنفرط فرائد القلائد، من أجياد الخرائد، فتختلطبمنثور أزهاره،ٍوترصع لحين أنهاره، هنا كانت تتناثر الحلي من قدود الحسان، فتشتبهبأثمار الأغصان، هنا كانت تصدح القيان على المزاهر والأعواد، فتجيبها ذوات الأطواقفوق الأفنان والأعواد، فأصبح اليوم حديقة مبتذلة عامة، وموطئاً لأقدام الخاصة والعامة،وأصبحت أرضه تكُترى، وجنى أشجاره يباع ويشترى،ً ودوى فيه صياح النسور وزئيرالأسود، وامتلأت أرجاؤه بعواء الذئاب وهمهمة الفهود، وزال ما كان فيه من عز وطول،ومجدٍ وصول وأيدٍ وحول،[141]ً وصدق الكتاب فحق عليه القول:

في هذا الدار، في هذا المكان، على   هذا السرير، رأيت الملِك قد سقِطا

وذكرت للباشا ما كان لصاحب هذا القصر، ومليك ذلك العصر، من الجد الصاعد،والبخت المساعد، وما صار إليه بعد ذلك من أفول السعد، وما دهاه في الغربة إلى أنسكن اللحد.

نالوُا قليلًا من اللذات وارتحلوا   برغمِهم فإذا النَّ عمِاء بأساء

ثم وقف الباشا هنيهة فكر فيها واعتبر، وتلا:﴿وَلَقَدْ جَاءَ َهُ ٍم منَ الأْنَباَءِ مَا فِيهِمُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ باَلِغَةٌ فَمَا تغُ ْنِ النُّ ذرُ ُ﴾.

ثم إننا سرنا في وسط الحديقة حتى انتهينا إلى دار التحف العتيقة، فدخلنا نشاهدما أبرزته يد البحث من الخفاء إلى الظهور، وما أعادته قوة التنقيب من البلى إلى النشور،وما صانته ألحاد القبور من يد الفناء والدثور، وجمعته أحشاءُ الرموس من العفاءوالدروس، وما أجنَّ ته أرحام المعابد والهياكل من بقايا المواضي وخفايا الأوائل، ومماانسدلت عليه سُجوف الأحقاب من ودائع الأسلاف للأعقاب، وما انشقت عنه الأرض منمكنون الدفائن، ومكنوز الخزائن، وعجائب الفن الدقيق،

141 الأيد: القوة.

وبدائع الصنع الأنيق، بليت فياصطحابها جدة الأيام والليالي، وانحنت على احتضانها ظهور العصور الخوالي، ومضتدول بعد دول، وذهبت أولٌ في إثر أول، واندثرت مدائن ونشأت مدائن، وبادت مواطنوقامت مواطن، وانقلبت الأغوار أنجادًا، والأبحار أطوادًا، وغدا العمار خراباً، والغمارسراباً،[142] والسرابُ غمارًا، والخراب عمارًا، وهي هي مصونٌ شكلها كما تركها أهلها، لسانصادق وخبر ناطق، تنطق بالعبر، وتحدث عمن غبر:

رُمضت غبرات العيش وهي غواب[143]   على الدهر مكتِوبُ عليها حبِائس

وأقمنا هناك نتنقل بين الأصنام والتماثيل، ونتأمل في التصاوير والتهاويل،[144] ونتفكرَّ في هذه العظام المنشرة، والرفات المنظرة، بما عليها من الحلي والزينة، وتلك الأحجارالثمينة، كيف كانت ملوكًا للأمم.

ثم بقيت على بلَى الرمم، وتوالي القدم، في حال الوجود مع العدم.

ورأينا بجانبنا رجلًا من ذوي العمائم، مع فتى من الطرز المتحاذق المتعالم، ظهرلنا من أمرهما،ً وتبين من شكلهما أن الرجل عينٌ من أعيان المدينة، وأن الفتى ابنٌ لهوزينة، وإذا هما يتناظران ويتحاوران، فيما يريان ويبصران، فدنونا منهما وأنصتناإليهما:

الابن: أشهدت مشاهد عزّنا ورأيت معاهد فخرنا، وعلمت كيف كان مقدار مجدنا،وإلى أية رتبة بلغت بنا صناعة أجدادنا؟ درهم ما كان أرقاهم في الفكر وأبدعهمفي العمل! ولو أن نوابغ الأمم اجتمعوا اليوم اجتماع مفاخرةٍ، ونزلوا إلى ميدان المناضلةوالمناظرة، لما سبق المصري منهم سابق، ولا تعلق بأثرهِ لاحق،

[142] الغمار: جمع غمر، وهو معظم البحر.

[143] غبرات: غبر الشيء بقيته: وغوابر: جمع غابر وهو الباقي والماضي ضد.

[144] التهاويل: زينة التصاوير والنقوش والحلي الواحد تهويل.

ولكان له من بينهم الكعبالأعلى،ً والقدح المعلى، وهذه الآثار في يده يفاضل بها ويفاخر، وينشد عليهم قول الشاعر:

هذه آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

الوالد: ما أرى شيئاً في هذه الآثار التي تماجد بها، وتفاخر يفوق ما يكون فيالسوق من البضاعة الكاسدة والسلع البائرة، وما يتخرج عن بيوت الناس من الأعراضالواهية والأمتعة البالية.

الابن: كيف يكون منك هذا القول وهي بشهادة العالم أجمع أثمن من كل ثمين،وأنفس من كل نفيس، لا تقويم لها ولا تقدير إلا بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة،وكيف غاب عنك تهافت هؤلاء الغربيين أهل المدنية الحاضرة على اقتناء شيء منها بالمالالجم تنافسهم في التمتع بمشاهدتها يتحملون لذلك الأسفار البعيدة، والمتاعب الشديدة،ولا يعقل وهم هم، أهل الهدى والعلم، أن يشتغلوا بباطل، أو يجهدوا أنفسهم على غيرطائل.

الوالد: لكم دينكم ولي دين، وما أزال أكرر القول لك بأنني لا أجد في نفسي شيئاًمما تشعرون به في هذا الباب، وما أراه من هذه الأحجار والتماثيل لا يساوي في نظريإلا أنقاض بيوت عفت، أو طلول درست، وإن صح ما يقال عن هذه التماثيل إنهاأشخاص قديمة نزل بها السخط والمسخ، كان التعلق بها والتمجيد لها مما يغضبالخالق ولا يرضي المخلوق، وأما قولك: إن فيها منتهى فخرنا ومجدنا؛ لأنها من صنعآبائنا وأجدادنا، وإن آباءنا وأجدادنا هم من نسل هذه الرمم الفرعونية، فإنه إثم ونكرأستعيد بالله منه ﴿كَبُرتَ ْ كَلِمَةً تخَ ْرُجُ مِنْ أفْ َوَاهِهِمْ إنِ يقَ ُولوُنَ إ ِّلا كَذِباً﴾ ما كان أجدادناوآباؤنا إلا أولئك العرب الكرام، أهل الدين والإسلام، لا نفاخر إلا بمفاخرهم، ولا ننتسبلغير أصلهم، وأما من جهة الصنعة في كل ما أراه هنا، فإن صبيان الفلاحين اليوميشتغلون بصنع مثل هذه الآثار والأحجار، ويتفننون في تقليدها فتخرج من أيديهم وهمبين الروث والطين أتقن صنعً ا من هذه المحجبة في القصور المصونة في البلور.

الابن: علم الله لو كان في لغتنا العربية من الكتب المؤلفة في مزايا هذه الآثار مثل مافي اللغات الأجنبية لعلمت منها ما لم تكن تعلم، على أن مجرد النظر يكفي وحده لإثباتهذه الآيات والمعجزات في حسن الصنعة والدقة، أفلا تنظر إلى هذا التمثال البديع تمثالشيخ البلد وهو قطعة واحدة من خشب الجميز، فما أدق الصنع، وأتقن العمل وما أكملالشبه وأجمل الصورة!

الوالد: نحن في كل يوم نشاهد مائة شيخ بلد من لحم ودم لا من خشب وحجر،فدعني على غباوتي وجهلي وبارك الله لك في علمك وعقلك.

الابن (بصوت خفي): ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين﴾، (ثم يجهر بالقول)— لا لزوم حينئذ لطول إقامتنا هنا وهلم بنا فقد حل الميعاد المضروب بيني وبين ذلكالسائح الذي زارنا بالأمس؛ لتناول العشاء معه في »أوتيل شبرد.«

الباشا (للصديق بعد انصرافهما): ماذا تقول في هذه المناقشة وما دار من الكلامبين الولد والوالد؟

الصديق: ما عساي أن أقول غير ما قاله الله عز وجل:﴿فَخَلَفَ مِن بعْدِهِمْ خَلْفٌأضَاعُوا الصلَاةَ وَاتَّبعُوا الشهَوَاتِ فَسَوْفَ يلْقَوْنَ غَيًّا﴾، وماذا نرى هنا غير الذي رآه هذاالوالد الساذج، قبور مقلوبة، ورموسٌ معكوسة وأجداث منبوشة، فإن كان الغرض منعرضها العبرة أو الموعظة فإن فيما هو أمامنا كل يوم من هبوط الملوك عن ذهب العرش،إلى خشب النعش، ومن وسائد الحبر، إلى مساند الحجر، ومن ظهور الصافنات الجياد،إلى بطون الديدان في الأكفان والألحاد، لنعم الموعظة الحاضرة للنظر والحس، والحكمةالبالغة للعقل والنفس.

الباشا: هذه هي الحقيقة بعينها في نظري الآن، وقد كنت أحسب أن لهذه الآثارشأناً عظيمًا فيما مضى من دهري، عندما كنت أرى تهافت الغربيين عليها في زمن الولاةالسابقين، ولكن لعل شأنها عندهم وعلو قيمتها لديهم هو لأجل توغلها في البلى والقدمِّ ومحلها من التاريخ، وما تحمله منقوشًا عليها من أساطير الأولين.

الصديق: نعم إن كان من وراء هذه الآثار والأشلاء قيمة عند الغربيين، فإنماهي كما تقول لتعلقها بمباحثهم في أخبار الأوائل وفلسفة التاريخ، وزد على ذلك حبهمللاقتناء وولوعهم بالاختصاص بالنادر، ولذلك علت قيمتها عندهم وارتفع قدرها بينهم،وليس للمصريين منها أقل فائدة سوى الشهرة بأن في مصر آثارًا تفوق في القدم مثلها منبقية المتاحف، ولو أنك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحدًا واحدًا لما استفادوا منهاشيئاً، ولا أفادوك عنها شيئاً، ولما وجدوا لها قيمة تذُكر سوى النزر اليسير من المقلدينللغربيين، ولم تجد بين عشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه لغة »الهيروغليف«أعني لغة آبائهم وأجدادهم كما يزعم الزاعمون مع كثرة الخبيرين بها من الأمم الغربية،والله أعلم بمقدار علمه بها، ولو تمنيت الأماني لقلت: عسى الله أن يخفف بقيمتها العاليةبعض ما على الحكومة المصرية من أثقال الديون، وما على المصريين من أعباء الضرائبوالمكوس، ويا ليت المصريين يخرجون عنها لا عليهم ولا لهم، فإنها تكلف الأمة المصريةنفقات على البحث عنها في خبايا الأرض وجمعها والتحفظ عليها، ونقلها من أماكنها إلىالمتحف، وناهيك بنفقات المتحف التي أنفقتها الحكومة أولاً على متحف بولاق، وثانياً علىمتحف الجيزة، وما تنفقه ثالثاً على المتحف الجديد بقصر النيل، فإنها ت ُعُد بالملايين.

الباشا: كنت أرى رأيك هذا وأتمنى أمنيتك لولا أن يقال: إن المحافظة على هذهالآثار والحرص على بقائها بمصر مزية أدبية لها قدر عظيم يعرفه من عرف مقدارحرص أهل الممالك الأخرى على الآثار والتحف، وشدة ضنهم بها، فلا يرغبون البتة فيِّ بيعها والتخلي عنها ويرون فيها فخرهم ومجدهم، فلا يليق بمصر أن تشذَّ عن هذاالسبيل.

الصديق: َّإن حرص أهل الممالك على ما في متاحفهم من الآثار وتفاخرهم بها هو؛لأنها عندهم علامة من علامات التغلب والانتصار، وإشارة إلى المجد القديم والعز التليد،ولكن أين علامة التغلب والانتصار عند المصريين، وما هي إشارة المجد والشرف في هذهالرمم البالية، رمم أهل الجهل والظلم من أغبياء الملوك الأقدمين،

ولأن الغربيين في غيرحاجة إلى قيمة أثمانها فهي عندهم من الكماليات، أما عندنا فالأمر بالعكس، ولم تأتناهذه الآثار من جهة الفتح والنصر، وإنما جاءتنا من طريق النبش والحفر، والمصريونفي حاجة إلى المال لإنفاقه في ضروريات المعايش، وقلما يمر عام إلا ويكشف المكشفونفي مصر من هذه الآثار الشيء الكثير، بحيث يوجد لكل نوعٍ منها أشباه كثيرة،ً فما ضرالمصريين لو تخلوا عن بعض هذا الكثير الزائد، وعن تلك الأشباه المتعددة، وانتفعوا بقيمةأثمانها في بعض شئونهم العامة، ويبقى في المتحف مع ذلك من الآثار ما يكفي للفخفخةوالمباهاة ومباراة الأمم في تشييد المتاحف، وإن كان قد جاز لحكام مصر السابقين أنيهادوا ملوك أوروبا وأميركا بالجانب العظيم والقدر الجليل من هذه الآثار القائمة اليومفي الأنحاء المختلفة من أقطارهم،ٌ وأن يغضوا النظر عن الوافدين على الديار المصريةلسببها أو ابتياعها من أيدي الفلاحين بدرهم أو دينار، فلِمَ لا يجوز التخلي عن بعضهاللانتفاع بأثمانها وهي على ما تراه — ما لا يباع فإنه يتُقَسم — وجملة القول: إنالانتفاع بها اليوم قاصر على الأجانب وحدهم إما بمشاهدتهم لها في ديارنا أو بانتقالهامسلوبةً إلى ديارهم، وأي عار على الأمة المصرية أن تتصرف في بعض الآثار المتشابهةالتي تنبتها لها الكهوف والتلال في كل يوم؛ لتنتفع بأثمانها في ترقية شأن المعارف وبثالأدب بطبع تلك الكتب المخزونة للأرضة بدار الكتب المصرية في المطبعة الأميرية، التيطالما أفادت الناس بطبع الكتب النافعة في أيام الحكومة السابقة حكومة الجهل والظلم،وخبروني — ناشدتكم الله — أي نفع وفائدة للأمة المصرية الإسلامية في أن تنشر بينيديها رمم الفراعنة في الانتكخانة، وتقبر أرواح العلماء والحكماء في الكتبخانة؟ وأيالأمرين أعظم نفعًا وأكثر ربحًا، أن يعُرض على أعيننا تمثال »إيبيس« وصورة »إيزيس«وذراع »رعمسيس« وفخذ »امينوفيس« أو أن تتداول الأيدي كتاباً للرازي ومقالة للفارابيوفصلًا لابن رشد ورسالة للجاحظ وقصيدة لابن الرومي؟ وما تجري الأمور عندنا شهدالله إلا على التناقض، وما تسير إلا على خلاف المصلحة.

قال عيسى بن هشام: وجاء أوانُ الخروج، فقمنا نسعى لنلحق بأصحابنا في الملهى،ونشاهد ما يتم عليه حالهم، وينتهي إليه مآلهم.

العمدة في الملهى

قال عيسى بن هشام: وعدنا إلى المدينة وقد مَ ّد الغروب حبالته؛ ليقتنص من الأصيلغزالته، فطارت نفسُها شَعَاعًا،[145] ّ واضمحل قرصها شُعَاعًا، وجَ ّدت نافرة إلى كناسهاٍ، وهي تصعّ د الشفَقَ من أنفاسها، ثم اختفت شقائقُ الشفق، تحت أكمام الأفق،ّ ولما أن

ّ اخضر من الليل جانبه،ّ وطر شاربه، وتوقدت مصابيح السماء، في قباب الظلماء، قصدنادار التشخيص والتمثيل، وبيت التصوير والتخييل، فدخلنا مع الداخلين نساءً ورجالاً،أجناسًا وأشكالاً، واخترنا لجلوسنا الكراسي دون الغُرف لتتيسر لنا المشاهدة من كلطرف، ثم جلسنا نحدد النظر، في مَن حضر، وإذا نحن بين أخلاط من الطبقات اختلفتأزياؤهم، واتفقت أذواقهم وأهواؤهم، وعلا ضجيجهم وصياحهم، وكثر لعبهم ومزاحهم،سبًّا وشتمًا، ولكزًا ولكمًا، ثم يتمايل بعضهم على بعض، ويضربون بعصيهم وأرجلِهمظهر الأرض، رجالاً وغلماناً، شِيباً وولداناً، متظاهرين بملل الاصطبار، ومطالبين برفعالستار،ّ ثم حولْ ُنا النظر إلى أعالي الشرَف، وجوانب الغُرَف، فرأينا من بينها مقاصيرعليها رقائق الستائر،ُ تشف عن لوامع اللآلِئ والجواهر، في نحور الحور، من مكنوناتالقصور، وبيَضاتِ الخدور، ولولا التأدب لتخيلناها من بنات الفجور، فهن يزحزحن منالوشي والحبَر،ُ ويكشفن عن الطرَر، تضيء بالغرر، ضوء الليل تحت القمر، ويتراءينترائي الكواكب والنجوم، من خلل السحب والغيوم:

---

145 الشعاع: المتفرق.

وتنقبتَ ْ بخفيف غيَ مٍ أبيضٍ   هي فيه بين تخ ٌفرٍ وتبٍ ٌ
رجكت ٌنَفَسِ الحسناء في مرآتِهَا َك ملِتْ َ   محاسنها
ولم تتِ   ّ َ زوجِ

والرجال من تحتها ينظرون ويتشوفون، ويتشوقون ويتلهفون لا تنثني أبصارهمعن وجهتها، ولا يحولون الوجوه عن قبلتها فهم قائمون على عبادتها عاكفون، لاينفكون عنها ولا هم يستنكفون، وهن يوالين الضحكات، ويتُالين الحركات، ويتبادلنمعهم الغمز، ويتبادلون معهن الرمز، ويتراسلون بمراوح تثُير مكنون الهوى والغرام،ويشيرون بمناديل تغني عن فصيح اللفظ والكلام، وقد خرقت الأصابع نسيج الأستار؛لتنفذ منها رسل الأزهار، وتقابلت بينهم المناظير بالمناظير، تدني البعيد وتكبر الصغير، وكل فتى يرى أنه المرمي دون سواه بالنظرات، ٌ وأنه المعني بتلك الإشارات، فيتصنعالتجمل والتظرف، ويتكلف التأنق والتلطف، ٌوفوق أعلى الشرفات أقوام وأي أقوامتزاحمين أكوامًا على أكوام، كأنهم في سوق من أسواق الأنعام، لا ينتهون فيه عنالشجار والخصام، وتفقدنا أصحابنا في أنحاء الملهَى، فوجدناهم في غرفة والعاهرة فيأخرى، وقد تزيَّ ٍت بزي الأجنبيات فنبذت الخمار والإزار، وتبدت في القُبَّ عة والزنار، وهيتغامز العمدة بعينيها، وتشير إليه بيديها، والخليع يكون تارةً في الغرفة عندها وأخريظهر في غرفة بعدها، إلى أن دق الجرس بالدخول، وارتفع عن الملعب ستره المسدول،وظهر فيه أمامنا طائفة من الممثلات والممثلين، ٍ ما بين ملحنين ومرتلين، على طريقةيمُجها السمع، ويعافها الطبع، وبكلام مبهم، وألفاظٍ لا تفهم، كأنهم حداة في مفازة،[146] أوسعاة في جنازة، وهم في أزياء متعاكسة، وأشكال غير متجانسة وثياب تنافرت ألوانها،على أشخاص تباينت أوطانها، وظلوا يعبثون بالأناشيد والتلاحين، ثم انصرفوا عنا بعدحين ثم ظهر من بعدهم رجل مكتهل، ًمزجج الحواجب مكتحل، مصبغ الخد والجبين،بأحمر كالورد

---

[146] المفازة: الفلاة لا ماء فيها.

وأبيض كالياسمين، فأخذ يخطر ويتثنَّ ى ويهتف ويتغنَّ ى، وبجانبه امرأةنصَف، تتمايل وتنعطف، لا تقل عنه شيئاً في باب التصبغ والتدهين، والتصنع والتلون،يقول لها في شكوى الغرام، وشرح الوجد بها والهيام: »يا حبيبة الفؤاد، وغاية المراد، ماألطف هذا الشكل! فهيا بنا نغتنم الوصل.«

فتجيبه: »قد يكون ذلك أيها الخل الوسيم، إذا ساعدتنا أ ٍمُي نسيم، فدبِّ ر أنت ماعليك، وها أنا ذاهبة لأرسلها إليك.«

ثم تنصرف الفتاة ويبقى الفتى في انتظار حضور الأم فتدخل عليه، وإذا هي عجوزشوهاء، وجُلبُّانة ورهاء،[147] فيتصل بينهما الكلام وينتهي بالقبول والاتفاق، ويضع الفتىفي يدها كيسًا من الدراهم عند مفارقتها إياه، ثم ينفرد متجولاً ينشد ويغنىّ مدة منالزمن، ثم يذهب لسبيله، وتأتي الأم ومعها زوجها وإذا هو رجل قد أثقلت ظهره السنونولم تفده التجارب شيئاً، فتحتال عليه ليقبل زيارة الفتى وتردده على ابنته في بيتهفيمتنع ويتعلل بقوله: » ٍحقا إن ذلك الشاب، هو ألح من الذباب، وهو عندي أفسق منالشياطين، وأخبث من البراذين، لا يترك من النساء الدون، ولا العجوز الحيزبون.«

فتجيبه بقولها: »لا تخف أيها الزوج الأفضل، فما كل الطيور تؤكل، وابنتنا العاقلةالحلوة لا يخُشى عليها منه في الاجتماع ولا الخلوة«، ثم يطول الكلام بينهما وينتهيبقبول الوالد ما دبَّ ره له كيد الوالدة، ثم يذهبان ويجتمع العاشق بالفتاة فيتعانقانويتلاثمان وتقول له في حديثها: »الحمد لله أيها الشاب الأنيق، على التيسير والتوفيق،فقد سهلت أمي لنا الطريق، ولم يبق أمامنا إلا استرضاء الخادمة، حتى تكون لأسرارناكاتمة« فيجيبها: »نعم وإن لم تطاوعنا فإنها تصبح حزينة نادمة؛ لأني أقسم يا بنتالكرام بما بيننا من الحب والغرام أنني أذيقها كأس الحمام بحد هذا الصمصام، إنامتنعت عن تسهيل الأرب بقبول ما في هذا الكيس من الذهب.«

[147] الجلبانة: المهذارة السيئة الخلق. والورهاء: الحمقاء.

فتقول له:»آه حبيبي ما أطرب الجلوة، وما أطيب الخلوة، حيث نصبح في بحرالنشوة، وهيا بنا أيها الهمام، فإني أسمع صوت أقدام، وعندي الآن أن أحسن طريقة، أننتنشق نسيم الصبا في زوايا الحديقة، فيقول لها:»حفظت يا سيدتي ومولاتي، ومنبعحياتي ومماتي، فالآن قد بزغت شمس سعودي،ٍ وعطر الأكوان عرف ندي وعودي.«

ثم يذهبان ويحضر بعدهما غيرهما فيتداول الكلام بينهم مرة عن سرقة واحتيال،وخيانة واغتيال، وأخرى عن اجترام واقتراف، واختلاس واختطاف، ثم يعلو بينهمالضجيج ويصيحون بغناء كأنه ندب وعويل.

وعلى هذا ينتهي الفصل الأول ويُ رُخى عليه الستار ويجد الحاضرون حينئذٍ فيالصفير والتصفيق، والتأوه والشهيق، كأنهم جميعًا في نوبة من الصرع أو المس، ثم إنهميتناثلون إلى الخروج لشرب الخمر والتدخين ونقيم نحن جلوسًا في مكاننا فيلتفت إليَّ الباشا ويقول:

الباشا: لقد سئمت — علم الله — ومللت من منظر هذه المراقص والملاعب، فماأشبه بعضها ببعض وما أجمعها لأشتات النقائص والرذائل على اختلاف أوضاعها!

عيسى بن هشام: ليس هذا المكان في أصل وضعه بمرقص ولا بملعب، هذا هو»التياترو« المعروف عند الغربيين بأنه أصل التثقيف والتأديب ومنبع الفضائل ومحاسنالأخلاق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهو عندهم توأم الجرائد، هذه تعظ بالخبر،وهذا يعظ بالنظر؛ فيغرس في النفوس صورة الفضيلة مجسمة للأبصار بما يعرضه علىالناظرين والسامعين من تاريخ أهل الفضائل في الأزمان الغابرة أو الحاضرة، ويفعلفي النفوس ما لا تفعله الرواية والخبر، وهي في بطون القصص والسير، فيمثل لكمحاسن الفعال، ومحامد الخصال، وما تأتي به عواقبها من الظفر بالمرغوب والحصولعلى المقصود، وإن اعترضتك معها المصاعب، ونالتك المتاعب، ويشرح لك شناعة الرذيلةويصور فظاعة النقيصة وما يكون في عاقبتها من السوء، وفي أثرها من المكروه وإنخلبتك بمنظرها ساعة وخدعتك ببهرجها

لحظة، فيجتمع لديك من الموعظة والعبرة ماعساه يردعك عن القبيح إن هممت به، ويردك إلى الحسن إن تقاعدت عنه، ويهديك إلىالطريقة المثلى ويخرجها لك من الغيبة إلى الشهود، ومن القول إلى الفعل، فتنجذب نفسكإلى أنواع الفضيلة من شجاعة وشهامة، وكرم ومروءة، وأمانة ووفاء، وسماحة وسجاحة،وصبر وحلم. وينفر طبعك عما تجمعه الرذيلة من دناءة وجبن، وخيانة وغدر، وجهلوحمق، وفحش وفسق.

الباشا: إن كان الأمر كما تقول فكيف تسنَّ ى للمصريين أن يقبلوا وضعه ويشينواشكله، ويجعلوا هذا المكان على مثل حال الحان؟ فلا فرق عندي فيما أنظره هنا الآن،وما رأيته في الحانات الأخرى من الرقص والعزف ومعاقرة الخمر ومغازلة النساء،وتمثيل أحوال العشق بأعظم شكل يغري به ويهيج من شهوات النفوس إليه، فإذاكان التشخيص على هذا النمط معدودًا بينهم باباً من أبواب الآداب، وهم يحضرونهويشاهدونه على هذا الاعتقاد فإن شره عندي أعظم من شر الملاعب والمراقص الأخرى؛لأن الداخل إليه لا يرى على نفسه من لائمة يتقيها في دخوله، ولا ينكر على أدبه منكرفيه، ولا يخشى انتقادًا عنده فتسترسل النفس في غيها، ولا تجد منها لها رادعًا ولا وازعًا،بخلاف الحال في الداخل إلى تلك الحانات، فإنه يدخلها وهو واثقٌ بأنه قادم على ما يلامعليه ويعاب، فيأتيه وفي نفسه من الخجل والحياء ما عساه يصرفه يومًا عن غيه وجهله،ِ والإقدام على المحرم الصراح فيه من تأنيب النفس ما يزجر وينهى، لكن الإقدام علىتحليل الحرام وإباحة المنكر هو الداهية الدهياء، والمصيبة العامة فلا وازع من الخجلوالحياء، ولا زاجر من خوف الهلاك والعقاب.

عيسى بن هشام: لا تأخذن ما تراه هنا من التقصير دليلًا على أن هذا الفن غيرمفيد للآداب، فقد قدمت لك أنه فن غربي، ووصفته لك بمقدار ما وصل إليه من الإتقانلدى الغربيين، وهو لا يزال هنا على حال القصور والانحطاط لم يلتفت المصريون إلىإتقانه وحسن وضعه، وجهل الناس أصل الغرض المقصود منه، فحسبوه نوعًا من أنواعاللهو والخلاعة على ما ترى، وعذر الذين يشتغلون بهذا الفن

في تقصيرهم أنه لا بدمن مساعدة أهله بالمال؛ ليتمكنوا من السعي في ارتقائه وإتقانه، وهم يلومون الحكومةالمصرية في كل يوم حيث تبذل المال لمعاونة الممارسين له من جماعة الغربيين أسوة ببقيةالحكومات الغربية، ثم إنها تحرم أهل بلادها كل مساعدة من هذا القبيل.

الصديق: قد سمعت مقالك وعندي أنه يجب على الباحث في الأمور المتعلقة بتربيةالأخلاق، وتهذيب الطباع أن ينظر أولاً إلى تأثير التربية، والإقليم وإلى تركيب الغرائزوالفِطَر وإلى العادة والعُرف، ولا يتحتم أن ما يكون ذا نفع عند الغربيين يكون له نفععند الشرقيين؛ لاختلاف ذلك كله فيهم وتفاوته بينهم، والشواهد كثيرة جمة على أن مايكون في باريس حسناً يكون في برلين قبيحًا، وأن ما يكون في لوندرة حميدًا يكون فيالخرطوم ذميمًا،ۭوما يكون في رومية حقا يكون في مكة باطلًا، وما يكون عند الغربيينٍّجدا يكون عند الشرقيين هزلاً، ولست أرى أن هذا الفن لو تم لأصحابه ما يبغونه منوفرة المال ومعاونة الحكومة أن يصلوا به إلى حد الإتقان المطلوب، ولا أن يكون له النفعالمقصود في تربية الأخلاق وحسن الآداب لما فيه من المنافرة البينة لطبائع أهل المشرق،وأخص بالذكر منهم أهل الإسلام لا بل ربما كان منه الضرر البحت، ولا يغيب عنك أنهذا التشخيص والتمثيل قائم على أساس العشق يدور فيه بكل أدوار، ولا تخلو قصةمن قصصهم التي يمثلونها عن ذكر العشق والغرام، وما من رواية لهم إلا والعاشقانيكونان فيها كالفاتحة والخاتمة لها، هو إن كان مقبولاً عند الغربيين مسموحًا به لموافقةالعادة عندهم، ولكونه شيئاً لا عيب فيه يجهر به فتيانهم وفتياتهم، بل هو أصل منأصول التزاوج بينهم لكنه غير مقبول عند الشرقيين، ولا مسموح به في عاداتهم ولايدخلونه في أبواب الفضيلة ومحاسن الآداب، ولذلك كان شأنه الكتمان والتستر لا التجاهربه والتظاهر، ولقد جرى العشق في بعض البلاد الشرقية مجرى العيب المحض والعارالفاضح، وكان عند بعض قبائل العرب إذا اشتهر أحد فتيانهم بعشق فتاة منهم منعوهعن التزوج بها لهذا السبب،ً وربما رفعوا أمره إلى السلطان إن شهر بها في شعره فيهدردمه، فهذا العشق الذي هو

الركن الأكبر والسبب الأعظم في حصول التزاوج عند الغربيينهو من أكبر الموانع في التزاوج لدى الشرقيين.

ثم إن تهذيب الأخلاق بهذا الفن لا يأتي إلا من الطريق المألوف والمسلك المعروفعند أهل كل بلد، فتشخيص هذه الأقاصيص والروايات الغربية الموضوعة على أخلاقأمة بذاتها لا يؤثر في أمة أخرى، ولا بد أن يكون التشخيص والتمثيل بين الشرقيينمطابقًا لأحوالهم وظروفهم جارياً على مقتضى عرفهم وتاريخهم، وليس من المقبولعندهم حصول هذا التشهير والتمثيل في معيشة الأهل والولد، وما تنسدل عليه الحجبُ والستور في البيوت والدور، وليس في الدين الإسلامي ما يسمح باشتراك النساء معالرجال في تأدية هذا الفن؛ لأنه ينهى النساء عن التبرج بالزينة فضلًا عن الاختلاطبالرجال، ويأمرهن بغض البصر فضلًا عن طموحه، ولا من أدب المسلمين أن يمثل بينهمتاريخ الإسلام وتاريخ خلفائه وصلحائه على أسلوب يبتدئ بالعشق والغناء، وماذا تربفي أبي جعفر عاشقًا، وأبي مسلم مغنياً، وأبي الفوارس راقصًا، كما يجترئ عليه الآنأهل هذا الفن، وذلك أكبر إهانة للأسلاف وأعظم خرف في التاريخ، وإن أردت أن أكاشفكبكل ما يجول في خاطري قلت لك: إن هذا الفن الذي تغالى الغربيون في إتقانه وارتقائهلم يفدهم أدنى فائدة في باب الآداب، وضرره بينهم اليوم ظاهر ونفعه غير باد؛ لأنالمعول عليه عندهم في هذا الفن أن يظهروا الفضيلة من خلال تمثيل الرذيلة، ويبينواعن العفاف بتصوير الشهوات إلى حد المبالغة التي يذهب إليها خيال الشاعر، فتوضيحالرذائل وتبيين الشهوات وعرضها على أصحاب الرذائل في القوالب المختلفة بما تنطويعليه من وجوه الحيل والمكر والخداع والختل مدرجة إلى تعمق صاحب الرذيلة في رذيلته،واقتناعه فيها بتلك الوجوه المنوعة فلا يسبقه إليها سابق، وكم تدرب اللصوص ومهرةً الأشقياء وبرز أهل الفسق والفجور بحضورهم تمثيل الروايات فاكتسبوا منها ما كانينقصهم، وأخذوا عنها ما كان يعجزهم، ومن تأمل قليلًا وجد أن الشرح والإسهاب فيخفايا الرذائل التي يندر حدوثها ويقل وقوعها كان من الأسباب في انتشارها، ولذلكقالوا: إن توضيح الجرائم التي من هذا القبيل في القوانين مما لا يؤمن معه تيقظ المجرمإليها، وقد

سئل الشارع الحكيم اليوناني عن سبب إغفاله عقوبة القاتل لأبيه في شريعتهفقال: ما كنت لأتصور أن يونانيًّا في الوجود يقدم على قتل أبيه، فكان قوله هذا أنفَلوقوع هذه الجريمة من تدوينه شدة العقوبة عليها، واكتساب صاحب الفضيلة منكشف الرذيلة لا يقوم بمقدار الضرر الذي يلحق بأهل الشر منها.

قال عيسى بن هشام: ودق الجرس وعاد الناس إلى مقاعدهم واشتدت بينهم الجلبةوعلا الصياح، وزيَّ ن السكر لأحدهم أن يقوم فيهم واعظًا خطيباً، فما زال يهذي في القولحتى سقط على الأرض يتخبط في قيئه ورجيعه، لا في دمه ونجيعه، ثم ارتفع الستار عنمنظر غابةٍ يدور فيها ذلك الفتى ويتغنى بغناء يشبه أذان المؤذن ومن ورائه عشيقتهتتلفت وتتعثر، ثم رأيناه قد ترك الغناء مرة واحد وتقدم نحو الحاضرين يخاطبهمبالزجر والتأنيب على جلبتهم وصياحهم، ويشكو مر الشكوى من الانصراف عنه فيغنائه.

ثم إنه يعود إلى ما كان فيه من الغناء، ويأخذ بيد خليلته للهروب فيدخل والدهاعليه في تلك الحال فيحول بينها وبين عشيقها، فينبري له الفتى بضربة حسام تلقيه علىالأرض صريعًا، ويدركه قومه فيصوب الفتى عليهم أسهمه ونصاله، فيلجأون إلى الفرار،وتقع المرأة مغشيًّا عليها ويقع العاشق باكياً تحت أقدامها، وعلى هذا يسدل الستاروينتهي الفصل ويعود الناس إلى مكان الشرب والتدخين، فنتبع أثرهم ونجلس ناحية فيبعض زوايا الحان، وإذا بالعمدة وصاحبيه وعاهرته جالسون جانباً أمام إحدى المنافذوأمامهم الراح والكئوس مترعة، وإذا برجل عابس الوجه بين الغلظة قد وقف أمامهميقول للمرأة في كلامه:»أتظنين أن الهرب وخُلف الميعاد يمنعك مني ويؤجل وفاء القسطالمطلوب لي منك، وأنا لا أزال أقتفي أثرك منذ الصباح إلى الساعة، وتحملتُ في البحث عنكتعباً عظيمًا، والحمد لله؛ إذ عثرت عليك في هذا المكان ولست أبرح من هنا حتى تعطينيمبلغ القسط أو تردي إليَّ هذه الحلي التي يتزين بها صدرك أمام عشاقك وخلانك، ويمديده ينتزع الحلي من صدرها فيمنعه الخليع متوسطًا بينهما، ويقول له: ليس هذا وقتهوليس هنا محل المطالبة وأمامك المحاكم، فلا يرجع الرجل عن عزمه بل يقول:»أنا لاأطالب بحقي أمام

المحاكم وأمامي مالي في صدرها.«، ثم يمد يده ثانية فتقبض العاهرةعلى حليها وتميل على العمدة تستغيث به وتستجير، فتأخذه الحمية والنخوة فيدفععنها الصائغ بيده فيقول له:»إن كان قد عز عليك يا حضرة العمدة مطالبة صاحبتك،فالشهامة تقضي عليك بأن تدفع لي المبلغ من عندك لا أن تدفعني عن حقي بيدك«.فيسأله العمدة عن مقدار المطلوب له فتقول له المرأة: إنه لا يزيد عن عشرين جنيهًا،فينقد الصائغ الدراهم في الحال ويطلب منه ورقة الاستلام، ثم يقدمها إلى المرأة بيدوالكأس بيد أخرى فتقبِّ ل حافة الكأس شكرًا له وحمدًا، وينصرف الصائغ ضاحك السنقرير العين، ويعودون إلى شربهم وحديثهم، فيقترح العمدة عليهم أن يغادروا هذا المكانإلى سواه، وأنه يفضل الذهاب إلى منزل صاحبته، ويطلب من الخليع أن ينظم له مجلسًاهناك فوق سطح المنزل في ضوء القمر.

وبينما هم في أخذٍ ورد إذا بصاحب الحان الذي تشتغل فيه المرأة واقف على رأسهاواضع يديه في خاصرتيه يبكتها بقوله:»أهذا هو المرض الذي تعتذرين به عن تأخيرك فيهذه الليلة عن الشغل، وهذا هو المستشفى الذي تتعالجين فيه؟ وأظن أن حضرة العمدةهو الطبيب الماهر في هذا العصر الحاضر.« ثم يجرها بيده لتذهب معه إلى مباشرة الشغلفي الحان، فيمسكها العمدة من أذيالها ويقول له:»ما هذه الوقاحة، وما هذا التهجمبعد أن أخذت منها عشرة جنيهات في نظير تأخرها عن الشغل في الحان، ورضيتَ بهذاالعوض لتكون على حريتها في هذه الليلة؟« فيقول له:»إن كانت أخذت منك هذا المبلغلدفعه إليَّ فقد كذبت في دعواها وادخرت الدراهم لنفسها، فإما أن ترد إليَّ المبلغ وتتعهد ليبأنك لا تجتمع بهذه المرأة في غير محلي، وإما أن تستعد للقضية التي أقيمها عليك بطلبالتعويض الذي لا يكفيني فيه دخل أطيانك.« ويشتد بينهم اللجاج والخصام فتنبرىإحدى الممثلات الجالسات في الحان ممن انتهى دورهن، فتستصرخ البوليس لإخراجهم،فيأتي البوليس ويصمم أن يسوقهم إلى »القسم« جميعًا، ونخرج وراءهم لاتباعهم، فيأبىالباشا ذلك كل الإباء وينفر عنه كل النفور، ويقول: أنا لا أتوجه إلى »القسم« لا شاكياً ولاشاهدًا ولا مراقباً ولا مستخبراً، فقد جربت ما يقع فيه، وكفاني ما علمتهُ من ظواهرهوخوافيه، وقد

شعرت بسأم في النفس، وصداع في الرأس، فلنذهب إلى البيت لنتمتع بشيءمن الراحة، ونخلص من رؤية هذه الحُرُمات المباحة، فأجيبه بالطاعة والانقياد، ونتركالصديق على ميعاد.

المدنية الغربية

قال عيسى بن هشام: وما وصلنا إلى البيت حتى عمد الباشا إلى غرفة نومه، يحاولأن يشتفي بالرقاد من غمه وهمه، فتركته في غرفته، ورغبت في النوم كرغبته، وبينا أناغريق في المنام، أسبح في بحر الأحلام؛ إذ سمعت الباشا يناديني نداءًً متتالياً، فقمت إليهمسرعًا وملبياً، فأخبرني أن طول التفكر نفى عنه الرقاد، وأورثه الأرق والسهاد، وطلبمني أن نحيي الليلة بالسمر، وأن أقتلها معه بالسهر، فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث،من قديم في الزمن وحديث، إلى أن صارت الليلة في أخريات الشباب فاستهانت بالإزاروالنقاب، ثم دب المشيب في فودها[148] وبان أثر الوضح في جلدها،[149] فعبثت بالعقود والقلائد،من الجواهر والفرائد، ونزعت من صدرها كل منثور ومنظوم، من درر الكواكب ولآلئالنجوم، وألقت بالفرقدين من أذنيها، وخلعت خواتيم الثريا من يديها.

ثم إنها مزقت جلبابها، وهتكت حجابها، وبرزت للناظرين عجوزًا شمطاء، ترتعدمتوكئة على عصا الجوزاء، وتردد آخر أنفاس البقاء، فسترها الفجر بملاءته الزرقاء،ودرجها الصبح في أرديته البيضاء، ثم قبرها في جوف الفضاء، وقامت عليها بنات هديل،[150]نائحة بالتسجيع والترتيل، ثم انقلب المأتم في الحال عرس اجتلاء، وتغير النحيب بالغناء،لإشراق عروس النهار، وإسفار مليكة البدور والأقمار، وما نشعر إلا وقد طلع الصديقعلينا مع الشمس للموعد الذي كان بيننا من أمس، فسألنا كيف أصبحنا، وهل نعمناواسترحنا، فأخبرته بما كان من اتصال السهر إلى الآن، وما كانت تجري عليه المسامرة،وتدور به المذاكرة، وجملتها أن الباشا لا يزال يدهش

[148] الفود: معظم شعر الرأس مما يلي الأذن.

[149] الوضح: بياض الصبح.

[150] بنات هديل: الحمائم.

مما يراه في رحلته، ولم يكن له أثرفي أيام دولته، ويستخبرني عن سرعة هذا الانتقال من حال إلى حال، وما الأسباب والعللفي انتشار هذا الفساد والخلل، فذكرت له بعض ما حضرني منها، وما علمته عنها، وإنكلخليق أيها الصديق أن تكشف لنا عن وجه الحق الصريح، وتخبرنا بما عندك من السببالصحيح.

الصديق: السبب الصحيح في ذلك هو دخول المدنية الغربية بغتة في البلاد الشرقية،وتقليد الشرقيين للغربيين في جميع أحوال معايشهم كالعميان لا يستنيرون ببحث ولايأخذون بقياس، ولا يتبصرون بحسن نظر ولا يلتفتون إلى ما هنالك من تنافر الطباعوتباين الأذواق، واختلاف الأقاليم والعادات، ولم ينتقوا منها الصحيح من الزائف،والحسن من القبيح،ً بل أخذوها قضية مسلمة، وظنوا أن فيها السعادة والهناء، وتوهمواأن يكون لهم بها القوة والغلبة، وتركوا لذلك جميع ما كان لديهم من الأصول القويمة،والعادات السليمة، والآداب الطاهرة، ونبذوا ما كان عليه أسلافهم من الحق ظهريًّا،فانهدم الأساس، ووهت الأركان،ً وانقض البنيان، وتقطعت بهم الأسباب، فأصبحوافي الضلال يعمهون، وفي البهتان يتسكعون،[151] واكتفوا بهذا الطلاء الزائل من المدنيةالغربية، واستسلموا لحكم الأجانب يرونه أمرًا مقضيًّا وقضاءًً مرضيًّا، وخربنا بيوتنابأيدينا، وصرنا في الشرق كأننا من أهل الغرب، وإن بيننا وبينهم في المعايش لبعد المشرقمن المغرب.

الباشا: قد يكون ذلك، ولكن لست أدري لأية علة أخذ الشرقيون بباطل المدنيةالغربية وارتدوا بلباسها، ولم يلتفتوا يومًا للرجوع إلى سابق مدنيتهم

---

[151] تسكع الرجل: تمادى في الباطل.

الصحيحة وعمرانهمالقويم، فهم أهل السبق في ذلك كله، وعنهم أخذ الآخذون وقلد المقلدون في كل زمانومكان.

الصديق: لا أعلم لذلك من علة إلا ما أعقب العزة السابقة من البطر والأشر، ومايتولد عنهما من طول التواني والتواكل، وسوء التراخي والتخاذل، فغفلوا عن ماضيهم،وذهلوا عن حاضرهم، ولم يكترثوا لمستقبلهم، وقعدت بهم هماتهم عن مشقة التكاليفالتي كان يتباهى أسلافهم باحتمالها، ويتفاخرون بممارستها، وراقهم أن يأخذوا بهذاٍّ الطلاء الحاضر من مدنية الغربيين بلا مشقة ولا تعب ولا جدٍّ ولا كد، فعظم مقدار أهلالغرب في أنظارهم وتوهموا أنهم من طبقة عالية فوقهم، فخضعوا وذلوا، وقهر الغربيونوغلبوا.

الباشا: ألا ليت شعري كيف يمكنني الوصول إلى البحث والنظر في أصول المدنيةالغربية ظاهرها وباطنها، وأن أقف على خافيها وباديها في أرضها وديارها، ولكن بعدتالشقة وعزّ المطلب.

عيسى بن هشام: لا تستبعد أيها الأمير حصول الغرض ونيل المطلب في يومٍ منالأيام، فإنه لا يزال يدور في خاطري أن أرحل معك رحلة إلى البلاد الغربية تجتني منهاثمرات العلم والبحث، فإن كان هذا العزم من غرضك أيضًا فأنا أجهز له أمرنا.

الصديق: وأنا إن شاء الله معكما.

قال عيسى بن هشام: ثم قمنا وعقدنا النية على تحقيق هذه الأمنية، ونسأل الله أنيسلك بنا سبيل الهداية في المبدأ والنهاية.

باريس

قال عيسى بن هشام: سبحان من لا تجري الأمور إلا بتقديره، ولا تنفذ العزمات إلابتيسيره،ً فقد يسر الله لنا الرحلة إلى الديار الأوروبية، لنشهد مظاهر المدنية الغربية،وبلغنا من سفرنا المدى، فألقينا بباريس العصا، وشرعنا نجوب منها الطرقات الجامعة،والساحات الواسعة، فلا القبائل تدُعى وتهُرع، ولا الجيوش تحشد وتجمع، ولا الموتىوهم ينشرون، ولا الخلق وهم يحشرون، يضُاهئُ ما القوم فيه من ازدحام واقتحام،واصطدام والتحام، متدفقين في سيرهم تدفق السيل تحت أضواء محت آية الليل فلا ليل،يخُشى فيها على الأبصار أن تعشو من شدة الأنوار،ٍ وربما انخدعت بها الديكة فأخذت فيالصياح، إيذاناً بانبلاج الصباح.

فإذا نظرت إلى الشارع من العلو، لم تبال بالغلو، إن قلت: بحر مسجور[152] قامعليه شاطئان من نور،ً وإذا أبصرته من أسفله عند أوله، قلت:ً أسراب الدو[153] تصعدإلى الجو، بين الكواكب الزهراء، من كرات الكهرباء، والبيوتُ ً عن حافتيه تشارف جوالسحاب، وتحاول أن تعلق من السماء بأسباب؛ فارعةً باسقة، متلاصقةً متناسقة كأنهافي انتساقها سطور الخط، والأزهار على جدرانها شكلٌ ونقط، فأين منه ما بناه لفرعونهامان، وشاده جن سليمان لسليمان، ورفعه سنِ ً مار للنعمان؟ وأين شماريخ ثبير[154] منسنام البعير، ومعارج الجبال، من مدارج النمال؟ لا بل أين البحر العباب، من لامعالسراب، وأجرام الكواكب، من بيوت العناكب؟

---

[152] المسجور: المرتفع الأمواج.

[153] الدو: الفلاة.

[154] الشماريخ: رءوس الجبال، وثبير: جبل معروف.

وشاهدنا المارة يتسابقون في هذا الموقف المتلاطم، والمأزق المتزاحم من كل شيخوكهل، وصبي وطفل، وفتى وفتاة، بين ركبان ومشاة، والألوف من صنوف العَجَل تخترقصنوف الناس، وتنفذ بينهم نفاذ السهام عن الأقواس، طائرة بقوة الكهرباء أو البخارأو الأفراس.

ولما لم يسابقهن شيءٌ من الحيوان سابقن الظلالاَ

وكل سائر منهم في اضطراب العصفور،ٍ وتلفت القطا المذعور، إن خانته لفتته،أدركته منيَّ ته، وإن عثرت قدمه، هريق دمه، وإن شمخ شامخ بأنفه، وقع في حتفه،فهم يتلمسون شاكلتي الطريق[155] كما يتلمس الشاطئ الغريق، والحوانيت على الجانبينمتبرجة ببدائع البضائع، ونفائس الصنائع تغوي الزاهد فيشتهيها، وتغري الشحيحفيشتريها، والحانات من بينها ممتلئة بالنفوس، مشحونة بالجلوس، في يد كل واحدمنهم كأس الصهباء، وفي الأخرى جريدة المساء، ونحن في هذا الموقف تكاد تطيش مناالعقول، من هول الدهش والذهول، وتطير منا الألباب، من شدة الوجل والاضطراب.

في ساحة لو أن لقماناً بها وهو الحكيمُ لكان غير حكيم

ومال بنا طلب الراحة، إلى حان في تلك الساحة، فلم نجد به مكاناً خالياً من الزحام،فعكفنا مدة واقفين على الأقدام، وكدنا نذهب عنه آيسين، لولا أن تحرك بعض الجالسين،فذهبوا لشأنهم، وخلفناهم في مكانهم، وجلسنا في هذا المأمن نتصفح وجوه الحاضرين،وأجناس المارين، فإذا عدد ربات الحجال، يربو على عدد الرجال، من كل ذات حسنوجمال، وتيهٍ ودلال،ٍ وقدٍ متأود،ٍ وخد متورد.

[155] الشاكلة: الناحية والجانب.

ّ َ تختال في مفوف الألوان من فاقع وناصع وقان

وهن يرفلن في الوشي، ويسرعن في المشي، ويتبارين في رفع الفضول من الأطرافوالذيول ويضربن الأرض بأرجلهن، ويزحزحن ما استطعن من حُلَلِهن.

ويبسمن عنّ ٍ در تقلدن مثله كأن التراقي وشحت بالمباسم

ّ ِ وينشرن من الأرج والطيب، مثل نشر الزهر في الغصن الرطيب، ويرسلن سهامالعيون، فيحركن سواكن الشجون، وي ٍ سُلطن من اللحاظ القواتل، ما يدمي حبات القلوبالغوافل.

إشارةُ أفواهٍ وغمزِ حواجبٍ   وتكسير أجفانٍ ّ ٌ وكف   ّ ِ تسلمُ

وأصناف الباعة يكثرون من الغدو والرواح، ويهيجون في النداء والصياح، بمثلالعواء والنٌّ باح، دائبين في الإلحاف والإلحاح.

ولما أفقنا هنيهة أخذ الباشا كعاده في السؤال[156] يستجلي منا واقعة الحال، ويقول:ما أشك في أن هذا اليوم يوم عيد، عند أهل هذا العالم الجديد، أو هم في نظري سكانمهاجرون، أو جند قافلون، انتهوا من حومة المنايا، بالغنائم والسبايا. فأقول له: لا بلهي كما يصفها الواصفون، وي ٍ عُرفها العارفون، تلك المدينة الفاضلة، أمُ المدنية الكاملة،مهبط العمران والحضارة، ومظهر الزينة والنضارة، وموطن العز والمجد، ومصدرالنحس والسعد، بل هي تلك عندهم إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، لورآها صاحب الإيوان، كسرى أنو شروان، لم يفخر على الدهر، بإيوان ولا قصر، ولَحَكَمبأن »المدائن« لديها سبسبٌ قفر،[157] ولو نظرها قيصر الرومان لأقسم أن رومية وهي عندهعاصمة الدنيا، قرية لديها من الطبقة

---

[156] العاد: العادة.

[157] السبسب: المفازة والأرض البعيدة المدى.

الدنيا، مثل التي ذكرها في كشفه عن طماعيته،قبل ولايته؛ إذ قال: ٍأفضل أن أكون الأول في أدنى قرية، ولا أكون الثاني في مدينة رومية،ولو شاهدها أفلاطون حكيم اليونان، لم يقل فيما دبر من الزمان: أحمد الله على نعمٍثلاث يعجز عن حمدها اللسان، ولا يقوم بحقها شكران: أن خلقني من نوع الإنسان، لامن نوع الحيوان، ومن جنس الرجال، لا من جنس النساء، ثم جعل نسبتي إلى »أثينا«عاصمة اليونان، دون سائر البلدان، ولو اطلع عليها هاروت وماروت، لم يماريا في أنبابل عندها فلاة سبروت.[158]

ك ج نِ ة ال خ لِ د ت س ىُ ر م ن رأىفَتزَدَري »الخُلد« و»سُ َرمن رأى«[159]

هذه هي اليوم بيت العلم والفضل، ودار السلام والعدل، ومعهد الحق والإنصاف،ومهد الاتحاد والائتلاف، هذه هي المدرسة التي يشرق منها على العالم شمس الهدىوالعرفان، َ ويتلقى الإنسان عنها حقوق الإنسان، ويعرف منها وجوه الخير والإحسان، ٍ ولكل إنسان وطن وهي لكل وطني وطنٌ ثان، لولاها لم يدرك الإنسان لنفسه من قدر،ولم يأمن في دياره من اغتيال أو غدر، َفقد كفت عن الناس عاديات المظالم، وكفتهمبائقات المغارم،[160] وعلمتهم كيف تؤتىَ المكارم، وتجتنب الأوزار والمحارم، وكيف يعيشالبشر في دار الشقاء عيش السعادة والهناء، تحت ظل »الحرية« و»المساواة« و»الإخاء،«إذا نادها المظلوم من أي جنس وأي قوم، أجابته: لبيَّ ك مات الظلم فلا ظلم اليوم.

وهؤلاء أهلها كما تراهم يهجرون الرقاد، ويواصلون السهاد، ويصرفون الحياة فيالجد والعمل، ولا ينتهي بهم أمل إلا إلى أمل، فليس على هممهم شيء بمحال، في كلحال، يذيبون بعزائمهم صلب الحديد، وتلين لإشارتهم صم الجلاميد، ويذيبون

158 السبروت: القفر.

159 الخلد: قصر للمنصور، وسر من رأى، بلدة شهيرة قرب بغداد.

160 البائقات: جمع بائقة وهي الداهية.

الهواء،ويكتبون على الماء، ويفتلون الحبال من الرمال، ويزلون راسيات الجبال، برائشات النبال،وينضبون الدأماء[161] بمتح الدلاء ويمحون آية الليل فلا تبلغ فيهم أمدًا، ويجعلون النهاردائمًا عليهم سرمدًا.

أولئِك النِاس إن عُدوا بأجمعهمومن سواهم فلِغوٌ غير معدود

والفرق بين الورى جمعًا وبينهُمُ كالفِرق ما بيِن معدومٍ وموجود

أقول قولي هذا والباشا ينصت ويتأمل، و»الصديق« يتبرم ويتململ، فالتفت إليهأستخبره الخبر، عن سبب هذا الضجر، فما أتممت عليه أحرف السؤال، حتى انهال علينافي المقال، انهيال السيل من مشرفٍ عال:

الصديق: تالله لقد سئمنا ومللنا من سماع مثل هذه المبالغات وترددادها على آذاننافي وصف هذه الديار، ونحن في ديارنا السنين والأعوام، وأولى ما يوصف هذا الوصفللغائب عنها لا للحاضر فيها، وأنت رجل بحاث نبَّ اث[162] من دأبك استنباط الغوامضواستجلاء الدخائل، وألزم ما يكون لنا الآن أن نجعل فكرنا مجردًا عن مثل هذه الأوصافوالأخبار التي شحنت خيالنا زمناً طويلًا، فننساها ولا نذكرها ليكون حكمنا على المشاهدةوالعيان خالياً من مقدمات سبقت على الغيب ورسخت في أذهاننا بالخبر، وقد علمت أنذهن الإنسان يغلب عليه الانقباض عن الفحص والتمحيص، ولا يباشرهما في الغالب إلاَّمضطرا مقسورًا لما في التسليم المطلق والتصديق المعجل من راحة الفكر وسكون البال،وربما ارتسم في خياله أمر استحسنه بالخبر، فيركن إليه ويرد كل ما يردُ عليه من قبيلهإلى صحيفة الاستحسان والقبول في نفسه؛ والأذن تعشق قبل العين أحياناً، كما أنه إذاهو استقبح أمرًا كان الأمر على هذا القياس، ولذلك ترى العاشق يرد كل ما يصدر عنمعشوقه إلى الحسن،

---

[161] الدأماء: البحر.

[162] نبات: منقب.

وإن كان غير حسن في الواقع عند الفحص والتأمل، للميل الأولوالاستحسان السالف، واستعداد لوح الرضا والقبول في نفسه لانتقاشه فيه، ومن هناجاء قولهم:

وعين الرضى عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبُدي المساويا

ولقد ترى الرجل الشاعر الأديب إذا أنت أنشدته بيتاً من الشعر لم يكن يعرفه ولمت ِسُم له قائله ربما استهجنه ولم يستملحه، فإذا سميت له أبا تمام مثلًا أو أبا الطيب،ارتد إلى الاستحسان وأخذ يتمحل لقائل البيت عذرًا إن كان في البيت ما يسُتهجن حقيقة،وما كان ذلك إلا لما اطمأنت عليه نفسه وتعودته من القبول والاستحسان لكل ما يصدرعن هذين الشاعرين.

ويمكن من هذا كله أن نستخرج معنى الحظ والسعد والإقبال الذي يناله الإنسانفي دنياه إن صادف عمله في النفوس صحيفة الاستحسان بين الناس، ومعنى النحسوالتعس والإدبار إن صادف ما يأتيه عندهم لوح الاستقباح، والشاعر يقول:

إذا أقبل الإنسان في الدهر صُ ِدقت   أحاديثه عن نفسه وهو كاذبُ

فما بالك بأحاديث الرواة عنه وحسن القالة فيه، وقد عهدنا الغربيين عمومًا وهؤلاءالفرنسيين خصوصًا لا نتصفح لهم كتاباً ولا نسمع منهم حديثاً إلا بتمجيد مدنيتهم،ومباهاة الناس طُ ًرا بنظام معيشتهم، وأنهم هم أرباب الخلق وسادة البشر، وأن الهدىهداهم، والضلال فيمن عَدَاهم، وأنه أوُحيَ إليهم من سماء مدنيتهم أن يخُرجوا الناسمن الظلمات إلى النور، فإما الإيمان بها وإما الحسام، وقد ذاعت فينا دعوتهم، وأعانهممنا على نشرها من أعانهم، فقبلنا مبالغاتهم بالتصديق والتسليم من غير بحث ولا نظر،وصرفنا كل ما يأتونه إلى وجوه الحكمة والصواب، وبسطنا لهم صحيفة الاستحسان منالنفس يرتسم فيها كل ما يتخيلونه لنا ويموهون به علينا.

فالرأي لنا حينئذ أن نطرح عنا ما قالوا وما وصفوا، وننظر اليوم إلى الأمور فيحقائقها، ونحكم عليها بحسب قيمتها في ذاتها لا على حسب ما رسمه الوهم،ً وسولهالخيال في نفوسنا، ومعنا الباشا يمتاز علينا والحمد لله بأنه كان بعيدًا عن هذا العالممحتجباً عن هذه الدنيا الدهر الطويل، فبقي خالي الذهن مما شحن رءوسنا من هذهالمدنية، فحكمُهُ اليوم على ما يشاهده بالعيان دون الخبر والرواية، يكون أصح حكمونظره أصدق نظر، ّ َ وما علينا إلا أن نشاركه في صحة النظر مجردين عن الهوى حتنقف على كنه الحق والباطل في نظام هذه المدنية وقوفًا تاما.

عيسى بن هشام: لك الله فيما تبُدئ وتعيد! كأنك تريد أن نخالف الإجماع، ونقابلالناس بغير ما ألِفُوهُ فننتقد لهم ما هو خالٍ عندهم من كل انتقاد بعيدٌ من الذام والعارفيرمونا بغلظة الطبع وجفاء الفهم وسخف الرأي! ولا يفوتنك أن كثيراً من ذوي الرأييرون أنه ليس من أدب الدنيا أن كل حقيقة تقُال وكل صحيح يرُوى.

أوليس من صواب الرأي حينئذٍ أن نسير على أسلوب الذين سبقونا إلى زيارة هذهالبلاد،ً فنرجع على أهل الشرق باللائمة عليهم في انخفاضهم وارتفاع أهل الغرب فوقهم،وأن نصِفَ ما القوم فيه من القوة والمَنعَة ومظاهر العز والعظمة في النعيم المقيم، وأننالا نزال راقدين رقادنا الطويل في كهوف التراخي والخمول، يقولون فنسمع ويأمرونفنصدع، ويقتسمون أرزاقنا فنشكر، وينقصون من أرضنا فنحمد، ويحتلون ديارناً فنقبل؟ أفلا أقل من أن نسهب في بيان الأسباب التي ارتقت بهم إلى مرتبتهم في الوجود،ونطنب في شرح القواعد والأصول التي أسسوا عليها بنيانهم لنحذو حذوهم ونعمل علىشاكلتهم؟ أوَليس الأليق بنا أن نحض قومنا لينفضوا عنهم غبار الكسل، ويخلعوا عنهملباس الخمول، ويهبُّ وا إلى تقليد هؤلاء المجتهدين في أنواع الكمالات؟ أوَلَست ترى منأفضل الأبواب في الحث والتحريض أن نفخم ما استطعنا في وصف هذه المدنية، ونعظمهافي أعينهم ونكبرها في صدرهم، ونبكتهم بأحاديثها ونرفع من قدرها بقدر ما نحط منقدرنا، ونعيرهم بالمقارنة ليكون الحث والتحريض على المباراة أشدّ، والإثارة إلى اللحاقبهم أبلغ؟

ولو سكت الأستاذ عن تلميذه ولم يعيره بسبق غيره عليه، أكنت تراه يجد فيالأخذ ويجتهد في التحصيل؟

الصديق: لا يعزب عن فطنتك بادئ الأمر أن جل هؤلاء الذين تحكي عن طريقتهمممن زار هذه البلاد من أقوامنا، وعادوا إلى بلادهم فحدّثوا عنها وكتبوا وقرروا وحكموا،ينقسمون إلى أقسام:

القسم الأول منهم: الطلبة الذين تلقوا في هذه البلاد دروسهم، وهؤلاء لما هم فيه منغُلوَاء الشباب والافتتان بكل رائع يغلب عليهم الأخذ بالظواهر،ً ولا متسع ثمت عندهمللبحث والفحص ودقة التمييز فيما هو داخل تحت حكم الفضيلة وداخلٌ تحت حكمالرذيلة عند النظر في معيشة أهل هذه المدنية الغربية، بل هي تتجلى لهم في صورةمعظمة فيأخذونها على الجملة زاهية زاهرة حتى إذا انقلبوا إلى أهليهم رووا لنا عنهامثل حديث المغرم عن معشوقه في أوقات نشوته، وكان همهم أن يظهر عليهم أثر منآثار تلك المدنية العظيمة مما تخف مؤونته وتهون تكاليفه؛ ليلحقوا بأنفسهم شيئاًمن تلك العظمة التي بهرت خيالهم، وبهروا بها أعين الناس، ولسنا من أهل هذهالطبقة.

والقسم الثاني: جماعة منا قصدوا هذه البلاد للنزهة والاسترواح لا سواهما، فهم لاَّ ينظرون إلى هذه المدنية إلا من وجه تطبيق العيان على الخبر، ومن بحث منهمفانكشف له فيها عيب، كره تغيير الرأي ومخالفة المعهود لما فيه من المشقة والكلفة،

ثم أضف إلى ذلك ما يكون للاختصاص بمشاهدة المحاسن دون المعايب والتبسط فيالحكاية عنه من الفضل عن السامعين والمستخبرين، ولسنا من هذا الصنف.

والقسم الثالث: طائفة من أرباب الوظائف في الحكومة يفرون إلى هذه البلاد من أسرالخدمة مسافة الشهر أو الشهرين فرار الأسير من القد، ومنهم من تلَّقى دروسهفيها، وحكمه حكم الذين ذكرناهم في القسم الأول، وفيهم من لم يتعلم في أوروبا فهميسيرون على نهج المباراة للمتعلمين فيها سائرين على نمطهم؛

ليلتحقوا بهم ويحشروافي زمرتهم ويرتفع عنهم بعض امتيازهم عليهم، وحكمهم حكم واحد أيضًا، على أنهمليس عندهم جميعًا من سعة الوقت ما يفسح لهم مجال البحث والتدقيق فيما يرونه،فإن كل موظف منهم لا ينفك مدة زيارته مشتغل الفكر، مقسم النظر، بين أمرين:عين تنظر إلى ما بقي في صحيفة إجازته من الأيام، وعين ترمق ما بقي في كيسه منالدراهم، ولسنا من هذه الرتبة أيضًا.

وجميع هذه الأقسام كما تراهم مولعون بالمبالغة في الوصف والغلو في القول، ولا غروفالناس لا يرون لهم فضلًا في الرواية والنقل ما لم يضيفوا إليهما الكثير المفترىَ منعندهم، ولحكاية الغريب ورواية العجيب لذة في نفس الراوي وحلاوة في أذن السامع،على هذا دَرَج الخلق منذ خلق الله آدم إلى اليوم، ومنذ جرت أساطير الأولين عن الجنوالعفاريت والأغوال والسعالي إلى قصة »ألف ليلة وليلة« و»سيرة عنترة« و»خريدةالعجائب«، وهناك قسم رابع ربما فحص ودقق ووقف وعلم،ٍولكن له هوى خاصا بهيمنعه من كشف الحقائق،ٍ ويدفعه إلى المبالغة على القصد والغلو على العمد فلا يروي مايرويه عن هذه المدنية إلا بالتشييد والتمجيد باطلًاٍكان أم حقا؛ لينصر مذهباً له معيَّ نًأوغرضًا مضمرًا، فيدأب بيننا كالأجير للأجنبي يرفع لنا من شأن مدنيته وقوة حضارته؛ليرتفع معه بارتفاعه، ويتسلط علينا بسلطانه وينتفع منه بتمكين جاهه فينا وقدرتهعلينا، وفي هذا القسم من يرى أن في استيلاء المدنية الغربية على الشرق وتغييرها لقديمعاداته وأخلاقه انتصارًا لمذهب بعينه، فهم في إشادتهم بأمرها وتشيُّ عهم لها وتبشيرهمبها كالمتشيعين لمذهب والمبشرين بدين.

فقد تبين لك إذن أننا لسنا بمعدودين في قسم من هذه الأقسام، وقد خرجنا منديارنا واصطحبنا في سفرنا على شريطة الفحص والتنقيب والاعتراض والانتقاد، وأنٍّ نتحدث عن هذه المدنية بما فيها من ضار ونافع ومُعوج ومستقيم على المشاهدة في منبتأرضها وتربة نشأتها، وأنا رجل أميل إلى أن كل حقيقة تقال وكل صحيح يرُوى، فدعناُ حينئذ من الغلو والإغراق واتركنا من التخيل في النعت وتعمل الشعر في الوصف، وخدبنا فيما عهدناه على أنفسنا، وقد آن أن نسأل الباشا، وهو

ينظر إلى الأمور بنظر صادقمجرد عن الهوى، عما وقع عليه من التأثير في نظرته الأولى عن هذا العالم الحديث عنده،وعن جملة ما حصل منه في نفسه.

الباشا: ما أراني أميِّ ز شيئاً فيما رأيته من هذا الخلق المزدحم، وهذه الحركةَّ المشابهة لحركة الأسواق في هذا الدِ وي المماثل لدوي الخلايا، وهذه الأضواء التي يتأذىمنها البصر، وجملة ما أنا فيه الدهشة والحيرة، ولعل هذا هو الذي يمنعني من التمييز،وكنت أود أن يقع اختيارنا على ناحية ساكنة من المدينة خالية من مثل هذا الزحام حتىنألف الديار وساكنيها.

عيسى بن هشام: ليس ما توده من هذا القبيل بميسور؛ لأن الزحام منتشر فيجميع أرجاء المدينة، وهذه الحركة لا تنتهي الليل والنهار، ولا جَرَمَ فإن عدد سكانهاً يقدر ببضعة ملايين، ولك أن تقول فيها: ٍإنها جملة بلاد متجمعة متشابكة يعدونهامدينة واحدة.

الصديق: وفي هذا من عظمة الملك ما لا يخفى على أحد!

الباشا: إن كان الأمر كذلك فلا بد لنا من مرشد يرشدنا وهادٍ يهدينا، فنقف منهعلى ما يخفى علينا فيها، وما يغمض من حقائق الأمور.

الصديق: ما إخالك واجدًا لطلبتك، فقل أن تجد في أهلها من لا يسلك السبيلالمعروف في تشييد مجد قومه، ونشر مفاخرهم بما نحن في غنىً عنه، ولسنا نستفيد منهإلا كثرة اللغو وقلة المحصول.

قال عيسى بن هشام: وجاء وقت الطعام، فقمنا إلى المطعم، ولما أخذنا مقاعدنا علىَّ المائدة تبصرنا أمامنا ثلاثة أشخاص من أهل المدينة يتجادلون بينهم، فأنصتنا إليهمنتلقف من أفواههم ما يخوضون فيه؛ أحدهم: شاب ضئيل الجسم،َّ حسن الشارة محلوقاللحية والشارب، ظاهر التكلف في زيه، ينم شكله وحديثه على أنه أديب من كُتابالعصر. وثانيهم: رجل بدين، منتفخ البطن، أحمر اللون، ينبئك وجهه وقوله أنه منطائفة التجار. وثالثهم: شيخ جميل المنظر في وقار السن ورزانة العلم، ما يشك رائيهوالسامع له في أنه رجل من أهل الفلسفة والحكمة. ولذَّ لنا أن نجعل التفرغ لاستماعكلامهم سمر المائدة، فوجدناهم ينتقلون فيه من باب إلى

باب ومن شأن إلى شأن، حتىانتهى القول بهم في الأحوال الحاضرة إلى حرب الصين، فسمعنا »الكاتب« يقول وهويضرب المائدة بيديه والأرض برجليه:

الكاتب: لقد آن للمدنية أن تزيل الهمجية وتمحو الوحشية من الوجود، وأن نقومبنشر الرسالة التي سخرنا أنفسنا لتبليغها إلى الناس، فتصلح من شأن الإنسان فيأي مكان كان، وتغرس فيه أصول المدنية، ونأخذه بتعاليمها لنصل بالعالم الإنسانيإلى الراحة الدائمة والسعادة المطلقة في هذه الحياة، وإلا فما مزية جهادنا في فنونالترقي والتقدم والتسابق في العلوم والفنون؟ وما فائدة هذا الاختراع والابتداع في أبوابالصناعات والآلات؟ فإن كان المقصود من المدنية أن نتقن هذه الآلات الحربية، ونعدّهذه القوى العسكرية ليقتل بها بعضنا بعضًا ونخرّب بيوتنا بأيدينا، فبئست العلوموالفنون، وبئس ما سخرنا له أنفسنا وأضعنا فيه أعمارنا؛ إذ تنقلب الغاية من تهذيبالمدنية إلى فظاعة الوحشية.

ولقد كان الواجب على دول الغرب وأممه أن يتحد بعضها ببعض فتنصرف بكليتها،وتندفع بجميع قواها التي شيدتها لها أفكار العلماء وذوي المعارف منا إلى تهذيب بقيةأهل هذا العالم المقيمين على الجهالة إلى اليوم؛ لتنتزعها من حضيض الهمجية إلى مقامالرفعة الإنسانية، فيحق لكل واحد منا بعد ذلك أن يفتخر على الطبيعة بأنه أصلحفسادها وسد نقصانها.

التاجر: نعم هكذا يجب أن تكون سيرتنا،ً وإلا فكيف يتسنى لنا تصريف بضاعتناوترويـج صناعتنا التي تقوم عليها معايشنا وتضيق بها أرضنا إذا اجترأ أهل الصينعلى أن يقوموا في وجوهنا ويعطلوا مصالحنا؟ وكيف نجهد أفهامنا في العلوم ونشقىونتعب، وفي العالم أقوام نيام على أرض من الذهب كالأرصاد فوق الكنوز لا ينتفعونبها، ولا يتركون الانتفاع بخيرات الطبيعة وطيباتها للذين استحقوها بكشف أسرارهاورفع أستارها؟

الحكيم: إن كان الكلام بينكما عن المدنية الصحيحة التي تقوم على الحريةوالمساواة والإخاء حقيقة، وتعم الخلق من غير استثناء بالعدل والإحسان،

وتوفر لهمأسباب السلم والأمن في السعة والرخاء؛ فلسنا منها في شيء إن كنا نظنها مقصورة علىإتقان الآلات وحشد الجنود والتفنن في تشييد قوى الحرب، وإنفاق ثروة الأمة في سبيلذلك حتى تضيق بنا الأرزاق في أرضنا، فنعمل على طلبها في أنحاء المسكونة، ونسُلط علىأهلها هذه القوى الحربية، ولسنا من المدنية في شيء أيضًا إذا كنا نعتبر أنفسنا ملائكةالأرض وصفوة البشر وأرباب الخلق فنحتقر بقية العالم، ولا نرضى منهم إلا بتغييرأخلاقهم ونسخ عاداتهم، وأن يفوضوا إلينا أمورهم، ويسلموا إلينا مقاليدهم ونكونفوقهم كالأوصياء، نصرفهم إلى ما نحب ونسوقهم إلى ما نهوى، وليست المدنية أن نذهبإلى الصيني في أقصى الأرض، وهو آمن مطمئن بين أهله وولده في عيش يرتضيه ونظاميألفه فنقول له: قُم فقد جئناك بالهدى والحق،ٍ فهلم فكسر أصنامك واهدم مناسككواحرق كتابك وغير ثيابك وبدل طعامك وارفع حجابك، وكُن أوروبيًّا في الصين القديم،وغربيًّا في الشرق الأقصى، فإذا قال لنا: لست أفقه شيئاً مما تدعونني إليه، ولا أدريما هذا الدين الذي تبلغونني رسالته، قلنا له: ليس هذا بدين ولا بمذهب، وإنما هودعوة المدنية الغربية ندعوك إليها لتقرها وتتلبس بها، فيقول لنا: إن كانت لكم مدنيةًّ غربية فلنا مدنية شرقية أسستها فينا تجارب القرون المتراكمة، وبقيت فينا نقيَّ ةً خالصةهذبتها الدهور وأخلصتها يد الزمان، وليس يبقى على الزمن من الأخلاق والعادات إلاما كان له أصل ثابت وجوهر نقي، وأنتم إن كنتم تؤرخون وجودكم في العالم بسبعةآلاف من السنين فنحن نؤرخ وجودنا بمئات الألوف، وإن كانت مدنيتكم بنت قرن أواثنين فإن مدنيتنا بنت عشرات القرون اصطلحنا عليها وألفناها، وطاب لنا العيش بهاطول هاتيك الدهور، ومن دلائل المدنية الصحيحة أن تعيش فيها بأمن وسلام، لا يطمعأحد فيما ليس له ولا يغير على حق لغيره، وقد علمتم أننا عشنا دهرنا الطويل لم نطمعفي أرضكم ولم نثُر حرباً لفتح، ومن دلائلها أنها لا تنتهي بأصحابها إلى مفاسد الترفوالنعيم فتضعف الأجسام ويقل النسل، وقد علمتم أن بلادنا هي أكثر البقاع سكاناًوأعظمها عمراناً، فنقول له: ًما أضل أحلامكم يا معشر الصينيين! ألم تعلموا بأن مدنيتناهي مدنية العالم كله لا سواها؛ قامت على العلوم والمعارف، واستوت

على أساس متينكان ينشده الخلق منذ القدم، فما زالوا يتخبطون دون الوصول إليها حتى سمحتالطبيعة آخر الدهر، فأنجبتنا لها فأخرجناها للناس هدى ورحمة، وعهدنا على أنفسنادعوة الخلق إليها ليسعدوا بها مدى الحياة؟ بهذا وصانا أئمة المدنية فينا ورجال الدعوةمنا. إن كانت هذه هي المدنية التي نفاخر بها ونساجل، فلا بدع أن يعتقد أهل الشرقأنها ليست إلا وسيلة من وسائل الفتوحات لنيل المطامع وبلوغ المآرب.

قال عيسى بن هشام: وتأتي غادة هيفاء تتثنى بقوامها وتتكسر في مشيئتها،فتخاطب »الكاتب« بالعتاب؛ لأنه أهملها في الانتظار وجلس للكلام والجدال، وتسوقهأمامها بعصا المظلة، ويتبعها التاجر، ويبقى الحكيم يرمي ثلاثتهم بالنظر الشرر، وينعيعليهم سوء رأيهم وفساد نظرهم.

ويلتفت إليَّ »الصديق« فيقول لي: ما أغرب ما نرى من هذا الشيخ الفرنسي فماأصلبه في قول الحق، وما أجرأه على الجهر بالصدق، وما أولانا بمعاشرة مثله نستبصربه ونسترشد! فأرفع ببصري إلى الشيخ، فإذا هو يرمي بنظره إلينا، ويستمع لحديثنابالعربية ويظهر نحونا البشر، فقابلته بابتسامة أخطب بها ودهُ، فبادرنا بالحديثواتصل بيننا حبل الكلام، فسألنا عن أمرنا، وسألناه عن أمره، فتبين لنا أنه رجل منأساتذة الفلسفة والحكمة ومن المستشرقين الذين يشتغلون بالشرق وأهله، وكشفنا لهحقيقة أمرنا والغرض الذي رمينا إليه، فاتفق معنا على المخالطة والمصاحبة نحكي لهعن الشرق ويحكي لنا عن الغرب، ودعانا لزيارة المعرض العام معه في الغد، فقابلناهعلى ذلك بالشكر والحمد.

المعرض

قال عيسى بن هشام: وانطلقنا نقصد عكاظ الممالك والأمم، وسوق الأقدار والهمم، ومشهدالنفائس والعظائم، ومظهر القُوَى والعزائم، وحلبة الابتكار والابتداع، وميدان الإنشاءوالاختراع، ومعروض التبصر والاهتداء، في حسن التقليد والاقتداء، ولهذا المعرض خمسونباباً، تختلف ابتعادًا واقتراباً، فبلغناه من ناحية الباب المعظم، والمَ ًدخل المقدم، فإذا البابقبة تقوم على ثلاث قوائم، تلامس بعلوها الغمائم، كأنها اليفاع[163] في الاتساع والارتفاع،ينحدر من تحتها الجيش المتراكب، فلا تتماس فيه المناكب، وعلى كلا الجانبين سارية[164]تقارن السحب غادية وسارية يدور في رأس كل واحدة منهما نبراس وأي نبراس، إذااشتعل جعل فحمة الليل قبسًا من الأقباس، فكلتاهما علم في رأسه نار، يستوي عندهمااالليل والنهار، ومن لصخر الخنساء أن يأتم بهما في ظلمة البيداء، وهو المؤتم به في أبياتالرثاء:

ّ ًَ وإن صخرًّ ًُ ا لتأتم الهداة بهكأنه علِمٌ في رأسه نار

فهما عمودا فجر، لا عمودا صخر، يكتنفان تمثال غانية غيداء، قائمة على رأستلك القبة الشماء، رشيقة القد، بارزة النهد، ًممكورة لفاء[165] مجدولة عجزاء، قد خلعتالإزار والوشاح، وتبدت في »قميص الصباح«، ًوهي تضمه بيديها إلى صدرها، خشيةأن يحاول النسيم هتك سترها، إذا عارض وجهها القمر، علا وجهه الكدر، ثم بان فيهالكلف والنمش، ًفاحتجب بالغمام وانكمش، وغارت منها الزهرة،

---

[163] اليفاع: التل المرتفع.

[164] السارية: الأسطوانة والعامود.

[165] الممكورة: المدمجة الخلق، واللفاء: الممتلئة الساقين.

غيرة الضرة من الضرة،فغارت في الدجون، وغابت عن العيون، لو قام نابغة بني ذبُيان من قبره، لشهد أنهاُّ الدمية التي وصف بها المتجردة في شعره:

أو دُميةٌ من مرمر مرفوعةٌ بُنِ يَتْ بآجٍّ ر يشاد وقَ رْمَ دِ[4]
أو ◌ّ◌َ درةٌ ص دف ي ة غ ۡ بهَ جٌ متى يَرَها يهِ ّ ل ويسجد
واص ه ا
لو أنها عَرَضَت لأشمط[5] ع ب د الإل ه ص رورةٍ ◌ُم ت
راهبٍ ع بِّ د[6]
لَرَنَا لرؤيتها وحسن قوامها ولخاله رَشدًا وإن لم يرشد

فقد أقامها الصناع آية الفن في التصوير والتشكيل، وشاردة الشوارد في الرسموالتمثيل، يخُيِّ لون بها »فرنسا« في ترحيبها بالزائرين والقاصدين، تحيتها للواردين علىالمعرض والوافدين، والباب كله مرصع بحقاق من البِ ّلور،[7] إذا تلألأ فيها شعاع النور،خلتها أنوار الأزهار في أغصانها، أو أذيال الطواويس في اختلاف ألوانها، بل قلائدَ منظومةًمن در وجوهر، وعقودَ ياقوت من أحمر وأزرق وأصفر، لا بل فصوصً ًا منضدة منالماس، يتراءى فيها طيف الشمس بالانعكاس.

ولما تجاوزنا الباب انتهينا إلى سهل رحيب، ووادٍ عشيب، نبتت أرضه بالقصورالمنيفة، كما ينبت الروض بالأغصان الوريفة، تضل فيه الحُداة، وتحار الهُداة، ولا بدعفالمدينة في اتساعها قطر من الأقطار، ًوهذا المعرض في سُرتها مصرٌ من الأمصار، وما زلناسائرين على أرض تزهو فيها أغراس الجنان والبساتين، وأزهار الأغصان والرياحين ٌ يتخللها من الدمى والتماثيل، ما يعرب عن الدقيق من المعاني والجليل، فتكاد تبادركبالخطاب، أو ترد رجع الجواب، ولما امتلأت العين من هذه المحاسن الشائعة، وجن اللبمن هاتيك المناظر الرائعة، التفت إلى أصحابي أتلمس ما يجري في خواطرهم، وأتحسس

[4] القرمد: كل ما يطُلى به.

[5] الأشمط: الذي خالط سواد شعره بياض.

[6] الصرورة: الذي لم يتزوج.
[7] البلور: بالضم لغة في البلور بالفتح.

ما يدور في ضمائرهم، فرأيت الباشا يتأمل ويحدق، ويمعن ثم يطرق، وإذا هو يقولفي همسِه، وحديثه لنفسه: لله أبوهم ما أبعد شأوهم في التشييد، وأجلّ شأنهم في الإنشاءوالتجديد، وما أسبقهم في الجد والاجتهاد، إلى التوسع وحب الازدياد، وما أشغلهم بمايكفي الإنسان أقله وأدونه، ويكفل راحته أصغره وأهونه، ولو تيقن ابن آدم أن القبرغايته، لم تخفق على القصور رايته، ولكان همه بحفر القبر أعظم من همه بتشييدالقصر، فمقامه هناك طويل، وبقاؤه هنا قليل،؎ ولو علم أن هذه الأحجار المذهبة فيالشرفات العالية لا تلبث أن تنتقل صفائح في القبور البالية، لم يعمل عمل المخلدين،وهو بين أظفار المنايا رهين.

تبني المنازل أعمارٌ مهـ؎دمة   من الزمان بأنفاسٍ وساعاتِ

ووجدت »الصديق« ؏ في هذا الموقف على حال لا تتغير، وهيئة لا تتأثر، ينظر إلى مانستعظمه نظرة الفلاح إلى قريته، والبدوي إلى دمنته، لا يعجبه شيء ولا يزدهيه، مماتحار أحلام الورى فيه.

لا مُعنَ ىّ بكل شيء ولاّ ُ كل عجيب عنده بعجيب

إلا أنه مع ذلك غير هادئ البال، ولا ساكن البلبال،؏كأنما هو يغوص على معنى يدقفي الفهم، ويبحث في أمر يجل عن الوهم، ويستجمع لديه حواشي التفكير، ويلم أشتاتالتذكير، فاستخبرته عما يشغله، وسألته عما يذهله، فلم يسُعف بالجواب ولم يسعد غيرأني سمعته يترنم وينشد:

م ا أق؎ ل اع ت ب ارن ا ب ال زم ان وأش؎ د اغ ت رارن ا ب
الأم ان ي!وق ف اتٌ ع ل ى غ رور وإق دا م ع ل ى م زل ق

م ن ال ح دث انالتِفاتًا إلى القِرون الخوالي هل ترى اليوم غير قرن فان؟

أين ربُّ السدير فالحيرة البيـ ـضاء أم أين صاحب الإيوان؟[166]

والسيوف الحدادُ من آل بدرٍ والقنا الصم من بني الريَّان

يكرعون العقار في فلق الإبـ ـريز كرع الظماء في الغدران[167]

من أباة اللعن الذين يحيو ن بها في معاقد التيجان[168]

ت ت راءاه م ال وف ود ب ض ارب ي ن ال ص دور ل

ع ي دًا لأذق ان

في رياض من السماح حوالٍ وجِ ب ال م ن ال ح ل وم رزان

وه م ال م اء ل ذَّ ل ل ع ط ن ب ردًا وال ن ارُ ل ل ح ي ران

ش ا

ما ثنيت عنهم المنون يدٌ شو ك اء أط راف ه ا م ن ال م

ران[169]

ع ط ف ال ده ر ف رع ه م بعَ د بعُ د الذَّ را قريب المجاني

ف رآه

وثنتهم بعد الجماح المنايا في عنان التسليم والإذعان

ليس يبقى على الزمان جريءٌ في إباء أو عاجزٌ في هوان

ورأيت الشيخ »الحكيم« يهز كتفيه، وينظر في عطفيه، ويقول في التفاته إلينا،وانعطافه علينا: ما أشبه الأواخر بالأوائل، في التفاخر بالباطل الزائل! لا يظن ظان أنكل ما يراه من هذا المشهد الفخم، ويستعظمه من البناء الضخم، بما أُنفق عليه منالأموال الطائلة، وما اقتضاه من المشاق الهائلة، سيدوم السنين والأعوام

---

[166] قصران معروفان.

[167] الفلق: جمع فلقة بالكسر وهي القطعة.

[168] أباة اللعن: الملوك الذين يخاطبون بأبيت اللعن.

[169] المران: الرماح.

على الدهر، وإنمايعد بقاؤه باليوم والشهر، وليس يمكث من كل هذا البناء والعمران، إلا هذان القصران،وأشار بيده إلى قصرين متقابلين كأنهما في ارتفاعهما ذرْوَتاَ جبلين، وهنا أخذ الباشايستفهم منه ويسَتعلم وأنا أنقل له وأتُرجم:

الباشا: وما مقدار الأموال التي أنفقت في تشييد هذا المعرض؟

الحكيم: اشتركت الحكومة في الإنفاق عليه بعشرين مليوناً من الفرنكات، وبلديةباريس بعشرين مليوناً، وتألفت جمعية اشتركت فيه بستين مليوناً؛ أصدرت بها خمسةوستين مليوناً من التذاكر لأيدي الناس تحت ضمانة البنك العقاري.

الباشا: وما الغرض منه؟

الحكيم: الأصل فيه الكسب والربح، والغرض منه عرض الأعمال والصناعات بمايظهر مقدار المسافة التي تقطعها الأمة من حين لآخر في باب الإجادة والإتقان؛ ليتضاعفالجد والاجتهاد وتتسابق الهمم في أسباب التقدم والارتقاء في مدارج المدنية.

الباشا: وهل تظنه يأتي بربح عظيم؟

الحكيم: كان أمل الربح منه عظيمًا، ولكن خاب الظن فيه؛ فإن الشركة قدرت عددالزائرين والمترددين عليه بخمسة وستين مليوناً في مدة وجوده وهي مائتان وأربعة أيام،ولكن لم يتردد عليه إلى الآن سوى عشرة ملايين وقد مضى من المدة نصفها، وقد بلغ عددالشركات التي اشتهر إفلاسها فيه سبعين شركة إلى اليوم، وآخر شركة شاهدت إفلاسهاأمس شركة »شارع القاهرة« ورأيتهم يبيعون »معروضاتها« وأثاثها بحكم المحكمة فيناحية من نواحي المعرض كانت الشركة أقامت لها فيه مكاناً فسيحًا، جمعت فيه مايكون في شوارع مدينتكم من لعب القرود، والتواء الثعابين، ورقص الزنوج، وتسريحالجمال، وسوق الحمير، فرأيت الجمال وهي ثلاثة تباع بمائتين وخمسين فرنكًا، وبيعالحمار من الأربعين حمارًا بتسعة عشر فرنكًا، وكان من ينظر إلى هذه الدواب وهيتعرض للبيع بهذه الأثمان في غير بلادها يتخيل من أعينها كأنها تندب نحس طالعهماوبخس قيمتها في غربتها، ولا تسل عن سوء الحال التي كان عليها النساء والرجالالمصاحبون لهذه الحيوانات، وقد تداركهم »مأمور

التفليسة« فخصص لهم مقدارًا منالدراهم ينُفق عليهم لإعادتهم إلى وطنهم، وعلى الجملة فالخسارة في هذا المعرض عظيمة،وأرى أنهم أخطأوا كل الخطأ بالتوسع فيه وتكبير ساحته حتى لا تكاد تدرك الدورةالواحدة فيه إلا بقطع مسافة لا تقل عن عشرة كيلومترات، فوزعوه وشتتوه مع قلةالزائرين والواردين، ولو أنهم اختصروا فيه لكان خيراً لهم.

الصديق: أهذه الشركة التي تذكرها في كلامك هي »شركة المعرض المصري« الذيسمعنا به؟

الحكيم: لا ولكنها شركة أخرى فرنسية، وليس من الضروري أن يكون أصحابالشركة من أبناء مصر.

الباشا: ولماذا لم تقدروا في هذا المعرض حسابكم بما لكم في مختلف الأمور منالدقة وصحة النظر؟

الحكيم: كانوا يحسبون أن أمم العالم ستهرع إليه من كل فج، وكانوا يعتقدونأن أكثر ملوكها يغدون على المعرض، فينفقون فيه خزائن أموالهم ودفائن كنوزهم؛ فلميحضره إلا ملك السويد من ملوك الغرب، ولم يزره إلا شاه العجم من ملوك الشرق،وكانوا قد دعوا إليه ستًّا وخمسين مملكة للاشتراك فيه فلم يجبهم سوى ثلاثين منها.

قال عيسى بن هشام: وكنا وصلنا في هذه الأثناء إلى باب أحد القصرين المشار إليهمابالبنان المعدودين لعرض ما يسمونه بالفنون الجميلة، وهو المعروف بالقصر الصغير، فعولنا على البدء بزيارته فدخلنا فإذا هو ببنائه وتشييده وزينته وزخرفه ونقشه ورسمهيفوق كثيراً من قصور الملوك والقياصرة، وناهيك أنهم أنفقوا في إقامته اثني عشر مليوناًمن الفرنكات، وقد عرضوا فيه نفائس المصنوعات مما حُفِظ عن الأوائل منذ العصرالروماني إلى القرن الثامن عشر؛ من قطعة المعدن المضروبة إلى نقوش أبواب الكنائس،ومن أواني الفخار إلى الحلي والجواهر، ومن النعل المطرزة إلى التاج المرصع، وهنا يعجزالقلم عن الوصف والنعت، والإحاطة بمثل هذه النفائس لا تأتي من طريق الخبر والنقلبل من جهة المشاهدة والعيان، ولا يمكن

أن يتجلى أثرها في نفس القارئ مثل أثرها فينفس الرائي، ولما فرغنا من دورتنا الأولى في القصر استوقف الصديق الباشا يسأله عماشاهد من التحف، ٍورأى من الطرف:

الباشا: ما أرى إلا كثيراً مما كان يوجد عندنا بعضه في الأسواق القديمة وبعضه فيالبيوت العظيمة.

الحكيم: اعلموا أن ما ترونه هنا هو أنفس الأشياء وأغلاها قيمة في العالم لا تتناولكنهها الظنون، مثال ذلك أن هذه الساعة التي بجانبنا، ولم تلتفتوا إليها في وقوفكمعندها، قد رغب في شرائها بعض الأغنياء فساومها بثلاثة ملايين فرنك، فلم يسمحصاحبها بالبيع لقلة الثمن، وما هي إلا كرة محمولة على أيدي ثلاثة هياكل من الرخام،ولكن دقة الصنعة وقدم العهد أورثاها هذه القيمة العجيبة في الثمن.

الصديق: ٍحقا إن التحفظ على التحف القديمة والآثار العتيقة حسنة من حسناتأهل الغرب يغُبطون عليها، فإن النظر إليها يورث إحساسًا جليلًا في النفس، وذكرًاجميلًا بمجد الأمم الغابرة ودرسًا مفيدًا في التاريخ، كما أن في ذلك من حفظ السلسلة فيالصناعات ما يفيد الفكر، ويساعد على الترقي في العمل، وقد أهمل أهل الشرق هذا البابإهمالاً لا يغتفر لهم حتى اندثرت المآثر واندرست، ولم نعُد نعلم من كيفيات المعايشعند المتقدمين إلا الأسماء التي غابت عنا مسمياتها، وقل لي بالله: أي شيء يكون اليومأجمل في العين نظرًا وأجل في القلب وقعًا لو حفظنا ما ضيعه التفريط مثلًا من » ٍ درةعمر« و»صمصامة معدي كرب« و»قميص عثمان« و»درع عليٍّ « و»تاج الرشيد« و»رايةالمعز«؟ ولكنني أرى مع ذلك أن الغربيين تجاوزوا الحد، وتغالوا في هذا الباب غُ ًلوا كبيراً،وذهب بهم حب التنافس في اقتناء العتيق مذهباً يلامون عليه لحبسهم الأموال الطائلةعلى أثمان هذه المقتنيات التي لولاها لكانت من قسمة الأرزاق بين العباد، وكم في هذاالعالم المتمدين من الألوف الذين لا يجد أحدهم فرنكًا واحدًا لقوت يومه، بينا نرى أحدالمولعين بالمقتنيات يعرض ثلاثة ملايين لاقتناء مثل هذه القطعة من الرخام.

الحكيم: نعم لك الحق فيما تعتب به علينا من هذه المغالاة لمجرد التباهي والتفاخر،مع حرمان الناس من أرزاقهم، ولكن ليس عندنا من الوقت الآن ما يكفينا لبسط القولفي نصرة المذهب الاشتراكي.

قال عيسى بن هشام: وأدركنا التعب والكلال، وإن لم يكن يدركنا السأم والمَلال،واحتاج الجسم إلى الراحة والسكون، فغادرنا القصر وفي النفس منه بلابلُ وشجون.

القصر الكبير

قال عيسى بن هشام: وزرنا القصر الكبير، بعد القصر الصغير، أعني الآية الكبرى، بعدالمعجزة الصغرى، ناطقةً بما لا يتُصور من جمال الوضع، وحسن الصنع، فيما احتواههذان البناءان من الكنوز التي لم تجتمع لأحد من قبل، ولم يظفر بمثلها ملك في الدهر،ولا قيل ما كنوز قارون عندها إلا من الترب والحصى، ولا قُرط »مارية« إلا من الخرزأو النوى، وما طوق »عمرو« ٍ إلا طوق أسر، وما أسلاب الإسكندر لديها إلا من أطمار»المجاذيب« و»الأولياء«، ولا وشيُ »دَارَا« إلا من فراء »العرفاء« والفقهاء، وما أقلام البلغاءإلا مغازل النساء، إذا هي حاولت في وصفها تسطيراً، ورامت لنعتها تحبيراً.

وماذا تقول في خزائن المسكونة تسكن في دارين، وأفلاذ البسيطة مبسوطة بينجدارين،ً لو توزع بعض ما اخْتزَ َناه على الخلق، لم يكد أحد بعدها في طلب الرزق،ولم يشكُ شاك من عيش الحرمان، ولم يبك باكٍ من بؤس الزمان، ولأصبح المحروم بينالورى غنيًّا، وغدا اسم الفقر في الدنيا خبراً مطويًّا، ولتساوى الناس في الرتبة والقدر، ولميسلكوا فيما بينهم سبل الختل والغدر، نعم ولم يغر سالب على مسلوب، ولم يفتك غالببمغلوب، ولم تقُتَرفَ في العيش المآثم والذنوب، ولم يبق للنفوس في الدنيا من مشتهًولا مطلوب، فالقصران قائمان يفخران على الدهر، لما ليس له به عهد من الثراء والوفر،وسرْناَ في أنحاء الغُرَف، نتأمل التحف والطرف، ومن أبدع ما اجتلاه النظر بين تلكالدرر والغُرر،ٌ معرض التماثيل والصوَر، فكم هناك من صور براها الإتقان والإحكام،تمثل للعقول والأفهام، ما لا يمثله تأليف الكلام،ٍ وتشخص لك حوادث التاريخ ومناظره،كأنك كنت حاضرهُ وناظره، ويوُضح لك قلم الرسم والتصوير، ما يعجز عنه قلم الخطوالتحرير، من مكنون الأهواء والأشجان بلفظ مبين من النقوش والألوان:

أراك الم ن ى ف ت م نَّ ي تَ ه اوصاغ لك الطيف حتى انبرى

فما شئت فيها من أثر يجلو صدأ الحس، ويرقق حواشي النفس، فتتولاك هزةُالطرب لرؤيتها، وتعتريك نفخة السحر من هيئتها، فتكاد تئن للفارس المقتول وتعطفعلى الواله المتبول، فتترحم على قتيل الرمح والحسام كما تستغفر لشهيد الهوى والغرام،وتستبيك الفتاة الحسناء، والكاعب العذراء، فتصبو إلى محبتها، وتطمع في مودتها، لولاعيون الرقباء من أهلها، وهم ضاربون من حولها.

وترى هناك صورة غادة باهرة الخلق، عريقة الحسن والعتق[170] يتألق على وجههانور العفاف والصيانة، ويبدو على محيَّ اها خصال الرزانة والركانة[171] مع قوة الشكيمة،وثبات العزيمة، قد وطئت تحت أقدامها غولاً من الأغوال، لها مائة فم للنهش والاغتيالوطَعَنتها بالرمح في أحشائها فأوردتها مورد فنائها، وعلى رأس الغادة فوج من ملائكةالنصر، يتوجونها تاج العز والفخر، وتلك هي صورة »الفضيلة«، في مصارعتها »للرذيلة،«وعن يمينها حُ رة بارعة الجمال، بادية المهابة والجلال، ترمقها بعين المستبشر بظفرحزبه، والمغتبط بنيل سؤله وإربه، وتلك هي »الحكمة« التي لا تنال الفضيلة إلا بها،ولا تدُرك إلا بخالصها ولبابها، وعن شمالها حُ رة أخرى يتلألأ في غرتها نور المعرفةواليقين، وقوة الإدراك والتمكين، تحمل على كتفها طفلًا في سن الرضاع، وتمسكه في يدهشبةَ القلم أو اليراع، وهي تنظر إلى »الفضيلة« نظر التوقير والتعظيم، في موقف التبجيلوالتكريم، وتلك صورة »العلم« وفضله، وذلك الطفل صورة الإنسان في جهله.

وترى امرأة نصفًا وضعت على كل ثدي لها طفلًا ترضعه وتضمه، وكأنها تقبلهوتشمه، ومن حولها أطفال عراة تجذبهم إلى حجرها، وتسترها بفضل إزارها، وعلىمُحيَّ اها سمات الغبطة والارتياح، وعلامات الرضا والانشراح، فيكاد يلوح فيها ما طوتهُ يد الزمان، من براعة الحسن والافتتان، وتلك صورة »الخير والإحسان.«

---

[170] العتق: خلوص الأصل والجمال.

[171] الركانة: الوقار.

ثم ترى صورة وليدة من حسان الولائد، وخريدة من أبهَى الخرائد، كأنها المهاة فيالمخائل، والظبية في الشمائل، يطول شعرها فضل الإزار، ويريك الليل في وضح النهار.

بفرعٍ يُعيد الليل والصبحُ نير   ووجه يعيد الصبح والليل مظلم

ًَّ تبدت في ملتف غابة أغصانها من العود والند، وأغراسها من البنفسج والورد،فالأرض مفروشة بمنثور الأزهار، والسقف معروشة من أغصان الأشجار.

فهي تختال في زبر جدة خضـ.راء تُ غ ذىَ ب ل ؤل ؤ م ن ث وروغدت
كلّ ربوةتبشتهي الرقـ ص بثوب من النبات قصير

وقد نثرت الشمس عليها مثل نثار العرائس، بدنانير تعُيي أيدي اللوامس، كما عَيِيَالمتنبي بمثلها من قبلها،ٍّ وهو يجتاز شعب بوان، ويصف فيه التفاف الأغصان:

فسرتُ وقد حجبن الحرّ عني وجئن من الضياء بما
كفانيوألـقى الشرق منها في ثيابي دن ان ي را ت فـ ٌر م ن ال
ب ن ان

والأطيار واقفة من حولها على هيئة التغريد، وترديد النشيد، كأنها تجاوب الفتاةفي سؤالها، عن أوبة خلها، بأن لكل حمامة منا شوقًا ينازعها، إلى إلف يضيعها، فيشتدبالفتاة الولع والهيام، وتشترك في الهديل مع الحمام، وتلك هي »الطبيعة« في جمالالفطرة، وجلال القدرة.

وترى »هُومِيرُوس« آدم الشعر اليوناني وهو أعمى البصر، ملتفعًا بالوشي والحَبَر،تضيء لحيته بنور المشيب، ويملأ العينَ بالمنظر المهيب، متربعًا على سرير المُلك، مُلْكِالأشعار، لا مُلكِ الأقطار، وسلطان الأوزان، لا سلطان البلدان، وشعراءُُ الجن يكللونهبأكاليل الانتصار، وشعراء الإنس بين يديه في موقف الإعظام والإكبار،

من »هبرنون«و»إسكيل« و»هوراس« و»فيرجيل«، وعن يمينه أبطال الشجعان وفرسان الزمان، ممنرَوَ ى الشعر أنباءهم وخلد النظم أسماءهم، وهم على سمة الخضوع وهيئة الخشوع، من»أشيل« و»إسكندر«، و»إينيه« و»قيصر« وعند رأسه كاعبان، كأنهما اللؤلؤ والمرجان،متفقتان في جمال الوجه والجسم، وإن اختلفتا في الشكل والرسم، هما الفنَّ ان اللذانابتكرهما في الشعر، منذ شبيبة الدهر، والشعراء في وقوفهم كأنهم يتأدبون بأدبهما،وينعمون بقربهما، والقيان من حولهما صفوف، يضربن بالمزاهر والدفوف، ويوقعنالنَّ غم واللحن، على ذلك النظم والوزن.

ومن لنا بهذا الشاعر وأمثاله من الأولين الأقدمين،، والسابقين المقدمين، يصورونبأشعارهم ما بين أيدينا من صور هذه الألواح المهارق، فالتصوير شعر صامت والشعرتصوير ناطق.

ولما أفقنا قليلًا من نشوة الإعجاب والازدهاء، واقتربت زيارتنا من الانتهاء؛ إذ نحن ِ برجل أمامنا رث الثياب، خلق الجلباب،ُ كأنه المعني بقول القائل من شعراء الأوائل:

أخو سفر، جواب أرضٍ، تقاذفتب ه فلِ واتٌ، ف ه و أش ع ث أغ بر

وقد اختلط شَعر جبهته بشَعر لحيته، فاختفت بينهما مقاطعه وملامحه، وغمضتأساريره ولوائحه، ونحلَ جسمه نحول الشاة بالأجادب،[172] وطالت أظافره فتقوستكالمخالب، واختزن فيها الوسخ فصارت كالمكاحل علقت بها المَرَاود، أو كخطوط الحدادعلى صفحات الجرائد، وهو يلحظ الداخلين والخارجين لحظة المزدري المحتقر، ويذهببنفسه ذهاب المبتدع المبتكر، والناس يقابلونه مع ذلك بالاحترام، ويواجهونه بالإكرام،فالتفتَ الباشا إلى صاحبنا »الحكيم« يستخبره عن

[172] الأجادب: الأراضي التي لا نبت فيها.

هذه الكتلة من الدمامة، والكومة منالقمامة، وكيف راق لهم الجمع بين هذه المناظر الحسان، وبين منظر هذا الشيطان،فاشتبك بينهما الخطاب، وأخذت أترجم لهما في السؤال والجواب:

الباشا: أفما كان ينبغي منع هذا الرجل وأمثاله عن هذه الأماكن النفيسة؛ ليحفظوالها رونقها، ولئلا يضيعوا بهجتها في نفوس الزائرين؟ ولكن لعلهم أرادوا بذلك صرفعين الكمال.

الحكيم: هذا الرجل هو من كبار المصورين الذين نفتخر على العالم بصنع أيديهم،مما ابتهج به نظرك في هذا القصر الذي أقيم لتفخيم هذه الصناعة، وأنفق على تشييدهأربعة وعشرون مليوناً من الفرنكات، ولا تعجب من تفاوت المنظرين؛ فالذهب من الترابوالماس من الفحم.

الباشا: وكيف جاز لكم أن تتركوهم على مثل هذه الحالة من الفاقة وشظف العيش،وتضنوا عليهم بما يصلح أحوالهم وينقذهم من هذه الرثاثة التي يرثي لها الناظر؟ وإنكانت هذه الصناعة لا تدر الرزق على أربابها فلِمَ هذا التشييد لها وشدة العناية بها؟

الحكيم: إن هؤلاء الذين تعطف عليهم هم بيننا أوسع الناس رزقًا، وأكثرهم بضاعةرائجة، واللوح الواحد من صنعتهم ي ًقُدر بالمئات من الألوف وبالملايين، وليست هيئتهمهذه عن حاجة أو فاقة، وإنما هي ناشئة عن إهمال أنفسهم وذهول عقولهم، وعذرهمفيها أن أرباب الأعمال الدقيقة التي يغوص فيها الفكر، وتجهد القريحة ويتوزع لهاً الذهن في عالم الخيال قل أن تتوازن فيهم قُوَى الدماغ، فما تنمو قوة إلا بضعف أخرى،فيصيبهم من الفتور والذهول ما يقصر بهم عن النظر في نظام الملبس والمطعم، ولايميزون في المعيشة الطيب من الخبيث، فتختل أجسامهم وتسوء أخلاقهم إلى أن ينتهواإلى حال من الطيش والحماقة، لا تطاق معها المعاشرة مع الأقارب والأجانب، ومنهم منيتصنع ذلك كما يتصنع بعض أهل الدين التقشف والزهد، وقد ألف الناس ذلك منهمفإذا قيل لك: هذا فلان الشاعر أو فلان الصانع

أو فلان المتفنن، غفرت له ما ساءك منمنظره لما يسرك من مخبره، وربما لم يكن عند بعضهم من حسن الصناعة سوى قبحالهيئة ورثاثة المرأى.

الصديق: إني لأعجب لقوم يعتمدون في أعمالهم على رءوسهم ثم يذهلون عنأبدانهم، وقد علموا أن القريحة السليمة لا تسكن إلا الجسم السليم، وكيف يصح البدنإذا لم تتعهده النظافة وطيب الغذاء وحسن الرياضة وقضاء الفروض الطبيعية له،ولقد يعرض للرجل المتفكر وهو في تجلي قريحته أن يشم رائحة كريهة أو يبصر منظرًارثيثاً، فيضيق في الحال صدره وينقبض فكره، فكيف بمن يجد ذلك في نفسه ويحسبه في جسمه، وأحر بمن ينقطع في عمله للفنون النفيسة أن يكون نفيسًا في ذاته، فلايعرف عجرفة الطبع ولا شراسة الخلق بما تولده فيه من صفاء الحس ولطف الشعور،وبما تورثه من حلاوة الشيم ورقة الطبع، وعلى الوجه الأعم، لست أدري ما فائدة العلوموالمعارف والفنون إذا لم تكسب صاحبها بادئ الأمر محاسن الأخلاق ومكارم الصفات،فيكون القدوة الحسنة لمن يقتدي بعلمه ويتأدب بأدبه، وإلا فكيف تنبت الزهرة منالسبخة، ويسطع النور من مهجور القبور؟

الحكيم: صدقت وأجدت، ومن قصر في تربية نفسه فكيف يطمع في تربية غيره!

الباشا: وماذا يصنع هؤلاء الصناع بهذا الرزق الواسع والثراء الوافر، وحالهم فيسوء المعيشة على ما أسمع وأرى؟

الحكيم: يصنعون به ما يصنعه أهل الطيش والنزق من أرباب المواريث في الإسرافوالتبذير، وهم لشغفهم بالجمال الذي تستمد صناعتهم منه حسنها ورونقها لا يفتَرونعن التولع بالنساء والافتتان بمحاسنهن، فترى ثمن اللوح الثمين يخرج من خزانة الغنيالمتباهي إلى يد الصانع المفتون، إلى كيس الفاجرة الهلوك، إلى صُندوق التاجر والصائغ،وعندهم أيضًا باب إنفاق عظيم على طائفة من النساء التي يطلقون عليها اسم »المثال.«الباشا: وما »المثال«؟

الحكيم: »المثال« هو المرأة التي يتخيرها المصور؛ ليأخذ في التصوير على مثالهالجمال وجهها أو لحسن تركيبها وتناسب أعضائها، فهذه لزندها، وهذه لنهدها، وتلكلقوامها، والأخرى لشكل ابتسامها،وهلم جرا، فترى غرف المصورين

ممتلئة بهاته»الأمثلة« التي تختلف أجورها باختلاف أقدارها،ٍ وقلما تدخل على مصور في مصنعهإلا ترى أمامه امرأة مكشوفة البدن، عارية الجسم،ٍ يقلبها كيف شاء ذات اليمين وذاتالشمال حتى تصير على الشكل الذي يريد أن يملأ عينه منه، ويحصره في ذهنه ليخرجالصورة على مثاله.

الباشا: ما هذا الذي تحكيه من التبذل والتفضح؟

الحكيم: ليس هذا عندنا بعيب ولا نقص، ولا غضاضة على النساء منه؛ فالأمرمعدود بينهن كأنه صنعة من الصناعات الجليلة، لا عار في مزاولتها، ولا بأس علىالسمعة منها، وعندنا اليوم خلاف قائم: هل يجوز للمصور أن يمارس صناعته على هذاالشكل في طريق الناس، وفي مسالك السابلة كما يفعل ذلك في داخل مصنعه؟ فإن أحدالمصورين عَ ّن له بالأمس أن يصور صورة انبعاثٍ القبور، فقصد إحدى المقابر وجلسهناك بأدوات صناعته وفيها امرأتان للمثال، وأقامهما أمامه وهما عاريتا الجسد، وكانيقيم هناك في كل يوم الساعة والساعتين على هذه الحال يمعن بنظره في الفتاتين، ثميخطط ويصور، وكان بجانب المقبرة دار تبُنْىَ قام على حائطها البنَّ اءون فاشمأزوا منهذا المنظر، ودفعهم دافع الحياء إلى مخاطبة المصور ليعدل عن قبح ما هو فيه، فلميعبأ بهم ولم يبال بتأنيبهم واستمر على ذلك أيامًا، فرفعوا الأمر إلى رجال الشرطة ثمإلى قضاة المحاكم لمنع الرجل عن هذا الفعل السيئ، ولا تزال الجرائد تتجادل في المسألةأيجوز المنع أم لا يجوز، فبعضُها يذهب إلى وجوبه ارتكاناً على نص القانون الذي يعاقبمن ينتهك حرمة الآداب العامة في الطرق، وبعضُها يرى الإباحة؛ لأن كل إنسان حر فيصناعته، ولا يجوز لأحد أن يحول بينه وبين ما فيه إتقان صناعته وإجادة فنه.

الباشا: نعوذ بالله من هذه البدع.

قال عيسى بن هشام: وانتهينا بالخروج من القصر بعد أن كدنا نضل فيه لاتساعأطرافه ونواحيه،ُ وتعدد غُرُفاته وحُجُراته، وهي كلها غاصة بالصور والتماثيل، ثم وقفنافي الخارج وقفة الإجلال والإعظام أمام هذين القصرين اللذين هما تاجا المعرض وإكليلاالصناعة، وعاد الباشا إلى »الحكيم« يسأله:

الباشا: وماذا يكون شأن هذين القصرين بعد انتهاء المعرض؟

الحكيم: يبقيان على حالهما دون أبنية المعرض لعرض أعمال أهل الصناعةوالتصوير في كل عام.

الصديق: إنني كلما نظرت إلى هذه العناية الكبرى عندكم بفن التصوير والغلو فيهاإلى هذا الحد، ثم نظرت إلى قلة العناية به عندنا حرتُ في معرفة السبب، فإن كان ذلكناشئاً عن الترقي في المدنية، فإنني أراه فيكم قديمًا منذ جاهليتكم الأولى كما أراه والمدنيةمسفرة بينكم، وربما كان القديم أبدع من الحديث، مع أن أهل الشرق على ما تعلمونأوسع مجالاً في الخيال وأبعد شأوًا في التصور، فكيف نما هذا الفن فيكم دون أن ينموفينا؟

الحكيم: إن أهل الغرب كانوا قبل الدين المسيحي أهل عبادة للأوثان والأصنام،فقضى الاعتقاد الديني بإتقان الرسم والتصوير، واتسع نطاقه على الأخص في الدولةاليونانية والدولة الرومانية حتى تعدى التصوير تماثيل الآلهة إلى تماثيل الخلق، فأقيمتالتماثيل لكبراء الرجال وعظماء الأبطال، ووصل الغلو في ذلك أيام الدولة اليونانية أنهمأحصوا ثلثمائة تمثال لشخص واحد في شوارع »أثينا« في حال حياته، فلم تمكث بعدوفاته ثلثمائة يوم؛ لأنه كان ممن نال الشهرة بالباطل،ٍ وعلو الصيت على غير استحقاق،ومن ملح ما يروى في هذا الباب أن بعض الناس قال لعظيم من عظمائهم جليل القدركبير الخطر: إني لأعجب لأهل »أثينا« يقيمون لمثل هذا الرجل ثلثمائة تمثال بغير حق ولايقيمون لك تمثالاً واحدًا، وأنت المقدم المفضل فيهم؟ فقال له: لأن يتعجب الناس مثلكمن أنهم لم يقيموا لي تمثالاً واحدًا أفضل عندي من أن يتعجبوا لماذا أقيمت لي التماثيل،ولما دخل الدين المسيحي على هذه الحال لم يحظرها ولم يحرمها، فاستمر الناس علىما ألفوه، وتناولوا الدين المسيحي نفسه بفن النقش والتصوير وصوروا المسيح وأمه فيكثير من أطوار حياتهما، ودونوا به ما شاءوا من روايات التاريخ المقدس، فبقيت العنايةبذلك متصلة قائمة إلى اليوم بخلاف الدين الإسلامي عندكم فإنه حظر التصوير؛ فكانهذا

سبب تقلص هذا الفن بين الأمم الإسلامية، وإلا فهو منتشر في الشرق انتشاره فيالغرب بين الأمم الوثنية كالصينيين واليابانيين والمجوس من أهل الهند.

قال عيسى بن هشام: وسرنا عن هذين القصرين نقصد سواهما من المعاهد، ونقفعلى ما اشتهر في المعرض من المرائي والمشاهد.

الأشجار والأزهار

قال عيسى بن هشام: ودخلنا معرض الأشجار، وبستان الأزهار، في قصر لم يبُن بناءالقصور والديار، ولم تشُ َد أركانه بالشيد فوق الأحجار،[173] ولم ترتفع بالآجر حجرهوغُرَفه، ولم تتخذ من الخشب أبوابه وسقفُه، بل عقدت له القباب والأبراج، من صقيلالبلور وسبيك الزجاج، فهو صرح ممرد من قوارير،[174] كأنه لجة يم أو صفحة غدير، لودخلته »بلقِيس« صاحبةُ العرش في الأيام الخالية، لكشفت عن ساقَيهْ َا مرة ثانية، جمعوافيه أشتات النبات الغض، من كل بقعة وناحية في الأرض، مما ينبت بين ثنيَّ ات الجليد، وتنشق عنه صُمّ الجلاميد، وما اخضر في ربا الصحراء، وأورق في وهاد البيداء، وأزهر فيالجمد، وأينع في الومد،[175] ومن حيث تجري الأنهار والجداول، إلى حيث تعتصم الأراويوالأجادل،[176] ومن حيث تشدو الحمامة الورقاء، تحت الظلال والأفناء، إلى حيث تدورالحرباء، حول الغزالة في كبد السماء،[177] ومن أدنى الشرق إلى أقصى الغرب، ومن طرفالقطب إلى طرف القطب، فما أردت هناك من جميع الأنواع، في متفرق البقاع، ما بينملتف ومنتشب،[178] ومتسلق منه ومتشعب، يفتر بكل محمرّ ومبيض ومذَّ هب ومفضض،ومشرق

[173] الشيد: ما طلي به من الجص وغيره.

[174] ممرد: أملس مصقول.

[175] الجمد: الثلج. والومد: الحر.

[176] الأراوي: جمع أروى، وهو الوعل. والأجادل: جمع أجدل وهو الصقر.

[177] الكبد: وسط الشيء والغزالة الشمس.

[178] منتشب: ملتف.

وموض، وأين ابن الرومي يتأملها فيخلع عنه رداء الفخر والتيه، ويقر بعجزهفي الوصف والتشبيه، ويحرق ديوانه بكبريته المذكور، في تشبيهه المشهور:

ولازروديَّ ة ت زه و ب زُرق تِ ه ا بين الرياض على حمر اليواقيت[179]كأنها وضعافُ القُ ضب تحملُها أوائلُ النار في أطراف كبريت

هنالك تستبيك ألوان الأزاهر، بما يزري بلَمَعَان الجواهر، فما الياقوت عندهاوالزبرجد، وما الفيروز والزمرد، وما العقيق والجُمان وما الدر والمرجان! وكيف يقاسالحجر بالشجر، وتستوي الحصباء اليابسة بأكمام الأغصان المائسة، وكيف ي ّقُدم الجامدالثابت على النَّ امي النابت، وأين الحركة من السكون، والمنشور من المدفون، وأين المنثورعلى ظهر الروضة الزهراء من الملحود في بطن الغبراء! ولئن انتظمت القلائد، بجواهرتلك الفرائد، في لبَّ ات الخرائد، وكان مكانها من الحور في المعاصم والنحور، لكانتهذه الزهور، بيت الرئات والصدور، وكم أنعشت خامد النفوس والأرواح بطيب الأنفاسوشَذىَ الأرواح، فوقفنا نستنشق الأريـج والنَّ شْر، من أصناف ذلك الطيب والعطر، لو كانمعنا ضرير المعرة رهن المحبسين لانقلب منشرح الصدر قرير العين، ولأنس من وحشته،وذهل عن فاقته وخلته،[180] وعلم أن من المسكر ما هو طلق حلال، ولم يتلهف على شربالمعتَّ قة حيث قال:

تمنيتُ أن الخمر حـ ّلت لنشوة تجهلنُي كيف اطمأنت بيَ الحالُ

فأجهلُ أني بالعراق على ش ًفا ّ ُ رزي الأماني لا أنيسٌ ولا مال

وما زلنا في هذه الروضة الغناء، والجنة الفيحاء، نردد قول العبد الصالح الأواه:

﴿وَلَوْلاَ إِذِ ْ دَخَلْتَ جَنَّ تكَ َ قُلْتَ مَا شَاءَ َ اللهُ لاَ قُ ّوةَ إ ّلا بِاللهِ.﴾

[179] اللازورد: معدن شفاف أزرق يقرب إلى الحمرة.

[180] الخلة: الفاقة.

والأزهارونكرر النشيد، لبيت التوحيد:

ففي كل شيءٍ له آيةٌ   تدل على أنه واحدُ

حتى إذا آن أوان الانصراف، خرجنا من بين هذه الجنة الألفاف[181] خروج أبينا مندار الخلود والبقاء، إلى دار الهموم والشقاء، ولما تركناها إلى نواحي المعروض ضَؤل فيأعيننا، ما كان يرُوقُنا ويزدهينا، وصغر في أنفسنا، ما كان يخلبنا ويشُجينا، وذبل أمامناما كان من المناظر ناضرًا، وذال ما كان فخمًا نادرًا،[182] وغلب ذلك المنظر على كل بديعرائع، من مختلف الفنون والصنائع، وأين قدرة الحيوان الناطق، من قدرة المبدع الخالق،وما تسوّيه آلات المصانع، مما تصوره يد البارئ الصانع، وكاد الباشا يهم بالرجوع منحيث أتينا، ويقتصر في يومه على ما رأينا، لولا أن استوقفنا قول »الحكيم« للصديق فيعرض كلامه، عن ترتيب المعرض ونظامه:

الحكيم: نعم تنقسم أماكن المعرض إلى قسمين: هذا القسم الذي شاهدناه مننفائس الصناعة والطبيعة، وهو مباح للزائرين بغير أجر، وقسم آخر أقاموه لترويحالنفس، واستجلاب الأنس بالمشاهدات الغريبة والمناظر البديعة يدخله الداخلون بأجر
معين.

الصديق: لقد قرأت في الجرائد عن هذا القسم الأخير ما يعجب ويدهش، وأشد ماتشتاق نفسي لزيارته تلك »النظارة المعظمة« الهائلة، التي اخترعوها لمشاهدة القمر علىبعد متر واحد، فتحيط به العين في زعمهم كما يحيط الجالس في الغرفة بأجزاء جدرانها،فأين ذلك المكان منا الآن؟

---

[181] الألفاف: البستان المجتمع الشجر.

[182] ذال: بمعنى هان.

الحكيم: ليس هو ببعيد، وهم يسمونه »قصر الأضواء والمَرَايا« ولطالما أسهبتالجرائد كما قلت في وصفه بما يهيج الرغبة إلى زيارته، ولم أزره بعد، فهلم بنا نقصدقصده.

الباشا: البدار! البدارَ إلى زيارته، فلو كان ما يقولونه عنه صحيحًا لكان إحدىالمعجزات.

قال عيسى بن هشام: وسرنا جميعًا نلتمس هذا المكان حتى وصلنا إلى قصر مشيدًّ قل أن يكون مثله لكبار الأمراء والملوك في فخامته وضخامته، ووجدنا مكتوباً على بابهبين صور الكواكب والنجوم هذه العبارة باللغة اللاتينية:»من هنا يصعد الإنسان إلىالأجرام الكواكب ويتصل باللا نهائية«، ولما دخلناه رأيناه مزدحمًا بالجموع، فبدأنا معهمبالدخول في حجرة واسعة تبلغ خمسة عشر متراً في الطول وعشرة في العرض، وهيمقسمة بالمثلثات والأضلاع من زجاج المرايا القائمة يبلغ علو الواحدة منها مترين ونصفًافي عرض متر ونصف، وقد تخللتها مصابيح الكهرباء، فإذا نظر الإنسان بين تلك الأضلاعوالمثلثات رأى صورته تتعدد بالمئين، وإذا مشى بضع خطوات ضل الطريق ولم يهتدالسبيل، وكلما ظن أنه وجد منفذًا للخروج منه اندفع إليه، فيصطدم وجهه بزجاجالمرايا فتعلو أصوات الضاحكين وهم في حيرتهم وضلالهم، ولا يزال على هذه الحال مدةمن الزمن حتى يصل إلى نهج الطريق من طريق الاتفاق، وما أوسع مجال الخيال هناللشعراء في وصف أشكال الزائرات، وانطباع صورة الواحدة منهن على صفحات المراياألف مرة كما تنطبع محبتها، وهي واحدة، على صفحات قلوب الرجال وهم ألوف.

ولما اهتدينا للخروج من هذه الغرفة التي يضل الداخل فيها كما يضل الراكب فيالفيافي والقفار، سرنا نقصد غيرها، و»الحكيم« يقول »للصديق« في حديثه:

الحكيم: إن الفكرة في إقامة الأماكن والأبنية على أوضاع وأشكال، يضل الداخل فيهاولا يهتدي للخروج سبيلًا شيءٌ قديم في الوجود، وقد علمنا أن قدماء المصريين هم أولمن شيد الأبنية للضلال والتيه، منها الهيكل الذي رآه

»هيرُودوتسُ« في زمانه ووصفهفي تاريخه، وكان يحتوي على ثلاثة آلاف حجرة بعضها متداخل في بعض، فمن دخلهذا المعبد ولم يكن معه دليله ضل فيه حتى يهلك جوعًا، ولا يزال أثره باقياً عندكم إلباليوم بقرب بحيرة »موريس« أمام المدينة القديمة المعروفة بمدينة »التمساح«، وقد حذاقدماء اليونانيين حذو المصريين، فأقاموا في مدينة »كريد« معبدًا يماثله، ومما يذكر عنهفي أساطيرهم أن غُولاً من الغيلان كانت تفسد في الأرض وتعبث ثم تلجأ إليه فلا يدركهاأحد،ً وصمم أحد المشهورين من شجعانهم على اتباع أثرها والفتك بها، فلم يتوصلَّ إلى ذلك إلا بالحصول على خيط معلوم دلته عليه عشيقته، فربط طرفه عند الباب قبل

دخوله وسار به في طريقه فأدرك غايته وفتك بالغول واهتدى به في رجوعه، والفرق بينما صنع القدماء في السالف وما صنعه المُ ِحدثون في الحاضر كما ترى أن بناء المتقدمينمن الحجر وبناء المتأخرين من الزجاج.

قال عيسى بن هشام: ودخلنا بعد ذلك غرفة في إثر أخُرى، وكلها على هذا النمطمن انعكاس الأضواء في المرايا وتعدد الصور، فتتخيل هنا بئرًا وهناك بحرًا إلى غير ذلكمن وجوه التخييل، ثم انتهينا إلى تلك الغرفة المنشودة التي يرُصد فيها القمر على بعُدمتر واحد، فما جاوزنا بابها حتى أطفئت في وجوهنا المصابيح وتخبَّ طنا الظلام الدامس،ثم سلطوا أشعة الكهرباء على قسم من الحائط فأضاءت عليها خريطة القمر مصنوعةبكيفية تتبين فيها مرتفعات كرة القمر ومنخفضاته، فتتراءى لك الأولى بمقدار قُ ًلامةُّ الظفر والأخرى بمقدار خروق الغربال، ووقف هناك رجل كالمرشد يشرح للناس مايشرحه عن هذا الرسم، ويزعم أنه صورة القمر بعينه على بعُد سبعين كيلومتراً كمايرُى في »النظارة« التي انتشر الإعلان عنها بأنها ترُيكَهُ على بعد مترٍ واحد، وأسهبتفيها مقالات الجرائد العلمية والسياسية مدة من الزمن قبل افتتاح المعرض، ثم خرجناو»الصديق« يٍقلب كفا على كف من شدة الدهش والعجب، ويسأل صاحبنا »الحكيم« عنكُنه هذا الغش والكذب:

الحكيم: خَ ٍّ فض عليك، فإن أكثر ما تقرأ من التفخيم والتهويل لمثل هذه المسائلفي الجرائد لا ي ّ ِعُول عليه، فإنها تتعمد ذلك لمصلحتها الخاصة لما تتناوله عليها منالأجور، ولمصلحة أبناء البلاد في ترغيب الناس إلى زيارة المعرض، وهي تستحل الغشوالكذب في سبيلهما، ولا تعجب إن قلت لك: إن الذي باشر هذا المشروع هو أحد مشاهيرالمستعمرين من النواب عندنا؛ فقد قام في المجلس خطيباً وطلب منه الموافقة على إقامةالمعرض العام، وأعلن أنه وجد عنقاءَ ّ المعرض والآية الكبرى في ارتقاء الصناعة بإنشاء »نظارة معظمة« يرى الناظر فيها القمر عن بعُد متر، وما زال يحكي والجرائد تكتبحتى أنشأ شركة من بعض الفلكيين لعمل هذه »النظارة«، التي يقولون عنها: إنها ترُيالقمر على بعد سبعين كيلومتراً، وأقاموا هذا القصر بمناظره لاجتناء الربح من تهافتالزائرين وإقبالهم عليه لرؤية المعجزة الكبرى، وعلى هذا تدور أكثر الأمور بين الناس فيالعالم من التهويل الباطل في أقوالهم، والغلو الفاضح في وصف أعمالهم بمقدار الفرقما بين المتر الواحد والسبعين كيلومتراً، والرابحُ فيهم من كان ماهرًا في الغش والخداع،والفائز فيهم من كان سبَّ اقًا في المكر والاحتيال.

قال عيسى بن هشام: وانصرفنا ونحن نعجب من هذا النائب الذي لم يكفه الغشمن طريق السياسة والاستعمار، حتى ترقى فيه إلى طريق الكواكب والأقمار.

المرائي والمشاهد

قال عيسى بن هشام: وسرنا في قسم المرائي والمشَاهد، ندخل واحدًا منها في إثر واحد، فلانجد فيه، عندما نوافيه، مصداق ما سمعنا من وصف واصفيه، بل ربما وجدنا ما يخالفهوينافيه، إلى أن وصلنا إلى قصر مشرف منيف، يزهو على القصور بحسن الترصيصوالتصنيف، أعدوه هناك لأنواع الرقص والعزف، وفنون القفز والقصف، منذ عهد البداوةالغابرة، إلى عهد الحضارة الحاضرة، ومن عيش الخشونة والشظف إلى عصر النعومةوالترف، فما شئت من رقص الحماسة والشجاعة إلى رقص الخلابة والخلاعة، فتريرجال البداوة يرقصون بالسيوف في مواقف الحتوف، وترى العذارى من ورائهم يضَ ْربنَّ ِ بالدفوف ويصفقن بالكفوف، تحريضًا لهم على الحرب وإلهاباً، وإثارة لهم على العدووإغضاباً، فتحلو لهم مضاضة الإقدام كما تحلو لشاربها غضاضة المدام، ويرتشفونكئوس المنايا، كما يرتشف سواهم رُضاب الثنايا.

ثم ترى رقص الآيبين من السفر، والقافلين بالنصر والظفر، بين عذارى الحيوجواريه، وسبايا العدو ومأسوريه، بإشارات تبُين أيما بيان، عن مكنون الهوى والأشجان،في صدور ملؤها الغيرة والشمم، وقلوب حشوها الشهامة والكرم، ونفوس تفزع لصولتهاالوحوش الكواسر، وتفرق من هيبتها الأسود الكواشر، لكنها تخضع لربات القدودوالنهود، خضوع العابد للمعبود، فتتفرق لديها أوزاعًا، وتطير أمامها شعاعًا،[183] إنٍّ خشيت منها بادرة صد وجفاء، أو حركة نفور وإباء، وهن يقابلن حركات التذللوالتزلف بحركات التدلل والتعفف، ويجزين على التولع بالترفع والتمنع، ويبدين لطيفالتجني ببديع التثنِّ ي،ٍ ويغضضن من أبصارهن في جلائهن

[183] طار قلبه شعاعًا: تفرق من الخوف.

وإسفارهن، ثم يسرعن إلىالالتفاف،ءُ ويسترن ما انحسر من الأطراف؛ فيرتد طرف الواله حسيراً، وقلب الهائمكسيراً، وما أبدع الحياء في الوجه الجميل، كماء الفرند في السيف الصقيل، إذا عارضحياء الشجاعة في الفارس المغوار،ءٍ فل غربه عن ربة الحجل والسوار، وكأنما الشجاعمنهم في يد الغادة لا يفتأ ينشد قول أبي عبادة:

نحن قومٌ تذُيبِنا الأعيِن النُّ جـ لـُ على أننِا نُذيب الحديداطوعُ أيدي
الغرام تقتادُناَ البيـ ضُ ونقتِاد بالطعان الأسودا

ثم رأينا أشكالاً متفرعة من الرقص والحَجَلان، وأنواعًء ا متعددة من الدورانوالخطران، مما هو شائع عند عبدة الأوثان، وسائغٌ مباح في بعض الأديان، حتى يجدالمشاهد لحركة تلك الأبدان، ما يجده راكب السفينة من الهيضة والغَثيَان، وكأن الأصلفي ذلك إنهاك القوى الجسمانية لإضعاف الجواذب الشهوانية.

ثم شاهدنا بعد ذلك ما في رقص المدنية والحضارة، من الفضاحة والدعارة فتربأفواج النساء، كأسراب الظباء، لا يستر أجسامهن إلا غلالة كالقشرة، في لون البشرة،تنطبق على أعضائهن انطباق الغِرْقِئ على ترائك الرئال،[184] وتلتصق التصاق القميصِّ بأجساد الصلال،[185] فهن عاريات للناظر، كاسيات في الخاطر، فيأتين في رقصهن أشكالاًتشرح في ساطع الضياء مذاهبَ الأعصاب ومفاصل الأعضاء؛ فتارة ينَثْنَين، وطورًا ينحنين،وآونةً يدُرن على أطراف أصابعهن، غير متنقلات من مواضعهن، وفيهن من ترفع ساقهاحتى تلطم في الخد سواد الخال بذهب الخلخال،ءً وتلمس الجبين الوضاء بطرف الحذاء،ءً والنظارة من أنحاء المكان يستعذبون ويستجيدون، ويصفقون ويستعيدون، ثم ما لبثنأن عُدن بنوع آخر من أحدث الأنواع في ضروب التفنن والإبداع، فتوشحت كل واحدةمنهن بمُلاءة بيضاء، متسعة

---

184 الغرقيء: القشرة الملتزقة ببياض البيض. والتريكة: بيضة النعامة. والرئال: النعامة.

185 الصل: الحية.

الأطراف والأنحاء، إذا استدارت فيها خلتها قطعة غماماأطل منها بدر التمام، أو زفة حمائم بيضاء[186] ترفرف ظمأ حول الماء، وفي قُبالتهن

المرائي والمشاهد

مصباح الكهرباء يرسل أشعته من أعلى المكان بمختلف الأضواء والألوان، فتبدو الراقصةبانعكاسها فيها كأنها طاقة أزاهر، أو قلائد جواهر،ۚ وكأنها في سرعة تلونها واهتزازهازَبۚ دَ اللج هاجتهْ السفينة في اجتيازها، فانعكست فيها أشعة الشمس المشرقة، بألوانهاالسبعة المتفرقة، ّ َ وفي يد كل راقصة منهن عصا جرداء؛ إذا هزتها في الهواء، وقابلت بهاشعاع الكهرباء، أزهرت بأزهار من نور،ۚ وأينعت بأثمار من البلور،ۚ يخالها كل من يرى»كعنقود مُ ّ لاحيَّ ةٍ حين نوّرا«[187] لو رآها سحرة فرعون وهامان لأقروا بفضل العصا في كلزمان ومكان.

ولما توارت عن أعيننا هذه الأدوار، وانسدل عليها الستار، خرجنا ونحن في دهشوذهول، والتفت الباشا إلى »الحكيم« يخاطبه ويقول:

الباشا: أرى أن للرقص عندكم معشر الغربيين شأناً فخمًا كأنه من نفائس الفنونوطرائف الآداب، وأنه لا بأس لديكم بهذه المناظر والأشكال التي يأبى الأدب انتشارها،واشتهارها على أعين الناس بهذه الكيفية الفاضحة.

الحكيم: إن شأنه عندكم أعظم وشكله فيكم أفضح، ولا يزال كتابنا وأهل النقدمنا يعيرونكم به، ويستفظعون ذلك الشكل الذي يسمونه »رقص البطن«، وهذا المعرضالمصري هنا كل من دخل فيه وشاهد النساء المصريات حاسرات النهود عاريات البطونيحركن طياتها خرج يقطر وجهه خجلًا، وتكاد تجيش نفسه غثياناً من شناعة هذاالمنظر في عينه، فيحكم عليكم بخسة الآداب وقلة الاحتشام، ومن شاهد مواضع اللهو فيبلادكم لم يجدها حافلة بسواه، فإذا عرضتم علينا آثاركم

186 زفة: جماعة الحمام.

187 الملاحية: شجرة العنب.

في ديارنا كانت هذه الراقصاتفي أوائل ما تعرضونه، لنفاسة قدرها بينكم وجمال موضعها فيكم.

الصديق: إن الأمر على غير ما تتوهمه أيها الحكيم، فإن هذا الرقص ليس بمنتشرفي عاداتنا ولا معروف في بيوتنا، وإنما هو من عمل المواخير وبيوت الفاحشة يباشرهالعواهر فيما يباشرنه من أبواب الإثم والفجور في بيوتهن، ولم يظهرن به على الملأ فيالملاهي العامة إلا بفضل أصحاب الحانات من الأجانب الذين يرون وجوه الربح متساويةلا حطة فيها ولا نقيصة، والجمهور عندنا على استقباحه والنفور منه كما تنفرون، ولايشهده عندنا سوى أهل البطالة والخلاعة، ولا يأتيه من النساء إلا الفواجر العواهر، وكلماحاولت الحكومة، في محافظتها على الآداب، حظْره ومنعه اعترضتها امتيازات الأجانبوحريتهم الطلقة فيما يأتون ويذرُ َون، أما الرقص عندكم فهو متأصل في عاداتكم وسنةمتبعة بينكم لا يقتصر على الملاهي والأماكن العامة، ولا ينفرد به النساء دون الرجال،ولا يخلو منه بيت من بيوت السوقة ولا قصر من قصور الملوك، ولا تقام عندكم وليمةمن الولائم ولا يتم لكم احتفال في المواسم إلا والرقص ركن من أكبر أركانه ومظهر منأفخر مظاهره، والرقص عندكم من الفنون النفيسة يدرسه الرجال كما يدرسون العلوم،ويتعلمه النساء كما يتعلمن الغزل والتطريز.

الحكيم: ليس الرقص في أصله من المنكرات ولا مما يعاب شأنه كما تذهب إليه،وهو حركة طبيعية في الإنسان يقتضيها تركيب الجسد لرد الأعصاب إلى ميزانها ونظامهاعندما تلحقها خفة الطرب وهزة التأثر، وهو قديم في الفطرة، وربما تجاوز نوع الإنسانإلى بعض الحيوانات والطيور، وقلما خلت أمة من أنواعه منذ البداوة إلى اليوم، وهوينقسم إلى أربعة أنواع: نوع يستعمل في الحرب، ونوع يستعمل في الصيد، ونوع يستعملفي حكاية الهوى من طريق الإشارة والإيماء، والنوع الرابع في الشعائر الدينية، وقداعتنى بأمره كثير من أمم الحضارة الغابرة، وبلغ عند قدماء اليونانيين مرتبة عالية،وكان كبراؤهم وأمراؤهم يمتازون بإتقانه ويتباهون بالتبريز فيه، وفيهم من انقطعله واشتهر به، ولقد كان السفير بين أهل »أثينا« وبين الملك »فيلبس«

والد الإسكندرالمكدوني رجلًا اسمه »تُوستِديموس« من أكبر الأساتذة في هذا الفن، ثم إن هذا الملكنفسه تزوج براقصة معروفة اسمها »لاريسَا« وكان سقراط أبو الحكماء يهوى الرقصولا يستنكره، وكان »إيبآمينوُنداس« وهو أشهر الفلاسفة راقصًا مبرزًّا في الفن، والأمرعلى ذلك أيضًا من جهة الرقص الديني في الدولة الرومانية عند نشأتها، ثم انتشرت فيهاأنواعه انتشارًا عاما، إلى أن دخل الدين المسيحي على الوثنية الرومانية، فلم يستنكرهفي بادئ الأمر بأشكاله التي تفنن فيها الرومانيون على ما هو معهود فيهم من التناهيفي الملاذ الفاضحة في أواخر دولتهم، ثم دخل في عادات الأمم الغربية فتمسكت به ولميصدها عنه بعد ذلك استنكار الرؤساء الدينيين له تارة بعد أخرى؛ إذ كانت النفوسألفتهُ واعتادت أن لا ترى فيه عيباً أو شيناً، وإنما الذي شانه في نظركم اجتماع الرجالوالنساء عليه في حفلاتهم، وذلك ناشئ عن ارتفاع الحجاب عندنا ووجوده فيكم.

قال عيسى بن هشام: وقطع الحديث بيننا أن رأينا في طريقنا مكاناً يتزاحم عليهالناس، وعلمنا أنه أحد المرائي الشهيرة الذي قرأنا عنه فصولاً متعددة في الجرائد العالية

المرائي والمشاهد

مثل »الديبا« و»الفيجارو«، ووصفته بأن الداخل يركب فيه سفينة عظيمة تسير بهفي مياه البحر المتوسط، فتمر به على الثغور فيرى ما فيها من البنيان ويشاهد حركةالسكان، فدخلناه بعد أن دفعنا الأجرة وصعدنا السلم حيث انتهينا إلى هيئة سفينةكبيرة فركبناها، فإذا هي تميل بجانبيها كما تميل كفة الميزان بالصعود والهبوط فيحركة مثل حركة السفينة عند اضطراب الأمواج، ويحف بها من الجانبين حائط منقماش نقُشت فيه أمواج البحر وأشكال الثغور الكبيرة مثل »نابولي« و»فينسيا« وغيرهما،فتخيل للراكب عند ذلك أن السفينة تسير به في عرض الأمواج المرسومة والرسم متصلبآلة السفينة تديره بسرعة كبيرة، والسفينة في تمايلها كالأرجوحة لا تتحول عن مكانها،فلم نر في الأمر ما يسُتغرب له.

ثم زرنا بعد ذلك العدد الكثير من قسم المرائي، فرأيناها كلها على هذا النسق منالتمويه، وما برح »الصديق« يظهر التذمر لشدة الفرق بين ما رآه من هذه المناظرالتافهة وبين ما انتشر عنها في أنحاء العالم من المبالغة في الوصف والغلو في البيان، ولميخالفه »الحكيم« في ذلك، وإنما أشار علينا بأن نزور المنظر الوحيد الذي أعجبه حسنهمن قسم المرائي كله، وهو منظر القرية التي أقامها أهل سويسرا في المعرض يمثلونبها جبالهم وأنهارهم ومعيشة الأهالي فيها على حالة الفطرة،ً ولما دخلناها تملكنا الطربوتولانا الابتهاج من جلاء المنظر وبهاء الهيئة، وشاهدنا الجبال شامخة تسيل من قممهاالسيول إلى قرار الوادي، فتتشعب منها الجداول والأنهار وتتخلل البيوت والجدران،وشاهدنا هناك الأبقار المشهورة في تلك البلاد واقفة على مذاودها ومن حولها الولائدوالجواري تتألق فيهن نضرة الشباب، وتبرق أسرتهن سن البداوة.

حُسن الحضارة مجلوب بتطرية   وفي البداوة حسن غير مجلوب

وهن يحتلبن ألبانها في قُعُوب من البلور، ويقدمنها برغوتها لمن يرغب في استقائهامن الزائرين، ورأينا الرجال في حوانيتهم يملئون العين حسناً وبهاءًً واقفين وقفة التأدبيعرضون ما طاب وحلا من أثمار بلادهم وأزهار جبالهم، ولقد علمنا أنهم أقاموا فيتشييدها ثلاث سنوات، وأنفقوا عليها ثلاثين مليوناً من الفرنكات، فأعجبنا المقام وقضيناهناك زمناً نتناقل ونتفاكه، ونتذاكر في حديثنا فضل المعيشة الطبيعية في سذاجتها، علىالمعيشة المدنية في تصنعها وكلفتها.

الافتراء على الوطن

قال عيسى بن هشام: وفيما نحن ندور بين أقسام المعروض ونجول؛ إذ سمعنا صوتمزمار وطبول، ًفهاج منا الذكرى والشجن، وأذكى فينا الحنين إلى الوطن، حنين أنضاءالنُّ وق[188] بلامعات البروق، تنبعث من أفق بلادها، وتنازعها الأشواق في أغوارها وأنجادها.فشخصت إليه الأحداق، ومالت نحوه الأعناق، فقصدنا منبعه، وأممنا مطلعه، عسانا نجدعنده من آثار مصر فضلًا، ومن أشكال بلادنا شكلًا، يملأ العين جمالاً، والصدر جلالاً،ويؤنسنا في وحشة الفراق، بما يخفف من لواعج الأشواق، ويكون لنا في المعرض موضعًاللفخر والمباهاة، في باب المسابقة والمباراة، فوجدنا أخلاطً ًا من الزمَر والجماهير، حولالطبول والمزامير.

ورأينا في وسطهم رجلًاٍيعلوهم فظا في هيئته،ٍكظا في طلعته.[189] لو استزاد منالغلاظة لم يجد له من مزيد، كأنه جلمود صخر أو قطعة جليد، بوجه تثور منه السماجةثوران العجاجة،»وطربوش« ٍ عليه طوق مثل الدهن من العَرَق والوضر، لو لَ ًج فيه شعاعالشمس لاحتدم واستعر، وهو ي ُعَج مثل عجيج الإبل في الفلوات، ويصيح بصوت من أنكرالأصوات، دُونهَ صوت الحُمُر الناهقة، أو الرعد بالصاعقة، وفي يده مروحة يتزود بهاهواء للتنفس، خشية الاختناق من التهيُّ ج والتحمس، وهو يتمايل عجباً واختيالاً، ويذهبفي الحلقة يميناً وشمالاً، منادياً في الجمع بألفاظ مكروهة في السمع، ترغيباً للرائحوالغادي في دخول ذلك النادي؛ ليروا من أسباب الأنس، ومستمتعَ الحواس الخمس، ما

188 أنضاء: جمع نضو وهو المتعب المنهوك.

189 رجل كظ: عسر متشدد.

ينفي بلابل الصدور، وي ِجُلي بواعث السرور، من كل منظر ليس له نظير، لا يحيط بهالتخمين والتقدير، مما بذَّ ث به مصرُ سائر الأمم، وحلت به في الفخر محل الذُّرا والقمم،ولا غرو فهي لا تزال في مضمارها منذ القدم، عالية الكعب راسخة القدم، وأن هذهفرصة سانحة لا بد أن تلُتمَس، وخلسة من الدهر يعقبها الندم إن لم تختلس، فمنلم يبادر إليها فقد أساء الاختيار، وأوقع نفسه في الخسار، ولم يقف من المعرض علىموضع حسنه وجماله، بعد أن يفقد النفيسين من وقته وماله، ومن لم يشاهد صنعة»زُهرة« و»معتوقة«، لم يشاهد في الدهر معشوقة ولا مموقة، ولم يحصل إلا على الخيبة،في السفر والأوبة، فدخلنا نستكشف الأثر، ونستشف الخبر، فتلقانا بالباب رجل حسنالثوب والعمامة، في زي أهل التشيُّخ والإمامة، مشغول اللسان بالترحيب واليد بالتسبيحَّ كأنه إمام مصلى أو سادن ضريح، لولا أن تأملته فعرفته رجلًا من ذوي الرتب بينالتجار، مشهورًا بتجارة الطيب والأعطار.

ذئبٌ تراه مص ِلّيًا فإذا مررت به
ركعيدعو وج ُل دعائه ما للفِريسة لا تقِع

فهنَّ أنا بالسلامة، وبالغ في الحفاوة والكرامة، وتقدم بنا إلى ساحة من ساحاتاللهو واللعب، و»مرسح« من مراسح الرقص والطرب، وانكشف لأعيننا الستر عن بناتالفجور والعهر، فأخذن في »رقص البطن« بتلك الحركات الشنيعة، والأشكال الفظيعة،حتى تخيلنا أننا عدنا إلى أدوار تلك المدة، في مصاحبة »الخليع« و»العمدة«، فلوينا أعناقنانحو الباب، ونحن في حزن واكتئاب، وخرجنا نستر وجوهنا بأيدينا خجلًا، وتمنينا أنلا ننسب إلى بلادنا أصلًا، لنخلص من وصمة هذا العار، وما يجره علينا من الازدراءوالاحتقار، ورجعنا مهرولين ابتعادًا عن هذا »المعرض المصري« وما يحويه، من مثل هذاالمشهد المعيب والمنظر الكريه،

وأقسمنا على أن لا نمر من هذه الناحية مرة ثانية، فأخذ»الحكيم« يهوّن علينا من وقع المصاب، ويخاطبنا في معرض العتاب:

الحكيم: لم هذا التسرع والتعجل؟ أما علمتم أن المعرض ينقسم إلى قسمين: قسمالصناعات والآثار، وقسم المشاهد والمرائي، وقد رأيتم من »المعرض المصري« القسمالثاني فدعوه إلى سوء أدبه وقبح أثره، ولا يمنعنا ذلك من زيارة القسم الأول منه الذيهو قسم الجد والعمل، ولعلنا نجد فيه من محاسن الأعمال والآثار ما يصرف عنكم هذاالذي اعتراكم من الهم والكدر.

الافتراء على الوطن

الباشا: ما أظن هذا القسم إلا عنواناً للقسم الآخر، ومن أساء الاختيار في قسمالمشاهدات، فجدير به أن لا يحسن الاختيار في قسم الصناعات، ومن بلغ به الانحطاط فيانتخاب مشاهد بلاده ومرائيها إلى عرض بطون النساء وفحش العاهرات للرائح والغاديمن أطراف المسكونة في هذا المعرض، فلا يُرجَى منه حسن الاختيار في آثار البلاد وأعمال
صُنَّ اعها.

الصديق: لقد أعمى الطمع في الربح مثل هؤلاء التجار عن قبح هذه المشاهد،وغرهم ولع السفهاء بها في مصر فحسدوا عليها أصحاب الحانات، ولم يكن من اللائقبهم أن يزاحموهم فيها ببلادهم فانتهزوا هذه الفرصة للتفرد بها في بلاد الغربة، وظنواأن الغربيين يقبلون عليها إقبال الشبان في بلادهم، فيفوزون بالربح، وليس من يعيربقبيح وجهه في بلاد لا يعرفهم بها أحد، فإن فيهم مثل هذا التاجر الوجيه ذي الرتبةِّ الثانية الذي لو دعوته لرؤية الرقص في مصر لغطى وجهه بجُبته، ولوى عنقه يستعيذويستغفر من الإثم الذي ينهاه عنه دينه وأدبه، ولكن جاء الأمر على خلاف ما قدروهفلم ينالوا ربحًا ولم يستروا قبحًا، فإن أدب زوار المعرض على اختلاف أجناسهم ينهاهمعن مشاهدة هذه الفضائح، فلم يقبل عليها

أحد، ولم يبق لأصحابها إلا سخط المصريينعليهم جزاء تعيير الأمم لنا بسوء رأيهم وقبح اختيارهم.

قال عيسى بن هشام: ولما جاوزنا باب الملهى قليلًا انثنينا إلى القسم الأول من هذاالمعرض المصري مطاوعة لرأي صاحبنا، فوجدنا بناءًً مشيدًا مثل أبنية الجوامع والمساجديفاجئك مَدخله بحانة للخمر ذات اليمين تتخطر فيها شمطاءُ من عجائز باريس ومنحولها بناتها وحفدتها، وعن ذات الشمال رجل معمم قد جلس متربعًا، عريق في القبحوالدمامة تنطبق عليه القبعة دون العمامة، وأمامه منضدة عليها دواة وقرطاس، وقدالتف عليه جماعة من أجناس الناس، يتقدم إليه الواحد بعد الآخر فينقده بعض الدراهمفيسأله عن اسمه واسم أبيه وأمه، ثم يخط له بالعربية في ورقة معصفرة مزعفرة بعضالدعوات الصالحات، وسمعنا بعض النظارة من الغربيين يقولون في انكبابهم عليه: هلمإلى شيخ المسلمين ليكتب لنا شيئاً من »قرآن محمد«، فَحَزَبنا الأمر وانتظرنا قليلًا حتانفض الجمع عنه، وأقبلنا عليه نسائله فانفضح لنا أمره عن لهجة سورية، فزجرناهقيامًا بواجب الدين الإسلامي الذي ينكر مثل هذه البدع السافلة على أبنائه، فأخبرنا أنهاستأجر هذا المكان من »شركة المعرض المصري« للارتزاق بهذه الوسيلة التي دفعتهإليها ضرورة العيش، فتركناه وتوغلنا في داخل المكان، وإذا برجل آخر معمم ومن حوله

ُّ صبيان في أزياء المصريين التفوا حلقة على الأرض كحلقة أولاد الكتاب حول الفقيه، وهويقرئهم آيات الكتاب بصوت عال، ويروضهم على اهتزاز الجسم في أثناء التلاوة، وفي يدهقطعة من جريد النخل يهددهم بها ويؤُدبهم، والجمع من حولهم يسخرون ويضحكونمن شكل التدريس في مصر، وتعليم الدين بين المسلمين، ولما سألنا هذا الفقيه عن أمرهأيضًا وما فيه من المنكر تبين لنا أنه رجل مسلم من عامة المصريين اجتلبه أعضاء الشركةمع صبيانه؛ ليمثلوا به هذا المنظر، ولم يستنكروه

وفيهم بضعة من صلحاء المسلمين، وأن طمع الربح سهل عليهم هذا الموقف، فكان إنكارنا لأمر هذا المسلم المتعبد، أعظم من
ِّ إنكارنا لحال ذلك المسيحي المتصيِّ د.

ولما توسطنا ساحة البناء وجدنا بها سوقًا تشبه أسواق الموالد وحوانيتها، فعناليمين بائع »لب وحمص« و»فول وترمس«، وعن الشمال بائع »عرقسوس وسحلب،«وفي هذا الجانب بائع »حراير شامية«، وفي الجانب الآخر بائع »حلوى استامبولية«ومن دونهما بائع »أحذية صفراء وطرابيش حمراء«، ولما استخبرنا: أهذه كلها آثارمصر والمصريين؟ قالوا: نعم ويزيد عليها »معروضات المصنوعات والمزروعات« في داخلهذا المكان، وأشاروا إليه، فدخلناه فإذا هو مكان متسع على شكل معابد القدماء منالمصريين، ووجدنا حوانيته أشبه شيء بحوانيت العطارين انتقلوا منها إلى سواها، وتركوافي أنحائها وزواياها بقايا من صنوف تجارتهم، فهنا صرة فيها بذرة قطن، وهناك قطعةبها حبوب حلبة وذرة، وفي صدر المكان صُوان[190] من زجاجة به كسوة مطرزة بالذهب ممايلبسه العداءون »القمشجية« أمام الخيول بمصر، فانقلبنا خارجين من »قسم المزروعاتوالمصنوعات« على حال من الغم والحزن أشد وأدهى من الحال التي خرجنا عليها منملعب المغنيات والراقصات.

وفزعنا إلى الهرب من هذا المعرض المصريّ وسيئاته، فعارضنا أحد المروجين له،واستحلفنا ألا نتركه من غير أن نشاهد أعجوبة العجائب فيه، فطاوعناه فدخل بناً غرفة محجبة وانكشف لنا الستار عن فتاة مقطوعة الذراعين تغزل برجليها، وتستعملهااستعمال اليدين في كثير من الشئون، فخرجنا لا نلتفت وراءنا وقد حان وقت الغروبحتى صرنا في الشارع، فرأينا مثل القطيع من النساء المصريات وبأيديهن الدفوف

الافتراء على الوطن

[190] صوان: هو المعروف في العامية بالدولاب.

والشموع وفي وسطهن امرأة عليها زينة العرائس، وهن يُنْشدن حولها أناشيد الأعراس فيزفاف المصريات، فعجبنا من تركهن لمكان اللعب والرقص إلى خارجه في وسط الشارع،وبينا نحن كذلك؛ إذ بصر »الصديق« بأحد المصريين من أصحابه، فاستوقفه يطارحهالحديث عن خبث ما رأى وسمع، وينعى على المصريين سوء سمعتهم بين الأمم بهذا»المعرض المصريّ«:

الصديق: ألا تخبرني عن سر هذا التفضح، فإنهم لم يكفهم ما يدور في داخلالمعرض من كل مخجل معيب حتى انتشروا به في الشوارع على نحو ما تراه، لو قلنا: إنجماعة من أعداء المصريين تألبوا على النكاية بهم؛ ليظهروهم بأسوأ المظاهر بين الأممفانتهزوا هذه الفرصة لتنفيذ مكيدتهم لَمَا أخطأنا الصواب.

المصري: ليس الأمر كما ذهبت إليه، وإنما دفع أهل الشركة الشره والطمعُ،واستجلاب الربح بكل سبيل كما تراه في تسيير موكب الزفاف في أنحاء الشوارع للإعلانوالترغيب في زيارة المعرض بقطع النظر عما يجلبه من العار على أهل مصر جميعًا،ولكن الذي يقف على حقيقة هذا المعرض وتأليف شركته لا يلبث أن يهون عليه الأمرشيئاً ما؛ لأنه لا ينتسب للمصريين بنسبة رسمية، فقد امتنعت الحكومة المصرية عنإجابة الدعوة التي أرسلتها الحكومة الفرنسية إليها، ولم تشترك فيه رسميًّا، كما أعلنتهالجرائد، وليست شركة المعرض بالشركة المصرية؛ لأن الجانب الأعظم فيها من الشرقيينالمقيمين بمصر مع بعض من لا خلاق لهم من المصريين.

الصديق: وهل تظن أنهم يربحون الشيء الكثير من هذا المعرض، وهو على ما تراهمن حال الكساد والبوار؟

المصري: ما أظن الربح على هذه الحال بميسور، ولكن الشركة لا تخسر شيئاًوإنما الخسارة على الذين اكتتبوا فيها، وهم يقدرون الخسارة إلى اليوم بثمانين ألففرنك، وعسى أن يستمروا على هذه الخسارة عبرة لهم وتأديباً؛ حتى لا يقدموا مرة أخرىعلى مثل هذه المشروعات التي لا يسلمون فيها من الخسارة، ولا يسلم المصري فيها منوصمة العار.

قال عيسى بن هشام: ً وزودَناَ الرجل بالتحية والسلام، بعد أن خفف علينا بعض مابنا من الآلام.

خبز المدنية

قال عيسى بن هشام: وانتهى بنا التجوال في المعرض إلى »أقسام الدول«، فرأينا فيهامن مفاخر الأواخر ومآثر الأول، ما يشهد لهن بالعلو والارتقاء في أبواب الإبداع والإنشاء،وقد تبارين في ميدان المناضلة، وتسامين في مضمار المفاضلة، بما لا يشُق لهن فيه غبار،وتقصر دونه الأنباء والأخبار، وكانت الدولة الألمانية من بينهن أسبقهن قدمًا، وأرفعنعلمًا وأعز مكاناً، وأعظم شأناً، كأنها لم تقنع بالسبق عليهن في ميادين الحرب والطعان،فأرادت أن تسبقهن أيضًا في حلبة العلوم والعرفان، وأن تبذهن في حالتي الحرب والسلم،بشدة البأس وقوة العلم.

وبينا نحن نمتع النظر بحسن الصنع، وجمال الوضع؛ إذ شعرنا بضجة والناسُ يتقاذفون بعضهم على بعض كالبحر اللجي،ًّفي الليل الدجوجي[191] قد ركبوا رءوسهم منشدة الفزع، وطارت عقولهم من الهلع والجزع، وانتشر بينهم الصراخ والصياح، واشتدفيهم العويل والنواح.

فسألنا عن الخبر فقيل لنا: إن القنطرة القائمة على رأس المعرض هَوَت بمن فوقهاعلى من تحتها، فتوجهنا ناحيتها، فوجدنا من المنظر الشنيع ما تنقبض له النفوسوتذرف العيون، فمن جثث هامدة وأجسادٍ دامية؛ ما بين فتاة وصبي وشاب وكهل منزوار المعرض يزيدون على المائة، والدماء تجري كالسيل والناس يترامون على الأرض؛ليتعرفوا بمن عسى أن يكون بين المصابين من أقربائهم وأصدقائهم، وما فيهم إلا كل

حديث عيسى بن هشام

---

[191] الدجوجي: المظلم.

متوقع للمصيبة ومترقب للمكروه، فالبكاء شامل والأنين عام، والأطباء يضمدون ورجالالصحة يحملون.

واشتد علينا الحال باشتداد الهول، وتكاثر الزحام فضاق علينا التنفس كما ضاقتالنفس عن احتمال هذا المشهد الفظيع، فجذبني »الباشا« إليه لنخرج من هذا المأزق،فأسرعنا إلى مطاوعته وسار بنا وهو يقول:

الباشا: تالله ما يفي كل ما رأيناه في هذا المعرض من بهجة وسناء في ترويح النفسبمقدار ما اعترانا من الضيق والكرب أمام هذا الموقف الهائل، حتى لقد تخيلت أننيأشاهد يومًا من أيام الحرب تتمزق فيها الأعضاء وتتناثر الأشلاء.

الصديق: صدقت ويزيد على ذلك أن هول الوقائع الحربية قد يكون أقل في النفسوقعًا؛ لأن للحروب رجالاً استعدوا لها واستأنسوا بها وغلظت أكبادهم، ولست ترى منحولهم مثل هؤلاء الصبية والأطفال وهاته النسوة اللواتي رقق النعيم أديمهن،ً ورفهَالرغد أجسادهن، يفزعن من مس الإبرة، ويذعرن من لمس الوبرة، فأصبحت الأوصالممزقة تحت الردم والأعضاء، مدكوكة في الأنقاض، وهكذا صارت وقائع المدنية في سلمهاأشد من الوقائع في حربها.

الباشا: لقد آن لنا أن نغادر هذا المعرض ولا نعود إليه مرة أخرى، فقد قطعناهطولاً وعرضًا واستوفيناه بحثاً وتدقيقًا، وبدأ فينا الملل من طول التردد عليه.

الحكيم: إن كنتم عقدتم العزم على الانتهاء من زيارات المعرض بعد اليوم، فلايفوتنكم أن تختموها فيه برؤية العجيبة التي هي في الحقيقة أم العجائب، ومصدر هذهالطرائف والغرائب، والأصل الذي تتفرع منه الفنون والصنائع، والمنبع الذي تسيل منهمظاهر المدنية، والمطلع الذي تشرق منه شمس الرفاهة والحضارة.

قال عيسى بن هشام: فشوقنا بكلامه إلى متابعته، وسرنا وراءه إلى حيث يريد،فانتهى بنا إلى بناء فخم من أبنية المعرض لم يكن وصلنا إليه من قبل، ولما دخلناه وقفبنا عند فوهة هاوية عميقة مظلمة يضطرب البصر عند رؤيتها، وتختلج

النفس منهيئتها، فدعانا للنزول فيها ودفعنا لركوب آلة هناك للهبوط والصعود كأعظم ما يكونِّ من الدلاء، فهوت بنا إلى قرار بئر عميق، وجُبّ سحيق، فتولاني من الهلع والذهول ماأنساني كل شيء في ذاكرتي مما يحفظه أهل الدنيا إلا ثلاثة أبيات، لم يبُق لي سواها ماأنا فيه من هذا الانحدار والهُوِي في ظلمات بعضها فوق بعض، قالها الفرزدق لما تعلقبحبال الغواني من أعلى الجدران، فرارًا من صولة الثائر والغَيران:

خبز المدنية

فلما استوت رجلاي في الأرض أح ّّ ي ي رج ى أم قت ي لٌ
نادَتا ن ح اذره
فقلت: ارفعوا الأسباب لا يشعروا ووَّل ي ت ف ي أع ج از ل ي لٍ
بنا أب ادره
هم ا ّّ دلت ان ي م ن ثم كما انقَّض باز أقتم الريش كاسره
ان ي ن ق ام ةً

ولولا أن حسن العشرة وطول الخلطة مكن الثقة من نفوسنا بالحكيم الفرنسي،لقلنا: إنه كاد لنا وأراد أن يجدد في عصرنا الحاضر ما فعله أبناء يعقوب بأخيهم فيعصرهم الغابر، ولما أفقنا من الإغماء في بطن الأرض سألناه أين نحن من الآخرة، أوفي أي طبقة من الطباق السبع، فعلمنا أننا في مكان صوروه على نمط معادن الفحمالحجريّ تحت الأرض، وكيف يستخرجه العمال في غياهب الجب، فأخذنا نحدق العيونفي حنادس الظلماء عسانا نبصر شيئاً، فتمثل أمامنا العمال يدأبون في عملهم على ضوءسراج معقود بناحية كل عامل، كأنه نار الحُباحب تنقدح بين الأشجار في ظلمات الليالبهيم، وأنَّ ى لأضواء السرج الكهربائية أن تشق عباب هذا الظلام الدامس، وهو يكاد منتكاثفه يمُسك باليد ويقبض بالراحة، وحسبك أنها لا تفيد في كشف الظلام وإضاءته،وإنما تزيد في بيانه وإراءته، ثم خطونا قليلًا وعثرنا كثيراً، فرأينا من السرادب والكهوفومن الأخاديد[192] ما تضل فيه الصلال بالتوائها

[192] الأخاديد: جمع أخدود وهو الحفرة العميقة.

وتنكمش دون انسيابها، ونظرنا في كلفجوة أشباحًا يتشكلون بأجسامهم على كل أشكال الصراع الذي يتفنن فيها المصارعونللتمكن من العمل في ثنايا الفجوات والمنعطفات، وفي أيديهم ما ثقل ودق من أدواتالقطع والحفر وأخشاب الإسناد يقيمون بها ما يريد أن ينقض من جدران المغائروالكهوف، فمنهم الواقف في عمله على أصابعه والمضطجع على جنبه والجاثي على ركبتيهوالمنكب على وجهه، والمياه تسيل عليهم من الثنايا والشقوق، هذا بعض ما تقاسيهالأجسام من المتاعب والمشاق، والله العليم بما يدور في القلوب والرءوس من توقع الخطر،وترقب الهلاك بما شئت من أنواعه المتعددة انهيالاً واندفاقًا، وانفجارًا وانبثاقًا، وغرقًاواحتراقًا، وارتدامًا واختناقًا، وهمهم الأكبر أن يراقبوا ما على نواصيهم من السرج خشيةً أن تصاب برضة تنثلم فيها ثلمة، فتتصل بغاز الفحم المتسرب في المعدن تسرب الهواء،فتميد الجدران وتندك الأحجار وتخسف بهم الأرض.

حديث عيسى بن هشام

واهتدينا آخر الأمر إلى منفذ فخرجنا منه، وتركناهم يعملون في ظلمات ثلاث بعضهافوق بعض:

فالفحم ظلام جامد، والظلام فحم سائل، وعيشهم أسود حالك، وكفانا الله شر المهالك.

ثم درنا قليلًا في »معدن الذهب« بعد أن انتهينا إليه من »معدن الفحم«، فلم نجدأرباب العمل فيه أسعد حالاً، ولا متاعبه أهون احتمالاً، لا نصيب لهم من الأصفر الرنان،مما يجلو عنهم صدأ الكروب والأحزان، سوى أنهم صُفر الأيدي من الفضة والذهب،صفر الوجوه من النصب والتعب.

والعيس أقتل ما يكون لها الصدى   والماء فوق ظهورها محمول

وكادت الرطوبة في المعدن تعقد دماءنا في مجاريها، فأسرعنا إلى مكان الصعودفانتشرنا من بطن الأرض إلى ظهرها، وأقمنا هنيهة نعالج بأيدينا غشاوة

الظلماء عنالأبصار، عند مفاجأة ضوء النهار، وسرنا نتمتع بفضاء الأرض لا ننطق حرفًا ولا نحسنخطاباً، وإذا بصاحبنا »الحكيم« يستوقف أنظارنا إلى »مسبك المدافع« الذي يمثل أعظمالمسابك في فرنسا ت ۦطُل منه أعظم أسطوانة للمدفع في العالم، ويخاطبنا بقوله:

الحكيم: وهذا هو الثالث من أمهات المدنية وأقانيم الحضارة، فقد رأيتم الأقنومالأول وهو الفحم،[193] والأقنوم الثاني وهو الذهب، وهذا الأقنوم الثالث وهو الحديد.

الصديق: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾.

الحكيم: نعم إنهم يستخرجون الذهب ليشتروا به الفحم؛ ليصهروا به الحديد،فيصنعوا منه ما شاءوا من آلات السلاح وأدوات الصناعة، فيخرجوا للناس ما تشاهدونهمن عجائب الصنع، وإن كل ما ترونه مما يبهر الأنظار ويستهوي القلوب راجع في الأصلإلى ذلك الفحم الأسود الذي هو اليوم الخبز الثاني للإنسان في عالم المدنية، منه نعيمهاورفاهتها، وبه بأسها وقوتها، تبًّا للإنسان فما أعق عمله وأقبح صنعه! يهوي بالملايينمن العمال إلى أسفل طبقات الأرض، فيخربون باطنها ليستخرجوا منه ما يخربون به

ظاهرها، وتعسًا له يزعم أنه يعمل لسعادة الحياة وراحة العيش، وهو يقضي عمرهفي الشقاء والبلاء حتى يأتيه حمامه، فيخرج من الدنيا باكياً كما دخلها باكياً، بعد أنقضى فيها لحظة العمر على حال تفضُلها حال الحيوانات والحشرات، وهو بزعمه أفضلالمخلوقات!

الباشا: كم يكون عدد العمال الذين يستخرجون الفحم في فرنسا، وما مقدار أجرةالعامل في اليوم؟

[193] الأقنوم: الأصل.

الحكيم: يشتغل في معادن الفحم مائة ألف عامل، ويبلغ ما يستخرجونه منه سبعةوعشرين مليوناً من الأطنان تباع بمائتين وستين مليوناً من الفرنكات، ويعمل العاملمنهم في جوف الأرض على عمق المئات من الأمتار، وفي وسط الأخطار التي لا تقل حوادثهافي العام عن ألف وخمسمائة حادثة، فتذهب بالعدد الجم من القتلى والجرحى، هذا غيرما يصيب العمال من الأدواء الصدرية والأمراض الرئوية لاستنشاق »الكربون« وفاسدالهواء، ومنهم من يشتغل بالليل ومنهم من يشتغل بالنهار، ومعهم أولادهم ونساؤهم،كل هذا بأجرة تختلف من اثنين إلى خمسة فرنكات في اليوم!

الباشا: وأين تذهب هذه المئات من الملايين من أثمان الفحم التي هي ثمرة كدهمونتيجة تعبهم؟

الحكيم: تذهب إلى فئة معيَّ نة من أرباب الشركات والامتيازات، فينفقونها علىشهواتهم أو يدخرونها في صناديقهم، ولا تظنن أن هذه الفرنكات التي يأخذها العاملأجرًا له في اليوم تصل إلى يده، فإن أكثر الشركات تبتني بيوت السكنى للعمال في أحياءبجوار المعدن، وتقيم بجانبها الأسواق، فيشتغل العامل في معدن الشركة، ويسكن في بيتالشركة، ويشتري طعامه ولباسه من سوق الشركة، والشركة تحسبه عليه من أجرته،فإذا خرج آخر الشهر لا عليه ولا له كان رضيّ الحال، رخيّ البال!

الصديق: من هنا نشأت المذاهب الاشتراكية ونحوها، فإنه كيف يصبر الإنسان علىهذه الحال يعمل عمل الحشرات في باطن الغبراء؛ ليغني المقعدين في قصور العز والهناء.قال عيسى بن هشام: ووصلنا في مسيرنا إلى البرج الشهير، برج »إيفل« المهندسالقدير، فأسندنا إليه ظهورنا نتفكر في أعمال الإنسان، وما يأتيه من فنون الجنون فيكل زمان، وهو يدعي أنه المخلوق الكامل، والحكيم العاقل.

المعجزة الثامنة

قال عيسى بن هشام: ووقفنا نشاهد ذلك البرج المنيع، والعماد الرفيع، فهالتنا رفعته،وأدهشتنا صنعته، فهو في باب المشاهدة الفريدةُ العصماء، والغرة الشهباء، والهضبةالعلياء، والقُلة الشماء، أعجوبة الصنائع وضعًا وإتقانا، وبكر هذا المعرض وإن كان فيهعوانا،[194] تنحني أمامه الآطام والآكام،[195] وتخر له الربا والأعلام، فأين من ارتفاعه الهرمان،ومن علوه صرح هامان، لما أمره فرعون بقوله في كفره وعناده، وجحوده وإلحاده: ﴿يَاهَامَانُ ابنِ ْ لِي صَرْحًّ ا لعَ ِلِي أبَلْغُُ الأْسْ َبَابَ * أسْ َبَابَ السمَاوَاتِ فَأ َطَلِعَ إلِىٰ إلِ َهِ مُوسَىٰ وَإنِّ ِ يلأَظُ َنُّ هُ كَاذِباً.﴾

ولو رآه فرعون لهدم ما شاد وأعلى، ولم يقل: أنا ربكم الأعلى، ولأنحى على هامانهفَجَلَدَه ألفًا، وعلقه على الجذع شنفا،[196] وأين »برج بابل« من برج يشافه بروج السماء، ويشارف الشعرى الغُميصاء، إذا حوم عليه نسر الجو صار ثالث النَّسرين، واتخذ وكرهفي منازل الفرقدين، وأنَّ ى لخيال الشاعر أن يعلو في وصفه علوه، ويسمو سموه، لا جرمأنه يضيق عليه نطاق الوصف، فيلجأ إلى تشبيه الأكبر بالأصغر، والأعظم بالأحقر، كماشبَّ هوا شمس النهار بكأس العقار، والثريا بعنقود، والجوزاء بعود، ودراري النجومبالودع المنظوم، والليل الدجوجي بالعبد الزنجي، والأشفاق بالدم المهراق، فلعله يقولإذًا: إنه ألف الهجاء، في كتاب التقدم والارتقاء، همزتهُ رايته التي تخفق في صفحة الأفق،أو أول العدد المرقوم، في جدول الفنون والعلوم، أو الإبرة التي تغْرَز في خريطة الكرةالأرضية، لتعيين مواضع المدنية، أو هو

---

[194] العوان: بعد البكر.

[195] الآطام: الحصون.

[196] الشنف: القرط.

القلم الذي يخط في أديم البدر، ما بلغتهُ أممالغرب من علوّ الشأن والقدر، أو هو قرن الثور في زعم البعض، نفذ إلى ظهر الأرض.

ولما فرغنا من الطواف حوله مرارًا، وامتلأت له نفوسنا إعظامًا وإكبارًا، سمعنا»الصديق« ٍيتنهد ويصعد، ويعيد في قوله ويردد:

الصديق: هذه سنة الدهر منذ القدم وعادة الزمن في أبنائه، كلما ترقت أمة منالأمم في معارج المدنية شيدت لها أثرًا يفوق سواه من بديع الصنعة، يقوم لها شاهدًابين الورى على ما بلغته من السمو والقدرة في زمنها، ثم لا يلبث أن يمحوه الدهر منصحيفته ليقوم مقامه آخر ينتهي إلى مثل نهايته، لا يزال الدهر هكذا في محو وإثبات،ولا يزال ابن آدم عن العبر في غفلة وسُبات، اللهم إنه عمل باطل، وظل زائل.

الحكيم: لا تعلُ بنا في أفكارك علوّ البرج قبل أن نصعد فيه، ولا تشغلنا بأقوالالحكمة عن مشاهدته، ًوهلم بنا إلى الارتقاء.

قال عيسى بن هشام: ودخلنا من أحد جوانبه في غرفة للصعود، فارتفعت بنا منسطح الأرض إلى عنان السماء في لحظة كلمح بالبصر، فرست بنا في الدور الثاني منهوإذا هو سوق من أكبر الأسواق اصفطت فيه حوانيت التجار بأنواع البضائع، والحاناتبأصناف الخمور، وفي وسطه مطعم فخم يزري بمطاعم الأرض، فأخذنا مجلسنا فيبعض حافاته، وجعل »الباشا« يسأل »الحكيم« إجمالاً وتفصيلًا:

الحكيم: يرتفع هذا البرج عن سطح الأرض بثلثمائة متر، وهو من الحديد الخالص،ويبلغ وزنه تسعة ملايين كيلوجرام، وعددُ قطعه التي يتركب منها اثنا عشر ألف قطعة،والخطاطيف فيه مليونان ونصف، وله من العمر عدة سنوات، وبلغ دخله من الصاعدينفيه في أثناء المعرض الماضي سبعة ملايين فرنك، ولو تم لأهل العصور الماضية بناء مثلهلكان الثامن للآيات السبع.

الباشا: وما الآيات السبع؟الحكيم: إن ذكرها ليطول.

المعجزة الثامنة

الصديق: نحن في مجلسنا هذا، وفي علونا عن الأرض، وتفرغنا عن العالم ما يبعثناعلى جولان الفكر في تاريخ البشر للمطابقة بين أعمال الإنسان في ماضيه وحاضره، وإناختلاف العصور ومرور الدهور لم يغُير شيئ ًاً من جبلته، فهو هو على عهده في غرامهبالمعجب المدهش، يبيع نعيم الدنيا بشقائها في سبيل ذلك، ويشتغل بما لا تقضي بهَّ الحاجة لمجرد الزهو والعُجْب والتباهي والتفاخر.

الحكيم: نعم يحق لك هنا أن تذهب مذاهبك الحكيمة في تعليل أعمال البشر وطباعالخلق، ٌوأنت تنظر إلى أهل العالم السفلي من هذا العالم العُلوي، كأنهم جموع النملتغدو وتروح في سُبلُ أرزاقها، ولكن الفرق بين الجنسين أن النمل في تآزر وتعاون،والناس في تضَارُب وتقاتل، والمصير واحد والفناء شامل، وعمل النمل حق وعمل الإنسانباطل.

وإن أبيتم إلا أن أحدثكم حديث المعجزات من أعمال البشر فهي: الأهرام، والحدائقَّ المعلقة، وسور بابل، وتمثال جوبيتير، وصنم رودس، وهيكل إيفيز، ومدفن الملك مُوزُول.

أما أهرام مصر فأمره مشاهد معلوم.

وأما » ِالحدائق المعلقة« في أرض العراق فقد أقامها »بختنصر« فوق الربوة التيتعُرف الآن بربوة »عمران بن علي«، وهي في اتساع أربعين فداناً شُيدت بالبناء علىأشكال الجبال، وعقدت فيها القباب على عمد وأساطين أفرغوها وملأوها بالطين وغرسوافيها الأشجار تنساق جذورها في أصولها، وتورق في رءوسها، َووضعوا فيها الدرَجيصعد منها الصاعد إلى مثل رءوس الجبال؛ حيث تثمر الأثمار، وتزهر الأزهار، وتعشبالأعشاب، وتدور الدواليب لرفع الماء من مجرى الفرات إلى أعلى القباب،

ويقال: إن السببُ في إقامتها على هذا الشكل أن امرأة الملك كانت تحن دائمًا إلى مناظر بلادها التي نشأتفيها، فأنشأ لها الملك بالصناعة ما يعوضها به عن الطبيعة.

وأما »سور بابل« فهو عدة أسوار متداخلة بعضها في بعض يتسع محيطهاللإحاطة بسبع مدائن مثل مدينة باريس، وكان ارتفاعه ثمانية وأربعين متراً، وعرضهسبعة وعشرين متراً، ومن حوله خندق عميق، وعليه أبراج متعددة، وله مائة باب منحديد.

وأما »تمثال جوبيتير« الإله الأكبر عند اليونانيين، فقد صنعه لهم »فيدياس« النَّ حاتالشهير، وطول قامته أربعة عشر متراً وهو جالس على العرش، مكلل بورق الغار وفييمناه تمثال »إله النصر« مصنوع من الذهب الخالص وسن الفيل، وفي يسراه الصولجانَّ منضد بكرائم الأحجار، وفي طرفه نسر من الذهب، والطيلسان والحذاء من الذهب أيضًا،أما العرش فكان من الرخام وسن الفيل والأبنوس، وكان موطئ قدميه من العرشأسدين من الذهب، وقد أجاد صانعه وأتقن في تناسب الأعضاء في هذا الحجم العظيمَّ حتى عده القدماء أنفس ما في الوجود من الصنع،ٌ وكان كل يوناني يعد نفسه ناقصاالإيمان إن مات ولم يحجج إليه.

وأما »صنم رودس« فهو تمثال »أبوُ لوُنْ« إله الفنون عند اليونانيين أيضًا أقاموهتجاه المرفأ، وكان ارتفاعه اثنين وثلاثين متراً وهو أكبر ارتفاع بلغته تماثيل القدماء،وانتهى بأن أسقطته الزلازل وهشمته، ونقلت العرب كثيراً من بقاياه في القرن السابع.

وأما »هيكل إيفيز« (وهي مدينة من مدن اليونان)، فهو معبد »ديآن« إلهة الصيدوالقنص، ولم يكن له مثيل في البناء والنقش والزخرف والتصوير بين معابد القدماء علىالإطلاق، ومما يذُكر للدلالة على أنه أعظم أثر عندهم أن أحد أهل الشقاوة من المولعينبحب الشهرة، على كل حال، واسمه »إيروسطراط« بحث عن أكبر عمل يمتاز به فيالوجود، ويخلد ذكره على مدى الدهور، فاحتال لإحراق المعبد، فأكله النار، وأعلن الجانيعن نفسه أنه هو الفاعل لتلك الفعلة الشنعاء، فحكم عليه القضاة بالتعذيب حتى يموت،وأدركوا غرضه من إحراقه، فأمروا أن

يلحق به كل من ذكر اسمه، فكان ذلك داعيةانتشاره؛ لأن الناس أخذوا يهمسون به بينهم حتى اشتهر وخلد ذكره بسوء فعلته إلىاليوم، وكان حرقه في الليلة التي ولد فيها الإسكندر، فلما بلغ من الملك ما بلغه، عرضعلى أهل »إيفيز« أن يعيد لهم بناءه من ماله بشرط أن ينقشوا عليه اسمه، فأبوا ذلكحتى لا يكون لأجنبي عنهم فضل عليهم في معبدهم، وباشروا هم أنفسهم تجديد بنائهوزخرفته حتى تم لهم في مائتين وعشرين عامًا، وما زال قائمًا حتى جاء »نيرون« القيصرالروماني، فنهب ما فيه من الذخائر والكنوز، ونقل الفسيفساء من أرضه فوضعها فيقصوره بمدينة »رومية«،ًّ ثم انتهى الأمر بأن خربه »الجرمانيون« في حروبهم.

وأما »مدفن الملك موزول« فهو مدفن أقامته له امرأته (كانت أخته) بعد موتهجمعت له مهرة الصناع من سائر البقاع، وخصت كل طائفة منهم بجانب من العمل،وكان ارتفاعه اثنين وأربعين متر ٍاً وأساطينه من المرمر النقي، نقشت عليها صور الحوادثالتاريخية، وكان غطاؤه صخرة من المرمر صُ ٍورت فيه وقائعه الحربية، وبقي هذا المدفنسليمًا إلى القرن الرابع عشر، ثم اندثر أثره في القرون الوسطى، ونقل جانب من أجزائهقريباً منه لبناء قلعة »بودرون« بالأناضول في القرن السادس عشر، وبقي منه قطع

المعجزة الثامنة

من الرخام المنقوش لاصقة بأرضه إلى أواسط هذا القرن، فاشترتها إنكلترا ووضعتها فيمتحف لوندره.

الصديق: ما أشبه الليلة بالبارحة! وما أبعد ابن آدم من العبرة والتذكرة!

تراكمت القرون وشاب فود الدهر، وتغيرت الأرض واندثرت المعالم في كل زمانومكان، والإنسان هو هو لا يزال على غيه يعتقد لأعماله البقاء ولآثاره الخلود، لا فرقفي هذا الاعتقاد بين الآشوري عند برج بابل، والفرنسيّ اليوم تحت »برج إيفيل«، كلاهمايتعب ويشقى، وكلا العملين لا يدوم ولا يبقى، وما تبقى إلا الأحاديث والذكر.

كـ ُ ل بيت إلى الهدم ما تبثْـَـ ني الـ ورقاء والسيد الرفيع العمادوالفتى ظاعنٌ ٌ ويكفيه ظل السد ر ض رب الأطـ ن اب والأوت اد

الحكيم: نعم صدقت ويحضرني في هذا الباب محاورة ابتكرها أحد قدماء العلماء،وأجراها في عالم الأموات على لسان »ديوجين« الفيلسوف الزاهد القديم والملك »موزول«صاحب ذلك المدفن الشهير، وأذكر منها:

دوجين: ما لي أراك أيها الرجل الآسيوي مختالاً تياهًا في أكفانك! كأنك تريد أنتنزل هنا أيضًا بين الأموات منزلةً أشرف منزلتهم، وتحل تحت طبقات الأرض فوقهم مكاناً عليًّا.

الملك: وهل من شك في ذلك أو ارتياب! ومتى تساوت الملوك بالسوقة! وأنا أكبرالملوك ملكًا وسلطاناً، وأحسن الخلق بهاءً وجمالاً، وأعظم الفاتحين نصرةً وجلالاً، وقدكنت في الحياة أرفع ذوي التيجان عرشًا وقدرًا، وأنا اليوم في الممات أعظمهم مدفناً وقبرًا،وإن افترى مفترٍ منهم أنه كان يساويني في فخامة الملك، فقد انقطعت ألسنتهم أن يكونلهم مثل هذا القبر، فهو معجزة البشر في النقش والحفر، وآية الدهر في المجد والفخر،فما ترى بعد ذلك أيها المتقشف في الدنيا والمندثر في الآخرة أن ليس من حقي التخايلوالترفع!

ديوجين: ولكني أراك أيها الملك العظيم الجليل لم يبق لك من سلطانك وجلالكأكثر مما بقي لي، وهذه جمجمتك لا تمتاز عن جمجمتي بشيء، فكلتاهما مثقوبتا العينين،مفحورتا الأنف، بارزة الأسنان، وأما ذلك المدفن الفخم والصخور المزخرفة فوق رأسك،فلا فائدة لك اليوم منها بعد أن تساويت فيه بمن دفن في بلقع من الأرض، وإنماأصبحت فائدته للأحياء من أهل بلدكم يتباهون به على الوافدين إليه من الأقطار حيناًمن الدهر، ثم لا يلبث أن تندك أحجاره، وتزول آثاره.

الملك: ما هذا الذي أسمعه،ٍ يا رب الصواعق والرواعد! أيذهب كل ما أوتيته منأسباب العز والمجد متاعًا باطلًا، وأصبح مساوياً لديوجين فيوسعني تأنيباً وتبكيتاً؟

ديوجين: لا تقل أيها المخلوق: إنك أصبحت مساوياً لي، فشتان ما بيني وبينك،فإنك لا تنفك تتحسر على ما كان لك في الدنيا من الملك والسلطان وزخرف الحياة، وأما أنافلا يحزنني شيء ولا يكدرني الآن مكدر، ولم أترك في الحياة شيئاً آسف عليه ويوجعنيفراقه، ولئن خطر الزنبيل الذي كنت أسكنه في الدنيا على بالي يومًا لكان للاغتباط بأنمسكني الآن في بطن الأرض أوسع لي مجالاً وأحسن منزلاً، ولكن لي في قلوب أهل الدنياذكرًا حسناً، وأثرًا من الفضائل خالدًا لا تمحوه الأيام ولا يبلى ببلاء الزمن، فأين مكانكأيها المغرور من مكاني، وأين ذكرك أيها المفتون من ذكري؟الباشا: ما أحكمَ ٍ الموعظة وأجل العبرة!

الحكيم: ولو علمتم أن »المسيو إيفيل« صاحب هذا البرج العظيم قد انتهى أمرهبتهمة السرقة والاختلاس وسُجن في قضية »بناما« ِالشهيرة لاشتد بكم العجب في نتيجةهذه الآثار، وذهاب أصحابها بسوء السمعة والأخبار.

والآن فقد أحطتم بمشاهد المدينة ومناظرها في صنائعها بآلاتها وأدواتها، من بطنالأرض إلى سطح البرج، متجلية لكم في هذا المعرض بأجلى مظاهرها وأسنى مراتبها،فإن كان من عزمكم العودة متعجلين إلى بلادكم، فقد كفاكم ما شاهدتموه مما يملأالصدر مهابة والعيون حسناً، وأودعكم مع الأسف الشديد لفراقكم، فقد رأيت فيكم منحسن العشرة ولطف الخلطة وذكاء القريحة، ودقة الفكر ما لم أكن أتوسمه من قبلفي كثير من أهل الشرق، وإن كان في نيتكم الإقامة زمناً بيننا، وكان الميل فيكم شديدًالاستطلاع العالم الأدبي بعد العالم المادي في هذه الحضارة الغربية، وأحببتم الوقوفعلى ما تجري عليه أحوال الجمعية البشرية، وما تدور به المعاملات في المعايش والمرافق،وما تنطوي عليه من الأخلاق والصفات، ويتسلط عليها من الطباع والعادات، فأنا حاضرين أيديكم لمصاحبتكم ومرافقتكم، والفضل كل الفضل لكم فيما أجده من الأنس بكمولذة النفس في مباحثتكم ومناقشتكم.

قال عيسى بن هشام: فحبب إلينا البقاء بكلامه، وحمدناه على حسن صنعه وإكرامه،وصادف رأيه لدينا حسن القبول، ففضلنا الإقامة على القفول، وبهذا انتهينا من زيارةمعرض النفائس والأعلاق، لنبدأ بالنظر في معرض الأطوار والأخلاق.

من الغرب إلى الشرق

قال عيسى بن هشام: وأقمنا مع صاحبنا »الحكيم« نهتدي في سيرنا بهديه، ونستضيءبنور فكره ورأيه، ونتبعه اتباع الإبل لحاديها، والرفقة لهاديها، ونحمد القدر الذيساقه لمرافقتنا، وأنزله على موافقتنا، وقضينا معه الليالي والأيام، منذ انتهينا من المعرضالعام وكأنها حلم من الأحلام، يتنقل بنا في الأندية الحافلة، والمجالس الآهلة، ويدوربنا في اختبار الأخلاق والصفات، بين مختلف أهل الطبقات، فيعلو بنا تارة إلى مراتبِّ الخاصة والحامة،[197] ونسفل معه أخرى إلى أدنى منازل السوقة والعامة، فاليوم مع كبارالرجال والأمراء، وغدًا بين شراذم الصناع والأجراء، ثم نتحول من محادثة أرباب القصورالعالية، إلى محاورة أصحاب الأكواخ البالية، ومن منابر الوعظ والخطابة، إلى مجامعذوي الدعارة والدعابة، ومن أروقة العلماء والفضلاء، إلى أزقة الأوباش والسفهاء، ومنجمعيات العلوم والمعارف، إلى حانات المراقص والمعازف، حتى لم يبق مجتمع تخُتبرفيه الفضائل والرذائل، وتسبر فيه الطباع بين الأعالي والأسافل، إلا لدينا طرف منخبره، وعلم من أثره، باحثين في العلل والأسباب، مُ ٍستشفين لما وراء الحجاب، إلى أنأدركنا الشتاء بخيله ورجله، وجليده ووحله، ورعوده وبوارقه، وعواصفه وصواعقه،وتوارت الشمس عنا الأيام بعد الأيام، وانسدل على العالم ستر الظلام، وأصبحنا نستضيءبمصابيح الكهرباء، من الصباح إلى المساء، وانطلقت في الجو مداخن المعامل ومداخنالاصطلاء، فعقدت سحباً أخرى تحت سحب السماء.

وتدفقت السيول والأمطار، طول كل ليلة وكل نهار، حتى أغرقت الغدران والأنهار،فطغى الماء بمثل الطوفان وسال في الأودية والبلدان، وامتد نهر المدينة فوصل إلى أرضالمنازل والمساكن، وقد يعلو إلى الأدوار والأماكن، فانزوينا في الغرف

---

[197] الحامة: مرادف الخاصة.

والحجرات، نقضيبها جميع الأوقات، وكأنما نحن في العذاب نعُذب تارة بنار الاستدفاء، وتارة بزمهريرالشتاء، وأقمنا عاكفين على الحديث والسمر، بما وعيناه عن هذه المدنية من كل خبروأثر، وكان »الصديق« بيننا كعهده يرسل علينا القول إرسالاً، ويذهب في حدة انتقادهيميناً وشمالاً.

ويذكر من أسواء المدنية الغربية ما يهول السمع، ويذرف الدمع، حتَّ ى استفز »الحكيم« للرد عليه، وتهوين ما ذهب إليه:

الحكيم (للصديق): لقد أسرفت أيها »الصديق« في القول، وغاليت في الوصف وإنكان في بعضه الجانب الصحيح والحق الصريح، ولكن لهذه المدنية الكثير من المحاسنكما أن لها الكثير من المساوئ، فلا تغمطوها حقها ولا تبخسوها قدرها، وخذوا منهامعشر الشرقيين ما ينفعكم ويلتئم بكم، واتركوا ما يضركم وينافي طباعكم، واعملواعلى الاستفادة من جيل صناعاتها، وعظيم آلاتها، واتخذوا منها قوة تصُ َد عنكم أذبالطامعين، وشره المستعمرين، وانقلوا محاسن الغرب إلى الشرق، وتمسكوا بفضائلأخلاقكم وجميل عاداتكم، فأنتم بها في غنى عن التخلق بأخلاق غيركم، وتمتعوا في رخاءبلادكم، وسعة أرزاقكم، واحمدوا الله على ما آتاكم.

قال عيسى بن هشام: ولم يبق لنا ب ٌّدُ في هذه الحال، من السفر والانتقال، فاستخرناالله في العودة إلى ديارنا، والأوبة إلى أوطاننا، والحمد لله باطناً وظاهرًا، أولاً وآخرًا.

خاتمة

بدأت هذا الكتاب بخير ما يبُدأ به كتاب بعد اسم الله وذكر رسوله: رسالة الحكيم جمالالدين.

لم أرُ ◌َمْ في ذلك — علم الله — إلى التنبيه من ذكري والتنويه بقدري، وأستغفرهثم أتوب إليه أن يكون الدافع إلى نشرها هذا الغرض دون سواه، وأنا أعلم أن مثلهذه الرسائل من كبار العلماء إلى تلاميذهم إنما يكون مصدرها حث المتعلم على العلم،والإغراء بالتعمق فيه، كالطفل توضع في يده قطعة العاج المنقشة علالة يتعلل بها لتنبتأسنانه، بل كان نشرها لأنها أثر من الآثار يجب عرضه على النظار، ونفاسة بما يخطهذلك القلم الجليل في أي قصد من المقاصد، ومطلب من المطالب أن يبقى مطويًّا في أدراجالأوراق وحقه أن ينشر على سائر الآفاق.

وأختتمه على مثل هذه النية بخير ما يختم به القول بعد حمد الله رب العالمينوالصلاة والسلام على خاتم النبيين:ً هذه الرسالة التي شرفني بها مولانا الأستاذ الشيخسالم بوحاجب شيخ العلماء وصحاب الإفتاء بالمملكة التونسية بعد أن قرأ هذا الكتابفي طبعته الأولى، وناهيك بقدر هذه الرسالة بركةً ويمناً وشرفًا وجلالاً ممن يمثل لكبالفعل، ما يرُوى عن السلف الصالح بالقول، ويشهد لك بسيرته في هذه الأيام، كيفكان العالم العامل في صدر الإسلام،ٍ ويعيد لنا ذكرى البصري في الزهد والتقى، والكوفيفي الرأي والحجى،ٍ والمكي في الفقه والدين،ٍ والمدني في العلم علم اليقين، هذا إلى سعة فيِّ الاط ٍلاع وتصرف في الأفكار، ودقة في البحث واستنباط للأمور، يؤلف الغابر بالحاضرويطابق بين أحكام ما قضت به الحكمة في سالف الأوان وما تقضي به قواعد هذا الزمان.أنفق العمر ناسكاً يطلب العل م بكشف عن أصليه وانتِقاد

فهو المثال التام الذي ينشده الإسلام، منذ السنين والأعوام، من بين العلماء الأعلام؛ليعود إليه مجده ويرتد إليه حقه ويعرف بهم قدره،ًولو من الله بمن يأخذ بقدوته فيسائر الأقطار، ولو جرى العلماء على مثاله في كل مصر من الأمصار، لاستوى الأواخربالأوائل في العلم والدين، ولعاد الإسلام إلى ذلك العز القديم والنصر المبين.

وهذا نص الرسالة الكريمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أيها الجهبذ النحرير، المتصرف في أحرار الألباب، ورقيق الآداب بالاسترقاقوالتحرير، البالغ من رتب التهذيب أقاصيها، المالك من بدائع التربية نواصيها،أما بعد: تقديم التحية اللائقة بعزة تلك الحضرة المحمدية المويلحية، فقد وصلإليَّ — واصل الله في مدارج الإجادة ارتقاءكم، وأدام لحسن الإفادة إتقانكموانتقاءكم — كتابكم الجليل الذي يقوم به على تقدمكم في حلبة العرفان،وبراعة البيان، وكمال تربية الإنسان، أوضح دليل، فوالذي علم بالقلم، ومنخخير خلقه جوامع الكلم،ٍ إن لقلمكم من السحر المبين ما تخر له سحرة البيانساجدين، ًّ ٌ وإنه ليحقق اللطيفة الموسوية التي لمح لتأهلكم لها كتاب الأستاذجمال الدين، كما يتحقق ما يتفاءل به عن إسناد مروياتكم لاسم عيسى،ٍوإحياء موتى الأفكار المؤسسة على حياة من كان في اللحد رميسًا، فيا لَه من

ًِّ معلم قد علم منه كل أناس مشربهم، ووجد فيه الباحثون عن وسائل الاستقامةمأربهم، فرجال الحكم مثلًا سواء أكانوا من الأمة الإسلامية أم غيرها، يتعرفونمنه مِلاك عز الأمة ونمو خيرها، بإسناد الوظائف إلى أهل المعرفة والفضل،ٍ والضن بها عن غير الأهل، وإقامة منار العلم والعدل؛ لتدارك ما تخرب بيدالجور والجهل، والعلماء يدركون به طرق النصح في التعليم، وعدم النفرةمن الحديث لمجرد كونه لم يعهد في القديم، ومع ما يلزم لهم في اقتياد ذويالجهالة والعناد من الملاطفات، والتحذير مما يدنس الشريعة المصونة منمُختلق الخرافات، والحاكم الغاشم ينتهي بمطالعته بالكف والإعراض عن كلما يمس المروءة ويدنس الأعراض، والمنشئ يتعلم منه كيف يسحر العقولبهيمنة لفظه، ويستلب القلوب بحسن إرشاده ووعظه، وكيف ينتحل الأديب

مهارة الطبيب، فيشرح النصائح بأسلوب عجيب، لا يتطرقه إنكار أو تكذيب،وقد يجد المريض من حذق الطبيب عذوبة التعذيب، ثم يسترشد به الوالدفي تربية أبنائه، ويدعوهم إلى حفظ مجد البيت والثروة بعد فنائه، ويعينهمعلى استثمار دوحة البذور، وينقذهم مما يفُضي إليه سوء السيرة من الأسواءوالشرور.

ملأ الله أوقات الجميع بالسرور، ولا زال يرينا من أعمالكم كل أثر مشكور،وإذا كان لا يتيسر لغيركم رعاكم الله أن يصل بقلمه إلى منتهى آماله، فحسبناأن نقنع في أداء الواجب بإجماله.

هذا ما حملت عليه محاولة القيام ببعض الواجب، من متيم ودكم وأدبكم.سالم بو حاجب